يا جسي

عودة الروح

9.2.2019

رواية

ترجمة أحمد حسن المعيني

هذا الكتاب بدعم من:



عودة الروح

تأليف: يا جسي
ترجمة: أحمد حسن المعيني
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-739-5



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2019

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-9896617
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

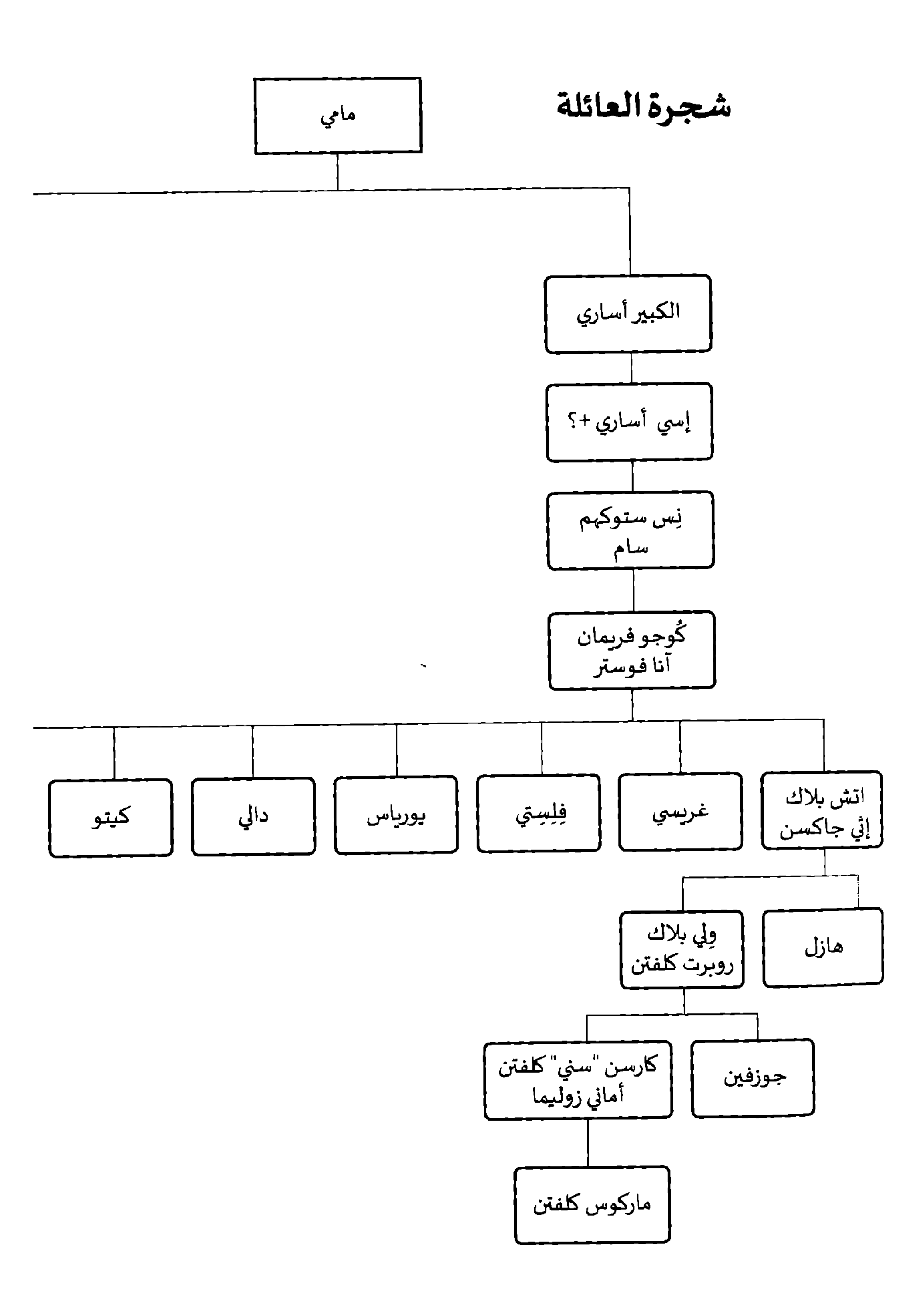
Homegoing

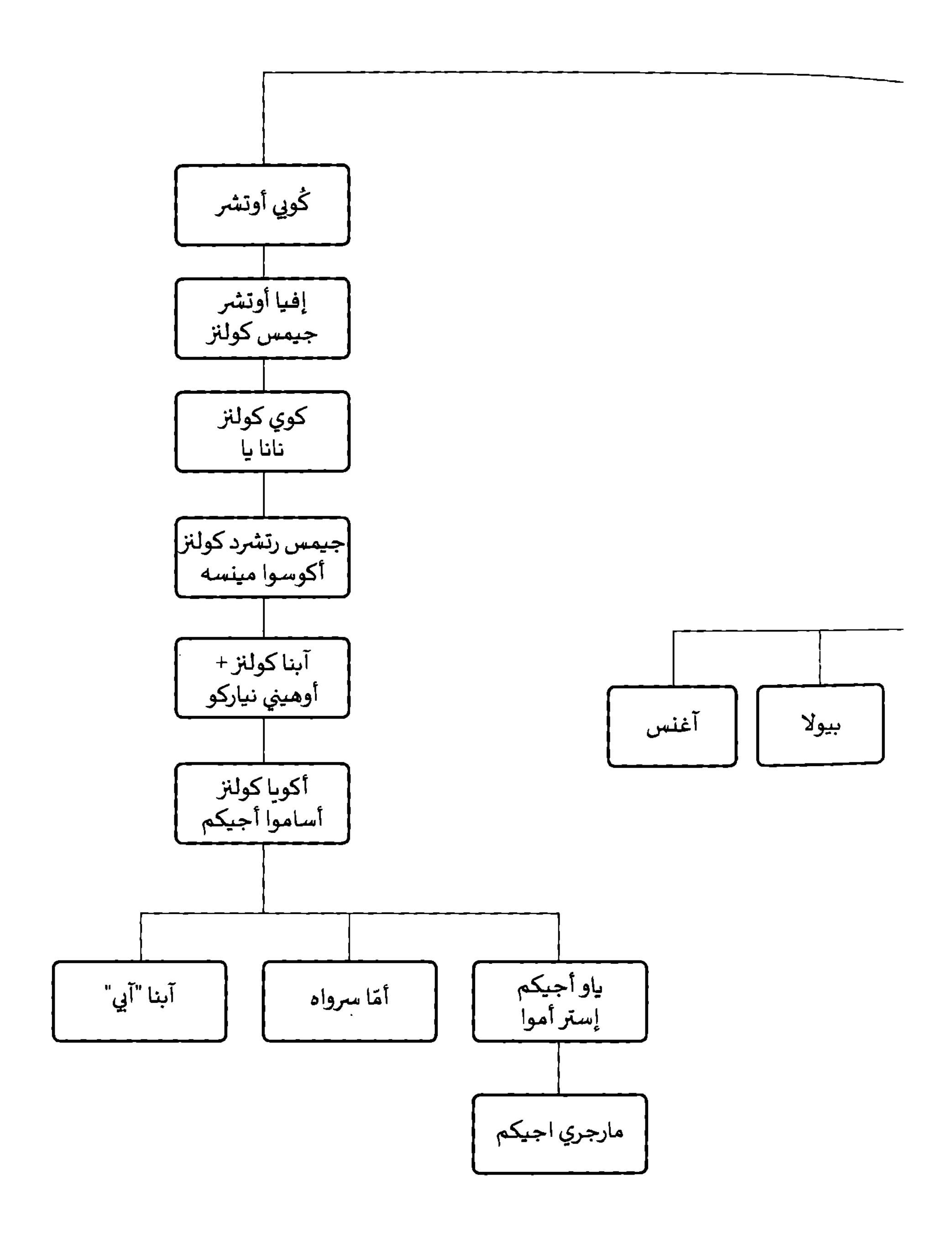


أبُوشيَا تي سيه كوايي: سي وُو وا تشيياً أُو هُون سيه إيبُم. سيه أُو بين وآ نا أُو هُون سيه نيا نو ايبيي سيسي ني بيبي نْكو.

العائلة كالغابة؛ إنْ نظرتَ إليها من الخارج وجدتَها كثيفة، وإنْ نظرتَ من داخلها رأيت أنّ لكلٍّ شجرةٍ موضعها.

- مثل من الثقافة الأكانية-


شجرة العائلة
مامي
الكبير أساري
إسي أساري +؟
نِس ستوكهم
سام
كُوجو فريمان
آنا فوستر
اتش بلاك
إثي جاكسن
غريسي
فِلِستي
يورياس
دالي
كيتو
هازل
وِلي بلاك
روبرت كلفتن
جوزفين
كارسن "سني" كلفتن
أماني زوليما
ماركوس كلفتن



كُوبي أوتشر
إفيا أوتشر
جيمس كولنز
كوي كولنز
نانا يا
جيمس رتشرد كولنز
أكوسوا مينسه
آبنا كولنز +
أوهيني نياركو
أكويا كولنز
أساموا أجيكم
آبنا "آبي"
أمّا سرواه
ياو أجيكم
إستر أموا
مارجري اجيكم
آغنس
بيولا

الجزء الأوّل

إفِيا

وُلدت (إفِيا أوتشر) في تلك الليلة الحارة نفسها التي استعرتْ فيها النيران في غابات أرض الفانتي، على مقربة من مساكن والدها. كانت النار تذرع الأمكنة، تشقّ طريقها يومًا إثر آخر، تقتات بالهواء ثم تغفو في الكهوف، تختبئ وراء الأشجار، وتأتي على كل ما يقف في طريقها، غير عابئة بما تتركه من حطام، إلى أن وصلتْ إلى قرية الأشانتي. هناك توارت وتوحّدت مع الليل الحالك.

ترك (كُوبي أوتشر) زوجته الأولى (بابا) مع مولودتها كي يتفقد الخراب الذي حل بياماته، اليام ذلك المحصول الثمين الذي يسدّ به الناس رمقهم في كل مكان. سبع يامات خسرها، وكل خسارة أشبه ما تكون بطعنة في قُوت أسرته. كان يعي جيدًا أنّ ذكرى النار التي أحرقت ثم اختفت لن تنفك تلاحقه وتلاحق أطفاله وأطفال أطفاله، إلى آخر ما تصل إليه ذرّيته. وحين عاد أدراجه إلى كوخ زوجته وجد إفيا، ابنة النار، تصيح بأعلى صوتها، فرمق زوجته وقال: «لا أريد أن نتحدث مرة أخرى أبدًا عما جرى هذه الليلة».

طفق أهل القرية يتحدثون أنّ الطفلة وُلدت من النار، فلم يجرِ حليبٌ في صدر أمها. لذلك رضعت إفيا من صدر الزوجة الثانية، والتي كانت قد وضعت مولودًا ذَكرًا قبل ثلاثة أشهر. غير أنّ إفيا الرضيعة لم تكن تعرف كيف تلتقم صدرها، وحين تفعل كانت تغرز لثتها الحادة في ثدي المرأة، حتى أصبحت تخاف إرضاعها. وهكذا تسلّل الهزال إلى إفيا أكثر فأكثر، جلدٌ على عظم طيرٍ

صغير، وفم أشبه بثقبٍ أسود كبير، حين يصرخ من الجوع يُسمع القرية كلها، حتى وإنْ فعلت بابا ما في وسعها لكي تكتم صرختها، تغطّي فم الطفلة بيدها اليسرى الخشنة.

يقول لها كوبي: «أحبّيها»، كما لو أنّ الحب بسيطٌ كشربة ماء. كانت بابا تحلم آناء الليل بأن تترك الطفلة في غيابات الغابة، علّ الإله «إنيامِي» يفعل بها ما يشاء.

كبُرت إفيا. وذات صيف حين بلغت عيدها الثالث أنجبتْ بابا ولدها الأول (فيفي). كانت إفيا لفرط بدانته تدحرجه أحيانًا على الأرض مثل الكرة ما إن تغفل بابا عنها. وحين سمحت لها بابا أن تحمل الرضيع أول مرة أسقطتْه دون قصد منها، فنطّ الرضيع بمؤخرته وارتد إلى الأرض على بطنه، ثم نظر إلى من في الغرفة لا يعلم هل ينبغي عليه أن يبكي أم لا. في النهاية قرر ألا يبكي، لكنّ أمه التي كانت تقلّب «البانكو» رفعت عصا التقليب ونزلت بها على ظهر إفيا العاري. وكلما ارتفعت العصا عن ظهر إفيا كانت تترك وراءها قطعًا دبقة ساخنة من البانكو تحرق جلدها. وما إن انتهت بابا حتى كان ظهر إفيا قد امتلأ قروحًا، وهي ما بين صراخ وبكاء. نظر فيفي من الأرض إلى إفيا بعينين محدقتين وهو يتقلب يمنة ويسرة على بطنه، دون أن يصدر صوتًا.

حين عاد كوبي إلى مسكنه وجد زوجاته الأخريات يعالجن جراح إفيا، ففهم من فوره ما حدث. تشاجر مع بابا طوال الليل، وكانت أصواتهما تصل إلى إفيا من وراء الجدران الرفيعة في الكوخ، وهي مستلقية على الأرض محمومة بين الغفوة واليقظة. في منامها رأت كوبي أسدًا وبابا شجرة. اقتلع الأسد الشجرة وألقى بها أرضًا، فمدت الشجرة أفرعها محتجة، فإذا بالأسد يقطّع أفرعها واحدًا تلو الآخر. أخذت الشجرة تبكي وهي مطروحة، دموعها نمل أحمر يسري بين شقوقها. أخذ النمل يتجمّع على التراب الناعم حول جذعها.

وهكذا بدأت الدائرة. بابا تضرب إفيا، فيضرب كوبي بابا. وما إن بلغت إفيا العاشرة حتى أصبح بإمكانها أن تقصّ تاريخًا من تلك الندوب على جسمها.

صيف 1764، حين كسرت بابا اليامات على ظهرها. ربيع عام 1767، حين هَوَت بابا على قدمها اليسرى بصخرةٍ فكسرت إبهامها الذي أصبح الآن مائلًا عكس اتجاه الأصابع الأخرى. لكل ندبةٍ على جسد إفيا ندبةٌ أخرى تقابلها على جسد بابا، لكنّ ذلك لم يمنع الأم من ضرب ابنتها، ولا الأب من ضرب الأم.

ازداد الأمر سوءًا حين تفتّح جمال إفيا. في سن الثانية عشرة تكوّر نهداها، كتلتان اندفعتا هكذا من صدرها، ناعمتان كلبّ المانجو. وسرعان ما أدرك رجال القرية أن الخيط الأول من دمها سيخرج قريبًا، فتحيّنوا الفرصة كي يطلبوا يدها. وهنا بدأت الهدايا. أحدهم كان أفضل من يعصر نبيذ النخل في القرية، وآخر لم تكن شباك صيده تخلو من خيرات البحر ألبتّة. هكذا أصبحت أسرة كوبي تأكل وتشرب من أنوثة إفيا المتفجرة، ولم تعد بطونهم ولا أياديهم خالية بعد ذلك.

في عام 1775 أصبحت (أدْوُوا) أول فتاة في القرية يخطبها أحد الجنود البريطانيين. كانت فتاة فاتحة البشرة، سليطة اللسان. في الصباحات، كانت بعد أن تستحم تدهن جسمها كله بزبدة الشِيا، حتى تحت نهديها وما بين ساقيها. لم تكن إفيا تعرفها حقّ المعرفة، لكنها رأتها ذات يوم عارية حين أرسلتها بابا بزيت النخيل إلى كوخ الفتاة. كانت لها بشرة ملساء لامعة، وشعر باذخ.

وحين أتى الرجل الأبيض أول مرة طلبتْ والدة أدوُوا من كوبي وبابا أن يأخذاه في جولة عبر القرية إلى أن تستعد أدووا للقائه. ركضت إفيا خلف والديها: «هل يمكنني الذهاب معكم؟»، فسمعت «لا» بابا في أذنٍ واحدة، و«نعم» كوبي في الأذن الأخرى. كانت الغلبة لأذن الأب، وما لبثت إفيا أن وقفت أمام أول رجل أبيض تراه في حياتها.

قال المترجم فيما كان الرجل الأبيض يمدّ يده لإفيا: «إنه سعيد بلقائك». لكنّ إفيا لم تصافحه، واختبأت خلف ساق والدها تتأمله. كان يرتدي معطفًا ذا أزرار ذهبية لامعة في وسطه، وكان المعطف يئنّ من وطأة الكرش. وجهه محمرّ،

كما لو أنّ رقبته كانت تحترق. كان بدينًا في كل مكان في جسده، تتفصّد منه حبات عرق ضخمة على جبينه وفوق شفته العليا. وتراءى لإفيا أنه مثل سحابة مطيرة، شاحبًا مبتلًا لا هيئة له.

قال المترجم: «من فضلكم، يودّ أن يرى القرية»، وبدؤوا يمشون جميعًا. توقفوا أولًا عند مساكن كوبي، فقالت إفيا للرجل الأبيض: «نحن نسكن هنا»، فابتسم لها ببلاهة، وعيناه الخضراوان يغشاهما ضباب. لم يفهم، حتى بعد أن تحدّث إليه مترجمه، لم يفهم.

أمسك كوبي بيد إفيا بينما كان هو وزوجته يقودان الرجل الأبيض إلى المساكن. قال كوبي: «في هذه القرية لكلّ زوجة كوخ خاص. وهذا هو الكوخ الذي تسكن فيه مع أطفالها. حين تحلّ ليلتها، يذهب زوجها إليها في كوخها». صَفَت عينا الرجل الأبيض حين تُرجم له ما قيل، فرأت إفيا أنه كان ينظر فجأة بعينين جديدتين. كان بإمكانه الآن أن يرى الطين في جدران كوخها، وقشّ السقف.

واصلوا السير في القرية كي يرى الرجل الأبيض ساحة البلدة وقوارب الصيد الصغيرة المصنوعة من جذوع أشجار مجوّفة، يحملها الرجال حين يقطعون الأميال القليلة إلى الساحل. دفعت إفيا نفسها هي الأخرى إلى رؤية الأشياء بعينين جديدتين، فشمّت رائحة الريح المعبّقة بملح البحر وهي تلامس شعيرات أنفها، وشعرت بلحاء نخلةٍ حادًا كالخدش، ورأت الحمرة العميقة في الطين الذي كان يلفّهم من كل صوب.

سألت إفيا حين سار الرجل بعيدًا أمامهما:

- بابا، لماذا سوف تتزوج أدوُوا هذا الرجل؟
- لأنّ أمها قالت هكذا.

بعد بضعة أسابيع عاد الرجل الأبيض لتقديم التحايا لأم العروس، فتجمّعت إفيا وأهل القرية كلّهم ليروا ماذا سيقدّم لعروسه. خمسون جنيهًا مهرًا للعروس، وبضائع أحضرها معه من القلعة على ظهور الأشانتيين. وقف كوبي أمام

إفيا وهما ينظران إلى الخدم يحملون القماش والذرة البيضاء والذهب والحديد.

وحين قفلوا عائدين إلى مساكنهم انتحى كوبي بابنته جانبًا، تاركًا زوجاته وأطفاله الآخرين يتقدّمون. سألها: «هل تفهمين ما حدث قبل قليل؟». على مبعدةٍ منهما دسّت بابا يدها في يد فيفي، وكان قد بلغ لتوّه الحادية عشرة، لكنه كان يستطيع أن يتسلق النخلة بيديه العاريتين وقدميه فقط. أجابتْه إفيا: «جاء الرجل الأبيض كي يأخذ أدوُوا». هزّ الأب رأسه موافقًا، وقال:

- يسكن البِيض في قلعة كيب كوست. هناك يشترون أهلنا بالبضائع.
- كالحديد والذرة البيضاء؟

وضع والدها يده على كتفها وقبّل أعلى جبينها، لكنّه حين عاد منتصبًا كانت النظرة في عينيه مثقلة وبعيدة. «نعم، يعطوننا الحديد والذرة البيضاء، ولكن علينا أن نعطيهم أشياء أخرى في المقابل. ذلك الرجل جاء من كيب كوست ليتزوج أدوُوا، وسيأتي غيره كثيرون ويأخذون بناتنا. أما أنتِ، يا ابنتي، فإنني أدّخر لك مستقبلًا أكبر من أن تعيشي زوجةً لرجل أبيض. سوف تتزوجين رجلًا من قريتنا».

في تلك اللحظة التفتت بابا، والتقت عيناها بعيني إفيا. عبست بابا، فنظرت إفيا إلى أبيها لتعرف ما إذا كان قد لاحظ ما حدث، لكنّ كوبي لم ينبس بكلمة.

كانت إفيا تعرف من تريده زوجًا لها، وتتمنى من كل قلبها أن يختاره والداها أيضًا: (أبيكو بادو)، الشخص الذي سيخلف زعيم القرية. كان أبيكو طويلًا ذا بشرةٍ كنواة الأفوكادو، ويدين لهما أصابع رفيعة طويلة ما ينفكّ يلوّح بهما يمنة ويسرة كالبرق حين يتحدث. في الشهر الماضي وحده زار مساكنهم أربع مرات، وسوف يتناول الطعام مع إفيا في وقت لاحق من ذلك الأسبوع.

أحضر أبيكو معه معزاة، في حين حمل خدمه اليامات والسمك ونبيذ النخل. فبدأت بابا والزوجات الأخريات في إشعال النار وتسخين الزيت، وفاح المكان برائحة الثراء.

في ذلك الصباح كانت بابا قد جدّلت شعر إفيا. ضفيرتان طويلتان على كل جانب من مفرق الرأس، حتى بدت كالوعل، قوية ذات عزم. زيّنت إفيا جسمها العاري، ووضعت الذهب في أذنيها. ثم جلست قبالة أبيكو وهما يتناولان الطعام، يُسعدها أنه كان يسترق نظرات الإعجاب إليها.

سألته بابا بعد أن وُضع الطعام للرجال وبدأت النساء أخيرًا في الأكل: «هل كنتَ في حفلة أدوُوا؟».

- نعم، لهنيهة من الوقت. من المؤسف أنّ أدووا ستترك القرية. كانت ستصبح زوجة جيدة.

قالت إفيا: «هل ستعمل عند البريطانيين حين تصبح الزعيم؟». صوّب كوبي وبابا نظرات حادة إليها، فأخفضت رأسها، لكنها حين رفعتْه وجدت أبيكو مبتسمًا.

- نحن نعمل **مع** البريطانيين يا إفيا، وليس عندهم. وهذه هي التجارة. حين أصبح الزعيم سنواصل ما نفعله الآن، نسيّر أمور التجارة مع الأشانتيين والبريطانيين.

هزت إفيا رأسها. لم تكن واثقة تمامًا من معنى ما قاله، لكنها أدركت من نظرة والديها أنه يجدر بها أن تصمت. كان أبيكو بادو أول رجل يدعوانه ليلتقيها، وكانت إفيا تتمنى من كل قلبها أن يرغب فيها، لكنها لم تكن تعرف أي نوع من الرجال هو، وأي نوع من النساء يريد. هناك في كوخها كانت تستطيع أن تسأل أباها وفيفي عن أي شيء تريده. بابا هي التي كانت تلتفع بالصمت، وتريد من إفيا أن تصمت أيضًا. بابا هي التي صفعتها حين سألتها إفيا لماذا لم تأخذها لطلب البرَكة كما تفعل كل الأمهات لبناتهن. لا تشعر إفيا بحب بابا أو شيء كهذا إلا حينما تكفّ عن الحديث والسؤال، حينما تتصاغر. وقد يكون هذا ما يريده أبيكو منها كذلك.

فرغ أبيكو من طعامه. صافح الجميع ثم توقف عند والدة إفيا وقال لها:

- أخبريني حين تكون جاهزة.

ضمّت بابا قبضتها على صدرها وهزّت رأسها بتؤدة. رافق كوبي والرجال الآخرون أبيكو إلى الخارج بينما كان أفراد الأسرة يلوّحون له مودّعين.

في تلك الليلة أيقظت بابا ابنتها النائمة على أرض الكوخ. شعرت إفيا بدفء أنفاس بابا عند أذنيها وهي تقول: «حين يأتيك دمك يا إفيا، لا بد أن تخفيه. وعليك أن تخبريني أنا فقط. هل تفهمين؟». ناولتها سَعَفات حوّلتها إلى وُريقات ناعمة ملفوفة. «ضعيها داخلك، وتفحصيها كل يوم. حين تصبح حمراء لا بدّ أن تخبريني».

حملقت إفيا في السعفات المحمولة بيدَي بابا الممدودتين. لم تأخذها في أول الأمر، لكنها حين رفعت عينيها مرة أخرى رأت ما يشبه الرغبة المستميتة في عيني أمها. رضخت إفيا، لأنّ النظرة لطّفت من وجه بابا شيئًا قليلًا، ولأنّ إفيا كانت تعرف الرغبة المستميتة أيضًا، تعرفها ثمرةً من ثمار الشوق. ظلت إفيا تبحث كل يوم عن اللون الأحمر، لكنّ السعفات تأتي بيضاء مخضرّة كالعادة. أتى الربيع، وسقط زعيم القرية مريضًا، فتوجّهت أنظار الجميع إلى أبيكو ليعرفوا ما إذا كان مستعدًا. في ذينك الشهرين تزوّج امرأتين، (أريكوا الحكيمة)، و(مِلِسنت) الهجينة من أم فانتيّة وجندي بريطاني. تُوفي الجندي متأثرًا بالحمى، وترك لزوجته وطفليه ثروة كبيرة يفعلون بها ما يشاؤون. كانت إفيا تتطلع إلى ذلك اليوم الذي يسمّيها فيه أهل القرية جميعًا «إفيا الجميلة»، مثلما كان يسميها أبيكو في المرات القليلة التي سُمح له فيها أن يجلس معها.

أما أم مِلِسنت فقد أعطاها زوجها الأبيض اسمًا جديدًا. كانت امرأة ممتلئة ذات أسنان بيضاء تتلألأ على عتمة بشرتها. وقد قررت أن ترحل من القلعة إلى القرية فور أن مات زوجها. ولأنه لم يكن مسموحًا للبِيض بأن يتركوا أموالًا في وصيّتهم لزوجاتهم وأبنائهم الفانتيّين، فقد كانوا يعهدون بها إلى أصدقائهم وزملائهم، فيدفعها هؤلاء إلى الزوجات. وهكذا حصلت أم ملسنت على مال يكفيها لبدء حياة جديدة وشراء قطعة أرض. كانت كثيرًا ما تأتي مع ملسنت لزيارة بابا وإفيا، ذلك أنهما قريبًا ستصبحان -على حدّ قولها- من العائلة.

كانت لملسنت أفتح بشرة رأتها إفيا في حياتها. شعرها الفاحم ينسدل إلى منتصف ظهرها، وعيناها تحملان مسحة من خضرة. كانت قليلًا ما تبتسم، وتتحدث بلهجة فانتيّة غريبة، وصوتٍ أجشّ.

ذات يوم، وبينما كانت المرأتان مع ابنتيهما يتناولن الموز والفول السوداني، سألت بابا والدة ملسنت:

- كيف كانت حياتك هناك في القلعة؟

- لا بأس بها، جيدة. أولئك الرجال كم يهتمّون بالمرأة، كما لو أنهم لم يختلوا بامرأة من قبل. لا أدري ماذا تفعل زوجاتهم البريطانيات. كان زوجي ينظر إليّ كما لو أنه نار وأنا الماء، ولا بدّ أن تنطفئ النار كل ليلة.

ضحكت المرأتان، وأفلتت ملسنت ابتسامةً لإفيا. كانت هذه تودّ لو تسألها كيف هو الأمر مع أبيكو، لكنها لم تجرؤ. مالت بابا على أذن والدة ملسنت، لكنّ صوتها وصل لإفيا: «ويدفعون مهرًا جيدًا، هاه؟».

- أوه، زوجي دفع لأمي عشرة جنيهات، وهذا كان قبل خمسة عشر عامًا! يدفعون جيدًا يا أختي، بالتأكيد، لكنني عن نفسي سعيدة لأنّ ابنتي تزوجت رجلا فانتيًّا. وحتى لو عرض جندي أن يدفع عشرين جنيهًا، فلن تصبح ابنتي زوجة زعيم. والأسوأ من ذلك أنها ستعيش بعيدًا عني في القلعة. لا لا ، من الأفضل أن تتزوج المرأة رجلًا من القرية كي تبقى بناتها قريبة منها.

هزّت بابا رأسها والتفتت إلى إفيا، فهربت هذه بعينيها بعيدًا.

في تلك الليلة، أي قبل يومين فقط من عيد ميلادها الخامس عشر، وصل دمُها. لم يكن موجًا قويًا كما تخيّلته، بل قطرات بسيطة، كحبات مطر تسّاقط قطرة قطرة من شقٍ في السقف. نظّفت نفسها وانتظرت أن يخرج أبوها من الكوخ كي تخبر بابا.

قالت وهي تمدّ السعفات المصطبغة بالأحمر: «بابا، لقد وصل دمي».

وضعت بابا كفها على شفتي إفيا. «هل هناك أحد غيري يعلم بالأمر؟».

- لا أحد.

- ليبق الأمر هكذا. هل تفهمين؟ إن سألك أحد هل أصبحتِ امرأة بعد، فقولي لا.

أومأت إفيا، واستدارت لتغادر، لكنّ سؤالًا كان يشتعل في جوفها:

- لماذا؟

اقتربت بابا من فم إفيا وسحبت لسانها، فقرصت طرفه بأظافرها الحادة. «من تظنّين نفسك لكي تحققي معي، هاه؟ إن لم تفعلي ما آمرك به سأقطع لسانك». أفلتت لسان إفيا، وظلّت هذه تشعر بمذاق دمها طوال الليل.

في الأسبوع التالي مات الزعيم، وأرسلت القرية أنباء الجنازة إلى جميع القرى المحيطة. سوف تستمر الترتيبات شهرًا كاملًا، ينتهي بتنصيب أبيكو زعيمًا. ظلت نساء القرية تعدّ الطعام من مطلع الشمس إلى مغربها، وصُنعت الطبول من أجود الأخشاب، ونُودي على أفضل المغنّين. بدأ المعزّون يرقصون في اليوم الرابع من ذلك الموسم المطير، ولم يتوقفوا إلا حين جفّت الأرض تحت أقدامهم.

في نهاية الليلة الأولى بعد المطر كان التنصيب، فأصبح أبيكو «أومانهين»، زعيم قرية الفانتي. كان يرتدي لباسًا فاخرًا، وزوجتاه على جانبيه. أما إفيا وبابا فقد وقفتا جنبًا إلى جنب تتفرجان، في حين راح كوبي يمشي مع الجموع. كان بين كل لحظة وأخرى يتمتم قائلًا إنّ ابنته، أجمل نساء القرية، يُفترض أن تكون واقفة هناك أيضًا.

أراد الزعيم الجديد أبيكو أن يفعل شيئًا كبيرًا، شيئًا يجذب الانتباه إلى قريتهم، ويجعلهم قوة يُحسب لها ألف حساب. بعد ثلاثة أيام من تنصيبه، جمع كل رجال القرية في مساكنه، وأطعمهم يومين متتاليين، وأسكرهم بنبيذ النخل إلى أن وصلت ضحكاتهم وصيحاتهم أكواخ القرية جميعًا.

سألت إفيا: «ماذا سيفعلون؟»، فردّت بابا: «لا شأن لك».

منذ أن وصل دم إفيا قبل شهرين توقّفت بابا عن ضربها. كان هذا ثمن

سكوتها. في بعض الأحيان حين كانتا تحضّران الطعام للرجال، أو حين تجلب إفيا الماء وتشاهد بابا تغرف فيه بيديها، يخطر ببالها أنهما أصبحتا أخيرًا تتصرفان كأم وابنتها. ولكنْ في أيام أخرى كان العبوس الطويل يعود إلى وجه بابا، فتدرك إفيا أنّ هدوء أمها الجديد مؤقت فقط، فغضبها ليس سوى وحش مفترس هائج رُوِّض لبعض الوقت.

عاد كوبي من ذلك الاجتماع يحمل معه منجلًا طويلًا، نُقشت على مقبضه الذهبي حروف لا أحد يفهمها. كان ثملًا جدًا حتى أن زوجاته وأطفاله جميعًا تحلقوا حوله على بعد قدمين، وهو يجر قدميه ملوّحًا بمنجله هنا وهناك. صاح فيهم: «سوف نجعل هذه القرية ثريةً، بالدم!». نزل بمنجله نحو فيفي الذي اندس في الدائرة، فاستطاع الصبي، وقد غدا أنحف وأسرع مما كان في طفولته البدينة، أن يتلافى ضربة المنجل بسنتيمترات قليلة فقط.

كان فيفي أصغر الحاضرين في ذلك الاجتماع، والجميع يدركون أنه سيصبح مقاتلًا جيدًا. كانوا يرون علامات ذلك في كيفية تسلّقه النخيل، وفي صمته الذي يعتمره كتاجٍ ذهبي على رأسه.

زحفت إفيا نحو فيفي بعد أن خرج والدها وتأكدت من نوم أمها. هسهست له: «انهض»، فدفعها بعيدًا عنه. كان أقوى منها حتى وهو نصف نائم. سقطت إلى الخلف لكنّها وقفت على قدميها مرة أخرى برشاقة قطّة، وقالت مجددًا: «انهض».

انفتحت عيناه، وقال:

- لا تزعجيني يا إفيا.
- ماذا سيحدث؟
- هذا أمر يخصّ الرجال.
- لستَ رجلًا بعد.
- وأنتِ لستِ امرأة بعد، وإلا لكنتِ هناك مع أبيكو هذا المساء زوجةً له.

أخذت شفتا إفيا ترتعشان. استدارت كي تعود إلى جانبها في الكوخ، لكنّ

فيفي أمسكها من ذراعها. «سوف نساعد البريطانيين والأشانتيين في تجارتهم».

هي القصة نفسها التي سمعتْها من أبيها وأبيكو قبل أشهر قليلة. «أوه، هل تعني أننا سنعطي الذهب للأشانتيين، والقماش للبِيض؟». أمسكها بقوة. «كفى حماقة! عقد أبيكو حلفًا مع واحدة من أقوى القرى الأشانتية. سوف نساعدهم في بيع عبيدهم للبريطانيين».

هكذا جاء الرجال البِيض إلى قريتهم. منهم البدين ومنهم النحيف، منهم الأحمر ومنهم من سفعته الشمس. كانوا يأتون بزيّهم العسكري، سيوفهم على جوانبهم، وأعينهم تنظر من أطرافها، بحذرٍ لا يغيب. أتوا لكي يعاينوا البضائع التي وعدهم أبيكو بها.

كان كوبي يزداد توترًا من وعد الزواج الذي لم يفِ به بعد لأبيكو، يخشى أن ينسى إفيا لخاطر امرأة أخرى في القرية. كان دائمًا ما يقول إنه يريد لابنته أن تكون الزوجة الأولى والأهمّ، والآن حتى الزوجة الثالثة بدا أملًا بعيدًا. ظلّ يسأل بابا كل يوم عن إفيا، فتقول له إنها غير جاهزة بعد. وحين تملكه اليأس قرر السماح لابنته أن تذهب إلى مساكن أبيكو مع بابا مرة كل أسبوع، كي يراها فلا ينسى شغفه بملامحها وهيئتها.

ذات مساء حين ذهبت بابا وإفيا حيّتهما أريكوا الحكيمة، زوجة أبيكو الأولى: «عذرًا يا أمي، لم نكن نتوقّع حضوركما اليوم. الرجال البِيض هنا». قالت إفيا: «لا بأس، سنذهب»، لكنّ بابا أمسكتها من ذراعها. قالت: «نودّ أن نبقى، إن لم يكن لديك مانع». رمقتها أريكوا مستغربة، فتابعت بابا: «سيغضب زوجي لو عدنا بسرعة»، وكأنّ ما قالته يصلح عذرًا. عرفت إفيا أن أمها كانت تكذب، فكوبي لم يرسلهما تلك الليلة. كان قد تناهى إلى مسامع بابا أن الرجال البيض سيكونون هناك، فأصرّت على الذهاب وتقديم التحية. أشفقت أريكوا عليهما وذهبت تستأذن أبيكو.

قالت حين عادت: «سوف تتناولان الطعام مع النساء، وإن دخل الرجال فلا تتحدثا». قادتهما إلى داخل المساكن، وأخذت إفيا تتفرج على الكوخ بعد

الآخر إلى أن بلغن الكوخ الذي تجمّعت فيه النساء. جلست إفيا عند مِلِسنت التي بدأ بطنها يتكوّر، خفيضًا وأصغر من جوزة هند. كانت أريكوا قد حضّرت يخنة السمك بزيت النخيل، فغرست النساء أيديهن في اليخنة حتى اصطبغت أصابعهن باللون البرتقالي.

وما لبثت أن دخلت عليهم خادمة لم تلحظها إفيا من قبل. كانت فتاة ضئيلة، طفلة، عيناها لا تفارقان الأرض. قالت لأريكوا: «من فضلك أمي، يريد الرجال البيض أن يشاهدوا المساكن. ويقول الزعيم أبيكو لا بدّ أن تظهرن بمظهر لائق أمامهم».

هتفت ملسنت: «اذهبي وأحضري الماء، بسرعة»، وحين عادت بدلو ماء غسلت النساء أيديهن ومسحن شفاههن. رتّبت إفيا شعرها، ولعقت راحتيها ثم مسدّت بأصابعها جُديلات شعرها الصغيرة على الأطراف. وحين انتهت وضعتْها بابا بين ملسنت وأريكوا أمام بقية النساء، غير أنّ إفيا حاولت أن تتضاءل كي لا تلفت الانتباه.

لم يمض وقت طويل حتى دخل الرجال. خطر لإفيا أن أبيكو بدا كما ينبغي للزعيم أن يبدو، قويًا كما لو أنّ بمقدوره أن يحمل عشر نساء فوق رأسه ويمشي بهنّ باتجاه الشمس. جاء في إثره رجلان أبيضان، وخطر لإفيا أنّ أحدهما لا بد أن يكون زعيم البيض، فقد كان الآخرون ينظرون إليه كلما تحرك أو تكلم. كان هذا الزعيم الأبيض يلبس كما يلبس الآخرون، غير أنه يملك أزرارًا ذهبية أكثر على معطفه وكتفيه. بدا أكبر سنًا من أبيكو، وقد وَخَطَ الشيب شعره البنّي الداكن، لكنه كان يقف منتصبًا كما ينبغي للقائد أن يقف.

قال أبيكو: «هؤلاء هنّ النساء. زوجاتي وطفلاتي، الأمهات والبنات». كان الرجل الأبيض الأصغر حجمًا والأكثر حياءً يراقبه مليًا وهو يتحدث، ثم التفت إلى الزعيم الأبيض وحدّثه بلغتهم الغريبة. أومأ الزعيم الأبيض برأسه وابتسم لهنّ جميعًا وهو ينظر إلى كلّ واحدة منهنّ ويحّييها بلغته الفانتيّة المكسّرة. وحين حيّا إفيا بلغته المكسّرة لم تستطع أن تمنع نفسها من إطلاق ضحكة

خفيفة. نهرتها النساء، فأخذ الحَرَج يتصاعد ساخنًا إلى وجنتيها.

قال الزعيم الأبيض وعيناه على إفيا: «ما زلتُ أتعلّم». كانت لغته الفانتيّة صوتًا قبيحًا على مسامعها. ثبّت نظرته عليها لما بدا وكأنه دقائق طويلة، فشعرت إفيا بجلدها يسخن أكثر إذ استحالت النظرة في عينيه إلى شيء أكثر جرأة. بدت حدقتاه البنّيتان الداكنتان كقِدرين كبيرين يمكن لأطفال أن يغرقوا فيهما، وأخذ ينظر إلى إفيا هكذا كما لو أنه أراد أن يتركها هناك، في عينيه المغرِقتَين. سرعان ما فاض اللون إلى وجنتيه، فاستدار إلى الرجل الأبيض الآخر وكلّمه.

قال أبيكو بعد أن ترجم له الرجل: «كلا، ليست زوجتي»، والاستياء واضح في صوته. أدلت إفيا رأسها وهي محرجة لأنها اقترفت أمرًا أهان أبيكو، ولأنه لم يستطع أن يقول إنها زوجته. كانت محرجة أيضًا لأنه لم يسمّها باسمها، إفيا الجميلة. كانت تودّ عندئذ من كل قلبها لو تخلف وعدها لبابا وتعلن أنها امرأة، لكنّ الرجال تحرّكوا خارجين قبل أن تستطيع قول شيء، وتبخّرت جرأتها حين نظر إليها الزعيم الأبيض مُلتفتًا وابتسم.

اسمه (جيمس كولنز)، الحاكم الجديد على قلعة كيپ كوست. في غضون أسبوع واحد فقط، كان قد عاد إلى القرية طالبًا يد إفيا من بابا. أما كوبي فقد فاض غضبه في كل مكان مثل بخار ساخن. صاح في وجه بابا حالما أخبرته بأنها تفكّر في الأمر: «إنها ما تزال موعودة لأبيكو!».

- نعم، لكنّ أبيكو لا يستطيع الزواج منها إلا حين يأتي دمها، وقد ظللنا ننتظر سنوات. صدّقني يا زوجي، أعتقد أنّ اللعنة أصابتها في ذلك الحريق. إنها شيطانة لن تصبح امرأة أبدًا. فكّر في الأمر. أيّ مخلوقة هذه التي لها كلّ هذا الجمال ولكن من المحظور لمسها؟ علامات البلوغ كلّها فيها، ومع ذلك، لا شيء. أما الرجل الأبيض فسوف يتزوجها بصرف النظر عن ذلك. إنه لا يعرف ما هي.

كانت إفيا قد استرقت السمع لما قاله الرجل الأبيض لأمها ذلك اليوم.

سوف يدفع ثلاثين جنيهًا مقدمًا، ثم يدفع كلّ شهر لبابا بضائع بقيمة خمسة وعشرين شلنًا هديةً للعروس. هذا أكثر مما يستطيع أبيكو تقديمه، بل أكثر من أي مهر قُدِّم لامرأة فانتيّة في هذه القرية والتي تليها.

سمعت إفيا وقع أقدام أبيها وهو يذرع المكان جيئة وذهابًا في المساء. بل إنها استيقظت في اليوم التالي على الصوت نفسه، ذلك الإيقاع المنتظم لقدميه على التراب الطيني الصلب.

قال أخيرًا: «لا بدّ أن نجعل الأمر يأتي من أبيكو نفسه».

هكذا، دُعي الزعيم إلى مساكنهم. جلس بجانب كوبي في حين كانت بابا تخبره الحكاية، وكيف أنّ النار التي أتلفت قدرًا كبيرًا من ممتلكات العائلة دمّرت الطفلة أيضًا. قالت بابا وهي تبصق على الأرض توكيدًا على مرارتها: «لها جسد امرأة، لكنّ شيئًا شريرًا يتربّص بروحها. إنْ تزوّجتها، فلن تنجب لك أطفالًا أبدًا. وإن تزوّجها الرجل الأبيض فسوف يقدّر هذه القرية جدًا، وتزدهر تجارتك».

حكّ أبيكو لحيته مليًا وهو يفكر في الأمر. أخيرًا قال: «ائتوني بالجميلة». ذهبت زوجة كوبي الثانية تحضر إفيا. كانت ترتعش وبطنها تؤلمها كثيرًا حتى خافت أن تفرغ ما في أحشائها هناك أمام الجميع. نهض أبيكو ليقف قبالتها. مرّر أصابعه على وجهها بأكمله، من أعلى وجنتيها وحتى منخريها، ثم قال: «لم تُولد امرأة أجمل منها»، ثم التفت إلى بابا. «لكنني أرى أنك على حق. إن أرادها الرجل الأبيض فله ذلك. هذا أفضل لتجارتنا معهم، أفضل للقرية».

أخذ كوبي يبكي هناك وهو الرجل الضخم القوي، أما بابا فقد ظلّت منتصبة القامة. مشت إلى إفيا بعد أن غادر أبيكو، وأعطتها حِلية من الحجر الأسود كانت تلمع كما لو أنها مغطّاة بالذهب. دسّتها في يد إفيا ومالت عليها إلى أن التصقت شفتاها بأذن إفيا. «خذي هذه معكِ عندما تذهبين. إنها قطعة من أمّك». وحين تراجعت بابا أخيرًا، رأت إفيا ما يشبه الارتياح يتراقص خلف ابتسامتها.

***

لم يسبق أن عبرت إفيا أمام قلعة كيب كوست سوى مرة وحيدة، وذلك حين خرجت مع بابا إلى المدينة، لكنها لم تدخل القلعة قط قبل يوم زفافها. ثمة كنيسة في الطابق الأرضي، وهناك زوّجها بجيمس كولنز رجلُ دين طلب من إفيا أن تردّد وراءه كلمات لم تفهم معناها، بلغة لم تكن تفهمها. لم يكن هناك رقص، ولا وليمة، ولا ألوان زاهية، ولا شعور مملّسة، ولا عجائز بأثداء عارية متجعّدة يلقين النقود المعدنية ويلوّحن بالمناديل. حتى عائلة إفيا لم تحضر الزفاف، إذ لم يرغب أحد في أن يكون له أي شأن بها بعد أن أقنعتهم بابا جميعًا بأنّ الفتاة شؤم. في ذلك الصباح حين غادرت منزلها إلى القلعة قبّل كوبي أعلى رأسها ولوّح لها مودعًا، وقد أدرك أنّ الهاجس الذي اجتاحه ليلة الحريق، هاجس الفناء والهلاك في ذرّيته، سوف يبدأ من هنا، مع ابنته والرجل الأبيض.

فعل جيمس كولنز كل ما في وسعه لراحة إفيا، وكانت ترى ما يبذله من جهد في ذلك. حتى إنه طلب من مترجمه أن يعلّمه المزيد من الكلمات الفانتية، كي يستطيع أن يقول لها كم هي جميلة، وكم سيبذل ما في وسعه لرعايتها. وقد سمّاها مثلما كان أبيكو يسميها، إفيا الجميلة.

بعد مراسم الزفاف أخذها جيمس في جولة خلال القلعة. كانت هناك شقق ومخازن في الطابق الأول من الجناح الشمالي، أما في الوسط فكانت ساحة العرض ومساكن الجنود وغرفة الحراس. ثمة حظيرة أيضًا، وبركة ماء ومستشفى ومنجرة ومعمل حدادة ومطبخ. كانت القلعة بمثابة قرية كاملة. طافت إفيا في أنحاء القلعة مع جيمس مشدوهة، تمرر يديها على الأثاث الفاخر، المصنوع من خشبٍ لونه كبشرة أبيها، وعلى الستائر الحريرية التي كانت ناعمة مثل قُبلة.

تنشقت إفيا كل شيء، ثم توقفت عند منصة المدافع السوداء في مواجهة البحر. كانت تريد أن ترتاح قبل أن يقودها جيمس إلى مسكنه، فأسندت رأسها على مدفع من تلك المدافع هنيهة. حينها، شعرت بنسيم يهفهف على قدميها من فتحات صغيرة في الأرض.

سألت جيمس: «ماذا يوجد في الأسفل؟». فأتاها الجواب بفانتية مكسّرة: «بضائع».

لحظتها، جاءها صوت بكاء خافت تحمله النسمات. كان خافتًا جدًا، حتى ظنّت إفيا أنها تتخيل، إلى أن أخفضت رأسها ووضعت أذنها على الشبكة الحديدية في الأسفل. «جيمس، هل يوجد أناس هناك؟».

هرع جيمس إليها وانتزعها من الأرض وأمسك كتفيها. حملق في عينيها وقال بوضوح: «نعم». كانت تلك هي الكلمة الفانتية الوحيدة التي يتقن نطقها. تراجعت إفيا عنه، وحدّقت في عينيه الواخزتين. «ولكن كيف يمكنكم أن تتركوهم يبكون هناك، هاه؟ أنتم البيض! لقد حذّرني أبي مما تفعلونه. أعدني إلى بيتي. أعدني الآن!».

لم تدرك إفيا أنها كانت تصرخ إلى أن شعرت بيد جيمس تطبق على فمها، كان يضغط على شفتيها وكأن باستطاعته أن يعيد كلامها إلى فمها مرة أخرى. أمسكها هكذا فترة طويلة إلى أن هدأت. لم تعرف ما إذا كان قد فهم ما قالته، لكنها عرفت لحظتها من الضغطة الخفيفة لأصابعه على شفتيها أنه كان إنسانًا قادرًا على الإيذاء، وأنه من الأفضل لها أن تفرح لوجودها على هذه الضفة من شرّه، وليس الأخرى.

سألها جيمس بلغة فانتية صارمة، وإن لم تكن واضحة: «تريدين الذهاب إلى بيتكم؟ بيتكم ليس أفضل حالًا». سحبت إفيا يده عن فمها وحدقت فيه فترة أطول. خطرت ببالها فرحة أمها حين رأتها تغادر البيت، فأدركت أنّ جيمس كان على حق. لم تكن تستطيع أن تعود إلى بيتها، فأومأت برأسها، ولكن بجهد كبير.

سارع بها عبر السلالم إلى مسكنه في الطابق الأعلى. من النافذة كان يمكنها أن تنظر إلى البحر مباشرة. سفن البضائع أشبه بذرّات سود في زرقة المحيط الأطلسي، تطفو بعيدًا جدًا حتى ليغدو من الصعب تحديد بُعدها عن القلعة. بعضها ربما كان يبعُد ثلاثة أيام، وأخرى تبعد ساعة لا أكثر.

أخذت إفيا تنظر إلى إحدى تلك السفن حين وصلت أخيرًا مع جيمس إلى غرفته. كان ثمة وميض أصفر يعلن عن وجودها على الماء، وتحت هذا الضوء كانت إفيا بالكاد تستطيع أن ترى ظلّ السفينة، طويلًا مقوسًا كقشرة جوزة هند مجوفة. أرادت أن تسأل جيمس عن حمولتها، وما إذا كانت قادمة أم ذاهبة، لكنها تعبت من فك الطلاسم التي يتفوه بها حين يتحدث بالفانتية.

قال لها جيمس شيئًا ما، مبتسمًا وهو يتحدث، يسترضيها. كانت أطراف شفتيه تختلج على نحو خفيّ. هزت رأسها، وحاولت أن تقول له إنها لم تفهم، فأومأ لها أخيرًا ناحية السرير في الركن الأيسر من الغرفة. جلست هناك. كانت بابا قد شرحت لها ما يُنتظر منها في ليلة زفافها قبل أن تذهب إلى القلعة ذلك الصباح، ولكن يبدو أنّ جيمس لم يجد من يشرح له الأمر. فحين اقترب منها كانت يداه ترتعشان وجبينه يتفصّد عرقًا. كانت هي التي مدّدت جسدها على الفراش، وهي التي رفعت تنّورتها.

مضى الحال هكذا عدة أسابيع، إلى أن سكّن الاعتيادُ ما كانت تشعر به من ألم الشوق لعائلتها. لم تكن إفيا تعرف ما الذي ترتاح له في جيمس. ربما الطريقة التي يجيب بها عن أسئلتها، أو ذلك التعلق الذي يبديه بها. ربما لأنّ جيمس لم تكن له زوجات أخريات يذهب إليهن، وبذلك تكون كل لياليه ملكًا لها. حين أحضر لها هدية للمرة الأولى بكت. فقد أخذ الحِلية التي أعطتها إياها بابا ووضعها في سلسلة كي تلبسها إفيا حول عنقها. كانت دائمًا ما تشعر بالسكينة حين تلمس الحجر.

تعرف إفيا أنه لا ينبغي لقلبها أن يخفق لجيمس، فقد ظلّت تسمع صوت أبيها يتردد في رأسها، كيف أنه أراد لها أكثر من مجرد زوجة فانتية لرجل أبيض. تذكرت أيضًا قدر اقترابها من أن **تكون** شخصًا ما. على مدى حياتها كلها كانت بابا تضربها وتشعرها بالضآلة، فدافعت عن نفسها بجمالها، ذلك السلاح الصامت القويّ الذي قادها إلى قدمَي زعيم القرية. لكنّ أمها انتصرت في نهاية المطاف، ونبذتْها، لا من المنزل فحسب بل من القرية بأكملها، حتى أصبحت لا ترى من

الفانتيين سوى زوجات الجنود الآخرين.

كانت قد سمعت الإنجليز يسمّونهن «الفتيات»[1]، لا الزوجات. كانت كلمة «الزوجة» محفوظة للنساء البيض خلف المحيط الأطلسي. أما «الفتاة» فشيء آخر تمامًا، كلمة يستخدمها الجنود للحفاظ على نظافة أيديهم كي لا يغضبوا ربّهم، وهو كائن من ثلاثة لكنّه لا يسمح بالزواج إلا بواحدة.

قالت له إفيا ذات مرة: «حدّثني عنها». كانا يتبادلان اللغات، ففي أول الصباح قبل أن يذهب للإشراف على العمل في القلعة كان يعلّمها الإنجليزية، وفي الليل حين يستلقيان على الفراش تعلّمه الفانتية. في تلك الليلة كان يمرر إصبعه على ترقوتها وهي تغنّي له أغنية كانت بابا تغنيها لفيفي ليلًا، بينما تضطجع إفيا في زاوية الغرفة تتظاهر بالنوم، تتظاهر بأنها لا تبالي. شيئًا فشيئًا أصبح جيمس يعني لها أكثر مما يعنيه الزوج لزوجته. كان أول ما طلب أن يتعلمه من الفانتية كلمة «أحبك»، وكان يقولها كل يوم.

قال لها وهو ينقل إصبعه إلى شفتيها: «اسمها آن. لم أرها منذ زمن. تزوّجنا قبل عشر سنوات، لكنني قضيتُ سنوات طويلة بعيدًا عنها. إنني بالكاد أعرفها».

كانت إفيا تعرف أنّ لديه طفلين في إنجلترا، (إمِلي) و(جِمي). الأولى عمرها خمس سنوات والثاني تسع سنوات، وقد زرع بذرتهما في تلك الأيام القليلة التي استطاع فيها أن يرى زوجته. والد إفيا لديه عشرون طفلًا، والزعيم السابق له حوالي مئة طفل. لذلك لم تستطع إفيا أن تفهم كيف يكون الرجل سعيدًا بطفلين فقط. تساءلت في نفسها عن شكل طفليه، وتساءلت أيضًا عما كانت تكتبه آن لجيمس في رسائلها. كانت تلك الرسائل تأتي غير منتظمة، كل شهر، كل أربعة أشهر. يقرأها جيمس على طاولته ليلًا حين تتظاهر إفيا بالنوم. لم

---

(1) لا يوجد في الثقافة العربية مقابل دقيق لكلمة (wench) في هذا السياق؛ فهي وإنْ كانت قريبة إلى فكرة "المحظيّة" إلا أنها في الواقع زوجة من المرتبة الثانية، وليست "عبدة" أو "جارية". الطريف أنّ المعنى الأصلي القديم لكلمة (wench) هو فتاة صغيرة، ثم تطوّرت دلالة الكلمة لتعني "المحظيّة" في القرن الرابع عشر، ثم "الخادمة"، ثم "العبدة" في القرن التاسع عشر، ثم "العاهرة" في الاستخدام الشعبي الحديث.

تكن تعرف ما فيها، ولكن في كل مرة يقرأ جيمس رسالةً من آن كان يعود إلى السرير ويستلقي بعيدًا عنها قدر المستطاع.

أما الآن، في غياب رسالة تُبعده عنها، فقد كان جيمس يتوسد نهدها الأيسر. تحدّث وكانت أنفاسه ساخنة، مرّت على بطنها إلى ما بين ساقيها. «أريد أطفالًا منكِ»، فانكمشت إفيا، خشية أن لا تستطيع تحقيق هذه الرغبة، وخشية أن تصبح أمًا سيئة، تمامًا كما كانت أمها معها. كانت قد قصّت لجيمس عن مخطط بابا، وكيف أنها أجبرتها على كتمان بلوغها كي تبدو غير مناسبة لرجال القرية، لكنّ جيمس خفف عنها بالضحك. «من حسن حظي أنا».

مع ذلك، بدأت إفيا تشعر أنّ بابا قد تكون على حق. إذ إنها فقدت عذريتها ليلة زفافها، لكنها لم تحبل رغم انقضاء شهر وراء آخر. صحيح أنّ اللعنة المزعومة أصلها كذبة، لكنّها ربما أثمرت عن حقيقة.كان كبار السن في القرية يحكون قصة امرأة قيل إنها مصابة باللعنة. كانت تعيش تحت نخلة في الشمال الغربيّ، ولم يكن أحد يناديها باسمها. ماتت أمها كي تعيش هي، وحين بلغت العاشرة كانت تحمل قِدرًا من الزيت المغلي من كوخ إلى آخر. ذات يوم، وبينما كان أبوها مستلقيًا على الأرض خافت أن تطأه، لكنّ قدمها زلّت فانسكب الزيت الساخن على وجهه، وظلّ مشوّهًا طوال حياته التي استمرت خمسة وعشرين يومًا فقط بعد تلك الحادثة. طُردت البنت من المنزل، فهامت على وجهها في ساحل الذهب سنوات، إلى أن عادت مرة أخرى في سن السابعة عشرة، فتاةً ذات جمال غريب يندر مثيله. كان هناك صبيّ يعرفها منذ أن كانت صغيرة، ظنّ أنها لم تعد تستدعي الموت أينما حلّت، فعرض عليها الزواج بما أنها مُعدمة ولا عائلة لها. حملت خلال شهر واحد، لكنّ الجنين حين وُلد كان هجينًا، بعينين زرقاوين وبشرة فاتحة. مات الطفل بعد أربعة أيام، فتركت بيت زوجها تلك الليلة، وذهبت لتعيش تحت النخلة، تعاقب نفسها بقية حياتها.

تعلم إفيا أنّ كبار السن كانوا يحكون هذه القصة ليحذّروا الأطفال حين يكونون قرب الزيت الساخن، لكنها تساءلت عن نهاية القصة، ذلك الطفل

الهجين. كيف غدا ذلك الطفل، الأسود والأبيض معًا، شرًّا عظيمًا بما يكفي ليجبر المرأة على الخروج إلى غابة النخيل.

حين تزوجت أدوُوا الجنديَ الأبيض، وحين انتقلت مِلِسنت وأمها إلى القرية، لم يخف كوبي شعوره بالازدراء. كان دائمًا ما يقول إن زواج الرجل بالمرأة إنما هو اجتماع عائلتين. فالزواج هو الذي أتى بالأسلاف والتاريخ الطويل، لكنّه أتى بالخطايا واللعنات أيضًا. الأطفال تجسيد لشمل عائلتين، وهم من يحملون وطأته كلها. تُرى ما الخطايا التي يحملها الرجل الأبيض من أسلافه؟ تقول بابا إنّ لعنة إفيا هي انعدام البلوغ، لكنّ كوبي هو الذي تنبأ بتلويث السلالة. وهكذا لم تستطع إفيا أن تمنع نفسها من التفكير بأنها تصارع رحِمها، تصارع أبناء النار.

قالت لها أدوُوا: «إن لم تنجبي لذلك الرجل أطفالًا في وقت قريب فسوف يعيدك إلى القرية». لم تنشأ صداقة بينهما حين كانتا في القرية، لكنهما تلتقيان الآن قدر المستطاع، وكل واحدة منهما سعيدة بأن تكون قرب شخص يفهمها، أن تسمع أصوات السكينة في لغتها. أنجبت أدوُوا طفلين منذ أن غادرت القرية، أما زوجها (تود فِلِبس) فلم يزدد إلا سمنة منذ آخر مرة رأته فيها إفيا في كوخ أدوُوا القديم، أحمر الوجه يتصبب عرقًا.

- أوه يا إفيا، منذ أن وصلتُ إلى هذا المكان وتود لا ينهض عني. ربما أحبل الآن ونحن نتكلم.

هزّت إفيا كتفيها وقالت: «لكنّ بطنه كبيرة جدًا!»، فضحكت أدوُوا حتى غصّت بالفول السوداني الذي تأكله. «ليست بطنه التي تجعلك تنجبين. سأعطيك بعض الجذور من الغابة. ضعيها تحت سريرك حين يختلي بك. الليلة، لا بدّ أن تكوني حيوانًا، لبؤةً، حين يدخل الغرفة. اللبؤة تضاجع أسدها، وهو يظنّ أن الأمر له، في حين أنه في الواقع لها هي، لأولادها، لذريّتها. تحتال عليه فتجعله يظنّ أنه ملك الغابة، ولكن ما أهمية الملك؟ في الحقيقة هي الملك والملكة وكل شيء بينهما. الليلة سنجعلك ترتقين إلى مستوى لقبك، الجميلة.

عادت أدوُوا ومعها الجذور. لم تكن جذورًا عادية، كانت كبيرة ملتفّة،

حين تسحب واحدًا منها يندفع واحد غيره في مكانه. وضعتها إفيا تحت السرير، وبدت كما لو أنها تتكاثر، تطرح ساقًا إثر ساق إلى أن بدا وكأنّ الجذر سيحمل السرير على ظهره ويمضي، كعنكبوت جديد غريب.

قالت أدوُوا: «لا ينبغي أن يراها زوجك»، وأخذت المرأتان تعيدان أطراف الجذور التي أبت إلا أن تطلّ برأسها، ما بين سحبٍ ودفعٍ إلى أن استقرت أخيرًا تحت السرير.

بعد ذلك شرعت أدوُوا تساعد إفيا كي تجهز نفسها لجيمس. جدّلت شعرها وملّسته، ثم دهنت جسمها بالزيت، ووضعت طينًا أحمر على خدّيها وشفتيها. حرصت إفيا على أن تعبق الغرفة برائحة الخصب والتربة، وكأنّ شيئًا هناك سيثمر.

سألها جيمس: «ما كل هذا؟». كان لا يزال بزيّه العسكري، وعرفت إفيا أن يومه كان طويلًا شاقًا من تراخي طيّة سترته. ساعدته في نزع معطفه وقميصه، وألصقت جسدها بجسده كما علّمتها أدوُوا. لم تمهله إلى أن يُبدي دهشته، فجذبته من ذراعيه ودفعته إلى الفراش. ولم يبدُ جيمس في تلك الحالة منذ ليلتهما الأولى، حييًا خائفًا من جسدها الذي يجهله، من ذلك الجسد الممتلئ في رشاقته، مختلفًا كل الاختلاف عما وصف به زوجته. لم تلبث أن اشتعلت رغبته، فأولج فيها، وأغمضت عينيها بأقوى ما تستطيع، ولسانها يدور حول شفتيها. أخذ يرهز بقوة أكبر، تتسارع أنفاسه وتثقل. غرزت أظافرها في ظهره، فندّت عنه صرخة. عضّت أذنه وسحبت شعره، وراح يرهزها كما لو أنه هو نفسه سيدخل فيها. حين فتحت عينيها رأت ما يشبه الألم مرسومًا على وجهه، والتمعت عليه تلك الغريزة الحيوانية وما تفصّد منهما من عرق ودم وماء، فأدركت أنها مثلما كانت حيوانًا تلك الليلة، فقد كان هو كذلك أيضًا.

ما إن فرغا حتى وضعت رأسها على كتفه. سألها جيمس وهو يدير رأسه: «ما هذا؟». كان السرير قد تحرّك تحتهما، فأطلّت الجذور من تحته.

- لا شيء.

قفز جيمس من السرير ونظر تحته. سأل مرة أخرى وصوته الآن أكثر حدّة من أي وقت مضى: «ما هذا يا إفيا؟».

- لا شيء. إنها جذور أعطتني إياها أدوُوا. للخصوبة.

زمّ شفتيه وقال: «اسمعيني يا إفيا، لا أريد أي تعاويذ أو سحر أسود في هذا المكان. ولا أريد أن يسمع رجالي بأنني أسمح لفتاتي أن تضع جذورًا غريبة تحت السرير. هذا أمر ينافي المسيحية».

سمعت إفيا هذه الكلمة من قبل، «المسيحية». لهذا السبب كان تزويجهما في الكنيسة على يد الرجل المتجهّم في ملابسه السوداء، والذي كان يهزّ رأسه في كلّ مرة ينظر إليها. تحدّث جيمس من قبل أيضًا عن «التعاويذ» التي يظنّ أن الأفارقة جميعهم يتعاملون بها. لم تكن تحكي له حكايات العنكبوت أنانسي أو القصص التي يرويها كبار السنّ في قريتها إلا ويبدي امتعاضه. منذ أن انتقلتْ إلى القلعة اكتشفت أنّ البيض وحدهم من يتحدثون عن «السحر الأسود»، كما لو أنّ السحر له لون. كانت إفيا قد رأت من قبل ساحرة جوّالة تلفّ ثعبانًا حول عنقها وكتفيها. وكان لهذه المرأة ولد تهدهده ليلًا وتمسك يديه وتطعمه، كأي امرأة أخرى. لم يكن بها شيء أسود.

إنّ الحاجة إلى وصف الأشياء بأنها «خير» أو «شر» أو «أبيض» أو «أسود» غريزة لم تكن إفيا تفهمها. في قريتها كلُّ شيء كلَّ شيء. كلُّ الأشياء محمّلةٌ ببقية الأشياء الأخرى.

في اليوم التالي قالت إفيا لأدوُوا إنّ جيمس رأى الجذور. «أوه، هذا خبر سيء. هل قال إنه شرّ؟»، فأومأت إفيا، وطقّت أدوُوا بلسانها ثلاثًا. «لو كان تود مكانه لقال ذلك أيضًا. هؤلاء الرجال لا يستطيعون التمييز بين الخير والشر حتى ولو كانوا الإله إنيامي نفسه. لا أظن أن الجذور ستأتي بنتيجة الآن يا إفيا. متأسفة». أما إفيا فلم تشعر بالأسف. وإذا كانت عقيمة بالفعل، فليكن.

لكنّ جيمس سرعان ما أصبح مشغولًا جدًا ولا وقت لديه للتفكير في موضوع الإنجاب. كانت القلعة تنتظر زيارةً من ضباطٍ هولنديين، وكان ينبغي أن

تسير كل الأمور على ما يرام. كان جيمس يصحو باكرًا قبل إفيا يساعد الرجال في البضائع المستوردة، ويشرف على السفن. أما إفيا فكانت تقضي وقتًا أكثر فأكثر تتجوّل حول القرى المحيطة بالقلعة، تطوف بالغابات وتثرثر مع أدوُوا.

عصر ذلك اليوم الذي يصل فيه الضباط الهولنديون، التقت إفيا أدوُوا و(سارة) فتاة (سام يورك) الهجينة والفتاة الجديدة (إيكواه) خارج القلعة. توقفن عند ظلال بعض الأشجار لتناول اليامات مع يخنة زيت النخيل. كانت إيكواه طويلة رفيعة، تمشي وكأنّ أطرافها مقدودة من غصينات دقيقة، كما لو أنّ الريح يمكن أن تنتشلها وتحطّمها. كانت تستلقي تحت ظل نخلة، وقد ساعدتها إفيا أمس في تجديل شعرها، فبدت تحت أشعة الشمس وكأن ألف ثعبان صغير يطل من رأسها.

- زوجي لا يستطيع أن ينطق اسمي كما هو. يريد أن يُسميني إمِلي.

أدوُوا هي الأقدم بين الفتيات الأربع، ما جعلها تعبّر عن آرائها دائمًا بحرية وبصوت مسموع. وكان الجميع يعرفن أن زوجها يعبد تراب قدميها. قالت لإيكواه: «دعيه يسمّيك إملي إن كان يريد. هذا أفضل من أن تسمعيه وهو يشوّه لغتك مرة بعد مرة».

غرزت سارة مرفقيها في التراب. «كان والدي جنديًا أيضًا، وحين مات أخذتنا والدتي إلى القرية. عدتُ إلى هنا للزواج من سام، ولكن لم تكن له مشكلة مع اسمي. هل تصدّقن أنه كان يعرف والدي؟ كانا جنديين معًا في القلعة حين كنتُ صبيّة صغيرة».

هزّت إفيا رأسها وهي مستلقية على بطنها. تحب إفيا الأيام التي تشبه هذا اليوم، حيث يمكنها التحدث بالفانتية كما تريد. لا أحد يطلب منها أن تتمهّل في حديثها، ولا أحد يأمرها أن تتحدث بالإنجليزية.

بصوت رقيق قالت إيكواه: «يأتي زوجي من الزنازين ورائحته مقرفة، مثل الجيفة». أشاحت الفتيات بأنظارهنّ بعيدًا، إذ لم يكن أحد يذكر الزنازين ألبتّة.

- يأتيني ورائحته كالعفن والبراز، عيناه كأنها رأت من توّها ألف شبح، ولا

يدري هل أنا واحدة منها أم لا. أطلب منه أن يغتسل قبل أن يلمسني، ويفعل ذلك أحيانًا، لكنه في أحيان أخرى يدفعني على الأرض ويرهزني بقوة كمن به مسّ.

نهضت إفيا وأسندت يدها إلى بطنها. كان جيمس قد تلقّى رسالة من زوجته بعد يوم واحد من تلك الليلة التي رأى فيها الجذور. ومنذ ذلك الحين لم يقربها.

اشتدت الريح، فأخذت الثعابين على رأس إيكواه تنهش يمنة ويسرة، وذراعاها الدقيقتان مرفوعتان. قالت:

- لعلمكن، هناك أناس في الأسفل. ثمة نساء هناك يشبهننا، وينبغي لأزواجنا أن يعرفوا كيف يفرّقون بيننا وبينهن.

خيّم الصمت عليهن، وأسندت إيكوا ظهرها إلى الشجرة، في حين أخذت إفيا تراقب سرب نملٍ مر فوق جديلة من شعرها، وقد بدا شكل السرب لهنّ مجرد جزء آخر من عالم الطبيعة.

منذ تلك الحادثة في اليوم الأول لإفيا في القلعة لم يحدّثها جيمس عن العبيد الذين يحبسونهم في الزنازين، لكنه كثيرًا ما كان يحدثها عن الحيوانات. ذلك كان أكثر ما يهرّبه الأشانتيّون إليهم. نسانيس وشمبانزي، بل بعض الفهود أيضًا، وببغاوات وطيور متوّجة كالتي كانت إفيا وأخوها يطاردانها في طفولتهما، يطوفان بالغابات بحثًا عن ذلك الطائر الفريد ذي الريش العجيب. كانا يقضيان الساعات بلا توقف في البحث عن واحد من تلك الطيور، وغالبًا لا يجدان شيئًا.

تساءلت في نفسها عن قيمة طائر كهذا، ففي القلعة كان لكل حيوان قيمة. ذات يوم رأت جيمس ينظر إلى طائر متوّج أحضره أحد التجار الأشانتيين وقال إنه يساوي أربعة جنيهات. ولكن ماذا عن الحيوان الآدمي؟ كم قيمته؟ كانت إفيا تعلم طبعًا أن هناك بشرًا في الزنازين. أناس يتحدثون لهجة غير لهجتها، أُسروا في حروب قبليّة، وآخرون سُرقوا، ولكن لم يخطر ببالها قط أين يذهبون بعد الزنازين. لم يخطر لها قط ما يدور في رأس جيمس كلما رأى واحدًا منهم. لم تفكر فيما إذا ذهب إلى الزنازين ورأى نساء يذكّرنه بها، يشبهونها في

ملامحها ورائحتها، فيما إذا عاد من هناك مسكونًا بما رأى.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت إفيا أنها حبلى. كان ذلك في فصل الربيع، حين بدأت أشجار المانجو خارج القلعة تطرح ثمارها. برزت بطنها ناعمة ممتلئة، ثمرةً من نوع خاص. كان جيمس سعيدًا للغاية حين أخبرته، حتى أنه حملها ورقص بها فرحًا. ضربت ظهره طالبة منه أن ينزلها، وإلا تحوّل الجنين إلى أشلاء، فأنزلها قبل أن ينحني ويطبع قبلة على بطنها.

لكنّ الأخبار السيئة التي جاءت من القرية أفسدت فرحتهما. أصيب كوبي بمرض بلغ من الشّدة أن إفيا يأست من رؤيته حيًّا حين تصل إلى القرية. لم تكن تعرف من أرسل الرسالة، فقد كانت موجهة إلى زوجها ومكتوبة بإنجليزية مكسّرة. عامان انقضيا على غياب إفيا، ولم يصلها أي شيء من عائلتها. كانت تعرف أن بابا وراء ذلك، بل إنها استغربت أن يفكّر أحد بإخبارها عن مرض أبيها.

استغرقت الرحلة إلى القرية نحو ثلاثة أيام. لم يكن جيمس يريدها أن تسافر وحيدة وهي حبلى، لكنه لم يستطع مرافقتها، فأرسل معها خادمة. حين وصلت إلى القرية كان كل شيء فيها يبدو مختلفًا. قمم الأشجار بدت باهتة، وأغصانها وأوراقها هامدة. حتى الأصوات بدت مختلفة، فكلّ ما كان يتهفهف سابقًا أصبح الآن في سكون. كان أبيكو قد جعل القرية غنية جدًا، حتى أنها ستُعرف إلى الأبد كواحدة من أكبر أسواق العبيد في ساحل الذهب بأكمله. لم يكن لديه وقت ليرى إفيا، لكنه أرسل ذهبًا ونبيذَ نخل حُلوًا في انتظارها متى ما وصلت مسكن أبيها.

عند باب المدخل انتصبت بابا، بدت كما لو أنها قد كبرت مئة سنة في العامين اللذين غابت فيهما إفيا. مئات من التجاعيد الصغيرة على وجهها فأصبح لا يبارحه العبوس، أما أظافرها فقد طالت وتقوّست كالمخالب. لم تنبس بكلمة، واكتفت بأن اقتادت إفيا إلى الغرفة التي كان فيها كوبي مستلقيًا على فراش الموت.

لم يستطع أحد أن يحدد المرض الذي أصابه. أرسلوا في طلب أصحاب العقاقير والمشعوذين وحتى رجل الدين المسيحي من القلعة كي يداووه ويصلّوا لأجله، ولكنْ لا دواء ولا علاجًا روحيًا كان بإمكانه أن ينتزعه من أنياب الموت.

وقف فيفي بجانبه يمسح العرق عن جبينه، وفجأة كانت إفيا تبكي وترتعش. مدّت يدها إلى يد أبيها الشاحبة، وأخذت تمسّدها. همس لها فيفي وهو يخطف نظرة سريعة إلى بطنها الناتئة: «لا يقوى على الكلام». هزّت رأسها واستمرّت في البكاء. ترك فيفي المنديل المبلل وأمسك يد إفيا. «أختي، أنا الذي كتبت الرسالة. لم تكن ماما تريدك أن تأتي، لكنني قلت في نفسي لا بد أن تري والدنا قبل أن تنتقل روحه إلى أرض الأساماندو».

أغلق كوبي عينيه، وندت عنه همهمة خفيفة كي تدرك إفيا أنّ أرض الأرواح تلك كانت بالفعل تناديه. شكرت فيفي لأنه استدعاها. بدأ يمشي خارجًا، لكنه استدار قبل أن يصل إلى الباب. «بابا ليست أمك. أنجبكِ والدنا من خادمة هربت واختفت في الحريق ليلة مولدك. هي التي تركت لك ذلك الحجر الذي تعلّقينه حول عنقك».

خرج فيفي، وما لبث كوبي أن فارق الحياة، يده في يد ابنته. سيتحدّث أهل القرية لاحقًا أنّ كوبي كان ينتظر إفيا قبل أن يسلم روحه، لكنّ إفيا كانت تعرف أنّ الأمر لم يكن بهذه البساطة. إنما القلق هو الذي أبقاه حيًا، وقد انتقل هذا القلق الآن إليها، وهو الذي ستقتات عليه، ويقتات طفلها عليه أيضًا.

خرجت إفيا تحت ضوء الشمس بعد أن مسحت أدمعها. كانت بابا تجلس على بقايا شجرة طريحة، ظهرها مستقيم ويدها في يد فيفي الذي كان يجلس بجانبها هادئًا كفأر. أرادت إفيا أن تقول شيئًا لبابا، أن تعتذر ربما عن الحِمل الذي ألقاه والدها عليها طوال تلك السنين. وقبل أن تنبس بكلمة، حشرجت بابا ثم بصقت عند قدمَي إفيا وقالت: «أنتِ لا شيء. لا أصل لك. لا أمّ لك، والآن لا أب». ثم نظرت إلى بطن إفيا وابتسمت: «ما الذي قد يُنتظر من اللا شيء؟».

إسِي

الرائحة لا تُطاق. هناك في الزاوية، ثمة امرأة تبكي بحرقة حتى بدا أن عظامها سوف تتفكك من شدة اختلاجاتها. هذا ما كانوا يريدونه. كان رضيعها قد وسّخ نفسه، وأمّه (أفُوا) لم يعد فيها حليب. كانت عارية إلا من قطعة قماش صغيرة ناولها التجار إياها لتمسح حلمتيها كلما تسرب الحليب منهما، لكنهم أخطأوا في حساباتهم. فحين لا يكون هناك طعام للأم، لا يكون هناك غذاء للطفل. لن يلبث الطفل أن يبكي، لكنّ الصوت سيتلاشى في جدران الطين، وسيغرق في بكاءات مئات النساء من حوله.

أسبوعان انقضيا على (إسي) في زنزانة النساء بقلعة كيپ كوست. هناك قضت عيد ميلادها الخامس عشر. في العيد السابق كانت في قلب أرض الأشانتي، في مساكن أبيها الذي يسمّونه «الكبير». كان المقاتل الأفضل في القرية، ما جعل الجميع يأتي ليخطب ودّ ابنته التي ازداد جمالها يومًا بعد يوم. أحضر (كواسي نورو) ستين يامة، أكثر من أي خاطب جاء من قبل. وكان من المقرر أن تتزوجه إسي في الصيف، إذا امتدت الشمس وارتفعت، وحان عصر نبيذ النخل، إذ يتسلقه الأطفال الأكثر نشاطًا، أذرعهم تحتضن الجذع وهم يصعدون إلى القمة كي يقطفوا الثمار التي تنتظر هناك.

كانت إسي تقتات على هذه الذكريات حين تريد أن تنسى القلعة، ولكنْ لا عزاء قد يُرتجى. فالجحيم في حقيقته ليس سوى مكانٍ لاستدرار الذكريات، أما

اللحظات الجميلة فتعبر العقل إلى أن تسقط على الأرض كحبات مانجو تالفة، عديمة الجدوى تمامًا، وتامّةً بلا جدوى.

جاء أحد الجنود إلى الزنزانة وبدأ يتحدث. كان عليه أن يسدّ منخريه بأصابعه كي يمنع نفسه من التقيّؤ. لم تفهم النساء ما قاله، وصوته لم يبد غاضبًا، لكنّهن تعلّمن أن يتراجعن بعيدًا عند رؤية ذلك الزي، وتلك البشرة التي تشبه لبّ جوز الهند.

كرّر الجندي ما قاله ولكن بصوت أعلى هذه المرة، كما لو أنّ الصّياح يستدعي الفهم. تقدّم في الغرفة أكثر، متبرّمًا، داس على خراء فأطلق لعنة. اقترب من أفُوا وانتزع الطفل من حضنها، فأخذت تبكي. صفعها، فتوقفت عن البكاء. كان هذا ردّ الفعل الذي تعلّمنه هناك.

جلست (تانسي) إلى جانب إسي. كانت قد رافقتها في الرحلة إلى القلعة، والآن وقد توقفتا عن السير والحديث همسًا، أصبح لإسي الوقت الكافي كي تعرف رفيقة رحلتها. كانت تانسي امرأة دميمة وقوية الاحتمال، مكتنزة متينة البنية، لم تبلغ السادسة عشرة إلا مؤخرًا. في داخلها كانت إسي تأمل أن يُسمح لهما بالبقاء معًا فترة أطول، لكنها تشكّ في ذلك.

سألتها إسي: «إلى أين يأخذون الطفل؟». بصقت تانسي على الأرض الطينية ثم حرّكت البصقة بإصبعها لتصيّرها مرهمًا. «سيقتلونه، أكيد». كانت بذرة هذا الطفل قد زُرعت قبل زفاف أفُوا، فعاقبها زعيم القرية بأن باعها للتجار. أفُوا هي التي أخبرت إسي بذلك حين أحضروها إلى زنزانة القلعة، حين كانت ما تزال واثقة أنّ ثمة خطأ حدث، وأنّ والديها سيعودان ليأخذاها.

استأنفت أفُوا بكاءها وهي تسمع تانسي تتحدث، ولكن لم يبد أنّ أحدًا يسمعها. كانت الدموع مسألةً روتينية، تصيب جميع النساء. هناك في الزنزانة كانت النساء يسفحن الدمعات إلى أن يستحيل الطين من تحتهن وحلًا. في الليل كانت إسي تحلم أنهن لو بكين معًا جميعًا، سيتحول الوحل إلى نهر يجرفهن بعيدًا إلى المحيط الأطلسي.

قالت إسي متوسلة: «تانسي، احكي لي حكاية، أرجوك»، لكنّ صوت الباب قاطعهما. جاء الجنود بتلك العصيدة الرخوة نفسها التي كانت تُقدم إليهن في قرية الفانتي حيث احتُجزت إسي. تعلّمت إسي الآن أن تبتلعه دون أن تتقيأ. كان هذا هو الطعام الوحيد الذي يحصلن عليه، وقد أصبحت تعرف أنّ الأيام التي يكون فيها البطن خاويًا أكثر من غيرها. بدا كما لو أنّ العصيدة عبرت من جسمها مباشرة. فالأرضية كانت متسخة بفضلاتهن. تلك الرائحة التي لا تُطاق.

قالت تانسي حين غادر الجنود: «آه، لقد كبرتِ على الحكايات يا أختي»، لكنّ إسي كانت تعلم أنها ستستجيب سريعًا. كانت تانسي تستمتع بوقع صوتها. سحبت رأس إسي إلى حضنها وبدأت تلعب بشعرها، تسحب الجدائل التي غطّاها التراب، فغدت هشّة يمكن أن تنكسر، تتقصّف كل واحدة منها مثل غُصين صغير.

قالت تانسي: «هل تعرفين قصة قماش الكينتي؟». كانت إسي قد سمعتها مرات كثيرة من قبل، وسمعتها مرّتين من تانسي نفسها، لكنّها هزّت رأسها نفيًا. فهذا السؤال الذي يلقيه الحكّاؤون ليس سوى جزء من الحكاية نفسها.

بدأت تانسي تحكي: «في يوم من الأيام ذهب رجلان أشانتيّان إلى الغابة. كانا يعملان نسّاجَين. وحين وصلا إلى الغابة لجمع الفخاخ التي تركاها للصيد، إذا بهما يريان أنانسي، العنكبوت الخبيث. كان ينسج شبكة ضخمة، فأخذا يراقبانه ويتفحصان حركاته، فوجدا شبكة العنكبوت فريدة الشكل جميلة، وأنّ الطريقة التي يستخدمها العنكبوت متقنة. قفلا عائدَين إلى البيت وقررا أن ينسجا القماش كما ينسج أنانسي شبكته، ومن هنا وُلد قماش الكينتي».

هتفت إسي: «يا لك من حكّاءة». ضحكت تانسي، ودهنت ركبتيها ومرفقيها بالمرهم الذي صنعته لعلاج الجلد المتشقق. قبل هذه الحكاية كانت تانسي قد حكت لإسي كيف أسَرها الشماليون، إذ انتزعوها من فراش الزوجية بينما كان زوجها بعيدًا يقاتل في معركة. أخذوها مع بضعة بنات أخريات، لكنّ الأخريات لم يعشن.

حين جاء الصباح، ماتت أفُوا. كان جلدها أرجوانيًا وأزرق، فعرفت إسي أنها حبست أنفاسها إلى أن أخذ إنيامي روحها. سوف يُعاقَبن جميعًا لما حدث. جاء الجنود، لكنّ إسي لم تعد قادرة على تحديد الوقت. فالأوقات كلها سواء خلف جدران الطين. لم تكن هناك أشعة شمس، والظلام حاضر في الليل والنهار وما بينهما. في بعض الأحيان كانت هناك أجساد كثيرة مكدّسة في زنزانة النساء حتى اضطررن إلى الاستلقاء على بطونهن، كيما يمكن تكديس النساء فوقهن.

كان ذلك واحدًا من تلك الأيام. جاء جندي وركل إسي إلى الأرض، ووضع قدمه على قاعدة رقبتها حتى لم تستطع أن تحرّك رأسها لتتنفّس شيئًا، سوى الغبار والفتات المتناثر على الأرض. أحضروا النساء الجديدات، بعضهن انتحب بشدّة إلى أن جاءتهن لطمات الجنود ففقدن الوعي. راكموهنّ فوق النساء الأخريات بحِملهنّ الكامل ذاك. وحين جاءت هاته النساء الملطومات لم تعد هناك دموع. كانت إسي تحسّ بالمرأة التي فوقها تتبوّل، فينتقل البول بين سيقان المرأتين.

تعلّمت إسي أن تقسّم حياتها إلى ما قبل القلعة والآن. قبل القلعة كانت ابنة الكبير وزوجته الثالثة (مامي). الآن هباء. قبل القلعة كانت الفتاة الأجمل في القرية. الآن سراب.

وُلدت إسي في قرية صغيرة تقع في قلب أرض الأشانتي. كان الكبير قد أولم وليمة هائلة استمرت أربع ليال. ذُبحت خمس معزات وغُليت حتى أصبح جلدها طريًا، وقيل إنّ مامي لم تتوقف عن البكاء أو التسبيح باسم إنيامي طيلة الاحتفالات، ولم تنزل عنها رضيعتها إسي قط. كانت تردد طوال الوقت: «كل شيء وارد الحدوث».

في ذلك الوقت كان الكبير يُعرف باسم «كوامي أساري». لم يكن والد إسي زعيمًا، لكنه كان يحظى باحترام يساوي احترام الزعيم، ذلك أنه أفضل مقاتل

شهده الأشانتيون على الإطلاق. في سنّ الخامسة والعشرين لا أكثر، كانت له خمس زوجات وعشرة أطفال. والكل كان يعرف أن بذرته قوية، فأولاده الذين لا يزالون أطفالًا صغارًا كانوا مصارعين أشدّاء، أما بناته فكنّ أجمل الجميلات.

نشأت إسي في نعمة، وكان أهل القرية يسمّونها المانجو الناضجة، كالمانجو التي تُركت طويلًا على هواها، لكنها ما تزال حُلوة. لم يكن والداها يرفضان لها طلبًا. حتى أبوها المصارع القوي كان يحملها في القرية ليلًا حين لا تستطيع النوم. كانت إسي تمسك رأس إصبعه الذي يبدو لها سميكًا كالغصن، وهي تتمشى أمام أكواخ القرية. كانت قريتها صغيرة لكنها تنمو باطراد. في السنة الأولى من جولاتها مع أبيها كان الأمر لا يستغرق أكثر من عشرين دقيقة للوصول إلى طرف الغابة التي تفصلهم عن بقية أرض الأشانتي، لكنّ الغابة انحسرت أكثر فأكثر، ومع السنة الخامسة أصبحت الرحلة إلى هناك تستغرق نحو ساعة. كانت إسي تحب المشي إلى الغابة مع والدها، تنصت إليه في سعادة وهو يخبرها كيف أنّ الغابة كثيفة جدًا مثل الدرع، منيعة على الأعداء. كان يقول لها كيف أنه والمقاتلين الآخرين يعرفون الغابة أفضل مما يعرفون صفوف نخيلهم. كان هذا أمرًا محمودًا؛ فصفّ النخيل لا يقود إلى مكان، أما الغابة فتقود المقاتلين إلى القرى الأخرى التي يمكنهم أن يحتلوها ليزدادوا بأسًا.

ذات يوم وهما يمشيان عائدَين إلى القرية قال لها: «حين تكبرين يا إسي سوف تتعلمين كيف تتسلقين هذه الأشجار بيديك العاريتين فقط». نظرت إسي إلى الأعلى، كانت قمم الأشجار تبدو وكأنها تلامس السماء، فتساءلت إسي لماذا إذًا تكون الأوراق خضراء لا زرقاء.

حين بلغت إسي السابعة من عمرها انتصر أبوها في معركة أكسبته لقب «الكبير». انتشرت شائعات أنّ قريةً تقع شمالهم عاد مقاتلوها بكنوز من الذهب والنساء، بل إنهم غزوا المستودع البريطاني وغنموا البارود والبنادق. فدعا زعيم القرية (إنورو) جميع الرجال القادرين على القتال ليجتمعوا عنده.

سألهم: «هل سمعتم الأخبار؟»، فنخروا ثم ضربوا الأرض بعصيّهم

وصاحوا. «إنّ خنازير القرية الشمالية يمشون الآن كالملوك. سيتحدث الأشانتيون في كل مكان أنّ الشماليين هم الذين سرقوا البنادق من البريطانيين. أنّ الشماليين هم المقاتلون الأقوى في ساحل الذهب». ضرب الرجال بأقدامهم وهزّوا رؤوسهم. فسألهم الزعيم: «أفهل نسمح بذلك؟».

صاحوا بصوت واحد: «لا!».

هنا تدخّل (كواكو أجيه)، الرجل الأعقل بينهم، فأسكت صيحاتهم وقال: «اسمعوا. يمكننا أن نذهب لقتال الشماليين، ولكن ماذا نملك؟ لا بنادق ولا بارود. وماذا سنجني؟ كثيرون جدًا سيمدحون أعداءنا في الشمال، ولكن ألن يظلوا يمدحوننا نحن أيضًا؟ نحن القرية الأقوى لعقود من الزمن، ولم يتمكن أحد من اختراق غابتنا وتهديدنا».

سأله أبو إسي: «وهل تريدنا إذًا أن ننتظر حتى تزحف الأفعى الشمالية إلى حقولنا وتسرق نساءنا؟». وقف الرجلان في جانبين متقابلين في الغرفة، والآخرون يديرون رؤوسهم بينهما، كي يروا أي نعمة ستنتصر: الحكمة أم القوة.

- أنا أقول فقط دعونا نتريّث، خشية أن نظهر بمظهر الضعيف.

فسأل والد إسي: «ومن الضعيف؟ من بَيننا ضعيف؟ أنت؟ أو ربما أنت؟»، وأشار إلى (نانا أديه) ثم إلى (كوجو انياركو)، ثم إلى (كوابِنا جيماه).

هزّ الرجال رؤوسهم واحدًا تلو الآخر، وسرعان ما كانوا جميعًا يهزّون أجسادهم كلها في صيحة حشدٍ يمكن سماعها من أنحاء القرية كلها. هناك، في الكوخ حيث كانت إسي تساعد أمها في قلي البلانتين [موز الجنة]، سمعتْهم، فأسقطت شريحتين من البلانتين بسرعة جعلت الزيت ينتثر على ساق أمها.

صاحت مامي: «آآآاي»، وهي تمسح الزيت بيديها وتنفخ على مكان الحرق. «حمقاء! متى ستتعلمين الحذر قرب النار؟». كانت إسي قد سمعت أمها تقول ذلك أو شيئًا شبيهًا به مرات عديدة من قبل. كانت مامي ترتعب من النار، وكثيرًا ما تقول: «احذري النار، وتعلّمي متى تستخدمينها ومتى تظلّين في البرد».

ردّت إسي بحدّة: «بالخطأ». كانت تريد الخروج لتتسقط المزيد من

أصوات المقاتلين. مالت أمها وشدّت أذنها. «كيف تتحدثين معي بهذه الطريقة؟ فكري قبل أن تتصرفي، وفكري قبل أن تتكلمي». اعتذرت إسي لأمّها بينما أصوات المقاتلين تعلو أكثر في الخارج، فقبّلت رأسها إذ لم تكن تستطيع أبدًا أن تظل غاضبة على إسي أكثر من ثوان معدودة.

كان الجميع في القرية يعرف القصة، وطلبت إسي من أبيها أن يحكيها لها كل ليلة طوال شهر كامل. كانت تضع رأسها في حجره، تستمع وهو يحكي كيف تسلّل الرجال إلى القرية الشمالية في ذلك المساء حين تعالت صيحات الحشد. كانت خطّتهم بسيطة هشّة: احتلوا البلدة واسرقوا كل المسروقات. أخبرها والدها كيف قاد الرجال عبر الغابة حتى وصلوا إلى حَلقة المقاتلين الذين يحمون البضائع المسروقة. اختبأ والدها ورجاله في الأشجار، وتحرّكت أقدامهم بخفّة الأوراق على أرض الغابة. وحين لاقوا مقاتلي القرية الشمالية قاتلوهم بشجاعة، ولكن بلا فائدة. وقع أبوها وآخرون في الأسر، وحُشروا في أكواخ أصبحت تُستخدم سجنًا.

كان كواكو أجيه وأتباعه القليلون هم من قادتهم بصيرتهم إلى الانتظار في الغابة إلى أن يندفع المقاتلون المتحمسون إلى الداخل. وجدوا البنادق التي كان الشماليون يخبّئونها، فحشوها بالطلقات في سرعة وهدوء قبل أن يقتحموا المكان الذي احتُجز فيه رفاقهم. ورغم قلة عددهم إلا أنهم استطاعوا صدّ المقاتلين بالقصص التي اختلقوها عن رجال كثيرين خلفهم. قال كواكو أجيه إنّ المهمة هذه لو فشلت، فسوف يتعرض الشماليون لغزوة كل ليلة دون توقف. قال محاججًا والظلام يلوح من الفجوة بين أسنانه الأمامية: «وإن لم تأتِ من الغرب، فسوف تأتي من البيض».

شعر الشماليون بأنه لا خيار لهم سوى الرضوخ. أطلقوا سراح والد إسي والآخرين، فغادر هؤلاء بخمس من البنادق المسروقة. عاد الرجال إلى قريتهم في هدوء، ووالد إسي قد استنزفه الحَرج. حين وصلوا إلى طرف القرية أوقف كواكو أجيه وجثا على ركبتيه وطأطأ رأسه أمامه. «متأسف يا أخي. لن أسارع

إلى قتالٍ أبدًا حين يمكنني التعقّل». فقال كواكو أجيه: «وحده الرجل الكبير من يعترف بخطئه». واصل الجميع طريقهم إلى القرية، يقودهم ذلك التائب الذي نُصِّب كبيرًا للتوّ.

كان هذا هو الكبير الذي عاد إلى إسي، وهو الذي عرفته في نشأتها. حليم، متعقّل، وفي الوقت نفسه الأقوى والأشجع بين جميع المقاتلين. فحين بلغت إسي الثانية عشرة كانت قريتهم الصغيرة قد انتصرت في أكثر من خمسٍ وخمسين حربًا بقيادة الكبير. وكان أهل القرية يرون المقاتلين يحملون الغنائم من هذه الحروب، ذهبًا لامعًا وقماشًا بهيّ الألوان في أكياس بنّية كبيرة، وأسرى في أقفاص حديدية.

أولئك الأسرى هم من أثاروا دهشة إسي أكثر من أي شيء آخر. كانوا بعد كل معركة يُوضعون للعرض في وسط ساحة القرية. ويمكن لأي أحد أن يمشي هناك ويحدّق فيهم، معظمهم مقاتلون شباب أشدّاء، وفي بعض الأحيان نساء مع أطفالهن. يأخذ أهل القرية هؤلاء الأسرى عبيدًا وخدمًا وطباخين ومنظّفين، ولكن سرعان ما تتكدس أعدادهم فينبغي التعامل مع هذا الفائض.

سألت إسي أمها وهما تمرّان بالساحة ذات يوم، تجرّان عشاءهما، معزاة مربوطة بحبل: «ماما، ماذا يحدث للسجناء بعد أن يغادروا من هنا؟». ردّت أمّها وهي تحوّل عينيها بعيدًا: «هذه شؤون الرجال يا إسي. لا حاجة بك إلى التفكير فيها».

•

طوال الفترة التي تتذكرها إسي من حياتها، وربما قبل ذلك حتى، كانت مامي ترفض أن تختار خادمًا أو خادمة من بين الأسرى الذين يُعرضون كل شهر في القرية، ولكن بعد أن تزايدت أعدادهم بدأ الكبير يلحّ في الأمر. «الخادمة ستساعدك في الطبخ».

- إسي تساعدني في الطبخ.
- لكنّ إسي ابنتي، وليست ابنة أحد من الأوباش كي تؤمر وتُنهر.

ابتسمت إسي لذلك. كانت تحبّ أمها، لكنها تعرف أيضًا أنّ مامي محظوظة لأنها تزوجت رجلًا مثل الكبير وهي التي لا عائلة لها، ولا ماض تتحدث عنه. والكبير أنقذها بطريقة ما، من شقاء لا تعرفه إسي. كل ما تعرفه هو أنّ أمها مستعدة لفعل أي شيء من أجل أبيها.

- حسنًا. إسي وأنا سنختار فتاة غدًا.

وهكذا اختارتا فتاةً وقررتا تسميتها «أبرونوما»، الحمامة الصغيرة. لتلك الفتاة بشرة لم تر إسي أغمق منها في حياتها. كانت تخفض بصرها، ورغم أنّ لهجتها التوِيّة كانت مقبولة، إلا أنها نادرًا ما تتحدث بها. لم تكن الفتاة تعرف سنّها، لكنّ إسي خمّنت أنها لم تكن تكبرها إلا بقليل. في البدء كانت أبرونوما سيئة جدًا في أعمال المنزل. تريق الزيت، ولا تكنس تحت الأشياء، ولا تعرف قصصًا جميلة للأطفال.

قالت مامي للكبير: «إنها عديمة الجدوى. لا بدّ أن نعيدها».

كانوا في الخارج جميعًا يستمتعون بدفء الشمس عند الظهيرة. أمال الكبير رأسه إلى الخلف وأطلق ضحكة دوت كالرعد في موسم مطير. «تعيدينها إلى أين؟ هناك طريقة واحدة فقط لتدريب العبيد». التفت إلى إسي التي كانت تحاول أن تتسلق نخلة بالطريقة التي رأت الأطفال الآخرين يفعلونها، لكنّ ذراعيها كانتا صغيرتين جدًا فلا تستطيع بهما أن تطوّق الجذع. «إسي، اذهبي وأحضري عصاي».

العصا التي يتحدث عنها الكبير مصنوعة من عودين من القصب مربوطين ببعضهما. كانت أطول عمرًا من جدّ إسي لأبيها، وأخذت تنتقل من جيل إلى جيل. لم يستخدمها الكبير لضرب إسي قط، لكنها رأته يضرب أولاده الذكور. كانت تذكر صفير العصا حين ترتد عن جلودهم. تحركت إسي، لكنّ مامي أوقفتها: «لا». رفع الكبير يده على زوجته والغضب يتطاير من عينيه كبخار ماء بارد من مقلاة ساخنة. «لا؟!». تلعثمت مامي. «أنا..أنا أقصد أنني أنا من يجب أن يتولى ذلك».

أخفض الكبير يده، وحدّق في مامي طويلًا، فحاولت إسي أن تقرأ النظرة التي مرّت بينهما. «فليكن. ولكن غدًا سأحضرها هنا. ستحمل الماء من هذا الفناء إلى تلك الشجرة هناك، وإن سقطت قطرة واحدة منها، **أنا** سأتولى الأمر. مفهوم؟».

أومأت مامي وهزّ الكبير رأسه. كان دائمًا يقول لمن يسمعه إنه أفسد زوجته الثالثة بدلاله، فوجهها الجميل يغويه، وعيناها الحزينتان ترقّقان قلبه.

دخلت مامي وإسي كوخهما ووجدتا أبرونوما ملتفة حول نفسها على فراش من الخيزران، تبدو تمامًا كالطائر الذي تحمل اسمه. أيقظتها مامي وأوقفتها أمامها. سحبت عصا أعطاها إياها الكبير، عصا لم تستخدمها في حياتها قط. بعد ذلك نظرت إلى إسي والدمع في عينيها: «اتركينا وحدنا، أرجوك». خرجت إسي من الكوخ، وظلّت بضع دقائق تسمع صوت العصا، وتناغم الصرختين المتقطعتين.

في اليوم التالي دعا الكبير الجميع إلى مساكنه كي يروا ما إذا كانت أبرونوما ستستطيع أن تحمل دلو ماء على رأسها من الفناء إلى الشجرة دون أن تريق قطرة. تجمعت إسي وعائلتها كلها، زوجات أبيها الأربعة وإخوتها التسع غير الأشقاء، كلهم في الفناء الكبير ينتظرون أن تأتي الفتاة أولًا بالماء من النبع في دلو أسود كبير. أمرها الكبير أن تقف أمام الجميع وتنحني لهم قبل أن تبدأ سيرها إلى الشجرة. كان يمشي بجانبها ليتأكد أنّ كل شيء يسير وفق ما يريد.

رأت إسي الحمامة الصغيرة ترتعش وهي ترفع الدلو على رأسها. ضمّت مامي ابنتها إلى صدرها وابتسمت للفتاة حين انحنت لهم، لكنّ النظرة التي بدت في عين أبرونوما كانت نظرة خوف، ثم فراغ. حين لمس الدلو رأسها بدأت العائلة تهزأ.

قالت أمّا زوجة الكبير الأولى: «لن تستطيع أبدًا».

وقال الولد الأكبر (كوجو): «انظروا، سوف تسكب الماء وتغرق فيه».

خطت الحمامة الصغيرة خطوتها الأولى، فأطلقت إسي نفسًا كانت تحبسه. هي نفسها لم تستطع قط أن تحمل حتى لوح خشب واحدًا على رأسها، لكنها رأت أمها تحمل جوزة هند مدوّرة دون أن تتحرك، ثابتة مثل رأسٍ آخر. سألتها إسي: «من أين تعلمت أن تفعلي ذلك؟»، فردّت أمها: «يمكن للمرء أن يتعلم أي شيء حين يُضطر إلى تعلمه. يمكنكِ أن تتعلمي الطيران إن كان ذلك شرطًا لتعيشي يومًا آخر».

ثبّتت أبرونوما ساقيها واستمرت في المشي، رأسها إلى الأمام. مشى الكبير إلى جانبها، يصبّ الإهانة تلو الأخرى في أذنها. وصلت إلى الشجرة عند حافة الغابة ودارت عائدة إلى الجمهور الذي ينتظرها. وحين وصلت قريبًا جدًا بما يكفي لتبيّن ملامحها، كان هناك عرق يتصبب من حافة أنفها، وعيناها مترعتان بالدموع. حتى الدلو الذي فوق رأسها بدا وكأنه يبكي، إذ تتكثف القطرات على سطحه. وحين رفعت الدلو عن رأسها، بدأت تبتسم بانتصار. ربما كانت هبّة ريح، وربما حشرة تريد أن تستحم، أو ربما انزلقت يد الحمامة الصغيرة، فقبل أن يصل الدلو إلى الأرض قفزت قطرتان إلى الخارج.

نظرت إسي إلى مامي التي حوّلت عينيها الحزينتين المتوسلتين إلى الكبير. ولكن في تلك اللحظة كانت بقية العائلة تصرخ مطالبة بالعقاب. وبدأ كوجو يقودهم في الأغنية:

الحمامة أخفقت

فماذا ستفعل؟

إما أن تعذّبها

أو ستفشل!

مدّ الكبير يده يلتقط عصاه، وسرعان ما علت أصواتٌ ترافق الأغنية. صوت القصب على الجلد، ومعزوفة القصب الطائر في الهواء. هذه المرة لم تبكِ أبرونوما.

قالت إسي: «لو لم يضربها لظنّ الجميع أنه ضعيف». بعد تلك الحادثة كانت مامي مفجوعة، تقول لإسي إنّ الكبير لم يجدر به أن يضرب الحمامة الصغيرة على خطأ صغير كهذا. كانت إسي تلعق الحساء من أصابعها وقد اصطبغت شفتاها باللون البرتقالي. كانت أمها قد أخذت أبرونوما إلى كوخهم وصنعت لها مرهمًا لجروحها، وهي الآن نائمة على فراش صغير.

حدّقت مامي في ابنتها بنظرة غلّ لم تر إسي مثلها من قبل. «ضعيف، هاه؟». فهمست إسي: «نعم».

- ليتني ما عشت لأسمع ابنتي تتحدث هكذا. أتريدين أن تعرفي ما هو الضعف؟ الضعف أن تعاملي أحدًا كما لو أنه من ممتلكاتك، والقوة أن تُدركي أنّ كل أحد مُلك نفسه.

كان وقع ذلك ثقيلًا على إسي. فهي لم تقل إلا ما سيقوله أي شخص آخر في القرية، لكنّ مامي نهرتها. أرادت أن تبكي، أن تحتضن أمها، أن تفعل شيئًا ما، لكنّ مامي تركت الغرفة لتنتهي من الأعمال التي لن تستطيع أبرونوما القيام بها الليلة.

حين غادرت بدأتْ الحمامة الصغيرة تتحرك. أتت لها إسي بالماء، وساعدتها في إمالة رأسها حتى تستطيع أن تشرب. لم تلتئم الجروح التي على ظهرها بعد، والمرهم الذي وضعته مامي يزكم الأنف برائحة الغابة. مسحت إسي أطراف شفتَي أبرونوما بأصابعها، لكنّ الفتاة دفعتها.

- اتركيني.

- أنا..أنا آسفة لما حدث. إنه رجل طيب.

بصقت أبرونوما على الأرض. «أبوكِ كبير، هاه؟»، فأومأت لها إسي، فخورة به رغم ما فعله لتوّه. أطلقت الحمامة ضحكة كئيبة. «أبي أيضًا كبير، وانظري إلى حالي الآن. انظري ماذا كانت أمك».

- ماذا كانت أمي؟

اندفعت عينا الحمامة الصغيرة إلى إسي. «أولا تعرفين؟».

في حياتها كلها لم تقض إسي بعيدًا عن أمها أكثر من ساعة، فلم تتخيّل أن تكون هناك أسرار في حياتها. كانت تعرف ملمسها، ورائحتها، وكم لونًا في حدقتيها، وتعرف كل ضرس تالف فيها. نظرت إسي إلى أبرونوما، لكنّ هذه هزّت رأسها واستأنفت ضحكتها.

- أمك كانت ذات يوم عبدةً لأسرة فانتيّة. اغتصبها سيدها لأنه كان أيضًا كبيرًا، والكبار يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون، لكي لا يكونوا **ضعفاء**، هاه؟

حوّلت إسي نظرها بعيدًا، وواصلت أبرونوما همسها. «لستِ أول ابنة لأمك. كانت هناك واحدة قبلك. في قريتي لدينا مقولة عن الأخوات المفترقات. إنهما كامرأة وانعكاس صورتها، محكوم عليهما أن يبقيا دومًا على الجانبين المتقابلين من الماء».

أرادت إسي أن تسمع المزيد، ولكن لم يكن هناك وقت لسؤال الحمامة الصغيرة. عادت مامي إلى الغرفة ورأت الفتاتين تجلسان جنبًا إلى جنب. «إسي، تعالي هنا ودعي أبرونوما تنام. غدًا سوف تستيقظين باكرًا وتساعدينني في التنظيف».

نهضت إسي لتترك أبرونوما ترتاح، ونظرت إلى أمها. تلك الطريقة التي يتدلّى بها كتفا مامي دائمًا، تلك الطريقة التي تتحوّل بهما عيناها سريعًا. فجأة، اجتاح إسي شعور رهيب بالعار. تذكرت أول مرة رأت شيخًا كبيرًا يبصق على الأسرى في ساحة القرية. «شماليون. ليسوا بشرًا. ليسوا سوى تراب يستحق البصق». كانت إسي تبلغ من العمر خمسة أعوام آنذاك، فوقعت هذه الكلمات عليها كدرسٍ ينبغي أن تتعلمه. وحين عبرت الساحة ثانية أخذت تجمع ريقها على استحياء ثم أطلقته على ولد صغير كان متكوّمًا على أمه. بكى الصبي، وتحدث بلغة لم تفهمها إسي. شعرت بالذنب، لا لأنها بصقت عليه، بل لأنها تعرف كيف ستغضب أمها لو رأتها تفعل ذلك.

أما الآن فكل ما يعبر مخيّلتها صورة أمها وراء تلك الأقفاص المعدنية الكئيبة. أمها، مكوّمة مع أخت لن تعرفها أبدًا.

في الشهور التالية حاولت إسي أن تصادق أبرونوما. قلبها بدأ يتألم للحمامة الصغيرة التي أتقنت الآن دورها كخادمة. فمنذ حادثة الضرب لم تَسقط كسرةُ خبز، ولم تنسكب قطرة ماء. في المساءات، وبعد أن تنتهي أبرونوما من عملها، كانت إسي تحاول أن تستدرج معلومات أكثر منها عن ماضي أمها.

كانت أبرونوما تردّ وهي تتناول حزمة من سعف النخيل تكنس بها الأرضية، أو تصفّي الزيت المستخدم عبر أوراق الشجر: «لا أعرف أكثر مما قلته». وحين بلغت قمة انزعاجها من أسئلة إسي صاحت: «لا تزعجيني».

لكنّ إسي حاولت أن تغريها بشيء تفعله في المقابل. «ما الذي يمكن أن أفعله لك؟ ما الذي يمكن أن أفعله؟». وبعد أسابيع من هذا السؤال، حصلت إسي أخيرًا على إجابة. قالت لها أبرونوما: «ابعثي رسالة إلى أبي. قولي له عن مكاني. أخبريه أين أنا، ولن يكون هناك ثأر بيننا».

في تلك الليلة لم تستطع إسي أن تنام. لقد أرادت أن تصالح أبرونوما، ولكن إن علم والدها بما طُلب منها فسوف تنشب حرب في الكوخ بالتأكيد. كان صوت أبيها يتردد في أذنها الآن وهو يصرخ على مامي، يقول لها إنّ تربيتها جعلت من إسي امرأة متصاغرة، ضعيفة. على أرضية كوخها ظلّت إسي تتقلب، وتتقلب، وتتقلب، إلى أن أسكتتها أمها. «كفى أرجوك، أنا متعبة». وكل ما كانت تستطيع إسي أن تراه من خلف جفنيها المطبقين صورة أمها خادمة.

حينها قررت إسي أن تبعث الرسالة. في وقت مبكر، مبكر جدًا من الصباح التالي ذهبت إلى المرسال الذي يعيش في طرف القرية. استمع إلى كلماتها وكلمات آخرين قبل أن ينطلق إلى الغابة كعادته كل أسبوع. كانت تلك الكلمات تُنقل من قرية إلى أخرى، ومن مرسال إلى آخر. من يدري ما إذا كانت رسالة إسي ستصل إلى والد أبرونوما؟ فقد تسقط أو تُنسى، تُحرَّف أو تضيع، ولكن على الأقل يمكن لإسي الآن أن تقول إنها أدّت ما طُلب منها.

حين عادت كانت أبرونوما هي الوحيدة المستيقظة. أخبرتها إسي بما فعلته، فصفّقت الفتاة فرحًا ثم اجتذبت إسي إلى ذراعيها الصّغيرتين واحتضنتها

بقوة حبست أنفاسها.

وفور أن أطلقتها الحمامةُ الصغيرة، سألت: «ما فات مات؟». قالت أبرونوما: «نعم»، فسرى الشعور بالارتياح في جسد إسي كما يسري الدم. فاض الارتياح منها حتى أنّ أصابعها كانت تختلج. حضنت أبرونوما، وحين ضمّت جسد الفتاة في ذراعيها تركت نفسها تتخيل أنّ الجسد الذي كانت تعانقه هو جسد أختها.

مضت الشهور، والحمامة الصغيرة تزداد اهتياجًا. كانت في المساءات تذرع الأرض وتغمغم لنفسها قبل النوم «أبي. أبي قادم». سمع الكبير غمغماتها وأوصى الجميع بالحذر منها، فقد تكون ساحرة. أخذت إسي تراقبها لترى أيّ علامات على السحر، لكنّ الكلام كان نفسه كل يوم: «أبي قادم. أعلم ذلك. إنه قادم». وأخيرًا هدّد الكبير بصفعها لو استمرت في ذلك، فتوقّفت، وسرعان ما نسيت الأسرة هذا الأمر.

انطوت الأيام كعادتها، ولم تتعرض قرية إسي لأي تهديد في حياتها كلها. كانت كل المعارك تجري بعيدًا عن القرية. فالكبير والمقاتلون الآخرون كانوا يدخلون القرى القريبة، يسلبون الأرض، وفي بعض الأحيان يحرقون العشب كي يرى الناس دخانه من مسافة ثلاث قرى فيعرفون أنّ المقاتلين قادمون. غير أنّ الأشياء كانت مختلفة هذه المرة.

بدأ الأمر حينما كانت الأسرة نائمة. كانت ليلة الكبير في كوخ مامي، فنامت إسي على الأرض في زاوية الغرفة. حين تناهت إلى مسامعها تلك التأوّهات الناعمة والأنفاس المتسارعة، أدارت وجهها للجدار. ذات مرة، مرة واحدة فقط، أخذت تراقبهما في فراشهما، تستر فضولها بالظلام. كان أبوها يعلو ويهبط فوق أمها، يتحرك برفق أولًا، ثم بقوة أكبر. لم تستطع أن ترى الكثير، لكنّ الأصوات هي التي لفتت انتباهها. تلك الأصوات الصادرة عن أبويها معًا، في خط رفيع بين اللذة والألم. كانت إسي تريد، وتخاف من أن تريد. لذا، لم تعد لهذا الأمر مرة أخرى أبدًا.

في تلك الليلة، وحين غطّ الجميع في النوم، انطلقت الصيحة. نشأ الجميع في القرية وهو يعرف معنى كل صوت. الآهتان الطويلتان تعنيان أنّ العدو على بعد أميال. الصرخات الثلاث السريعة تعني أنهم قاب قوسين. وما إن سمع الكبير الصرخات الثلاث حتى قفز من سريره واختطف المنجل الذي كان قد خبّأه تحت كل سرير من أسرّة زوجاته.

صرخ لمامي قبل أن يخرج من الكوخ، والوقت لا يكفي حتى ليداري عُريه: «خُذي إسي وامضيا إلى الغابة».

فعلت إسي ما علّمها أبوها، فاختطفت سكينًا صغيرًا اعتادت أمها أن تقطّع بها البلانتين، ودسّتها في تنورتها. كانت مامي تجلس على حافة السرير. نادتها إسي: «هيّا!»، لكنّ أمها لم تتحرك. هرعت إليها إسي وهزّتها، لكنها لم تتحرك. همست: «لا أقوى على فعل ذلك مرة أخرى».

سألتها إسي: «تفعلين ماذا مرة أخرى؟»، لكنها بالكاد كانت تستطيع أن تسمع. كانت نبضاتها تتسارع بقوة، حتى ارتعشت يداها. هل ما يحدث بسبب الرسالة التي بعثتها؟

همست أمها: «لا أقوى على ذلك مرة أخرى. كفى غابات، كفى نارًا». كانت تتمايل إلى الأمام والخلف، بطنها بين ذراعيها كطفل رضيع.

جاءت أبرونوما من كوخ العبيد، يتردد صدى ضحكتها في الكوخ كله. تتراقص قائلة: «أبي هنا! قلت لكم سيأتي ليأخذني، وجاء!». اندفعت الفتاة مسرعة للخارج، ولم تعرف إسي ماذا سيحلّ بها. كان الناس في الخارج يصرخون ويركضون، والأطفال يبكون.

أمسكت مامي يد إسي ووضعت شيئًا فيها. كان حجرًا أسود يلمع بالذهب. ناعم، كأنّه ظَل يُفرك بعناية سنوات عديدة لكي يبقى صقيلًا.

قالت مامي: «احتفظت لكِ بهذا. أردتُ أن أعطيكِ إياه في يوم عرسك. تركتُ مثله لأختك. تركته مع بابا بعد أن أشعلتُ النار».

«أختي؟». إذًا فما قالته أبرونوما كان صحيحًا. تفوّهت مامي بكلام غير

مفهوم، كلمات لم تتحدث بها من قبل. أختك، بابا، النار. أختك، بابا، النار. أرادت إسي أن تستفهم أكثر، لكنّ الضجيج في الخارج كان يزداد صخبًا، وعينا أمها تزدادان فراغًا، تفرغان من شيءٍ ما، بطريقةٍ ما.

حدّقت إسي في أمها كما لو أنها تراها للمرة الأولى. لم تكن مامي ساعتئذ إنسانًا مكتملًا. ثمة مساحات شاسعة من روحها مفقودة. أيًا ما كان قدر حبّها لإسي، وأيًا ما كان حبّ إسي لها، فقد عرفت في تلك اللحظة أنّ الحب لا يمكن أن يعيد ما فقدته مامي. عرفت إسي أيضًا أنّ أمها ستختار الموت على أن تهرب إلى الغابة مرة أخرى، تموت قبل أن تقع في الأسر، تموت حتى وإنْ ترتّب على موتها انتقال ذلك الحسّ الشنيع بالفقد، الحسّ بأن يكون الإنسان غير مكتمل.

قالت مامي بينما تشدّ إسي ذراعيها وتحاول أن تحرّك ساقيها: «اذهبي أنتِ. اذهبي». توقفت إسي ودسّت الحجر الأسود في مئزرها. حضنت أمها، ثم أخرجت السكين من تنورتها، وضعتها في يد أمها، وهربت.

وصلت إلى الغابة بسرعة، ووجدت نخلة تناسب ذراعيها. لم تكن إسي تدري أنها كانت تتدرب من أجل هذا اليوم. لفّت ذراعيها حول الجذع، تحتضنه وهي تدفع بساقيها إلى الأعلى، إلى أبعد ما يمكن. كان القمر مكتملًا، كبيرًا كصخرة الخوف التي تجثم على قلب إسي. ما الذي عرفته في حياتها عن الخوف؟

مر الوقت، ومرّ. شعرت إسي باحتراق ذراعيها وكأنّهما تطوقان نارًا، لا شجرة. هناك على الأرض تبدو ظلال الأوراق وكأنها تتوعد. وسرعان ما انتشر صوت الناس المتساقطين بصرخاتهم من الأشجار كثمار مقطوفة. وفجأة كان هناك مقاتل تحت شجرتها، لغته غير مألوفة، لكنها فهمت ما يكفي منها لتعرف ما سيحدث. ألقى حجرًا عليها، ثم آخر، ثم آخر. الحجر الرابع دكّ خاصرتها، لكنها ظلت متشبثة. الحجر السادس دقّ أصابعها المتشابكة، انحلّت ذراعاها، وسقطت على الأرض.

شدّوا وثاقها مع آخرين لم تعرف عددهم. لم تر أي أحد من مساكنها، لا زوجات أبيها ولا إخوتها، ولا أمها. الحبل حول معصميها جعل راحتيها مفتوحتين في استعطاف. أخذت إسي تتأمل الخطوط على تلك الراحتين. لم تكن تقود إلى أي مكان. لم تشعر إسي في حياتها قط بمثل هذا اليأس.

سار الجميع. كانت إسي قد تعلّمت أن تمشي أميالًا مع أبيها، فخطر لها أنها سوف تتحمل. بالفعل لم تكن الأيام القليلة الأولى سيئة جدًا، ولكن بحلول اليوم العاشر كانت الندوب على قدميها قد تشققت ونزّ منها الدم، فاصطبغت الأوراق التي تركتها خلفها. أمامها أيضًا كانت الأوراق التي يطأها الآخرون مصطبغة بالدم. هناك كثيرون جدًا يبكون حتى أنه لم يعد من الممكن سماع المقاتلين حين يتحدثون، ولم تكن إسي لتفهم كلامهم على أيّ حال. كانت تتحيّن الفرص لتتأكد من وجود الحجر الأسود الذي أعطتها إياه أمها في مكانه. لم تكن تعرف إلى متى سيُسمح لهم بالإبقاء على ملابسهم. الأوراق على أرض الغابة قد ابتلّت بالدم والعرق والندى، حتى أنّ الطفل الذي أمامها انزلق. أمسكه أحد المقاتلين وساعده على الوقوف، فشكره الصبيّ الصغير.

قالت المرأة خلف إسي: «لماذا يشكره؟ هؤلاء سيأكلوننا جميعًا». كانت إسي تعاني لكي تسمع الصوت من بين غبش الدموع وأزيز الحشرات حولهم.

- من سيأكلنا؟

- الرجال البيض. هذا ما تقوله أختي. تقول إنّ الرجال البيض يشتروننا من هؤلاء الجنود ثم يطبخوننا كالماعز في حساء.

صاحت إسي: «لااا». سارع جنديّ إليها ونخز جانبها بعصاه. حين ذهب وترك جانبها ينبض، تراءى لإسي منظر الماعز وهي تمشي بحرّية حول قريتها. ثم تصوّرت نفسها تمسك واحدة منها. كيف ربطت ساقيها وبطحتها، كيف قطعت رقبتها. هل هكذا سيقتلها الرجال البيض؟ سرت فيها قشعريرة.

سألت إسي: «ما اسمك؟».

- تانسي.

- وأنا إسي.

هنا نشأت صداقتهما. كانوا جميعًا يمشون طوال النهار، فلا تجد الندوب على قدمي إسي وقتًا لتبرأ، وسرعان ما تنفتح ثانية. في بعض الأحيان كان المقاتلون يتركونهم مقيدين إلى الأشجار في الغابة لكي يبحثوا عن أسرى آخرين في القرى الجديدة. وهكذا يؤتى بآخرين أكثر عددًا فيضافون إلى البقية. بدأ الحبل على معصمي إسي يحرقها. حرقان غريب، لا يشبه أي شيء شعرت به من قبل، مثل نار باردة، مثل خدشٍ من ريح مالحة. وما لبثت رائحة تلك الريح أن وصلت إلى أنف إسي، فعرفت من القصص التي سمعتها أنهم قد اقتربوا من أرض الفانتي.

التجار يضربون سيقانهم بالعصيّ، فيغذّون الخطى. كانوا يمشون ليل نهار قرابة نصف ذلك الأسبوع. أما أولئك الذين لم يقدروا، فقد ضُربوا بالعصيّ إلى أن استطاعوا فجأة، وفيما يشبه السحر، أن يمشوا ثانية.

أخيرًا، وحين بدأت ساقا إسي تحدودبان وصلوا إلى طرف قريةٍ فانتيّة. حُشروا جميعًا في قبو مظلم رطب، واستطاعت إسي أن تحسب عددهم. كانوا خمسة وثلاثين شخصًا مقيّدين إلى بعضهم بالحبال. هناك وجدوا وقتًا للنوم، وحين استيقظوا جاء الطعام. عصيدة غريبة لم تذق إسي مثلها من قبل. تأففت من طعمها، لكنّ إحساسًا غمرها بأنهم لن يذوقوا شيئًا غير هذا لمدة طويلة.

ما لبث الرجال أن جاؤوا إلى الغرفة. بعضهم مقاتلون رأتهم إسي من قبل، وبعضهم تراه لأول مرة. قال أحدهم بالفانتية: «إذًا، هؤلاء هم العبيد الذين أحضرتموهم لنا؟». منذ فترة طويلة لم تسمع إسي تلك اللهجة، ولكنها كانت تستطيع أن تفهمها.

بدأ الآخرون المقيّدون إلى إسي بالصراخ: «أخرجونا!»، فهم قد وجدوا أخيرًا الأذن التي قد تسمعهم. الفانتيون والأشانتيون، أبناء الآكانيين. شعبان، فرعان خرجا من شجرة واحدة. صرخوا إلى أن بحّت أصواتهم: «أخرجونا!». لم يجدوا سوى الصمت.

قال أحد الرجال: «أيها الزعيم أبيكو، لا يجدر بنا فعل ذلك. سيغضب حلفاؤنا الأشانتيون كثيرًا لو علموا أننا تعاملنا مع أعدائهم». رفع هذا الذي يسمّونه الزعيم يديه عاليًا: «اليوم أعداؤهم يدفعون أكثر يا فيفي. غدًا، إنْ هم دفعوا أكثر، فسنعمل معهم أيضًا. هكذا تُبنى القرى، فهمت؟».

راقبت إسي ذلك المدعو فيفي. كان صغيرًا على عمر المقاتلين، لكنها شعرت بأنه سيصبح مقاتلًا كبيرًا ذات يوم. هزّ رأسه، لكنه لم يتحدث مرة أخرى. خرج من القبو وأحضر المزيد من الرجال. كانوا رجالًا بِيض، لم تر إسي مثلهم من قبل. ولم تستطع أن تطابق بين بشرتهم وبين أي شجرة أو جوزة أو طين أو وحل رأته في حياتها. قالت: «هؤلاء الناس لا يأتون من الطبيعة»، فردّت تانسي: «قلت لك. لقد جاؤوا ليأكلونا».

اقترب الرجال البيض، فصاح الزعيم: «قفوا»، ونهض الجميع. استدار الزعيم إلى أحد الرجال البيض وقال بلهجة فانتية سريعة جدًا لم تكد إسي تفهمها، وتعجّبت كيف يمكن لذلك الرجل الأبيض أن يفهمها: «انظر أيها الحاكم جيمس. الأشانتيون أقوياء جدًا. يمكنك أن تتفحصهم بنفسك».

هنا بدأ الرجال ينزعون لباس من كان مستورًا. كانوا يفحصونهم، ولكن لأي شيء؟ لم تكن إسي تعرف. تذكرت الحجر الأسود الذي دسّته في مئزرها، وحين اقترب منها المدعو فيفي ليفكّ عقدة مئزرها أطلقت سيلًا طويلًا من البصاق في وجهه.

لم يبكِ مثل ذلك الصبي الأسير الذي بصقت عليه في ساحة قريتها. لم ينتحب أو ينكمش أو يبحث عمن يساعده. اكتفى بأن مسح وجهه، ولم يحوّل عينيه عنها أبدًا.

اقترب الزعيم منه. «ماذا ستفعل حيال ذلك يا فيفي؟ هل ستدعه يمرّ هكذا دون عقاب؟». كان يتحدث بصوت خفيض لا يسمعه سوى إسي وفيفي. لحظتها، جاء صوت الصفعة. كان مدوّيًا، ومضت لحظة لم تستطع فيها إسي أن تحدد ما إذا كان الألم الذي شعرت به على أذنها أم داخلها. انكمشت وتكوّمت

على الأرض تغطي وجهها وتبكي. كانت الصفعة قد أطاحت بالحجر من مئزرها، فوجدته هناك على الأرض. زادت من حدّة بكائها، كي تصرف أنظارهم، ثم ألقت رأسها على الحجر الأسود الناعم. ارتاح وجهها من برودة الحجر، وحين أدار الرجال ظهورهم لها ناسين للحظةٍ أن ينزعوا مئزرها، أخذت إسي الحجر من تحت خدّها وابتلعته.

***

في تلك اللحظة كانت فضلات النساء على أرض الزنزانة تصل إلى كاحليها. لم تشهد الزنزانة مثل هذا العدد من قبل. بالكاد تستطيع التنفّس، لكنها حرّكت كتفيها هنا وهناك إلى أن شقّت لنفسها مساحة صغيرة. لم تتوقف المرأة التي بجانبها عن إسهال فضلاتها منذ آخر مرة جيء فيها بالطعام. تذكّرت إسي يومها الأول في الزنزانة، فقد حدث لها الشيء نفسه. في ذلك اليوم وجدت حَجَر أمها في نهر الخراء. دفنته هناك، ووضعت علامة على الجدار كي تعرف مكانه عندما يحين الوقت.

حاولت إسي أن تهدّأ المرأة: «ششش. ششش». كانت قد تعلّمت ألا تقول إنّ كل شيء سيكون على ما يرام. لم يلبث باب الزنزانة أن فُتح، فاندسّت شقة من الضوء إلى الداخل. دخل جنديّان اثنان، لا يبدوان على ما يرام. حركاتهما تعوزها الدقة والنظام. كانت إسي قد رأت من قبل رجالًا سكارى من نبيذ النخل، ورأت كيف تشتعل وجوههم وتتوحّش إيماءاتهم. تتحرك أياديهم كأنها مستعدة للقبض على الهواء من حولها.

نظر الجنديان في أركان الزنزانة وبدأت النساء تدمدم. اختطف أحدهما امرأة من الركن البعيد ودفعها إلى الجدار. سرعان ما وصلت يداه إلى نهديها ثم راحتا تتحركان على طول جسدها، أسفل فأسفل، إلى أن تحوّل الصوت الخارج من شفتيها إلى صرخة.

بدأت النساء في ذلك الركن يصدرن هسيسًا: «اسكتي أيتها الحمقاء، أو

سيضربوننا جميعًا». كان هسيسهن حادًا جدًا، أشبه بصيحة جماعية من مئة وخمسين امرأة ممتلئة بغضب وخوف. بدأ الجنديّ الذي يتلمّس المرأة يعرق، فصرخ فيهن. خفتت أصواتهن الآن إلى همهمة، لكنها لم تتوقف. تذبذبت الهمهمة بصوت خفيض، وشعرت إسي أنها تصدر من بطنها.

علا صوت الهسيس ثانية: «ماذا يفعلان؟ ماذا يفعلان؟». وسرعان ما بدأ الرجلان يصرخان عليهن. كان الجندي الآخر لا يزال يطوف في الزنزانة، ينظر متأملًا في كل امرأة. وحين وصل إلى إسي، ابتسم. في تلك اللحظة اختلط عليها الأمر فظنّتها ابتسامةً طيّبة، إذ لم يبتسم لها أحد منذ زمن. قال شيئًا، ثم أمسك ذراعها. حاولت أن تقاومه، لكنّ نقص الطعام وفيض الجروح من الضرب جعلها أضعف بكثير من مجرد أن تجمع لعابها وتبصق عليه. ضحك ساخرًا من محاولتها، ثم جرّها من مرفقها إلى خارج الزنزانة. نظرت إسي إلى المشهد خلفها وهما يتركان الزنزانة، هناك حيث النسوة بين هسيس وبكاء.

أخذها إلى مسكنه فوق المكان الذي كانت فيه وبقية العبيد. عيناها نسيت الضوء فأعماها. لم تستطع أن تتبيّن المكان الذي يأخذها إليه، وحين وصلا إلى مسكنه أومأ إلى كأس ماء لكنها لم تتحرك. ثم أومأ إلى سوط موضوع على الطاولة، فهزت رأسها وأخذت جرعة ماء انسكبت على شفتيها الخدرتين.

وضعها على قماش مطويّ، باعد بين ساقيها، ودخلها. صرخت، لكنه وضع يده على شفتيها، ثم أدخل أصابعه في فمها. بدا أنّ عضّ أصابعه يمتعه، فتوقفت. أغمضت عينيها كي تجبر نفسها على السماع بدلًا من الرؤية، متظاهرة بأنها ما تزال البنت الصغيرة في كوخ أمها حين يأتي والدها، متظاهرة بأنها ما تزال تنظر إلى جدران الطين رغبة في أن تعطي والديها مزيدًا من الخصوصية، فتفصل نفسها عنهما، راغبة في فهم ما يمنع اللذة من التحوّل إلى ألم.

حين فرغ بدا مرتعبًا، ومتقزّزًا منها. كأنه هو الذي سُلب شيئًا. كأنه هو الذي انتُهك. فجأة أدركت إسي أنّ الجندي فعل شيئًا ربما حتى الجنود الآخرين يعتبرونه خطأ. كان ينظر إليها وكأنّ عاره في جسدها.

حين هبط الليل وتراجع الضوء تاركًا مكانه للظلمة التي أصبحت إسي تعرفها جيدًا، تسلّل بها خارج مسكنه. كانت قد انتهت من البكاء، لكنّه ظل يسكتها. لم يكن ينظر إليها، بل يدفعها للأسفل، للأسفل مرة أخرى إلى حيث الزنازين. وصلت هناك فوجدت أنّ الهمهمة قد خمدت. لا بكاء ولا هسيس. كان هناك صمت مطبق حين أعادها الجندي إلى مكانها.

مضت الأيام في دورة متكررة. طعام، ثم لا طعام. ولم تقو إسي على شيء سوى أن تستعيد ذكرى ذلك الوقت الذي قضته تحت الضوء. منذ تلك الليلة لم يفارقها النزيف. قطرات سميكة من الأحمر انتقلت إلى ساقيها، واكتفت إسي بالنظر إليها فقط. لم تعد ترغب في الحديث مع تانسي. لم تعد ترغب في سماع الحكايات. كم كانت مخطئة في تلك الليلة التي شاهدت أبويها على الفراش. لم تكن هناك لذة.

فُتح باب الزنزانة. دخل جنديان اثنان تعرّفت إسي على أحدهما من القبو الذي كانت فيه في أرض الفانتي. كان طويلًا له شعر لونه مثل لحاء الشجر بعد المطر، لكنّ اللون كان قد بدأ يتحوّل إلى الرمادي. كانت هناك أزرار ذهبية كثيرة على معطفه وفوق كتفيه. فكّرت وفكّرت، تحاول أن تزيل خيوط العنكبوت التي تشكّلت في ذاكرتها كي تستعيد الاسم الذي أطلقه الزعيم على هذا الرجل.

الحاكم جيمس. مشى عبر الغرفة، حذاؤه يطأ أيادي وأفخاذًا وشعورًا. أصابعه على أنفه، يتبعه جنديّ أصغر منه. أشار الرجل الأبيض الكبير إلى عشرين امرأة، ثم إلى إسي.

صرخ الجندي بشيء، لكنهن لم يفهمن. انتزعهن من المعاصم، وجرّهن من فوق أجساد أو تحت أجساد حتى يقفن أمامه. أوقفهن في صف واحد، وراح الحاكم يتفحصهن. مرّر يديه على النهود وبين الأفخاذ. بكت أول فتاة تفحّصها، فصفعها صفعة أطاحت بها على الأرض. وأخيرًا وصل الحاكم جيمس عند إسي. نظر إليها مليًا، ثم غمز بعينه وهزّ رأسه. نظر إليها مرة أخرى، ثم راح يتفحّص جسمها كالأخريات. وحين مرّر يديه بين ساقيها، خرجت أصابعه حمراء.

نظر إليها نظرة إشفاق كما لو أنه فهم، لكنّ إسي تساءلت ما إذا كان فعلًا قد فهم. تحرّك، وقبل أن تجد وقتًا للتفكير كان الجنود الآخرون يقودونها مع الأخريات خارج الزنزانة.

صرخت إسي حين تذكرت الحجر الأسود الذي أعطتها إياه أمها: «لاااا! حَجَري!». ألقت بنفسها على الأرض وبدأت تحفر، وتحفر، وتحفر، لكنّ الجندي كان يرفعها. لم تشعر بالقذارة التي بين يديها، لم تشعر سوى بالخواء يكبر ويكبر.

أخذوهنّ إلى الخارج تحت الضوء. هناك ضربت رائحة المحيط أنفها، وعلق مذاق الملح في حلقها. سار الجنود بهنّ إلى باب مفتوح يقود إلى رمل وماء.

وقبل أن تخرج إسي، نظر إليها ذلك الذي يُسمى الحاكم وابتسم. كانت ابتسامة طيّبة، مشفقة، لكنها حقيقية. مع ذلك سوف تظلّ إسي طوال حياتها ترى الابتسامة على الوجه الأبيض وتتذكر ابتسامة الجندي قبل أن يأخذها إلى مسكنه. إنّ ابتسامة الرجل الأبيض لا تعني سوى أنّ مزيدًا من الشر يلوح في الأفق.

كُوَي

كان (كُوَي) قد تلقّى رسالة من صديقه القديم (كُوجو)، لكنه لم يكن يعرف بأي طريقة يردّ عليها. تظاهر تلك الليلة بأنّ الحرارة تسلبه المنام. كذبة سهلة فيما هو غارق في عرقه، غير أنه كان يتعرّق في كل الأوقات على أيّ حال. كان الجو شديد الحرارة والرطوبة هناك في الأدغال، حتى ليشعر أنه يُشوى على مَهَلٍ لوجبة العشاء. كم يحنّ إلى القلعة والنسيم الذي يدفعه الشاطئ. أما هنا في قرية أمه إفيا، فقد كان العرق يتجمّع في أذنيه وفي سرّته. يشعر بالحكّة في جلده، فيتراءى له أنّ بعوضًا يزحف على قدميه، يتسلق ساقيه إلى بطنه، ثم يهجع أخيرًا في سرّته المترعة بالعرق. هل يشرب البعوض العرق أيضًا، أم إنه الدم فقط؟

الدم. خطر له منظر السجناء وهم يُجلبون إلى الأقبية زُرافات، تنزف أياديهم وأقدامهم في الأصفاد. إنه لم يُخلق لهذا. كان من المفترض أن يحيا حياة أسهل، بعيدًا عن أعمال الرق؛ فقد نشأ بين البِيض في كيپ كوست، ثم تعلّم في إنجلترا. كان ينبغي أن يظلّ هناك في مكتبه في القلعة، في وظيفة الكاتب التي رتّبها له أبوه جيمس كولنز قبل وفاته، يسجّل أعدادًا يمكنه أن يتظاهر بأنها لا تدلّ على بشرٍ يُباعون ويُشترَون. غير أنّ الحاكم الجديد على القلعة استدعاه وأرسله إلى هنا، إلى الأدغال.

- مثلما تعلم يا كوي، فقد استمرت علاقة العمل طويلًا بيننا وبين أبيكو بادو والزنوج الآخرين في قريته، غير أننا سمعنا مؤخرًا أنهم بدؤوا يتعاملون مع بعض الشركات الخاصة. لذا، نودّ أن ننشئ مركزًا لنا في القرية بحيث يكون مسكنًا لبعض الموظفين، وأسلوبًا لطيفًا نذكّر به أصدقاءنا هناك بالتزاماتهم التجارية نحونا. وقد طلبناك خصيصًا لهذه المهمة. فبالأخذ في الاعتبار تاريخ أبويك مع القرية، ومقدرتك وإلمامك بلغتهم وأعرافهم، خطر لنا أنك ستكون مصدر فائدة كبيرة لنا وأنت هناك.

أومأ كوي برأسه وقبل الوظيفة، وهل يستطيع أن يفعل غير ذلك؟ لكنه في داخله كان يرفضها. مقدرته وإلمامه بأعرافهم؟ تاريخ أبويه مع القرية؟ آخر زيارة له أو لأمه إفيا إلى القرية كانت وهو جنين في رحمها. حينها كانت مرعوبة من بابا. حدث ذلك عام 1779، أي قبل عشرين سنة تقريبًا. ماتت بابا، لكنّ إفيا ظلت بعيدة هي وابنها. شعر كوي أنّ وظيفته الجديدة ليست سوى نوع من العذاب. أولم يُعاقب بما يكفي؟

ارتفعت الشمس أخيرًا، ومضى كوي لزيارة خاله فيفي. حين التقاه أول مرة قبل شهر لم يكد يصدّق أنّ رجلًا مثل فيفي قد يمتّ إليه بقرابة. لا لأنه وسيم، فإفيا كانت تُسمى الجميلة طيلة حياتها، ولم يكن كوي نفسه غريبًا عن الجمال. غير أنّ فيفي تبدو عليه علامات القوّة، يحمل في جسمه تآلفًا رشيقًا من العضلات. أما كوي فقد شابه أباه، رفيعًا طويلًا، لكنه ليس قويًا. كان أبوه قويًا بالتأكيد، لكنّ قوته تنبع من نَسَبه، من عائلة كولنز التي تحصّلت على ثروة من بناء سفن العبيد في لِفرپُول. قوة أمه كانت تنبع من جمالها، في حين تتفجّر قوة فيفي من جسمه، من حقيقة أنه يبدو كما لو كان قادرًا على أخذ أي شيء يريده. لم يعرف كوي في حياته شخصًا آخر كهذا، إلا واحدًا فقط.

هتف فيفي حين أبصر ابن اخته مقبلًا: «آه، بنيّ، أهلًا بك. اجلس هنا، وكُل معي».

نادى الخادمة فجاءت بطاستين، وشرعت في وضع طاسةٍ أمام فيفي، لكنّه أوقفها بنظرة واحدة لا أكثر. «ينبغي أن تقدّمي الطعام لابني أولًا».

تمتمت: «آسفة»، ثم وضعت الطاسة أمام كوي. شكرها كوي ثم أخفض بصره إلى العصيدة التي أمامه.

- انقضى شهر يا خالي ولم نتحدث في اتفاقياتنا التجارية بعد. الشركة عندها ما يكفي من المال لتزيد مشترياتها كثيرًا جدًا. ليس عليكم إلا أن تفتحوا الطريق لنا فقط، أن تتوقفوا عن التعامل مع الشركات الأخرى.

سمع فيفي هذا الكلام أو ما يشبهه من كوي عدة مرات من قبل، لكنّه ظل يتجاهله. في أول ليلة لكوي في القرية أراد أن يتحدث إلى أبيكو بادو عن أمور التجارة فورًا. خطر له أنه كلما أسرع في الحصول على موافقة الزعيم، كلما تسنّى له أن يغادر القرية بسرعة. في تلك الليلة دعا بادو رجال القرية لتناول الشراب في مسكنه. أحضر لهم من النبيذ و«الأكپيتيشي» ما يكفي ليغرقوا فيه. وكان هناك ضابط يُدعى (تِمُثي هايتاور) يحرص على إثارة إعجاب الزعيم، فشرب نصف برميل من الجعة قبل أن يفقد وعيه تحت نخلة، ثم أخذ يرتعد ويفرغ ما في جوفه ويزعم أنه يرى أرواحًا. وما لبث بقية الرجال أن أتلفوا فناء بادو، بعضهم يتقيأ، وبعضهم ينام، وبعضهم يبحث عن امرأة من أهل القرية ليقضي وطره. تحيّن كوي فرصةً للحديث إلى بادو، فأخذ يرشف من كأسه على مهل.

كان قد شرب كأسين من النبيذ لا أكثر حين اقترب منه خاله فيفي. قال له وهو يشير إلى منظر الرجال: «حذار يا كوي. رجال كثيرون أشدّ من هؤلاء أطاح بهم كثر الشراب».

رفع كوي حاجبه وهو يلقي نظرة إلى كأس فيفي.

«كأس ماء يا كوي. لا بد أن يكون أحدنا مستعدًا لأي شيء قد يحدث»، وأومأ إلى بادو الذي غطّ في النوم على عرشه الذهبي وقد سقط ذقنه على اللحم المتكوّر حول بطنه. ضحك كوي، ورسم فيفي ابتسامة على وجهه كانت الأولى التي يراها كوي منذ أن قابله.

لم يستطع كوي أن يتحدث إلى بادو تلك الليلة. وبعد أسبوعٍ وراء آخر أدرك أنّ بادو ليس الشخص الذي ينبغي عليه إقناعه. صحيح أنّ أبيكو بادو كان الرئيس الشكلي، «الأومانهين» الذي يتلقى الهدايا من القادة السياسيين في لندن وهولندا نظير ما يقوم به في أمور تجارتهم، غير أنّ السلطة الفعلية كانت بيد فيفي. حين يهزّ فيفي رأسه، تتوقف القرية بأكملها عن الحركة.

فيفي الآن صامت كعادته في كل مرة يحدّثه فيها كوي عن التجارة مع البريطانيين. مدّ بصره إلى الغابة أمامهما، فتابع كوي نظرته. هناك على الأشجار عصفوران نابضان بالحياة، يغرّدان بصوتٍ عالٍ أغنية متناشزة.

- خالي، الاتفاق الذي أبرمه بادو مع أبي...

قاطعه فيفي: «هل تسمع ذلك؟»، وأشار إلى العصفورين. فهزّ كوي رأسه في خيبة أمل.

- حين يتوقف أحد العصفورين، يبدأ الآخر. وفي كل مرة يعلو صوت الأغنية أكثر، ويحتدّ. لماذا برأيك؟

- يا خالي، التجارة هي السبب الوحيد الذي جعلنا نأتي إلى هنا. فإن أردتم أن يخرج البريطانيون من قريتكم، ليس عليكم سوى أن...

- إنّ الذي لا تسمعه يا كوي هو العصفورة الثالثة. فهي هادئة، هادئة جدًا، تستمع إلى العصفورين إذ يعلو صوتاهما أكثر، فأكثر، فأكثر. فإذا ما فرغا من الغناء تحدّثت. عندها فقط تتحدث. عندها تختار الذي أعجبتها أغنيته أكثر. أما الآن فتجلس هناك تستمع إليهما يتجادلان: من سيكون شريكها الأفضل، من سيعطيها البذرة الأفضل، من سيدافع عنها حين تشتدّ الخطوب.

يا كوي، قريتنا هذه لا بد أن تسيّر أعمالها مثل هذه العصفورة. إن إردتم أن تدفعوا المزيد في شراء العبيد فادفعوا، ولكن ليكن في معلومكم أنّ الهولنديين سيدفعون أكثر أيضًا، والبرتغاليين كذلك، بل حتى القراصنة سيدفعون أكثر. وفيما يبحّ صوتُكم وأنتم تحاولون إقناعنا بأنكم الأفضل، أجلس أنا في هدوء في مسكني هذا، أتناول «الفوفو» وأنتظر السعر الذي أراه مناسبًا. لا تفتح موضوع

التجارة مرةً أخرى.

تنهّد كوي. بدا له أنه سيظلّ هنا إلى الأبد. كفّ العصفوران عن الغناء، ربما شعرا بما أصابه من حنق. نظر إليهما، إلى أجنحتهما الملوّنة بالأزرق والأصفر والبرتقالي، وإلى منقاريهما المعقوفَين.

- لم أر طيورًا مثلها في لندن. لم يكن ثمة لون. كل شيء رماديّ، السماء والمباني، حتى البشر كان لونهم رماديًا.

هزّ فيفي رأسه: «لا أعرف كيف سمحت إفيا لجيمس بأن يرسلك إلى تلك البلاد الفارغة». أومأ كوي برأسه شارد الذهن، ثم عاد إلى عصيدته.

نشأ كوي طفلًا وحيدًا، وبعد مولده بنى والده كوخًا على مقربة من القلعة لكي يعيش فيه مع إفيا وكوي. كانت تلك أيام رخاء في التجارة، فرغم أنّ كوي لم ير الزنازين قط ولم يكد يعرف شيئًا عما يدور فيها، إلا أنّ غياب والده الطويل كان يشي بأنّ أمور التجارة تسير على ما يرام.

لهذا السبب كانت جميع الأيام له مع أمه، إفيا التي كانت أكثر الأمهات صبرًا في كيپ كوست، بل في ساحل الذهب كله. كانت تتحدث بثقة وهدوء، ولم تضربه قطّ حتى عندما سخرت منها الأمهات الأخريات وحذّرنها من مغبة إفساده بتلك الطريقة التي لن يتعلّم بها شيئًا. كانت تجيبهنّ بقولها: «يتعلم ماذا؟ وما الذي تعلمتُه أنا من بابا؟».

لكنّ كوي تعلّم. كان يجلس في حِجر إفيا تعلّمه الكلام، يكرّر الكلمة بالفانتية والإنجليزية، حتى صار يسمع الكلمة بلغةٍ ويجيب بالأخرى. كانت إفيا قد تعلمت القراءة والكتابة في السنة الأولى من عمر كوي، لكنها مع ذلك علّمته بشغف، تُمسك قبضته الصغيرة وهما يشبكان الحروف ببعضها. وحين تعلّم أن يكتب اسمه من دون مساعدة صاحت: «كم أنت ذكي!».

خلال عام 1784، في عيد ميلاده الخامس، حكت له أمه عن طفولتها في قرية بادو. فعرف الأسماء كلها: كوبي وبابا وفيفي. وعرف أنّ هناك أمًّا أخرى لن

يعرفوا اسمها أبدًا، وأنها هي جدته الحقيقية التي تركت لإفيا ذلك الحجر الأسود اللامع الذي تضعه حول عنقها. حين حكت له تلك القصة اكفهرّ وجهها، لكنه سرعان ما صفا حين مدّ كوي يده ولمس خدّها. قالت له: «أنت ابني. لي أنا».

هي أيضًا كانت له. في طفولته كان ذلك كافيًا، لكنه حين كبر تملّكته الحسرة على صغر عائلته، بعكس العائلات كلها في ساحل الذهب، تلك التي يتراكم فيها الإخوة فوق الإخوة بعد سيل من الزيجات. عندها تمنّى لو أنّ باستطاعته أن يرى أخويه من أبيه، الكولنزيّين الأبيضين خلف المحيط. لكنه كان يعلم أنّ هذا لن يتحقق أبدًا. لم يكن لكوي غير نفسه، وكتبه، والشاطئ، والقلعة، وأمه.

قالت إفيا لجيمس ذات يوم: « أشعر بالقلق عليه. ليس له أصدقاء، ولا يلعب مع بقية الأطفال في القلعة».

كان كوي على وشك الدخول إلى البيت بعد أن قضى يومه يبني قلاع الرمل التي تحاكي قلعة كيب كوست، وحين سمع اسمه على لسان إفيا تسمّر في مكانه خلف الباب يسترق السمع.

- وما الذي ينبغي علينا أن نفعله الآن؟ لقد أفسدتِه بدلالك يا إفيا. لا بد أن يتعلم الاعتماد على نفسه.

- لا بد أن يلعب مع الأطفال الفانتيين الآخرين، أطفال القرية، حتى يمكنه أن يبتعد عن هنا من وقتٍ لآخر. ألا تعرف أحدًا؟

هنا صاح كوي: «أنا وصلت»، وتعمّد أن يكون صوته عاليًا إذ لم يرغب في سماع ردّ والده. لكنه سرعان ما نسي الأمر، ولم يتذكّره مرة أخرى إلا بعد أسابيع حين جاء (كُوجو ساكي) مع أبيه لزيارة القلعة.

كان والد كوجو زعيم قرية فانتية وجيهة، وهو المنافس الأكبر لأبيكو بادو. كان قد بدأ يلتقي بجيمس كولنز ليبحث معه زيادة التعاملات التجارية بينهما، فسأله جيمس ما إذا كان يستطيع أن يجلب ابنه الكبير في أحد اللقاءات.

قال جيمس: «كوي، هذا كوجو»، ودفعه دفعة صغيرة نحو الصبيّ.

«العبا معًا ريثما نتحدث».

راقب كوي وكوجو والديهما وهما يسيران إلى جانب آخر من القلعة. وما إن غابا عن الأنظار حتى حوّل كوجو عينيه إلى كوي. سأله وهو يلمس شعره: «هل أنت أبيض؟». جفل كوي من تلك اللمسة، رغم أنّ كثيرين قبله فعلوا الشيء نفسه، وسألوا السؤال نفسه. ردّ بصوت خفيض: «لست أبيض».

سأله كوجو: «ماذا؟ ارفع صوتك». كرّر كوي ما قاله فيما يشبه الصراخ. على مبعدة منهما التفت أبواهما لرؤية ما يحدث. صاح جيمس: «بهدوء يا كوي». شعر كوي بالدم يصعد إلى وجنتيه، في حين ظلّ كوجو ينظر إليه متسليًا.

- تقول إنك لست أبيض. فماذا تكون إذًا؟
- أنا مثلك.

مدّ كوجو يده وطلب من كوي أن يفعل مثله، فوقفا هكذا ذراعًا بذراع، الجلد يلامس الجلد. قال كوجو: «لستَ مثلي». شعر كوي برغبة في البكاء، لكنّه خجل من هذه الرغبة. كان يعلم أنه واحد من أولئك الأطفال الهجناء في القلعة. ولأنه مثلهم، لم يكن بمقدوره أن ينسب نفسه إلى أيٍ من نصفَيه، لا إلى بياض والده، ولا إلى سواد أمه. لا إلى إنجلترا، ولا إلى ساحل الذهب.

لا بدّ أن كوجو لاحظ الدموع وهي تصارع لكي تخرج من عيني كوي. قال له وهو يمسك بيده: «تعال. يقول أبي إنّ في القلعة مدافع كبيرة. أرني أين هي». ورغم أنه طلب من كوي أن يدلّه على المكان، إلا أنه هو الذي سار أمامه راكضًا، حتى تجاوزا والديهما باتجاه المدافع.

هكذا نشأت صداقتهما. وبعد أسبوعين من ذلك اليوم تلقّى كوي رسالة من كوجو يسأله ما إذا كان يودّ أن يزوره في قريته. قال كوي لأمه: «هل يمكنني الذهاب؟»، فأخذت تدفعه نحو الباب تغمرها السعادة بهذا الصديق المرتقب.

كانت قرية كوجو أول قرية يقضي فيها كوي وقتًا طويلًا في حياته كلها، وكان مدهوشًا باختلافها عن القلعة وكيپ كوست. لا يوجد شخص أبيض واحد

هناك، ولا جنود يُلقون الأوامر. ورغم أنّ الأطفال يتعرضون للضرب هنا، إلا أنّ حياتهم كانت مليئة بالصخب والانطلاق. كان كوجو يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، مثل كوي، لكنه كان الأكبر بين عشرة أطفال، يأمر إخوته فيطيعونه وكأنهم جيشه الصغير.

صاح لأخته الصغرى حين رأى كوي مقبلًا: «اذهبي وأحضري لصديقي شيئًا يأكله». كانت أخته هذه ما تزال طفلة صغيرة، إصبعها لا يفارق فمها، لكنها كانت دائمًا تفعل ما يأمرها كوجو على الفور.

لم يستطع كوجو أن ينتظر وصول كوي إليه، فهتف له وهو يفتح راحته: «هيه، كوي، انظر ماذا وجدت!». كان هناك حلزونان رفيعان يتلوّيان بين أصابع كوجو. قال كوجو مشيرًا بهما نحو كوي: «هذا لك، وهذا لي. هيا لنتسابق بهما».

ضمّ كوجو راحتيه مرة أخرى وانطلق يجري. كان أسرع، وقد عانى كوي لكي يجاريه. حين وصلا إلى مكان مناسب في الغابة انبطح كوجو على بطنه وأومأ إلى كوي أن يفعل مثله. أعطى كوي حلزونه، ثم رسم خطًا في التراب ليكون خطّ البداية. وضع الصبيّان الحلزونين خلف الخط، ثم أطلقاهما.

في بادئ الأمر لم يتحرك أيّ منهما. فقال كوجو وهو يهمز حلزونه بسبّابته: «هل هما أحمقان؟ انطلق أيها الحلزون الأحمق، انطلق!».

قال كوي: «ربما يكونان متفاجئَين فقط». فنظر إليه كوجو كأنما هو الأحمق.

عندها بدأ حلزون كوي يعبر الخط، ثم تبعه حلزون كوجو بعد ثوان. لم يكن حلزون كوي يتحرك كباقي الحلزونات ببطء وتؤدة، بل كان يبدو وكأنه يعرف السباق، وكأنه يعرف أنه حرّ طليق. ما لبث أن اختفى عن أنظار الصبيّين، في حين أخذ حلزون كوجو يتلكأ، بل كان يدور حول نفسه عدة مرات.

فجأة بدأ كوي يشعر بالقلق. ربما يغضب كوجو من خسارته ويطلب منه أن يغادر القرية ولا يعود أبدًا. صحيح أنه لم يتعرف إلى كوجو إلا قبل فترة قصيرة، لكنه يعرف أنه لا يريد أن يخسره. لذلك فعل الشيء الوحيد الذي خطر

بباله آنذاك. مدّ يده مثلما كان يرى والده يفعل حين يعقد الصفقات. وكم تفاجأ حين مدّ كوجو يده، وتصافح الصبيّان.

قال كوجو: «كان حلزوني شديد الحماقة، لكنّ حلزونك أجاد السباق». وافقه كوي على ذلك وقد شعر بالارتياح: «نعم، لقد أجاد حلزوني السباق».

- علينا أن نسمّيهما. سنطلق على حلزوني اسم (رِتشَرد) لأنه اسم بريطاني، وهو كان سيئًا مثل البريطانيين. ونسمّي حلزونك (كُوامي).

ضحك كوي. «نعم، رتشرد سيء مثل البريطانيين». لقد نسي لحظتها أنّ أباه بريطاني. وحين تذكّر الأمر لاحقًا أدرك أنه لا يبالي. كان يشعر فقط أنه الآن ينتمي، ينتمي تمامًا.

***

كبر الصبيّان. طالت قامة كوي عشرة سنتيمترات في صيف واحد، وأما كوجو فقد نمت عضلاته وتقوّست، حتى بدا العرق المتدفّق عليها كالأمواج المزبدة. وقد ذاع صيته في كل مكان مصارعًا بارعًا. كان يؤتى بالأولاد الكبار من القرى المجاورة لتحدّيه، لكنه كان يربح كلّ نزال.

قال كوجو: «ها يا كوي، متى تصارعني؟».

لم يتحدّاه كوي قط. كان يشعر بالقلق، لا من الخسارة لأنه يعلم أنه سيخسر، بل لأنه قضى السنوات الثلاث الأخيرة يراقب كوجو جيدًا، فأصبح يعرف أكثر من أي أحد آخر ما يستطيع جسم كوجو أن يفعله. يعرف رشاقته وهو يلتف على خصومه، يعرف حسابات العنف التي تحكم حركاته: الذراع على العنق يساوي انعدام الأنفاس، والمرفق على الأنف يساوي الدم. لم يكن كوجو يخطئ في حركة واحدة من هذه الرقصة، وجسمه القويّ المنظّم في حركاته كان يثير إعجاب كوي. مؤخرًا كان يتخيّل ذراعي كوجو القويتين تطوّقانه، تجرّانه إلى الأرض، وجسم كوجو فوق جسمه.

قال كوي: «دع رتشرد يصارعك»، فأطلق كوجو ضحكته الغامرة.

بعد سباق الحلزونات بدأ الصبيّان يطلقان على كل شيء، جيدًا كان أم سيئًا، اسم رتشرد. إن غضبت أمّ أحدهما لأنه قال شيئًا فظًا، فرتشرد هو المسؤول. إن فاز أحدهما في سباق أو نزال، فذلك بفضل رتشرد. كان رتشرد موجودًا حين سبح كوجو بعيدًا وبدأت عضلاته تخونه. رتشرد هو الذي أراد أن يغرقه، ورتشرد هو الذي أنقذه حين ساعده ليستعيد الإيقاع في حركاته.

قال كوجو وهو يبرز عضلاته: «مسكين رتشرد، سوف أحطّمه». مدّ كوي يده ليعصر ذراع كوجو، ورغم أنّ العضلة لم تتراجع عن مكانها إلا أنه قال: «كيف؟ بهذا الشيء الصغير؟».

ردّ كوجو: «هه؟».

- قلتُ إنّ هذه الذراع صغيرة. وتبدو ناعمة في يدي يا أخي.

ودونما تحذير، سريعًا كالبرق، طوّق كوجو عنق كوي بذراعيه. «ناعمة؟». كان صوته أقرب إلى الهمس، كالريح في أذن كوي. «حذار يا صديقي. لا شيء ناعمًا هنا».

ورغم أنّ كوي كاد يختنق، إلا أنه شعر بوجنتيه تتورّدان. كان جسم كوجو يضغط عليه بقوة حتى شعر أنهما جسد واحد. وقفت كل شعرة في ذراع كوي، في انتظار ماذا سيحدث. وأخيرًا، أطلقه كوجو.

أخذ كوي أنفاسًا عميقة وكوجو ينظر إليه بابتسامة تتلاعب على شفتيه.

- هل خفت يا كوي؟

- لا.

- لا؟ ألا تعلم أن كل رجل في أرض الفانتي يخافني الآن؟

قال كوي: «أعلم أنك لن تؤذيني». نظر في عيني كوجو، فشعر بشيء يضطرب فيهما.

سرعان ما استعاد كوجو ثباته. «متأكد؟».

- نعم.

- إذًا تحدّاني. صارعني.

- لن أفعل.

مشى كوجو إلى كوي حتى صار يقف على بعد سنتيمترات فقط من وجهه. قال وأنفاسه تتراقص على شفتي كوي: «تحدّاني».

في الأسبوع التالي كان كوجو على موعد مع نزال مهم. تباهى أحد الجنود في القلعة وهو مخمور بأنّ كوجو لا يستطيع أبدًا أن يغلبه.

- زنجيّ يصارع زنجيًا. هذا ليس تحديًا. ضع همجيًا ضد رجل أبيض، وعندها سترى.

كان من بين الخدم رجل من قرية كوجو، وحين سمع الجندي يقول هذا الكلام ذهب وأخبر والده. في اليوم التالي وصل الزعيم بنفسه.

- إن كان هناك رجل أبيض يعتقد أنه يستطيع أن يغلب ابني، فليجرّب. بعد ثلاثة أيام سنرى من الأفضل.

حاول جيمس أن يمنع هذا النزال، إذ يراه أمرًا غير متحضّر، لكنّ الجنود كانوا ضجرين متململين، وهذا بالضبط ما يشتهونه الآن: متعةً غير متحضرة.

جاء كوجو في نهاية ذلك الأسبوع، أحضر معه أباه وإخوانه السبعة، ولا أحد غيرهم. لم يتحدث معه كوي منذ الأسبوع السابق، وشعر بالتوتر دون أن يستطيع تفسير السبب. لا يزال ذلك الشعور بأنفاس كوجو حاضرًا على شفتيه.

كان الجندي المتباهي متوترًا هو الآخر. تقدّم، ويده ترتعش، ورجال القلعة يتابعون.

وقف كوجو مقابل خصمه. نظر إليه من أعلى إلى أسفل نظرة تقييم، ثم ما لبثت عيناه أن وجدتا كوي بين الجمهور. أومأ كوي إليه، وابتسم كوجو ابتسامةً كان كوي يعرف أنها تعني «سأفوز».

فاز فعلًا. بعد دقيقة واحدة فقط من بدء النزال، لفّ كوجو ذراعيه حول كرش الجندي ورفعه عاليًا ثم طرحه أرضًا. جأر الجميع وقد أثارهم الأمر، وتقدّم متحدّون آخرون، جنود في القلعة أطاح بهم كوجو بدرجات مختلفة من

السهولة. وأخيرًا، وقف كوجو لوحده صامدًا في حين كان كلّ الرجال سكارى مستنفذي القوى.

بدأ الجنود يغادرون المكان، وغادر إخوانه وأبوه أيضًا بعد أن هنّأوه صائحين. كان من المقرر أن يقضي كوجو الليلة في كيپ كوست مع كوي. قال له كوي حين بدا أنّ الجميع قد ذهبوا: «سأصارعك». كان نسيم الليل قد بدأ يتحرك إلى القلعة يحمل إليها بعض البرودة، قليلًا فقط.

صاح كوجو: «الآن وقد أصبحتُ أضعف من أن أفوز؟».

- لم تكن قطّ أضعف من أن تفوز.

«حسنًا. تريد أن تصارعني؟ تعال أمسكني أولًا»، وانطلق كوجو يعدو. بمرور السنوات زادت سرعة كوي، فاستطاع أن يلحق بكوجو عند المدافع ويقفز عليه، مطوّقًا ساقيه وساحبًا إياه على الأرض. وما هي إلا ثوان معدودة حتى كان كوجو فوقه يلهث بقوّة، وكوي يصارع في محاولة لأن يقلبه. كان كوي يعرف أنّ عليه ضرب الأرض ثلاث مرات، في إشارة إلى انتهاء النزال، لكنه لم يكن يريد ذلك. لم يكن يريد. لم يكن يريد أن ينهض كوجو من عليه. لم يكن يريد أن يفوّت الإحساس بثقل كوجو فوقه.

وببطء أرخى كوي جسده، فشعر بكوجو يفعل الشيء نفسه. غاص الوَلَدان في نظرة طويلة، تتباطأ أنفاسهما، والشعور على شفتي كوي يقوى ويقوى. وخزٌ يهدّد بدفع وجهه نحو وجه كوجو.

«انهضا حالًا!». جاءهما صوت جيمس.

لم يعرف كوي منذ متى كان أبوه يقف هناك يراقبهما، لكنه تعرّف على نبرة جديدة في صوت أبيه. كان صوتَ السلطة الموزونة، الصوت نفسه الذي يستخدمه حين يتحدث إلى الخدم. وعرف كوي أنه الصوت نفسه الذي يستخدمه مع العبيد قبل أن يضربهم، لكنّه الآن ممزوج بخوف.

قال جيمس: «عد إلى بيتك يا كوجو».

شاهد كوي صديقه يذهب. غادر كوجو ولم يلتفت إلى الوراء.

في الشهر التالي، قبيل أن يبلغ كوي الرابعة عشرة، وبعد أن بكت إفيا وقاتلت وقاتلت إلى حدّ أنها ضربت وجه جيمس مرة واحدة، كان كوي على ظهر سفينةٍ متجهة إلى إنجلترا.

***

«سمعتُ أنك عدت من لندن. هل يمكن أن نلتقي يا صديقي القديم؟».

لم يستطع كوي التوقف عن التفكير في هذه الرسالة التي جاءته من كوجو. حدّق في طاسته واكتشف أنه لم يكد يأكل شيئًا من عصيدته. أما خاله فيفي فكان قد فرغ من طاسته وطلب غيرها.

قال كوي: «ربما كان يجدر بي أن أبقى في لندن».

حدجه خاله بنظرة استغراب. «تبقى في لندن لماذا؟».

قال كوي بهدوء: «الوضع أكثر أمانًا هناك».

- أكثر أمانًا؟ لماذا؟ ألأنّ البريطانيين لا يطوفون الغابات بحثًا عن العبيد؟ ألأنهم يُبقون أياديهم نظيفة بينما نتولى نحن العمل؟ صدقني، ما يفعلونه هو الأخطر.

هزّ كوي رأسه رغم أنّ هذا ليس ما كان يقصده. في إنجلترا رأى كيف يعيش السود في بلاد البيض، هنود وأفارقة يُحشرون في غرفة واحدة، عشرون شخصًا أو أكثر، يأكلون الفضلات التي يتركها الخنازير، يسعلون ويسعلون ويسعلون جميعًا إلى ما لا نهاية، يعزفون سيمفونية من المرض. كان كوي يعرف الأخطار التي تنتظرهم خلف المحيط الأطلسي، لكنه كان يعرف الخطر الكامن في نفسه أيضًا.

صوّب فيفي نظراته إليه وقال: «لا تكن ضعيفًا يا كوي»، فتساءل كوي في نفسه لوهلة ما إذا كان خاله قد فهمه. عندها عاد فيفي إلى عصيدته وقال: «أليس لديك أعمال تقوم بها؟». هزّ كوي رأسه وهو ينهض. ابتسم لخاله وشكره على الطعام، ثم غادر.

لم تكن ثمة صعوبة في عمل كوي. فالمهام الرسمية المطلوبة منه ومن زملائه في الشركة هي أن يلتقوا بأبيكو بادو ورجاله كل أسبوع لجرد البضائع، وأن يشرفوا على المراقبين الذين يحمّلون البضائع إلى الزوارق، وأن يبلّغوا حاكم القلعة بما يعرفونه عمن يتاجر بادو معهم.

اليوم كان دور كوي للإشراف على المراقبين. سار عدة أميال إلى طرف القرية وحيّا الفتية الفانتيين الذين كانوا يعملون عند البريطانيين، ينقلون العبيد من القرى الساحلية إلى القلعة. في ذلك اليوم كانوا خمسة عبيد فقط، مقيّدين وفي الانتظار. كانت أصغرهم بنت صغيرة وسّخت نفسها، لكنّ الجميع تجاهل الأمر. كان كوي قد اعتاد على رائحة الخراء، غير أنّ الخوف كانت له رائحة تبرز دائمًا. كانت تلك الرائحة تلوي أنفه وتدفع الدموع إلى عينيه، لكنه تعلّم منذ وقت طويل أن يمنع نفسه من البكاء.

كان حين يرى المراقبين ينطلقون بزورق عبيد، تطرأ له صورة أبيه واقفًا على سواحل القلعة يستعد لاستقبالهم. الآن وهو يشاهد الزورق ينطلق من هذا الساحل غمره الشعور بالعار، ذلك الشعور نفسه الذي ينتابه في كل مرة يغادر فيها زورق عبيد. تُرى كيف كان يشعر أبوه على ساحله؟ كان جيمس قد مات بُعيد وصول كوي إلى لندن. أما هو فكانت رحلته على السفينة عذابًا، وفي أفضل الأحوال يمكن القول إنها غير مريحة. فلم يتوقف عن الانتقال بين البكاء والتقيؤ. على تلك السفينة كان كلّ ما يستطيع التفكير فيه هو أنّ هذا بالضبط ما يفعله أبوه بالعبيد. هذا ما يفعله بمشكلاته، يلقي بها على ظهر قارب ويرسلها بعيدًا. تُرى كيف كان جيمس يشعر في كل مرة وهو يشاهد سفينةً تنطلق؟ هل يشعر بالمزيج نفسه من الخوف والعار والمقت الذي يشعر به كوي نحو جسمه، نحو رغبته المتمرّدة؟

هناك في القرية كان أبيكو بادو مخمورًا. حيّاه كوي ثم حاول أن يمضي سريعًا أمامه.

لم يكن سريعًا بما فيه الكفاية. أمسكه بادو من كتفه وسأله: «كيف

حال أمك؟ قل لها أن تأتي وتزورني، هاه؟». زمّ كوي شفتيه في ابتسامة متكلفة، وحاول أن يزدرد شعوره بالقرف. حين قبل الوظيفة في القرية بكت إفيا متوسلة إليه أن يرفض، متوسلة إليه أن يهرب بعيدًا، ولو إلى أرض الأشانتيين كما فعلت جدّته من قبل إن كان هذا ثمن الهرب من الوظيفة.

كانت تحرّك إصبعها على الحجر الأسود المعلّق حول رقبتها وهي تكلمه. «هناك شرّ في تلك القرية يا كوي. بابا...».

- بابا ماتت منذ زمن، وأنت وأنا كبرنا كثيرًا على الإيمان بالأشباح.

بصقت أمه على الأرض عند قدميه، وأخذت تهزّ رأسها بسرعة حتى ظنّ أنه قد يطير من مكانه. «تظنّ أنك تعرف، لكنك لا تعرف شيئًا. الشرّ يا بنيّ مثل الظل، يتبعك أينما ذهبت».

قال كوي لبادو: «ربما تأتي أمي في زيارة قريبة»، وهو يعرف أنها لن ترغب أبدًا في رؤية بادو. ورغم أنّ والديه تشاجرا كثيرًا، وفي أغلب الأحيان من أجله هو، إلا أنّ المودة بينهما كانت بادية للجميع. ورغم أنّ جزءًا من كوي كان يكره أباه، إلا أنّ جزءًا آخر منه كان يريد بقوة أن يرضيه.

حرّر كوي نفسه أخيرًا من يد بادو ومضى. وتردّدت رسالة كوجو في رأسه. **«سمعتُ أنك عدت من لندن. هل يمكن أن نلتقي يا صديقي القديم؟»**.

حين عاد من لندن منعه الارتباك من السؤال عن كوجو، لكنه في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى السؤال. فقد أصبح كوجو زعيم قريته التي ما تزال تتاجر مع البريطانيين. كان كوي يسجّل اسم كوجو في سجلات القلعة كل يوم تقريبًا عندما كان يعمل كاتبًا. ربما سيكون الأمر سهلًا الآن أن يذهب لرؤية كوجو، ليتجاذبا أطراف الحديث كالسابق. ليقول له إنه كره لندن مثلما كره أباه، وأنّ كل شيء في ذلك المكان، من برد ورطوبة وظلام، بدا كما لو أنه إهانة موجّهة ضدّه، هدفها الوحيد أن تبعده عن كوجو.

ولكن أي فائدة تُرجى من رؤيته؟ هل سيعود من نظرة واحدة إلى حيث كان قبل ست سنوات، هناك على أرض القلعة؟ ربما نجحت لندن في ما أراده

والده، ولكن ربما لم تنجح.

مضت أسابيع ولم يرسل كوي أي جواب لكوجو، بل كرّس نفسه لعمله. كان لفيفي وبادو معارف كثيرون في أرض الأشانتيين وفي شمالها. مقاتلون وزعماء وكبار ومَن على شاكلتهم يجيئون بالعبيد كل يوم بالعشرات والعشرينات. ازداد حجم التجارة كثيرًا، وغدت وسائل جمع العبيد خطرة للغاية، حتى أنّ كثيرًا من القبائل بدأت ترسم علامات على وجوه أطفالها ليمكن تمييزهم. بل إنّ الشماليين الذين كانوا يتعرّضون للأسْر أكثر من غيرهم، كانوا يجترحون ما يصل إلى عشرين ندبة على وجوههم، كيما يصبحوا قبحاء جدًا فلا يُباعون. معظم العبيد المجلوبين إلى مركز كوي في القرية كانوا أولئك الذين أُسروا في الحروب القبلية، وقليل منهم باعتهم عائلاتهم، أما النوع الأندر منهم فكان أولئك الذين يأسرهم فيفي بنفسه في مهمّات يخرج إليها شمالًا تحت جنح الليل.

كان فيفي يجهّز نفسه لواحدة من هذه المهمّات. لم يحدّث كوي عنها، لكنّ هذا عرف أنها تنطوي على شيء من الغدر، ذلك أنّ خاله كان يطلب المساعدة من قرية فانتية أخرى. سمع خاله يقول لشخصٍ ما: «يمكنك أن تحتفظ بجميع الأسرى عدا واحد. خذهم معك حين نفترق في دنكوا».

استُدعي كوي إلى مسكن خاله. أمامه كان المقاتلون يجهّزون أنفسهم لمعركة، يحملون البنادق والمناجل والرماح. اقترب كوي أكثر محاولًا أن يتبيّن ذلك الرجل الذي يكلمه خاله.

- آه، كوي! أخيرًا جئت لتحيتي، هاه؟

كان صوته أعمق من الصوت الذي بقي في ذاكرته، لكنّه عرفه على الفور. ارتعشت يده وهو يمدّها ليصافح صديقه القديم. قبضته قوية، ويده ناعمة. أعادت هذه المصافحة كوي إلى الماضي، إلى قرية كوجو، إلى سباق الحلزونات، إلى رتشرد.

سأله كوي: «ماذا تفعل هنا؟». كان يأمل ألا يخونه صوته. يأمل أن يبدو هادئًا واثقًا.

- وَعَدنا خالُك بمهمّة جيدة اليوم. وحرصت على قبولها.

ربّت فيفي على كتف كوجو ومضى يتحدث إلى المقاتلين.

قال كوجو بهدوء: «لم تردّ على رسالتي أبدًا».

- كنت مشغولًا.

- آها.

لم يتغيّر شكل كوجو. أصبح أطول وأعرض، لكنّ شكله لم يتغير.

- أخبرني خالك أنك لم تتزوج بعد.

- صحيح.

- أنا تزوجت في الربيع الماضي. الزعيم لا بدّ أن يكون متزوجًا.

ردّ كوي بالإنجليزية وقد نسي نفسه: «أوه، رايت».

ضحك كوجو. أمسك منجله ومال نحو كوي: «تتحدث الإنجليزية كالبريطانيين. مثل رتشرد تمامًا، هاه؟ حين أفرغ من مهمتي مع خالك في الشمال سأعود إلى قريتي. مرحبًا بك في أي وقت. تعال زرني».

أطلق فيفي صيحة أخيرة لجمع الرجال، فذهب كوجو مسرعًا. وبينما هو يسرع نظر إلى الخلف وابتسم لكوي. لم يعرف كوي كم سيغيبون، لكنه كان يعرف أنه لن ينام إلى أن يعود خاله. لم يقل له أحد أي شيء عن تلك المهمة. صحيح أنه رأى المقاتلين يخرجون عدة مرات من قبل ولم يسأل أبدًا، لكنّ قلبه في هذه المرة أخذ يدقّ بقوة كأن ضفدعًا وُضع مكان قلبه. كان بإمكانه أن يحسّ بكل نبضة. لماذا قال فيفي لكوجو إنّ كوي لم يتزوج؟ هل كوجو هو الذي سأله؟ وكيف سيُرحَّب بكوي في قرية كوجو؟ هل سيسكن في مساكن الزعيم؟ في كوخه، مثل زوجة ثالثة؟ أم سيوضع في كوخ في طرف القرية، وحيدًا؟ نقّ الضفدع. ثمة أمل. لا أمل. ثمة أمل. تسارع عقل كوي جيئة وذهابًا مع كل نبضة.

انقضى أسبوع، ثم اثنان، ثم ثلاثة. في اليوم الأول من الأسبوع الرابع استُدعي كوي أخيرًا إلى قبو العبيد. كان فيفي هناك مستلقيًا يسند ظهره إلى جدار القبو، يده على جنبه الذي ينزف من جرح كبير. سرعان ما أتى واحد من أطباء الشركة بإبرة سميكة وخيط، وبدأ يخيط الجرح.

سأل كوي: «ما الذي حدث؟». كان رجال فيفي يحرسون باب القبو، ومن الواضح أنهم مرتبكون. كانوا ممسكين ببنادقهم ومناجلهم، وكلما سُمع حفيف ورقةٍ في الغابة قبضوا على أسلحتهم أكثر فأكثر.

بدأ فيفي يضحك في صوت يشبه الزئير الأخير لحيوان يموت. انتهى الطبيب من إغلاق الجرح وسكب عليه سائلًا بنّي اللون، ما جعل فيفي يقطع ضحكته ويصرخ.

فقال واحد من جنود فيفي: «سكوت! لا نعرف إن كان أحد يتعقّبنا».

طأطأ كوي ليضع عينيه في عيني خاله: «ما الذي حدث؟».

كان فيفي يصرّ بأسنانه. رفع ذراعه وأشار إلى باب القبو. «انظر ماذا أحضرنا يا بنيّ».

نهض كوي ومضى إلى الباب. أعطاه رجال فيفي مصباحًا وتحرّكوا قليلًا لكي يدخل. حين دخل القبو، شعر بصدى الظلام من حوله، وجلجل كما لو أنه دخل في طبل مجوّف. رفع المصباح عاليًا أكثر ورأى العبيد. لم يتوقع أن يرى الكثير منهم، إذْ كان من المقدّر أن تصل الشحنة التالية في بداية الأسبوع المقبل. أدرك فورًا أنّ هؤلاء ليسوا من العبيد الذين يحضرهم الأشانتيون. هؤلاء أشخاص سرقهم فيفي. ثمة رجلان مقيّدان إلى بعضهما في الزاوية، مقاتلان كبيران ينزفان من جروح خفيفة. حين وقعت أنظارهما على كوي أخذا يتهكّمان باللغة التويّة، يخبطان في أصفادهما إلى أن فتحا جرحًا جديدًا.

على الجدار المقابل كانت فتاة صغيرة لم يصدر عنها أي صوت. رفعت عينيها القمريّتين الكبيرتين إلى كوي، فانحنى بجانبها يتفحص وجهها. على وجنتها ندبة بيضاوية كبيرة، علامةٌ تعلّمها من جيمس قبل سنوات، قبل أن

يرسله إلى إنجلترا. كانت علامة الأشانتيين.

نهض كوي ولم يرفع عينيه عن الفتاة. ثم ببطء تراجع، وقد أدرك من تكون. في الخارج كان خاله قد فقد الوعي من شدة الألم، وأرخى الجنود قبضاتهم بعد أن أقتنعوا أنّ لا أحد قد تعقّبهم.

نظر كوي إلى المقاتل الأقرب من الباب وأمسك كتفه وهزّه. «بربّكم، ما الذي تفعلونه بابنة ملك الأشانتيين؟». أخفض الجندي بصره وهزّ رأسه ولم ينطق. أيًا ما كانت خطة فيفي، فلا يمكن أن تفشل، وإلا سوف تدفع القرية بأكملها الثمن من حياة أهلها.

بقي كوي مع خاله ليلة بعد ليلة حتى يتماثل للشفاء. سمع منه قصة الأسْر، وكيف تسلّل فيفي ورجاله إلى أرض الأشانتيين في العتمة، بعد أن أخبرهم أحد أعوانهم عن الوقت الذي يقلّ فيه حرّاس الفتاة، وكيف هوى حارس الفتاة على فيفي بضربة منجلٍ قطعتْه كجوزة هند، وكيف سحبوا أسراهم إلى الجنوب عبر الغابة حتى وصلوا إلى الساحل.

اسمها (نانا يا)، وهي الإبنة الكبرى لـ(أوسي بونسُو)، السلطة الأعلى في مملكة الأشانتيين، إذ يحظى باحترام من ملكة إنجلترا نفسها بسبب نفوذه في أنشطة تجارة العبيد في ساحل الذهب. كانت نانا يا أداةً مهمّة للمفاوضات السياسية، فظلّ الناس يحاولون أن يأسروها منذ طفولتها. وهكذا شُنت حروب للحصول عليها، ولتحريرها، وللزواج منها.

كان كوي قلقًا جدًا حتى أنه لم يجرؤ على السؤال عن حال كوجو. كان يعرف أنّ معاون فيفي سوف يُقبض عليه سريعًا ويُعذّب إلى أن يعترف على من أخذ الفتاة. هي مسألة وقت لا أكثر حتى تظهر التبعات.

- يا خالي، لن يغفر الأشانتيون ذلك. سوف...

قاطعه فيفي. فمنذ ليلة الأسْر، وفي كل مرة يحاول فيها كوي إثارة موضوع الفتاة كي يعرف نوايا فيفي، كان هذا يمسك بجانبه ويسكت، أو يحكي واحدة

من حكاياته المستفيضة.

قال فيفي: «الأشانتيون غاضبون منا منذ سنوات. منذ أن علموا أننا بعنا أشانتيين أحضرهم إلينا بعض الشماليين الذين تعرّف إليهم بادو. قال لي بادو آنذاك إننا نتاجر مع من يدفع أكثر. وهذا ما قلته للأشانتيين حين اكتشفوا الأمر، وما أقوله لك الآن. من المتوقع أن يغضب الأشانتيون يا كوي، ومعك حق في أنه لا يجدر بنا تهوين الأمر. ولكن صدّقني، إنهم يقدّمون الحكمة على الدهاء الذي عندنا. سوف يغفرون».

توقف فيفي عن الكلام، وأخذ كوي يراقب ابنة خاله الصغرى ذات العامين وهي تلعب في الفناء. بعد حين جاءت خادمة ببعض الفول السوداني والموز. اقتربت من فيفي أولًا، فأوقفها. قال لها بصوت ونظرة حازمَين: «عليك أن تقدّمي الطعام لابني أولًا».

فعلت الخادمة ما قيل لها، فانحنت أمام كوي ومدّت يدها اليمنى. وبعد أن وضعت الطعام لهما غادرت في حين أخذ كوي ينظر إلى التأرجح الموزون في فخذيها الوافرين.

- لماذا تقول هذا دائما؟
- لماذا أقول ماذا؟

«إنني ابنك». أخفض كوي بصره وتكلّم بهدوء شديد حتى أنه تمنّى لو تبتلع الأرض صوته. «لم تنسبني لك من قبل».

فلق فيفي الفولة السودانية بأسنانه، وفصل قشرتها ثم بصقها على الأرض أمامهما. نظر نحو الطريق الترابي الرفيع الذي يقود من مسكنه إلى ساحة القرية. كان ينظر هناك وكأنه ينتظر أحدًا.

قال فيفي: «قضيتَ فترة طويلة في إنجلترا يا كوي. ربما نسيتَ أنّ الأمهات والأخوات وأبنائهن هم الأهمّ هنا. إن كنت زعيمًا، فخليفتك هو ابن أختك، لأن أختك من نسل أمك، أما زوجتك فلا. ابن أختك أهمّ لك حتى من ابنك. لكنّ أمك يا كوي ليست أختي، فهي ليست ابنة أمي، وحين تزوّجتْ رجلًا أبيض من

القلعة بدأتُ أخسرها. ولأنّ أمي كانت تكرهها، فقد بدأت أكرهها أنا أيضًا».

«كانت هذه الكراهية مفيدة في البداية. فقد جعلني هذا أعمل بجدّ أكبر. كنتُ أفكر فيها وفي جميع البيض في القلعة وأقول إنّني وقومي في هذه القرية سنصبح أقوى من البيض. سنكون أغنى منهم أيضًا. حين ازداد بادو جشعًا وبدانة، بدأتُ أقاتل عنه. في ذلك الوقت كنتُ أكره أمك وأباك. كرهتُ أمي وكرهتُ أبي أيضًا إذ كنت أعرف أيّ الناس هما. وأعتقد أنني بدأت أكره نفسي أيضًا».

«في آخرة مرة جاءت أمك إلى هذه القرية كنت أبلغ خمسة عشر عامًا. كان ذلك في جنازة والدي، وبعد أن ذهبتُ إفيا قالت لي بابا إنني لستُ ملزما بشيء لإفيا لأنها ليست أختي الحقيقية. صدّقتُ هذا سنوات عديدة، أما الآن فقد أصبحت رجلًا كبيرًا، أكثر حكمة، لكنني أكثر ضعفًا. في شبابي لم يستطع رجل أن يمسّني بمنجله، أما الآن...». وبدأ صوت فيفي يتراجع وهو يومئ إلى جرحه. بلل ريقه، وواصل حديثه: «عمّا قريب، كلّ ما ساعدتُ في بنائه في هذه القرية لن يظلّ ملكي. لديّ أبناء، ولكن ليس لديّ أخوات، لذلك فكلّ ما ساعدت في بنائه سيذهب أدراج الرياح».

« أنا الذي قلت لحاكمكم أن يعطيك هذه الوظيفة يا كوي، لأنك الشخص الذي ينبغي أن أترك له كل هذا. لقد أحببتُ إفيا كأخت ذات يوم. ورغم أنّك لست من أمي، إلا أنك الأقرب إلى أن تكون أول ابن أخت لي. سأعطيك كل ما أملك. سأكفّر عن أخطاء أمي. ليلة الغد يا كوي، سوف تتزوج نانا يا، فلو وصل ملك الأشانتيين وكل رجاله عند بابي، لن يستطيعوا أن ينكروك. لا يستطيعون أن يقتلوك أو يقتلوا أحدًا في هذه القرية، لأنها الآن قريتك كما كانت قرية أمك من قبل. سأحرص على أن تصبح رجلًا قويًا، وحتى بعد أن يرحل الرجال البيض كلهم عن ساحل الذهب، وسوف يرحلون صدّقني، ستظل رجلًا مهمًا حتى بعد أن تتداعى أركان القلعة».

وبدأ فيفي يحشو غليونه. نفخ منه إلى أن تشكّلت أسطح صغيرة من

الدخان الأبيض فوق فتحة الغليون. كان الفصل المطير قادمًا، وقريبًا سيصبح الهواء أكثف، وسيتوجب على أهل ساحل الذهب أن يتعلموا مرة أخرى كيف يمشون في مناخ دائم الحرّ والرطوبة، وكأنه يقصد أن يطبخ أهله للعشاء.

هكذا كانوا يعيشون هناك في الأدغال: كُن آكلًا، وإلا أكلوك. كن آسرًا وإلا أسروك. تزوّج كي تضمن الحماية. لن يذهب كوي أبدًا لقرية كوجو، لن يصبح ضعيفًا. كان يعمل في تجارة العبيد، ولا بدّ من تضحيات.

نِس

لا شراب ولا سلوان للنفس يكفي لجبر روحٍ مكسورة. حتى نجم الشمال نفسه الذي تهتدي به الناس، لم يكن سوى خدعة.

فيومًا إثر يوم كانت (نِس) تحصد القطن تحت عين الشمس القاسية في الجنوب. هناك قضت ثلاثة أشهر في مزرعة (تومَس آلن ستوكهم) في «ألاباما». قبل ذلك بأسبوعين كانت في المِسِسِبي، وقبلها بسنة كانت في مكانٍ ما سوف تظلّ دائمًا تسمّيه «الجحيم».

كثيرًا ما جربت أن تخمن سنّها، لكنها لم تفلح. خطر لها أن خمسًا وعشرين سنة هي التخمين الأقرب، غير أن كل سنة مضت عليها منذ انتزاعها من حضن أمها، كانت تبدو كعشر سنوات. كانت أمها (إسي) امرأة صلبةً جادّة، لم يُعرف عنها أبدًا أن حكَت حكاية سعيدة. حتى حكايات النوم التي تقصّها لنِس كانت عن ذلك الذي تسميه «القارب الكبير». إذْ تغفو إسي على صُور الرجال يُلقى بهم في المحيط الأطلسي، مثل مرساة غير موصولة بأي شيء، لا أرض، ولا أهل، ولا قيمة. تقول إسي إنهم في القارب الكبير كانوا مكدّسين بعضهم فوق بعض عشرًا، وحين يموت أحدهم تضغط جثّته الثقيلة على الآخرين، كما تُكبَس فصوص الثوم. كانت أمّ نِس، والتي يسمّيها العبيد الآخرون «فْراوْني» [العابسة]، دائمًا ما تحكي عن اللعنة التي ألحقتْها بها الحمامةُ الصغيرة قبل زمن طويل، طويل جدًا. كانت تتمتم وهي تكنس الأرض بأنها ملعونة، منزوعة الأخت، مسلوبة الحَجَر، حجر أمها. في ذلك اليوم الذي بيعت فيه نِس عام 1796، لم

تبارح شفتا أمها ذلك الخطّ الرفيع نفسه. وتذكر نِس كيف أنها كانت تحرك ذراعيها ناحية أمها وتركل بساقيها، تصارع الرجل الذي جاء يأخذها. لكنّ إسي لم تحرّك شفةً أو تمدّ ذراعًا. وقفتْ هناك، صلبة قوية، كما عرفتها نِس دائمًا. فيما بعد قابلت نِس في مزارع أخرى عبيدًا لهم مشاعر دافئة فيّاضة، أناسًا ذوي بشرة سوداء يبتسمون ويحضنون ويقصّون الحكايات الجميلة، لكنّها ظلّت تحنّ دومًا إلى تلك الصخرة الرمادية، قلب أمها. هكذا أصبحت نِس تربط دائمًا ما بين الحب الحقيقي وصلابة الروح.

كان تومَس آلن ستوكهم سيّدًا خيّرًا، إنْ كان ثمة شيء كهذا. فقد كان يمنحهم استراحة من خمس دقائق كلّ ثلاث ساعات، وكان مسموحًا لعبيد الحقل أن يدخلوا الرواق المسقوف كي يأخذوا جرّة ماء من عبيد المنزل.

وفي هذا اليوم من أواخر شهر حزيران/يونيو، كانت نِس تقف إلى جانب (تِمتام) في انتظار دورها لتحصل على الماء. أما تِمتام هذا فكان هدية لأسرة ستوكهم من جيرانهم آل وِتمَن، وكثيرًا ما يطيب لتوم آلن القول إنها أفضل هدية تلقّاها في حياته، أفضل حتى من القطة ذات الذيل الرمادي التي تلقّاها من أخيه في عيد ميلاده الخامس، أو من العربة الحمراء التي حصل عليها في عيد ميلاده الثاني.

سألها تِمتام: « كيف يومك؟»[2].

التفتت ربع التفاتة إليه وقالت: «أليس كلّها مثل بعضها؟».

ضحك تمتام، وبدا صوت ضحكته مثل رعدٍ يدوّي من بطنه إلى فمه. «أظنّ ذلك».

لم تكن نِس واثقةً من أنها سوف تعتاد على سماع اللغة الإنجليزية تنسكب هكذا من شفاه السُود. في المِسِسِبي كانت أمها إسي تحدّثها باللغة التويّة قبل أن يضبطها سيّدها ويعاقبها بخمس جلدات على كل كلمة تنطقها

---

(2) سوف يلاحظ القارئ في حوارات العبيد في هذا الفصل أنّ اللغة متخففة قليلًا من القواعد والتراكيب اللغوية المعتادة، وهذا مقصود لمحاكاة اللغة الإنجليزية الركيكة التي كان يتحدث بها العبيد في الفترة الأولى من وجودهم هناك.

نِس بالتويّة. وحين انعقد لسان نِس فَزَعًا من رؤية أمها المضروبة، عاقب السيد أمها بخمس جلدات على كل دقيقة تصمت فيها نِس. قبل هذه الحادثة كانت أمها تسمّيها (مامي)، تيمّنًا باسم أمها، فأخذ السيد يجلدها على ذلك أيضًا، وتوالت الجلدات تباعًا إلى أن صاحت إسي «ماي غُودنِس» [يا إلهي]. خرجت هاتان الكلمتان دون تفكير، إذْ كانت قد التقطتهما من الطباخ الذي اعتاد أن يُنهي بهما كل جملة يقولها. ولما كانت هذه العبارة هي الوحيدة التي خرجت من فم إسي دون عناء البحث عن كلمات إنجليزية، فقد وقر في نفسها أنّ بها شيئًا إلهيًا، تمامًا مثل ابنتها التي وهبها الربّ إياها. وهكذا تحوّلت كلمة «غُودنِس» إلى «نِس».

سألها تِمتام وهو يقضم طرفًا من سنبلةٍ ويبصقه: «أنتِ من أين؟».

فقالت: «كثيرة جدًا أسئلتك»، واستدارت بعيدًا. كان دورَها في الحصول على الماء من (مارغرِت) كبيرة العبيد في المنزل، غير أنّ المرأة صبّت لها ربع كأس فقط. «ليس عندنا اليوم كفاية»، لكنّ نِس رأت دلاء الماء من خلفها تكفي لأسبوع آخر.

أخذت مارغرت تحدّق فيها، فبدا لنِس أنها كانت تخترقها بنظرتها، أو أنها كانت في واقع الأمر تنفذ إلى حياتها قبل خمس دقائق، تحاول أن تكتشف ما إذا كان حديثها مع تِمتام يشي بإعجاب بها.

بلّل تِمتام ريقه. «مارغرت، ما هكذا تعاملين الناس».

رمقته مارغرت ثم أغطست مغرفها في الدلو، لكنّ نِس أبت أن تقبله، ومضت تاركة مارغرت وتمتام يستويان على نارهما. ربما كان هناك صكّ يقول إنّ نِس مملوكة لتوم آلن ستوكهم، ولكن لا يوجد صكّ كهذا يلزمها بالخضوع لأمزجة العبيد من أمثالها.

وما إن عادت نِس إلى حيث كانت حتى قالت لها امرأة هناك: «ليس يصحّ أن تقسي عليه هكذا». كانت أكبر سنًا من نِس، في منتصف العقد الثالث من عمرها أو نهايته، غير أنّ ظهرها كان محدودبًا، حتى وهي واقفة. «أنتِ جديدة

هنا، ولا تعرفين. تمتام فقد امرأته منذ فترة طويلة، وهو الذي يربي الصغيرة بِنكي منذ رَحَلت».

نظرت إليها نِس. حاولت أن ترسم ابتسامة على وجهها، لكنّها وُلدت في سنوات البسمة الغائبة عن أمها إسي، فلم تتعلم أن تبتسم. أطراف شفتيها تختلج دومًا إلى الأعلى دون إرادة منها، ثم تهبط في أجزاء من الثانية، وكأنها ملتحمة بذلك الحزن الذي استقرّ في قلب أمها. «أليس كلّنا فقدنا أحد؟».

كانت نِس أجمل من أن تكون زنجيّة حقل. هذا ما قاله لها توم آلن يوم حمَلها إلى مزرعته. اشتراها بُحسن نيةٍ من صديق له في جاكسن بالمسِسِبي، بعدما قال له إنها من أفضل عاملات الحقل اللاتي رآهن في حياته، ومشدّدًا على أن يستخدمها في الحقل فقط. لكنّ توم خطر له أن صديقه مخطئ بالتأكيد، بعد أن رأى بشرتها الفاتحة وشعرها المجدول المنسدل على ظهرها ليستريح على ردفيها المدوّرين. لذلك أخرج الزيّ الذي يحب أن يرتديه زنوج منزله، قميصًا أبيض اللون برقبةٍ عريضة وأكمام قصيرة عند الكتف، مع تنورة سوداء طويلة بها مريلة سوداء صغيرة. أمر مارغرت أن تأخذ نِس إلى الغرفة الخلفية لكي ترتديه، ففعلت نِس ما أُمرت به. وما إن رأتها مارغرت هناك حتى ضمّت يدها إلى قلبها وأمرتْها بالمكوث في مكانها. ألصقت نِس أذنها بالجدار تسترق السمع إلى ما تقوله مارغرت.

- لا تنفع للبيت.

- دعيني أراها يا مارغرت. أعتقد أنني أستطيع أن أقرّر بنفسي ما إذا كان شخص ما يصلح للعمل في منزلي أم لا، أليس كذلك؟

- صحيح سيدي. تستطيع أكيد، لكنّه شيء لن يعجبك. هذا قصدي.

ضحك توم آلن. وعندها دخلت زوجته (سُوزَن) وسألت عما يجري. «مارغرت تحبس زنجيتنا الجديدة هناك ولا تريدنا أن نراها. دعكِ من هذا الهراء وأحضريها».

لو أن سَوزَن كانت مثل غيرها من زوجات الأسياد، لكانت عرفت جيدًا ضرورة أن تهتمّ بالأمر حين يُحضر زوجها زنجية جديدة إلى المنزل. في هذه المقاطعة، كما في أي مقاطعة جنوبية، كان من المعروف عن رجالها أنّ عيونهم -وأعضاء أخرى من أجسادهم- لا تهجع. «نعم، مارغرت. أحضري الفتاة كي نرى. كفى سخفًا».

هزّت مارغرت كتفيها وعادت إلى الغرفة، فسحبت نِس أذنها عن الجدار. «هيا، تعالي الآن».

وهكذا كان. مشت نِس إلى من ينتظر رؤيتها، كتفاها عاريان وكذلك النصفان السفليان من ربلتيها. وما إن رأتها سوزن ستوكهم حتى أُغمي عليها، وكلّ ما استطاع توم آلن فعله هو الإمساك بزوجته والصراخ على مارغرت بأن تغيّر ملابس نِس فورًا.

هرعت بها مارغرت إلى الغرفة الخلفية وتركتْها هناك لتحضر ملابس الحقل. وقفت نِس في منتصف تلك الغرفة، تمرر يديها على جسدها، ترتعُ في عُريها القبيح. كانت تُدرك أنّ الندوب المتشابكة على كتفيها العاريين هي التي أفزعتهم جميعًا. لكنّ الندوب لم تكن على كتفيها فقط. كانت بشرتها المليئة بالندوب أشبه بجسدٍ آخر في حدّ ذاته، تبدو كصورة رجل يعانقها من الخلف بذراعين تتدلّيان حول عنقها. تصعد الندوب من نهديها، فتدور حول كتفيها، وتشقّ طريقها على طول ظهرها، لتلامس أعلى ردفيها ثم تختفي. في حقيقة الأمر لم تعد هذه بشرتها، بل غدت أقرب لأن تكون شبحًا من الماضي، مرئيًا، ملموسًا. لكنّ هذا التذكير بالماضي لم يزعجها.

عادت مارغرت إلى الغرفة بخمار وقميص بنّي يغطّي الكتفين، وتنورة حمراء تنسدل إلى الأرض. أخذت تراقب نِس وهي ترتدي ملابسها الجديدة. «مؤسف. اعتقدت لحظة أنك أجمل مني ربما»، وطقّت بلسانها مرتين ثم تركتها.

هكذا أصبحت نِس تعمل في الحقل، ولم يكن أمرًا جديدًا عليها. هناك

في المكان الذي تسميه «الجحيم»، كانت تعمل في الأرض أيضًا. كانت الشمس حارقة، تسفع القطن فيغدو ساخنًا جدًا يحرق راحتيها حين تلمسه. كان الإمساك بتلك الكريات البيضاء المنفوشة أشبه بالقبض على النار، ولكن لا قدّر الرّب أن تسقط واحدة من يدك، فالشيطان هناك يراقبك طوال الوقت. في الجحيم تعلّمت نِس أن تكون عاملة حقل جيدة، واكتسبت مهارةً جعلتها تنتقل من هناك إلى «توسكمبيا».

كان هذا شهرَها الثاني في مزرعة ستوكهم. تنام في كوخٍ من أكواخ النساء، لكنها لم تصادق أحدًا. كانت معروفة لدى الجميع بأنها المرأة التي زَجَرت تمتام. ولقد اشتعلت النساء غيظًا من فكرة أنها كانت محطّ رغبته، وغضبن أكثر حين أدركن أنها لم تكن تهتمّ به، فأصبحن يرين فيها ما يشبه الريح القوية، شيئًا مزعجًا، ولكن يمكن تحمّله.

في الصباحات كانت نِس تجهّز سطلها لتحمله معها إلى الحقل، تضع فيه كعكات الدقيق وشيئًا من لحم الخنزير المملّح، وربما بعض الخُضَر إن كانت محظوظة. في «الجحيم» تعلّمت أن تأكل وهي واقفة، تقطف القطن بيدها اليمنى، وتدفع اللقيمات إلى فمها باليسرى. لم يكن مطلوبًا من العمّال في مزرعة آلن أن يعملوا أثناء الأكل، لكنها لم تكن تعرف طريقة أخرى.

هتفت امرأة بصوت عال تتقصّد أن يصل إلى نِس: «كأنها تعتقد أنها أحسن منا».

فقالت أخرى: «وتوم آلن سيعتقد ذلك». ردّت الأولى: «لا. توم آلن لا يهتم بها منذ طُردت من البيت الكبير».

تعلّمت نِس منذ زمنٍ أن تصمّ أذنيها. حاولت أن تتذكر اللغة التويّة التي كانت إسي تكلّمها بها، حاولت أن تعطّل عقلها إلى أن لا يبقى سوى ذلك الخيط الرفيع القاسي على فم أمها، تلك الشفتان اللتان تخرج منهما كلمات الحب بلسانٍ لم تعد نِس تفهمه. كانت تأتيها العبارات والكلمات مختلطة، خاطئة.

ظلّت هكذا تعمل يومًا وراء يوم، تستمع إلى أصوات الجنوب. ذلك

الطنين المتواصل للبعوض، والصراخ الذي تطلقه حشرة السيكادا، وهمهمات النميمة بين العبيد. كانت تعود إلى مهجعها ليلًا، فتضرب فراشها إلى أن يخرج الغبار منه، فينتشر حولها كأنه يحضنها. تضع الفراش مرة أخرى وتنتظر نومًا قلّما يأتي، وتحاول قدر استطاعتها أن توقف سيل الصور التي تتراقص خلف جفنيها المطبقين.

في إحدى هذه الليالي حين كانت تضرب فراشها في الهواء، بدأ الخبطُ على الباب. قبضة تضرب على باب كوخ النساء في إيقاعٍ ملحٍّ مستمر. «أرجوكم، ساعدونا، أرجوكم!».

تقدّمت امرأة تُدعى (مافِس) لتفتح الباب. كان تمتام يحمل ابنته بِنكي بين ذراعيه، فاندفع إلى داخل الغرفة بصوت متحشرج رغم أنه لم يكن يبكي. «أعتقد فيها ما كان في أمّها».

أفسحت النساء مكانًا للطفلة، فوضعها تمتام هناك قبل أن يذرع المكان جيئة وذهابًا. «يا رب، يا رب، يا رب».

قالت له (روثي): «الأحسن أن تُخبر توم آلن ليُحضر الطبيب».

- لم ينفعنا الطبيب بشيء آخر مرة.

وقفت نِس خلف صفٍّ من النساء، متحفزات كمن ينطلق إلى معركة. شقت طريقها عبرهنّ إلى وسط الغرفة لكي تسترق نظرةً إلى الطفلة. كانت بِنكي صغيرة بأطراف حادة، وكأنّ جسمها مقدود من عصيٍّ لا التواء فيها. شعرها مربوط للأعلى في كرتين كبيرتين. وفيما كانت النساء تتفرج عليها، لم تصدر أي صوتٍ سوى شهقات سريعة.

قالت نِس: «ليس فيها شيء».

فجأةً توقّف تمتام عن مشيه، في حين التفت الجميع محدّقين في نِس. قال تمتام: «ليس لك وقت طويل هنا. بِنكي لم تنطق بكلمة منذ ماتت أمها. والآن حازوقاتها لا تتوقف».

قالت نس: «ليس فيها إلا حازوقات. لا أحد يموت من حازوقات». ونظرت

إلى النساء يهززن رؤوسهن في استنكار، لكنها لم تعرف ما الخطأ الذي ارتكبته.

سحبها تمتام جانبًا وهمس لها: «هؤلاء ألم يقولوا لك؟»، فهزّت نِس رأسها. نادرًا ما تحدثت إليها النساء، وقد استطاعت أخيرًا أن تصمّ أذنيها عن نمائمهن. بلّل تمتام ريقه وأخفض رأسه قليلا. «اسمعي، نعرف ليس فيها شيء إلا الحازوقات، لكنْ نريدها أن تتكلم، لذلك...».

تراجع صوته، فيما بدأت نِس تدرك أنّ الأمر برمّته مجرد لعبة لخداع الصغيرة كي تتحدث. سحبت نِس نفسها بعيدًا عن تمتام ونظرت إلى بقية النساء نظرة فاحصة من واحدة إلى الأخرى إلى الأخرى. مضت إلى وسط الغرفة حيث تستلقي الطفلة على فراش صغير، وعيناها تحدّقان في السقف. أدارت الطفلة عينيها إلى نِس وحَزقت مرة أخرى.

وجّهت نِس كلامها لهم: «يا ربّ، لست أعرف ماذا جاءْ بي إلى هذا الغباء. اتركوا البنت وحدها. ربما لا تريد أن تتكلم لأنها تعرف أنّ سكوتها يعذبكم، أو ربما ليس عندها شيء تقوله. ولا أظن أنها ستبدأ الكلام اليوم بسبب تمثيليتكم».

عصرت النساء أياديهنّ وأخذن ينقّلن أقدامهنّ ارتباكًا، ورأس تمتام يتهاوى أكثر فأكثر.

مشت نِس عائدة إلى فراشها، وانتهت من نفض الغبار، ثم استلقت.

تقدّم تمتام إلى پنكي، وقال وهو يمدّ يده إليها: «هيا»، لكنها سحبت يدها بعيدًا. اكتسى وجهه لون خزيٍ رمادي وقال: «قلتُ هيا». لكنّ الطفلة انتزعت نفسها مرة أخرى. ذهبتْ إلى حيث تستلقي نِس، عيناها مطبقتان بقوة كأنما تستجدي النوم لكي يأتي سريعًا. مسحت پنكي بيدها على كتف نِس، ففتحت هذه عينيها فرأت الطفلة تحدّق فيها، بعينين مدوّرتين واسعتين تتضرّعان. ولأنّ نِس كانت تعرف الفَقد جيدًا، وتفهم جيدًا معنى أن تكون بلا أمٍ، وأن تشعر بالاحتياج، وأن تصمت، فقد مدّت يدها للطفلة وجذبتها إلى السرير.

قالت لتمتام: «اذهب انت». كان رأس پنكي قد استقرّ على صدرها متوسّدًا نهديها. «هي ستبقى معي الليلة».

منذ ذلك اليوم أصبحت لا تفارق نِس، بل إنها انتقلت من كوخ النساء الآخر إلى كوخ نِس. كانت تنام معها، وتأكل معها، وتمشي معها، وتطبخ معها. غير أنها لم تتكلم، ولم تطلب منها نِس أن تتكلم أبدًا. كانت تعرف جيدًا أنّ پنكي سوف تتحدث حينما يكون لديها ما تقوله، وتضحك حينما يكون هناك ما يُضحك فعلًا. أما نِس، التي لم تكن تُدرك قبل ذلك كم تفتقد رفقةً تؤنسها، فقد شعرت بالارتياح بهذه الرفيقة الهادئة.

كانت پنكي فتاة الماء، لها في اليوم الواحد ما يصل إلى أربعين رَوحةً إلى الجدول الصغير على طرف المزرعة. تحمل لوحًا خشبيًا على ظهرها، تلفّه بذراعيها من الخلف فتبدو كمن يحمل صليبًا، وعلى كل طرفٍ من اللوح سطلان فضّيان كبيران. وما إن تصل إلى الجدول حتى تملأ السطلين وتعود بهما إلى المنزل، فتفرغ ما بهما في دلاء الماء الكبيرة الموضوعة في الرواق، وتملأ الأحواض التي يستحمّ فيها أطفال ستوكهم بعد الظهر، وتسقي الأزهار على تسريحة سوزَن ستوكهم، ثم تذهب للمطبخ لتسلّم مارغرت سطلين كاملين من ماء الطبخ. هكذا كانت پنكي تذرع الدرب نفسه كل يوم، بين الجدول والمنزل. وفي نهاية اليوم تظلّ ذراعاها تنبضان بشدّة، حتى أنّ نِس تسمع خفقات قلبها منهما حين تنسلّ الصبيّة إلى الفراش ليلًا معها، فتضمّها هذه بقوة.

لكنّ الحازوقات لم تتوقف منذ اليوم الذي أحضرها فيه تمتام إلى كوخ نِس أملًا في أن يُفزع الطفلة فتتحدث. الجميع أدلى بدلوه في طريقة العلاج.

- اقلب البنت على رأسها.
- دعها تحبس نَفَسها وتبلعه.
- ضع قشتين متعامدتين فوق رأسها.

أما هذا العلاج الأخير الذي نصحت به امرأة تُدعى (هارِيت) فهو الذي بدا ناجعًا. إذْ استطاعت پنكي أنْ تكمل أربعًا وثلاثين رَوحةً إلى الجدول دون حازوقة واحدة. وعند قدومها من الروحة الخامسة والثلاثين كانت نِس عند الرواق تنتظر حصّتها من الماء. هناك كان طفلا ستوكهم يلهوان في الخارج،

الصبيّ اسمه (توم الصغير)، والصبيّة اسمها (ماري). كانا يجريان على السلّم في الوقت الذي اقتربت فيه پنكي، فصَدم توم اللوحَ صدمة طيّرت أحد السطلين في الهواء، وانهمر الماء مطرًا على من في الرواق. هنا انطلقت ماري في البكاء. «تبلّل فستاني كلّه».

كانت مارغرت قد انتهت لتوّها من غَرف الماء للعبيد الآخرين، فوضعت المغرفة. «لا تبكي آنسة ماري».

لم يكن من طبع توم قطّ أن ينبري للآخرين نخوةً أو شجاعة، لكنه قرّر أن يجرّبها في تلك اللحظة من أجل أخته. قال لپنكي: «اعتذري لماري!». كان الاثنان في سنٍ واحدة، غير أنّ پنكي كانت أطول منه بنحو قَدَم.

فتحت پنكي فمها، لكنّ الكلمات لم تخرج.فأسرعت نِس قائلة: «هي آسفة».

- لم أكن أتكلم معك.

كانت ماري قد توقفت عن البكاء وأخذت تحدّق في پنكي. «توم، تعرف أنها لا تتكلم. لا بأس يا پنكي». فقال توم وهو يدفع أخته: «سوف تتكلم ما دمتُ أمرتُها بذلك. هيا، اعتذري لماري». فوقهم لاحت الشمس في وسط السماء شديدة الحرارة، فما لبثت القطرتان على فستان ماري أن جفّتا.

أما پنكي التي غاصت عيناها بالدموع ففتحت فمها مرة أخرى، ولم تخرج منه سوى موجة من الحازوقات، عالية، مضطربة. هزّ توم رأسه، وهرع إلى داخل المنزل على مرأى من الجميع، وعاد بعصا ستوكهم. كانت العصا في ضعف طوله، مصنوعةً من خشب البتولا الباهت. لم تكن سميكة، لكنّها ثقيلة جدًا حتى أنّه اضطرّ إلى مسكها بيديه الاثنتين، ناهيك عن أن يستطيع الضرب بها بيدٍ واحدة.

قال توم: «تكلّمي أيتها الزنجية!»، في حين هرعت مارغرت إلى المنزل وهي تصرخ: «طيّب يا توم، سأنادي والدك».

كانت پنكي تنشج وتحزق في الوقت نفسه، فتمنعُ الحازوقات أي كلام

يمكن أن يخرج من فمها. رفع توم العصا بيمناه بجهدٍ جهيد، وحاول أن يضرب بها من فوق كتفه، لكنّ نِس التي كانت تقف خلفه التقطت طرف العصا. غاصت العصا في راحتيها وهي تمسك بقوةٍ، حتى سقط توم أرضًا وانجرّ بضعة سنتيمترات.

في تلك اللحظة ظهر توم آلن الأب على الرواق مع مارغرت التي كانت تقبض على صدرها من شدة اللهاث.

- ما هذا؟

انطلق توم الابن يبكي. «كانت ستضربني يا بابا».

حاولت مارغرت أن تتدخل: «سيدي توم، أنت تكذب! كنتَ...»، لكنّ توم آلن أسكتها برفعةٍ من يده وأخذ يحدّق في نِس. لعلّه في هذه اللحظة تذكّر الندوب على كتفيها، وكيف أنها جعلت زوجته تستلقي في الفراش طوال ذلك اليوم، وأفسدت شهيّته عن العشاء أسبوعًا كاملًا. ولعله أخذ يتفكّر في الفِعلة التي يمكن أن يقوم بها زنجيّ ما فيستحقّ عقابًا كالذي حلّ بجسدها، إذ ما الذي قد تتجاسر زنجيّة مثلها على فعله. وهناك كان ابنه ساقطًا على الأرض متسخًا بالتراب، والطفلة البكماء تبكي. كانت نِس متيقّنة من وضوح الموقف أمامه، غير أنّ ذكرى ندوبها هي التي حرّكت فيه الشكوك. زنجيّة بتلك الندوب على جسدها، وابنه طريح الأرض: قُضي الأمر إذًا.

قال مخاطبًا نِس: «سوف أتصرف في هذا الأمر قريبًا»، فأخذ الجميع يتساءل عما يمكن أن يحدث.

في ذلك المساء عادت نِس إلى مهجعها، زحفت إلى فراشها وأغمضت عينيها في انتظار أن تتوقف الصور التي تتراقص خلف جفنيها كي يحلّ الظلام. إلى جانبها كانت حازوقات پنكي قد بدأت.

تبرّمت إحدى النساء: «يا رب، بدأنا مرة ثانية! ليس كفاية تعب اليوم؟ لا نرتاح إذا بدأ هذه البنت تحزق».

أطبقت پنكي يدها على فمها خجلًا، وكأنها بذلك يمكن أن تصنع حاجزًا لصوت الحازوقات. فهمست لها نِس: «لا تفكري بها. التفكير يجعلها أسوأ». ولم تكن نِس تعرف ما إذا كانت تتحدث إلى پنكي أم إلى نفسها.

عصرت پنكي عينيها بقوّة، فانفجرت سلسلة من الحازوقات من شفتيها. فقالت نِس لجوقة الأصوات المتبرّمة: «اتركوها»، وكان ذلك. فالأحداث التي جرت ذلك اليوم غرست لنِس بذرة إكبار وإشفاق بين العبيد ظلّت ترتوي باحترام النساء لها. لم يكنّ يعرفن ما الذي سيقدم عليه توم آلن.

ليلًا، حين جاء النوم أخيرًا، تقلّبت پنكي في الفراش وغاصت في بطن نِس الناعمة. سمحت نِس لنفسها باحتضان الصبيّة، وسمحت لأفكارها بالانحراف بعيدًا باتجاه الذاكرة.

نِس في «الجحيم» مرة أخرى. تجد هناك نفسها متزوجة من رجل يُدعى (سام)، لكنه في الحقيقة قادم من أوروبا ولا يفقه الإنجليزية. يفضّل سيد الجحيم، الشيطان شخصيًا بيشرته الحمراء وشعره الرمادي، أن يكون عبيده متزوجين، لأسباب تتعلق بـ«الضمان». ولما كانت نِس جديدة على الجحيم ولم يطالب بها أحد بعد، فقد تقرر أن تُعطى للعبد الجديد سام كي تهدّئ من طبعه.

أوّل الأمر لا يتبادلان حديثًا. نِس لا تفهم شيئًا من لغته الغريبة، رغم انبهارها به، إذ إنه أجمل رجل رأته في حياتها بيشرته الداكنة الناعمة جدًا حتى أنّ النظر إليها قد يساوي تذوّقها. هو ذاك الجسد الكبير المفتول، جسد الحيوان الإفريقي الذي يأبى على الحبس، حتى وإن كان مع هديته نِس. تعلم نِس جيدًا أن الشيطان لا بدّ وأن دفع مبلغًا كبيرًا لقاء هذا العبد، لذلك فهو ينتظر منه أن يؤدي أعمالًا شاقة، غير أنّ أحدًا لم ينجح في ترويضه. في يومه الأول تشاجر مع عبدٍ آخر، وبصق على الذي كان واقفًا يتفرج، ثم وُضع على منصةٍ وجُلد أمام الجميع حتى ملأت دماؤه ما يكفي لاستحمام طفل رضيع.

يرفض سام أن يتعلم الإنجليزية، فيلاقي الجزاء على لسانه الذي لا يزال «أسود»، إذْ يعيده الشيطان كل ليلة إلى فراشه بجروح لا تكاد تبرأ حتى تنفتح

من جديد. وذات ليلة، في واحدة من سَورات غضبه أخذ يحطّم مهجع العبيد، بما في ذلك غرفتهما التي تدمّرت بأكملها. وما إن يسمع الشيطان بما حدث حتى يأتي للعقاب.

تقول نِس: «أنا فعلت هذا». كانت قد قضت تلك الليلة مختبئة في الركن الأيسر من الغرفة تراقب هذا الرجل الذي قيل لها إنه زوجها، يتحوّل إلى الحيوان الذي يُقال له إنه هو.

لا يبدي الشيطان أيّ رحمة، حتى وهو يعلم جيدًا أنها تكذب، ورغم محاولة سام مرة بعد مرة أن يتحمل مسؤولية ما فعل. تتوالى الضربات على نِس إلى أن يرتدّ السوطُ عن ظهرها غليظًا كالحلوى الدبقة، ثم تُركل إلى الأرض.

يغادر الشيطان، وفي الغرفة سام يجهش بالبكاء ونِس لا تكاد تعي شيئًا من حولها. تخرج كلماته في دَعَوات ثقيلة محمومة، لكنّ نِس لا تفهم شيئًا منها. يحملها بحذر ويضعها على الفراش، ثم يغادر بحثًا عن مداوٍ شعبي على بعد خمسة أميال، فيأتي هذا بجذور وأوراق ومراهم يمسح بها على ظهر نِس وهي تُراوح ما بين الوعي والإغماء. هي الليلة الأولى التي ينام فيها سام في الفراش إلى جانبها، وحين تصحو في الصباح على آلامها وقروحها التي لم تبرأ بعد، تجدهُ عند قدميها يتأمّل وجهها بعينيه الكبيرتين المتعبتين: «أم سوري». أول كلمات إنجليزية يقولها لها، أول كلمات إنجليزية يقولها لأي أحد.

في ذلك الأسبوع كانا يعملان في الحقل جنبًا إلى جنب. ورغم أنّ الشيطان لم يغفل عنهما، إلا أنه لم يمسسهما بسوء. في المساءات يعودان إلى الفراش، لكنّهما يستلقيان على جانبيه منفصلين. في بعض الليالي يخطر لهما أن الشيطان يراقبهما في المهجع، فيحتضنها سام في انتظار بندول الخوف الذي في قلبها أن يهدأ. مع الوقت ازداد مخزونه اللغوي، فأضاف اسمها و«اطمئني»، و «اهدئي». وبعد شهر من الآن سوف يضيف كلمة أخرى: «أحبك».

في غضون شهر لا أكثر، وما إن تحوّلت الجروح على ظهريهما إلى ندوب جافة، حتى أتمّا زيجتهما. كان يحملها عاليًا فيُخيّل إليها أنها أصبحت واحدة من

تلك الدمى التي تصنعها من الخِرَق كي يلعب الأطفال بها. لم يسبق لرجل أن اختلى بها، لكنها لا تنظر إلى سام على أنه رجل. فهو بالنسبة إليها أصبح شيئًا أكبر بكثير من مجرد رجل، أصبح برج بابل نفسه، ذاك الذي تَطاول حتى بلغ مقربةً من الرب فوجب إسقاطه. يمرر يديه على ظهرها المتقرّح ، وتمرر يديها هي أيضًا على ظهره، وشيئًا فشيئًا ما إن تستحيل اللمساتُ إلى قبضات حتى تنفتح الندوب من جديد. الاثنان داميان الآن، العروس والعريس، في هذا «القِران المقدّس» غير المقدّس. تنطلق أنفاسه من فمه إلى فمها، ثم يستلقيان معًا إلى أن يصيح الديك، إلى أن تحين العودة إلى الحقل من جديد.

استيقظت نِس على إصبع پنكي ينكزها في كتفها. «نِس، نِس!». التفتت هذه إلى وجه الطفلة، تحاول أن تخفي دهشتها. «رأيتِ حلمًا مزعجًا؟».

- لا.

«كأنك رأيتِ حلمًا مزعجًا». قالتها الطفلة بشيء من خيبة الأمل، إذْ كان يحالفها الحظ أحيانًا فتحكي لها نِس بعض الحكايات.

- كان مزعجًا. لكنه ليس حلم.

***

صياح الديكة أعلن الصباح، والنسوة في مهجع العبيد جهّزن أنفسهن لأعمال اليوم، يتهامسن حول المصير الذي سوف تلقاه نِس.

لم يسبق أن رأى أحد توم آلن يجلد عبدًا على مرأى من الجميع، بعكس ما رأوه أو جرّبوه هم أنفسهم في مزارع أخرى. فسيّدهم الجديد هذا كان سريع الغثيان، وكان يكره منظر الدم. في الحقيقة، حين يريد توم آلن أن يعاقب أحدًا من عبيده، يفعل ذلك بعيدًا عن الأعين، في مكان يمكنه فيه أن يغلق عينيه أثناء الجلد، ثم يستلقي. لكنّ الموقف هذه المرة بدا مختلفًا. كانت نِس واحدة من عبيد قلائل زجرهم توم آلن علانية، وهي كانت تدرك أنها وضعته في موقف محرج، فولده مطروح على الأرض و پنكي تقف هادئة لم يمسسها أذى.

عادت نِس إلى صفّ القطن نفسه الذي كانت تعمل فيه في اليوم السابق، بينما الجميع يحدّق. كان يُشاع بأنّ مزرعة توم آلن ممتدة لمساحة أطول من أيّ مزرعة أخرى في المقاطعة، ولا يمكن إنهاء صفٍ واحد من القطن في يوم واحد. فجأة، كان تمتام يقف خلف نِس. لمس كتفها فاستدارت.

- قالوا لي إنّ پنكي تكلمت بالأمس. أظن عليّ أن أشكرك على هذا، وعلى الشيء الثاني.

نظرت إليه، فأدركت أنها لم تره من قبل دون أن يمضغ شيئًا ما. كان فمه دائمًا يتحرك في دوائر. قالت له: «ليس عليك شيء»، وانحنت تُكمل عملها. نظر تمتام للأعلى ليرى ما إذا كان توم آلن قد جاء إلى الرواق.

«طيب. أنا ممنون على أي حال». كان صوته يعبّر عن ذلك فعلًا. وحين أدارت نس وجهها إليه رأت أنه كان يبتسم مجددًا، وشفتاه العريضتان تنسحبان للخلف لتكشف عن أسنانه. «أستطيع أن أكلم السيد توم آلن عنك. لن يفعل شيء».

- لا أعتقد في حياتي احتجت لأحد يقاتل نيابة عني. ولا سبب يجعلني أقبل هذا الآن. اذهب بامتنانك لشخص آخر ولا تزعجني. مارغرت ربما ستفرح به.

تهاوى وجه تمتام. أومأ لنِس ثم عاد إلى صفّه. بعد دقائق معدودة، وصل توم آلن إلى الرواق ومدّ بصره. نظر الجميع إلى نِس من زوايا أعينهم، فشعرت كما كانت تشعر في الليل أحيانًا، في الظلام في موسم انتشار البعوض، حين تستشعر وجود شيء في كل مكان، لكنها لا تستطيع رؤية الخطر نفسه.

نظرت الآن إلى توم آلن من مكانها في الحقل، فلم يبد أكثر من نقطة صغيرة على الرواق. تساءلت في نفسها كم سيمنح نفسه من الوقت كي يتصرف، هل سيستدعيها هذا الصباح أم سيقضي بضعة أيام كي يمضي الأمر، فتظلّ تنتظر. الانتظار هو ما يزعجها، هو الذي كان دومًا يزعجها. أنفقت هي وسام كثيرًا من الوقت في الانتظار، والانتظار، والانتظار.

طلبت نِس من سام أن ينتظر في الخارج حين كانت في المخاض. كانت

ولادتها لـ(كُوجو) في فصل شتاء جنوبي غريب؛ إذْ تساقط ثلج غير مسبوق غطّى المزارع أسبوعًا كاملًا، فهدّد المحاصيل وأغضب ملّاك الأراضي، وأصاب أيادي العبيد بالخمول.

كانت نِس مستكنّة في غرفة الولادة تتقي برد الشتاء ليلة الثلج الأثقل، وحين وصلت القابلةُ أخيرًا وفتحت الباب اندفعت ريح باردة إلى الغرفة حاملة معها رقاقات الثلج التي ذابت على الطاولات والكراسي، وعلى بطن نِس.

أثناء الحمل كان كوجو جنينًا من ذلك النوع الذي يصارع في رَحِم أمه، ولم يكن خروجه إلى الدنيا مختلفًا. صرخت نِس بأعلى صوتها، تستعيد مع كل دفعة قصص العبدات الأخريات اللاتي أخبرنها عن ولاداتهن. قالت لها النساء إنّ إسي لم تخبر أحدًا عن مخاضها بنِس. بهدوء ذهبت خلف شجرة وقرفصت. قالت النساء أيضًا إنّ صوتًا غريبًا سبق بكاء الطفلة، وظللن يتجادلن أعوامًا عديدة حول ذلك الصوت. إحدى العبدات قالت إنه تصافق أجنحة لأحد الطيور، وقالت أخرى إنه صوت روح قدمت لتساعد نِس على الخروج ثم اختفت بدويّ عال. لكنّ امرأة أخرى ذهبت إلى إنّ الصوت كان من إسي نفسها. قالت إنّ إسي أرادت أن تكون لوحدها، في لحظة فرحٍ خاصة مع طفلتها قبل أن يأتي شخص ما وينتزع منها الطفلة، والفرح. فالصوت إذًا كما قالت العبدةُ كان ضحكة إسي. ولهذا السبب لم يعرفنه.

لم تفهم نِس كيف يمكن لامرأة أن تضحك في ولادتها، إلى أن سحبت القابلة كُوجو إلى الدنيا، فبكى طفلها بصوت أعلى مما قد تسمح به رئتاه الصغيرتان. أما سام الذي كان يذرع المكان تحت الثلج فشكر أسلافه باللغة اليورُبية، منتظرًا أن يحمل طفله. عندها فقط فهمت نِس.

بعد ولادة كوجو، أصبح سام ما يريده الشيطان أن يكون بالضبط: عاملًا مجدًّا، قلما يتشاجر أو يتسبب في أيّ مشكلات. يتذكر الطريقة التي كان يضرب بها الشيطانُ نِس بسبب أفعاله هو. وحين حمل «جو» كما يحب أن يسميه لأول مرة، وعد نفسه أن لا يسمح بأي ضرر يصيب الصبي بسببه.

بعد ذلك قابلت نِس (أكُو)، فقالت لسام إنه سوف يستطيع الوفاء بوعده.

كانت نِس تجلس في مؤخرة الكنيسة تنتظر ابتداء الموعظة يوم أحدٍ في عيد الفصح، الأحد الوحيد الذي يسمح فيه الشيطان لعبيده بالابتعاد خمسة عشر ميلًا إلى كنيسة معمدانية للسُود في أطراف البلدة. ودونما تفكير، بدأت تغنّي لحنًا باللغة التويّة كانت أمها تغنّيه بألمٍ في ليالي العمل القاسية، حين كانت تُضرب من أجل تطاول أو كسل أو فشل مزعوم.

الحمامة أخفقت، فماذا ستفعل؟ إما أن تعذّبها، أو ستفشل!

لم تكن نِس تفهم ما تقوله، فإسي لم تخبرها أبدًا معنى الكلمات. لكنّ امرأة في الصفّ الذي أمامها استدارت وهمست لها بشيء.

قالت نِس: «آسفة. لست أفهم». كانت الكلمات التي قالتها المرأة بلغتها الأم.

قالت المرأة: «إذًا أنتِ أشانتيّة ولا تعرفين». كانت لهجتها ثقيلة، مثل لهجة إسي، تحمل وميضًا من ساحل الذهب. قالت لها إنّ اسمها (أكُو)، وإنها من أرض الأشانتيين، وكانت تعيش في القلعة مثل إسي قبل أن تُرسل إلى الكاريبي ثم أميركا.

قالت أكُو: «أعرف طريق العودة». كانت الموعظة على وشك البدء، وعرفت نِس أنه ليس لديها كثير من الوقت، فأحدُ الفصح لن يأتي مرة أخرى إلا بعد سنة. وبحلول ذلك الوقت تكون إحداهما إما بيعت أو ماتت. كانت حياتهما من ذلك النوع الذي لا يضمن الحياة. عليهما التصرف بسرعة.

كانت أكُو تتحدث بهدوء، وأخبرت نِس كيف أنها قادت الأكانيين شمالًا نحو الحرية مرات عديدة، مرات عديدة جدًا حتى أنها حصلت على لقب «انْيامي نْسا»، أي يد الرب. أما نِس فكانت تعرف أنه لم يهرب أحد قط من مزرعة الشيطان، لكنها وهي تستمع إلى هذه المرأة التي تبدو في كلامها مثل أمها، والتي تسبّح للإله الذي تسبح له أمها، قررت أن تكون أسرتها أول أسرة تهرب.

كان جو قد بلغ سنة واحدة حين بدأت نِس تخطط للحرية. أكّدت لها

المرأة أنها أخذت أطفالًا إلى الشمال من قبل، أطفالًا رُضّعًا كانوا لا يزالون يصرخون ويبكون بحثًا عن أثداء أمهاتهم. لن يكون جو مشكلة.

تحدثت نِس مع سام في الأمر كل ليلة يقضيانها معًا. كانت تكرّر مرة بعد مرة: «ما يمكن تربي طفل في الجحيم»، وهي تستعيد ذكرى انتزاعها من أمها. من يعلم كم سيستغرق الأمر قبل أن ينسى ابنها صوتها وتفاصيل وجهها، مثلما نسيت هي صوت إسي ووجهها. حين وافق سام أخيرًا أرسلا يخبران أكو بأنهما جاهزان، وسوف ينتظران إشارتها. كانت الإشارة أغنية قديمة باللغة التويّة، تُغنى برفق في الغابة كأنما تحملها الأوراق التي تدفعها الرياح.

وهكذا انتظروا، نِس وسام وكوجو. يعملان فترات أطول وبجهد أكبر في الحقول من أي عبيد آخرين، حتى أنّ الشيطان نفسه كان يبتسم حين يأتي ذكرهما. انتظرا طوال الخريف ثم الشتاء، يتسقّطان الصوت الذي يخبرهما أن الوقت قد حان. وفي الانتظار ترتفع الدعوات بأن لا يُباعا أو يُفرّقا عن بعضهما قبل أن تحين الفرصة.

لم يُباعا أو يُفرّقا، لكنّ نِس تساءلت كثيرًا في نفسها ما إذا كان من الأفضل لهما لو حدث ذلك. جاءت الأغنية في الربيع، برفقٍ شديد حتى أنّ نِس ظنّت أنها ربما تتخيّل. ولكن سرعان ما أمسك سام بجو بذراع، ونِس بالذراع الأخرى، وكان الثلاثة خارج أرض الشيطان لأول مرة.

في تلك الليلة الأولى مشيا كثيرًا جدًا، بعيدًا جدًا، حتى أن كَعبَي نِس المتشققين تفتّحا. نزفت هنالك على الأوراق، فَرَجت أن يهطل المطر كي لا تستطيع الكلاب القادمة من دون شك أن تلتقط رائحتها. حين ارتفعت الشمس صعدوا إلى الأشجار. لم تفعل نِس ذلك منذ طفولتها، لكنّها سرعان ما استعادت مهارتها. لفّت جو حول ظهرها بقطعة قماش ووصلت إلى الغصن الأعلى. حين يبكي تدفنه في صدرها. وفي بعض الأحيان كان حين تفعل ذلك يسكن تمامًا، فتقلق وتشتاق إلى بكائه. لكنّهم جميعًا كانوا يمارسون السكون هناك. ذلك السكون الذي يشبه ما كانت تتحدث عنه إسي في قصصها عن القارب الكبير.

السكون الذي يشبه الموت.

مرّت الأيام هكذا. أربعتهم يتقمصون الأشجار في الغابات أو العشب في الحقول. ولكنْ سرعان ما بدأت نِس تشعر بحرارة تصعد من الأرض، فعرفت، مثلما يعرف المرء الهواء أو الحب بالإحساس لا أكثر، أنّ الشيطان كان في إثرهم.

قالت نِس لأكُو بينما كان سام والطفل يبحثان عن ماء للشرب: «هل يمكن أن تأخذي كوجو الليلة؟ الليلة فقط. ظهري لا يحتمل أكثر».

أومأت أكُو ورمقتها بنظرة استغراب، لكنّ نِس كانت تعرف ما تريد ولن تغيّر رأيها.

في ذلك الصباح جاءت الكلاب، لهاثها ثقيل ومُتعَب وهي تخبط الأشجار بمخالبها حيث تختبئ نِس. من بعيد كان صوت صفير بنغمة جنوبية قديمة ترتفع من الأرض قبل أن يتضح صاحبها. قال الشيطان: «أعرف أنكم هنا في مكان ما. ويسعدني أن أنتظركم حتى تخرجوا».

بلغةٍ تويّة مكسّرة، نادت نِس أكُو التي كانت بعيدة في الأعلى ممسكة بالطفل جو. «لا تنزلي. مهما حصل».

استمر الشيطان في الاقتراب، دندنته خفيضة وصبورة. أدركت نِس أنه سينتظر هنالك إلى ما لا نهاية، وعما قريب سيبكي الطفل من الجوع. نظرت إلى الشجرة التي كان عليها سام، ورجَت في نفسها أن يغفر لها ما سوف تفعله بهم، ثم أخذت تهبط من الشجرة. وحين وصلت إلى الأرض أدركت أنّ سام قد فعل الشيء نفسه.

سأل الشيطان بينما كان رجاله يشدّون وثاق نِس وسام: «أين الطفل؟».

قالت نِس: «مات». كانت ترجو أن تبدو في عينيها تلك النظرة التي تحملها الأمهات أحيانًا حين يأتين بعد ركض، بعد أن يقتلن أطفالهن ليحرروهم.

رفع الشيطان أحد حاجبيه وضحك ضحكة بطيئة. «يا للأسف حقًا. اعتقدتُ أنني ربما كان لديّ زنوج أثق بهم. ولكن ها أنتم تثبتون العكس كالعادة».

وسَار بنِس وسام عودًا إلى الجحيم.

فور أن وصلوا إلى الجحيم استدعى العبيد كلهم إلى مكان الجَلد. عرّاهما، وربط سام بقوة حتى أنه لم يكن يستطيع تحريك أصابعه، وأرغمه على مشاهدة نِس تتلقى الضربات التي ستجعل جسدها قبيحًا جدًا بحيث لا يمكن أن تعمل في منزل أبدًا. وما إن انتهى الضرب حتى كانت نِس طريحة على الأرض والتراب يغطي قروحها. لم تكن تستطيع أن ترفع رأسها، فرفعه الشيطان لها. أجبرها على أن ترى. أجبر الجميع على أن يروا. وُضع الحبل، ومال غصن الشجرة، فتدلى الرأس على الجسد.

وهكذا، ففي هذا اليوم الذي كانت تنتظر فيه نِس العقاب الذي يدّخره توم آلن لها، لم تستطع سوى أن تتذكر ذلك اليوم. رأس سام. رأس سام يتأرجح إلى اليسار.

حملت پنكي الماء إلى الرواق حيث يجلس توم آلن. وحين استدارت الصبيّة عائدة، التقت عيناها بعيني نِس، لكنّ نس لم تُطل النظر. استمرت في قطف القطن، وأودعت تفكيرها في قطف القطن فقط مثل صلاة تؤديها، كما كانت تفعل منذ اليوم الذي رأت فيه رأس سام. في انحناءاتها كانت تقول: «يا رب، اغفر لي خطاياي». وفي قَطَفاتها تقول: «نجّنا من الشرير». وفي رفع القطن تقول: «واحفظ ولدي، أينما كان».

جيمس

هناك في الخارج كان الصغار يغنّون «اي سي، شامي ما مو». يتراقصون حول النار ببطونهم الملساء العارية، تتلألأ مثل كرات صغيرة تلتقط الضوء. يهلّلون بعد أن وصلتْ الأنباء بأنّ الأشانتيين قد حصلوا على رأس الحاكم (تشارلز مَكارثي)، يرفعونه فوق عصًا خارج قصر مليكهم، في إشارة تحذير للبريطانيين أنْ هذا جزاء من يقف في وجهنا.

سألَهم جيمس: «يا صغار، ألا تعلمون أنّ الأشانتيين لو هزموا البريطانيين فسوف ينقضّون علينا نحن الفانتيّين بعد ذلك؟». قالها ثم اندفع نحو طفلةٍ صغيرة يدغدها، حتى شرع الأطفال كلّهم يقهقهون ويطلبون أن يكفّ عن دغدغتهم. أفلت الطفلة من يده، ثم اكتسى وجهًا مكفهرًا ليستأنف الدرس الذي يلقيه عليهم. «أنتم في أمانٍ هنا في هذه القرية، لأنّ عائلتي هي الحاكمة. لا تنسوا ذلك».

- نعم يا جيمس.

على الطريق كان والد جيمس يقترب مع رجل أبيض من القلعة، فأومأ لجيمس أن يتبعهما إلى المساكن. قال الرجل الأبيض وهو يلقي نظرة خاطفة على جيمس: «هل من المناسب أن يسمع ما سنقوله يا كوي؟».

- إنه رجل، ليس صبيًّا. سوف يخلفني هنا حين أرحل. وأيًّا ما كان الأمر الذي تريد أن تخبرني به، يمكنك أن تقوله له.

هزّ الرجل رأسه، ثم حدّق في جيمس وهو يتحدث. «والد أمك، أوسي بونسو، تُوفّي. والأشانتيّون يقولون إننا قتلنا ملكهم انتقامًا لمقتل الحاكم مكارثي».

ردّ جيمس تحديقته بقوةٍ، والغضب يتأجج في عروقه: «وهل فعلتم ذلك؟». أشاح الرجل الأبيض بنظره بعيدًا. كان جيمس يعلم أنّ البريطانيين ظلّوا يشعلون الحروب القبلية لسنوات طويلة، وأنّ أيّ أسرى يؤخذون من تلك الحروب كانوا يُباعون لهم. لطالما قالت له أمه إنّ ساحل الذهب أشبه بقدرٍ من حساء الفول السوداني: أهلها الأشانتيون هم المرق، وأهل أبيه الفانتيون هم الفول السوداني، وأما الشعوب الكثيرة الأخرى التي تبدأ من حافة المحيط الأطلسي مرورًا بالأحراش وحتى الشمال فهم اللحم والفلفل والخضراوات. كان هذا القِدر قد امتلأ حتى حافته، فجاء الرجل الأبيض وأوقد النار تحته. والآن لا يملك أهل ساحل الذهب إلا أن يوقفوا الغليان، مرةً بعد مرة بعد مرة. بالنسبة لجيمس ليس مُستغربًا أبدًا أن يقتل البريطانيون جدّه في سبيل أن يزيدوا الحرارة. وهو يعلم أنّ الحرارة ظلّت مشتدة في قريته منذ أن سُرقت أمّه وزُوّجت لأبيه.

قال كوي: «أمك تريد أن تحضر الجنازة». فأرخى جيمس قبضةً أدرك لتوّه أنها تشكّلت في يده. فعقّب الرجل الأبيض: «هذا أمر خطير جدًا يا كوي؛ فحتى مكانة (نانا يا) الملكيّة قد لا تضمن حمايتكم. هم يعلمون جيدًا أنّ قريتكم حليفة لنا منذ سنوات. الأمر خطير جدًا».

أخفض كوي نظرته، فخطر لجيمس فجأةً صوتُ أمه مرة أخرى وهي تقول له إنّ والده رجل ضعيف، لا احترام لديه للأرض التي يمشي عليها.

قال جيمس: «سنذهب»، ورفع كوي عينيه. «التخلّف عن جنازة ملك الأشانتيين خطيئة لن يغفرها الأسلاف أبدًا».

ببطءٍ، هزّ كوي رأسه ثم التفت إلى الرجل الأبيض. «هذا أقلّ الواجب».

هنا صافح الرجل الأبيض كوي وابنه مودعًا، وفي اليوم التالي كان جيمس

ووالدته ووالده يتجهون شمالًا إلى «كُوماسي». أما الصغار فقد تركوهم مع الجدة (إفيا).

احتفظ جيمس ببندقيته على حِجره وهم في طريقهم عبر الغابة. كانت آخر مرة أمسك فيها ببندقية قبل خمس سنوات، في عام 1819 تحديدًا، حين بلغ الثانية عشرة. يومها أخذه والده إلى الغابة كي يطلق النار على قِطع من القماش رَبَطها في عدة أشجار على مبعدة. وفي ذلك اليوم قال لجيمس إنّ الرجل ينبغي أن يتعلم الإمساك بالبندقية مثلما يمسك امرأة: بعناية ورفق.

يتساءل جيمس الآن وهو ينظر إلى أبويه ما إذا كان والده قد أمسك أمه بتلك الطريقة في حياته، بعناية أو برفق. فلئن كانت الحرب أسلوب الحياة في ساحل الذهب، فقد كانت كذلك داخل البيت أيضًا.

أخذت (نانا يا) تنوح وهم يصعدون العربة. «هل كنا سنذهب أصلًا لولا ولدي؟». كان جيمس قد أخطأ فأخبرها بما دار بين والده والرجل الأبيض. فتمتم والده قائلًا: «ولولاي أنا، أيكون لديك هذا الولد؟».

- ماذا قلت؟ لا أفهم هذه اللهجة الفانتية القبيحة التي تتحدث بها.

أشاح جيمس ببصره بعيدًا، فسوف يستمران على هذا المنوال طيلة الرحلة. لا يزال يذكر المشاجرات التي دارت بينهما وهو طفل صغير إذْ تصرخ أمّه بصوتٍ عالٍ عن شيءٍ ما يخصّ اسمه.

- جيمس رتشرد كولنز؟ جيمس رتشرد كولنز! من أي نوعٍ من الأكانيين أنت كي تعطي ابنك ثلاثة أسماء بيضاء؟

- وما المشكلة؟ ألن يظلّ أميرًا على شعبنا وعلى البيض أيضًا؟ لقد منحته اسمًا قويًا.

يعرف جيمس الآن، كما عرف آنذاك، أنّ والديه لم يحبّا بعضهما قط. كان زواجًا سياسيًا لا أكثر، فاشتراطات الواجب هي التي أبقتهما معًا، على أنّ هذا الواجب كان بالكاد يكفي. وحين مرّوا ببلدة «إدومفا» كانت والدته تقول إنّ

كوي ما كان ليصبح رجلًا أصلًا لولا خاله الراحل (فيفي). كثير من مشاجراتهما تقود إلى ذِكر فيفي والقرارات التي اتخذها لكوي وأسرته.

بعد أيامٍ من السفر توقفوا لقضاء الليلة في «دَنكوا» عند (ديفِد)، وهو صديق قديم لكوي من أيام سفره إلى إنجلترا، عاد إلى ساحل الذهب قبل سنوات مع زوجته البريطانية. ستمرّ أيام، وربما أسابيع، قبل أن يصلوا إلى منطقة الداخل حيث الجثمان المسجّى لجدّ جيمس من أجل إقامة العزاء.

صاح ديفِد وهو يستقبل الأسرة القادمة: «كوي، صديقي القديم». كانت له بطن مدوّرة مثل جوزة هند ضخمة. للحظةٍ خطر لجيمس كيف كان يقطع جوزة الهند ويشرب ما بداخلها، فتساءل عما يمكن أن يخرج من بطن ديفِد لو ثُقبت.

تصافح الصديقان وأخذا يتبادلان الحديث. لاحظ جيمس أنه كلما طالت المدة بين لقاءاتهما، كلما اكتسى صوتاهما نبرة أعلى وأشدّ اتقادًا، كما لو أنّ الصوت يحاول أن يعوّض المسافات البعيدة، أو يعود بالزمن إلى الوراء.

أومأت نانا يا لزوجة ديفِد (كاثرِن)، ثم تنحنحت بصوت عال. فقال كوي: «زوجتي مرهقة جدًا»، وجاء الخدم ليأخذوها إلى غرفتها. بدأ جيمس يمشي معهم، راجيًا أن ينعم ببعض الراحة أيضًا، غير أنّ ديفِد استوقفه.

- تعال يا جيمس، أنت رجل كبير الآن. اجلس، لنتحدث.

في المرات القليلة التي رآه فيها كان دائمًا يسمّيه رجلًا كبيرًا. يتذكر جيمس حين كان يبلغ من العمر أربع سنوات فقط وتعثّر في شيءٍ لا يُرى، ربما نملة، وسقط على الأرض فانشقّت شفته العليا. طفق يبكي بكاءً عنيفًا يندفع من مكانٍ ما في صدره، فرفعه ديفِد عن الأرض بيد واحدة، ونفض الغبار عن مؤخرته باليد الأخرى ثم أوقفه على طاولة أمامه ونظر في عينيه. «أنت رجل كبير الآن يا جيمس. لا ينبغي أن تبكي على كل شيء صغير يأتي في طريقك».

جلس الثلاثة حول نارٍ أشعلها الخدم، يشربون نبيذ النخل. بدا له أنّ والده أكبر سنًا من ديفِد، بقليل فقط، وكأنّ الأيام الثلاثة التي سافروا فيها قد أضافت إلى عمره ثلاث سنوات. ولو أنّ الرحلة استغرقت ثلاثين يومًا لبدا كوي

في عمر جدّه قبل أن يموت.

سأله ديڤِد: «إذًا ما زالت تنغّص عليك حياتك، هاه؟ حتى وأنت تأخذها إلى جنازة أوسي بونسو؟».

- لا شيء يملأ عينيها.

- هذا ما يحدث حين تتزوج من أجل السلطة بدلًا من الحب. يقول الكتاب المقدس....

«لا حاجة بي إلى معرفة ما يقول الكتاب المقدس. لقد درسته أيضًا، هل نسيت؟ بل إنني كنتُ أحضر حصة الدين أكثر منك»، وضحك قليلًا ثم أضاف: «لا حاجة بي إلى ذلك الدين. لقد اخترتُ هذه الأرض، هذه الشعوب، هذه العادات، وفضّلتها على ما عند البريطانيين».

فقال ديڤِد بهدوء: «اخترتَها، أم اختيرت لك؟». استرق كوي نظرة إلى جيمس ثم نظر بعيدًا. بدا الأمر مثل صراخ أمه على كوي دائمًا حين تغضب: «أنت ليّن جدًا، تنكسر. رجل ضعيف».

«أنت يا جيمس! لقد كبرتَ بما يكفي لكي تستعد للزواج. هل نبدأ في البحث عن عروس لك، أم أنّ في بالك فتاة ما؟»، وغمز له، ثم بدا وكأنّ الغمزة حرّكت شيئًا في حنجرته فطفق يضحك بقوة إلى أن غصّ في لعابه.

قال كوي: «اخترنا له أنا ونانا يا زوجة جيدة، سوف يتزوجها في الوقت المناسب».

هزّ ديڤِد رأسه ثم أمال طاسة النبيذ مرة أخرى على فمه، فأخذت عقدة حنجرته تعلو وتهبط مع مرور النبيذ إلى جوفه. انكمش جيمس في مكانه وهو يراقبه. قبل وفاة خال والده فيفي، أي حين كان جيمس لا يزال صبيًا صغيرًا، اتفق فيفي وكوي على اختيار الفتاة التي سيتزوجها جيمس. كان اسمها (أمّا أتا)، ابنة الرجل الذي خَلَف الزعيم أبيكو بادو. كان هذا القِران آخر شيءٍ في قائمة الأشياء التي وعد فيفي نفسه بإنجازها لتصحيح ما حدث. سيكون هذا تحقيقًا لوعدٍ قطعه كوبي أوتشر لإفيا قبل سنوات طويلة، ذلك الوعد بأنّ دمها سيمتزج

بدم الحكّام الفانتيين. هكذا سوف يتزوج جيمس من أمّا أتا عشية عيد ميلاده الثامن عشر، وستكون زوجته الأولى، والأعلى شأنًا.

نشأت أمّا في القرية أيضًا، فكان يعرفها جيدًا منذ طفولته. كان يلعب معها في الصِغر عند مساكن الزعيم أبيكو، لكنه بدأ يستاء منها مع مرور السنين. أشياءٌ صغيرة تلك التي تزعجه فيها، مثل الطريقة التي تضحك بها، متأخرةً على الدوام بثانيةٍ واحدة بعد أن يقول نكتة، متأخرةً بما يكفي ليدرك أنها لم تعتبره ظريفًا. وكذلك يزعجه أنها تضع الكثير من زيت النارجيل في شعرها، حتى أنّ خصلاتها لو مرّت على كتفه فسوف تبقى رائحة زيت النارجيل فيه حتى بعد أن يفترقا. كان عمره خمسة عشر عامًا فقط حين أدرك أنه لن يستطيع أن يحب امرأة مثل هذه حبًا صادقًا، لكنّ رأيه لم يكن مهمًا على أيّ حال.

تتابعت رشفات النبيذ في صمت. على الأشجار كانت الطيور تتنادى للنوم، وعنكبوت يزحف فوق قدمَي جيمس العاريتين، فخطرت له قصص أنانسي التي كانت أمه تحكيها له في طفولته، وما تزال تحكيها لإخوته الصغار. «هل سمعتم حكاية أنانسي والطير النائم؟»، هكذا كانت تسألهم بمكرٍ يتراقص خلف عينيها، فيصيحون جميعًا «لا»، وينثرون قهقهاتهم في أياديهم، منتشين بكذبتهم؛ فهم قد سمعوها مرات ومرات قبل ذلك، ويعلمون جيدًا أنّ الحكايات ليست سوى كذب لا عقاب عليه.

أمال ديڤِد طاسة النبيذ مرة أخرى على فمه، ورأسه يميل معها إلى الوراء كي يعبّ كل ما فيها. تجشّأ، ثم مسح فمه بظاهر يده. «هل صحيحٌ ما يُشاع؟ تلك الإشاعات عن أنّ البريطانيين سيلغون الرقّ قريبًا؟».

هزّ كوي كتفيه. «في العام الذي وُلد فيه جيمس قالوا للجميع في القلعة إنّ تجارة الرق قد أُلغيت، وإنه لم يعد بإمكاننا أن نبيع العبيد لأميركا. ولكن هل توقفت القبائل عن البيع؟ هل أدّى ذلك إلى رحيل البريطانيين؟ ألا ترى أنّ هذه الحرب بين الأشانتيين والبريطانيين سوف تستمر لفترة أطول من حياتك أو حياتي أو حتى حياة جيمس؟ ثمة أمور أخرى غير الرقّ يا أخي. هي مسألة مَنْ

سيملك الأرض، الشعب، السلطة. لا يمكن أن تغرز سكينًا في جسم شاةٍ ثم تقول الآن سأنزع سكيني رويدًا رويدًا، فلْنجعل الأمور تمضي سهلةً نظيفة، دون اتساخ. دائمًا سيكون هناك دم».

كان جيمس قد سمع هذا الكلام أو شيئًا شبيهًا به عدة مرات من قبل. البريطانيون لم يعودوا يبيعون العبيد لأميركا، غير أنّ الرقّ لم ينته، ويبدو أنّ والده غير مقتنع بأنه سينتهي. سوف يستبدلون شكلًا من أشكال القيد بآخر، يستبدلون بأغلال الجسد أغلالًا غير مرئية تربط على العقول. لم يكن جيمس يستوعب هذا حين كان صغيرًا، حين انتهى التصدير القانوني للعبيد وبدأ التصدير غير القانوني. لكنه الآن يستوعب. لم تكن لدى البريطانيين نية في الرحيل عن إفريقيا، حتى بعد أن تنتهي تجارة الرقيق. لقد استملكوا القلعة، وفي نيّتهم أن يستملكوا الأرض أيضًا، رغم أنهم لم يصرّحوا بذلك علانية حتى الآن.

***

واصلوا مسيرهم صباح اليوم التالي، وخطر لجيمس أنّ مزاج والدته قد تحسّن بعد تلك الاستراحة، حتى أنها كانت تدندن في الطريق. مرّوا على بلدات وقرى صغيرة متواضعة البنيان لا تكاد تزيد عن طين وعصيّ. وكان زادهم في هذه الرحلة طيبة الناس الذين عمل معهم كوي ذات مرة، أو أقرباء بعيدون لم تقابلهم نانا يا في حياتها قط، فقدّموا لهم المأوى وشيئًا من نبيذ النخل. وكلّما توغّلوا في البلاد لاحظ جيمس انتباه أهل الأحراش لبشرة أبيه. «هل أنت أبيض؟». سألته طفلةٌ وهي تمدّ سبّابتها لتكشط بشرته البنّية الفاتحة كما لو أنها بذلك تستطيع أن تقبض على شيء من لون بشرته.

ردّ عليها كوي بلهجة تَوِيّةٍ ركيكة، لكنها مقبولة: «ما رأيكِ أنتِ؟». فهقهت الصبيّة ثم هزّت رأسها ببطءٍ قبل أن تجري بعيدًا لتخبر الأطفال الآخرين الذين تحلّقوا حول النار يحدّقون، يمنعهم خوفهم من سؤاله بأنفسهم.

وصلوا إلى «كُوماسي» في أول الليل، وكان في استقبالهم (كوفي)، أخو نانا

يا الأكبر، مع حرّاسه.

- **أكوابا**. أهلًا بكم.

أُخذوا إلى القصر الكبير للملك الجديد حيث جهّز الخدم لهم غرفة في زاويته. جلس كوفي معهم وهم يتناولون الطعام، فأعلمهم بما استجدّ من أمورٍ بعد أن غادروا قريتهم.

- آسف يا أختي. لم نستطع أن نؤجل دفنه أكثر من ذلك.

هزّت نانا يا رأسها، فقد كانت تدرك أنّ الجثمان سيُدفن قبل وصولهم، كيما يمكن للملك الجديد أن يتولّى مهامّه. لكنها أرادت أن تحضر العزاء.

سألتْه: «وكيف أوسي ياو؟». كان ثمة قلق يساور الجميع بشأن الملك الجديد؛ فلأنهم كانوا في حالة حرب اضطُروا إلى اختياره على وجه السرعة، بعد دفن الملك الراحل مباشرة. ولم يكن أحد يعلم حينئذ ما إذا كان هذا فألًا سيئًا على الشعب والحرب التي يخوضها.

- يدير الأمور على ما يرام في منصب الأسانتيهيني. لا تقلقي يا أخيّتي، فسوف يحرص على أن يُكرِّم والدنا كما ينبغي له التكريم.

لاحظ جيمس أنّ خاله لم يعر والده أي اهتمام في حديثه. عيناه لم تلتق عينَي كوي ولو لمرةٍ واحدة، حتى حين كانتا تهيمان بعيدًا. كانت عيناه مثل قطةٍ عمياء تسير في غابة ظلماء وفق غريزتها لا أكثر، تتفادى الألواح والصخور التي تؤذيها، أو التي آذتها من قبل.

بدأت مراسم العزاء في اليوم التالي. خرجت نانا يا من القصر قبل أن يصحو جيمس والرجال الآخرون بوقتٍ طويل، كي تنضمّ إلى نساء العائلة في موكب النواح، ذلك النواح الذي يعلن للجميع في البلدة أنّ يوم ندب الراحل قد حان. عند الظهيرة كانت هاته النساء متّشحات بملابس حمراء وجدائل أوراق النيانيا وليف النخيل على جباههن المصبوغة بالطين، يذرعن الشوارع في عويلٍ صاخب ليُسمعوا كل من في البلدة.

أثناء ذلك ارتدى جيمس ووالده وبقية الرجال ملابس العزاء السوداء

الحمراء. كان هناك رتلٌ من قارعي الطبول يبدأ من طرفٍ في القصر الملكيّ وينتهي عند الطرف الآخر، ولسوف يقرعون طبولهم حتى الفجر. بدأ الرجال ينشدون، ثم يرقصون «الكيتي» و «الأدْوا» و «الدانسُومو»، هكذا إلى مطلع الفجر.

جلست عائلة الملك الراحل في صفٍ واحد كي يمكن للجميع أن يقدّموا تعازيهم. أما طابور المعزّين فبدأ عند الزوجة الأولى لجدّ جيمس، وامتد إلى منتصف ساحة البلدة. وكل واحد في هذا الطابور يمدّ يده ليصافح العائلة فردًا فردًا، ويقدّم تعازيه. وقف جيمس إلى جانب أبيه، وحاول أن لا ينسى إبقاء كتفيه في وضع مستقيم، والنظر في عين كل شخصٍ يعزّيه، كي يعرفوا أنه رجل من سلالة مهمّة على القدر الذي يتوقّعونه. هكذا ظلّوا يصافحونه ويهمهمون بتعازيهم، فيقبل جيمس التعازي رغم أنه لم يعش أبدًا في أرض الأشانتيين، ولم يعرف جدّه إلا كما يعرف المرء ظلّه؛ كهيئةٍ موجودة هناك، مرئية لكنها لا تُلمس، ولا تُعرف.

حين وصل آخر المعزّين كانت الشمس قد بلغت أعلى مكانٍ لها في السماء. رفع جيمس يديه لوهلةٍ كي يمسح العرق من عينيه، وحين فتحهما أبصر أحلى فتاةٍ رآها في حياته.

قالت له: «فليهنأ الملك الراحل بالسلام في أرض الأرواح». لكنّها لم تمدّ يدها إليه.

- ما هذا؟ ألا تصافحين؟

«مع احترامي، لن أصافح تاجر رقيق». قالتْها وهي تنظر في عينيه مباشرة، فأخذ يتفحّص وجهها. كان شعرها مرفوعًا في عُقْصةٍ فوق رأسها، وكلماتها تخرج صفيرًا من فتحة بين أسنانها الأمامية. ورغم أنّ ملابس العزاء التي ترتديها كانت ملفوفة بإحكام حولها، إلا أنها انزلقت قليلًا فاستطاع جيمس أن يرى قمة نهديها. كان يجدر به أن يصفعها، أو أن يشكوها، لكنّ الصفّ الذي وراءها كان مستمرًا، ولا بدّ للعزاء أن يستمر. تركها تمضي، وحاول أن يتابعها ببصره، لكنه سرعان ما فقد أثرها في الزحام.

لقد فقد أثرها، لكنه لم يستطع أن ينساها، رغم الطابور الذي يتحرّك، والناس الذين يتقدّمون لمصافحته. تراوح جيمس ما بين الانزعاج الشديد والشعور بالعار مما قالته. أتُرى صافحت والده؟ خاله؟ من تكون هي لكي تقرّر ما هو تاجر الرقيق؟ لقد قضى جيمس حياته كلها يستمع إلى أبويه يتجادلان هل الأشانتيون أفضل أم الفانتيون، لكنّ النقاش لم يصل أبدًا إلى مسألة الرقيق. لقد اكتسب الأشانتيوّن قوةً من اصطياد الرقيق، واكتسب الفانتيون مَنَعةً من المتاجرة بهم. وإذا لم تستطع الفتاة أن تصافحه هو، فمن المؤكد أنها لن تستطيع أبدًا لمس يدها هي نفسها.

أخيرًا انتهت مراسم العزاء وأُذِن لروح الملك الراحل أوسي بونسو أن تستريح. قُرِع الجرس كي يعرف أهل البلدة أنّ الأمر قد قُضي، وأنه أصبح بإمكانهم جميعًا العودة إلى حياتهم الطبيعية. أما أفراد العائلة فلا يزال أمامهم أربعون يومًا يرتدون فيها ملابس الحداد، ويفرزون الهدايا ويقسّمونها، ويتناقشون في أمر الملك الجديد.

كان من المقرّر أن يغادر أبوا جيمس خلال يومين، فعرف جيمس أنه لم يكن لديه وقت كثير كي يجد الفتاة التي رفضت مصافحته. هكذا توجّه إلى ابن خاله كُوامي. كان كُوامي يدنو من العشرين عامًا، وقد تزوّج مرتين. كان شابًا بدينًا داكن البشرة، يتحدث بصوتٍ عالٍ ويفرط في الشراب، لكنه كان طيبًا ومخلصًا. حين كان جيمس في السابعة من عمره زار أبواه منزل كُوامي، فلعب الصبيّان معًا في غرفة الكرسي الذهبي، غرفة جدّه، وهي غُرفة يُقتل من يدخلها دون إذن. وبينما هما يلعبان إذْ أسقط جيمس واحدة من عصيّ الجدّ، وكانت واحدة من تلك المصادفات التي لا يمكن أن يتسبب فيها إلا الأرواح الشريرة؛ إذْ سقطت العصا في مصباح زيت النخيل، فاشتعلت. طفق الصبيّان يطفآنها، لكنّ العائلة كلها جاءت لترى ما حدث بعد أن وصلتها رائحة الحريق.

صاح الجدّ: «من فعل هذا؟». كان قد قضى دهرًا وهو ملك الأشانتيين،

حتى أنّ صوته لم يعد كصوت البشر، بل أقرب إلى زئير الأسود.

أخفض جيمس بصره فورًا، منتظرًا أن يبلغ كْوامي جدّه عنه، فقد كان هو الغريب الذي لا يأتي إلى البلدة إلا مرة كل بضع سنوات. أما كْوامي فهو الذي يعيش هناك مع الأسد وهو من سيقاسي غضبته. لكنّ كْوامي لم يقل شيئًا. حتى حين وُضع كل منهما على حجر أمّه وضُرب، لم يتفوّه كْوامي بكلمة.

قال جيمس: «كْوامي، هناك فتاة يجب أن أعثر عليها».

قال كْوامي: «إيه يا ابن عمتي، اخترت الشخص الصحيح»، وضحك بصوتٍ عال. «أعرف كل فتاة تمشي في هذه البلدة. صفها لي».

وما إن انتهى من الوصف حتى أخبره ابن خاله من تكون وأين يمكن أن يجدها. وهكذا خرج جيمس في البلدة التي بالكاد يعرفها، بحثًا عن الفتاة التي لم يرها إلا مرة واحدة. وكان واثقًا أنّ ابن خاله سيكتم سرّه.

وجدها جيمس، تحمل الماء في دلوٍ على قمة رأسها، تعود قافلةً إلى كوخ أسرتها. لم يبدُ عليها أنها فوجئت حين رأته، وكان واثقًا من أنّ الشعور الذي اجتاحه حين تقابلا أول مرة، أيًا ما كانت طبيعته، كان مشتركًا بينهما.

قال لها مشيرًا إلى الدلو الذي تحمله: «تسمحين لي أن أساعدك؟».

هزّت رأسها في وَجَل: «لا، أرجوك. لا يجدر بك أن تقوم بأعمال كهذه».

- اسمي جيمس.

«جيمس»، ردّدت خلفه وهي تدوّر الاسم الغريب في فمها، تتذوّقه وكأنه فاكهة مرّة تلسع لسانها. «جيمس».

- وأنتِ؟

- أكوسْوا مينْسَه.

ظلّا يمشيان. بعضٌ من أهالي البلدة الذين عرفوا جيمس توقفوا لكي ينحنوا احترامًا أو يحدّقوا فيه، لكنّ الأهالي في الغالب كانوا يمارسون حياتهم اليومية، ما بين جلب الماء وحمل الحطب لإشعال النار.

عشرةُ أميال هي المسافة بين النبع وكوخ أكوسوا على ضواحي البلدة،

وكان جيمس مصرًّا على معرفة كل ما ينبغي أن يعرفه عنها.

- لماذا لم ترضي أن تصافحيني في جنازة الملك؟
- قلت لك. لا أصافح تاجر رقيق فانتيّ.

فقال جيمس، محاولًا أن يمنع الغضب من الظهور في صوته: «وهل أنا تاجر رقيق؟ وإنْ كنتُ فانتيًا، فأنتِ أيضًا أشانتيّة. أولم يكن جدي مليككم؟».

ابتسمت. «أنا واحدة من ثلاثة عشر طفلًا، بقي منهم عشرة فقط. حين كنت طفلة صغيرة، كانت هناك حرب بين قريتي وقرية أخرى. لقد أخذوا ثلاثة من إخوتي».

ساد الصمتُ بينهما بضع دقائق. كان جيمس يشعر بالأسف لمصابها، لكنه كان يعرف جيدًا أنّ الفقدَ جزء من الحياة. حتى والدته، على مكانتها الكبيرة، أُسرت وسُرقت من عائلتها لتُدخَل عنوة في أسرة أخرى. «لو أنّ قريتك هي التي انتصرت في تلك الحرب، ألن تأخذوا ثلاثة إخوة من أسرة أخرى؟». لم يستطع أن يكتم هذا السؤال.

أشاحت أكوسوا بنظرها بعيدًا. كان الدلو على رأسها ثابتًا جدًا، حتى أنّ جيمس تساءل في نفسه ما الذي يمكن أن يطيح به من رأسها. الريح؟ ربما حشرة؟ قالت بعد صمت: «أعرف ما تفكّر فيه. الجميع مشترك في هذا الأمر. الأشانتيّون والفانتيّون والغا، والبريطانيون والهولنديون والأميركان. ولا ألومك لو فكّرتَ بهذه الطريقة، فهكذا علّمونا أن نفكّر. لكنني لا أريد التفكير بهذه الطريقة. حين أخذوا إخوتي وآخرين غيرهم، أخذت قريتي تبكي عليهم ونحن نضاعف من جهودنا الحربية. ماذا يعني ذلك؟ أننا نثأر للحيوات المفقودة بسلب حيوات أكثر؟ هذا أمر لا أفهمه».

توقفا قليلًا كي تُحكم مئزرها. وللمرة الثانية في ذلك اليوم حاول جيمس جاهدًا أن لا ينظر إلى نهديها. تابعت كلامها: «أحبُّ أهلي يا جيمس». كان لاسمه على لسانها حلاوة لا توصف. «أفتخر أنني أشانتيّة، مثلما تفخر بالتأكيد أنك فانتيّ، لكنني بعد أن فقدت إخوتي قررتُ أنني سأكون شعبَ نفسي».

وبينما هي تتحدث، شعر بشيءٍ يتفجّر داخله لم يشعر به من قبل. كان يودّ لو يسمعها تتحدث إلى الأبد. كان يودّ لو يصبح واحدًا من الشعب الذي تحدثت عنه.

واصلا السير، وكانت الشمس تنزل أكثر فأكثر، فعرف جيمس أنه لن يصل إلى المنزل قبل حلول الظلام. ومع ذلك تباطئا في السير، حتى بدا أنّ قدميهما لا تتحركان على الإطلاق، بل تنزلقان ببطء، وكأنّ البعوض الذي يطنّ حولهما قد رفعهما وطيّرهما في الأعلى.

سألها جيمس: «هل أنتِ موعودة لأحد؟».

نظرت إليه بخجل. «والدي لا يؤمن بوعود الزواج قبل أن يبدو على جسد الفتاة أنها جاهزة. وأنا إلى الآن لم يأتني دمي».

خطرت له زوجته الموعودة له في القرية، تلك التي اختيرت له لمكانتها. لن يكون معها سعيدًا أبدًا، وزواجه منها سيكون عديم الحب باردًا، كزواج أبويه. لكنه كان يعلم أنّ أبويه لن يوافقا أبدًا على أكوسوا، ولا حتى كزوجة ثالثة أو رابعة. لم تكن تملك أي شيء، ولا أصل لها.

لا شيء لا أصل له. هذا ما كانت تقوله له جدّته إفيا في الليالي التي تبدو فيها في أشدّ حالاتها حزنًا. لم يكن جيمس يذكر يومًا واحدًا لم ير فيه إفيا في سوادٍ تام، ولا ليلةً لم يسمع فيها نحيبها الخافت.

ذات مرة في طفولته قضى نهاية الأسبوع معها في بيتها قرب القلعة. وفي منتصف تلك الليلة استيقظ فسمعها تبكي في غرفتها. ذهب إليها واحتضنها بأقوى ما يمكن لذراعيه الصغيرتين.

«لماذا تبكين، ماما؟». سألها وهو يتحسّس وجهها، محاولًا أن يقبض على بعض الدموع كي ينفخها بعيدًا وهو يتمنّى أمنية، مثلما كانت أمه تفعل أحيانًا حين يبكي.

سألته وهي تسحبه إلى حجرها وتهدهده: «هل سمعت قصة بابا يا صغيري؟».
كانت تلك هي الليلة الأولى التي يسمع فيها جيمس القصة. لكنها لم تكن الأخيرة.

أمسك جيمس بيد أكوسوا، وأوقفها. بدأ الدلو على رأسها يتأرجح، فرفعت يديها كي تثبّته. «أريد أن أتزوجك».

كانا على بعد خطوات قليلة من كوخ الفتاة، هناك بين الأحراش. أطفال صغار يتصارعون في الوحل، يخرجون بوجوه قد اصطبغت بلون الطين. وقف رجل يقطع الحشائش الطويلة بمنجله، ومع كل ضربة تهتزّ الأرض. خطر لجيمس أنه يشعر بالأرض تتحرك تحت قدميه.

«كيف تتزوجني يا جيمس؟». انتابها القلق، وعيناها تسترقان النظر إلى حيث أسرتها تنتظرها. إن تأخرتْ أكثر من ذلك فسوف تضربها أمها، ثم تظلّ تقرّعها حتى الفجر. لن يصدّق أحد أنها كانت مع حفيد ملك الأشانتيين، وإنْ صدّقوها فلن يرون في الأمر إلا بداية المتاعب.

- حين يأتيك دمك، لا تخبري أحدًا. لا بدّ أن تخفيه. سأرحل في الغد، لكنني سأعود من أجلك، وسوف نغادر هذه البلدة سوية. نبدأ حياة جديدة في قرية صغيرة لا يعرفنا فيها أحد.

كانت أكوسوا ما تزال تنظر صوب أسرتها، وهو يعلم كم يبدو كلامه مجنونًا، ويعرف حجم التضحية التي يطلبها منها. فطقوس البلوغ لدى الأشانتيين أمرٌ في غاية الأهمية؛ إذْ تُقام الاحتفالات أسبوعًا كاملًا لمباركة تحوّل الفتاة إلى «امرأة». بعد هذا اليوم تصبح القوانين صارمة؛ فالحائض محظور عليها زيارة بيت الكرسيّ[3]، ومحظور عليها عبور بعض الأنهار. تعيش الحائض في كوخ منفصل وتدهن معصمها بطينٍ أبيض طوال أيام الحيض. وإنْ عُرف عن امرأةٍ أنها أخفت حيضها، يكون عقابها شديدًا.

سألها وهو يعلم أنه ليس من حقه أن يسأل هذا السؤال: «هل تثقين بي؟».

قالت بعد صمت: «لا. الثقة تُكتسب. أنا لا أثق بك. لقد رأيتُ ما يمكن أن تفعله السلطة بالناس، وأنت واحد من أقوى العائلات سلطة».

---

(3) الكرسيّ رمزُ الحُكم، مثل العرش في ثقافاتٍ أخرى.

شعر جيمس بدوار، وكأنه سيسقط من فوره. فأكملت: «ولكنْ، إن عُدت من أجلي، فستكسب ثقتي».

هزّ جيمس رأسه ببطء متفهّمًا. سيصل إلى قريته مع نهاية الشهر، ويُقام زفافه في نهاية العام. الحرب ستستمر، ولا يوجد شيء مضمون: لا حياته ولا حتى قلبه. لكنّه وهو يسمع كلام أكوسوا عرف أنه سيجد طريقةً ما.

***

لم يستطع جيمس أن يشرح لزوجته (أمّا) لماذا لا يودّ النوم في كوخها. كان قد مضى على زواجهما ثلاثة أشهر، وبدأت أعذاره تنفد. في ليلة عرسهما قال لها إنه مريض. وفي الأسبوع الذي تلاه كان جسده هو الذي يقدّم الأعذار بنفسه، إذْ يتدلّى عضوه بين ساقيه في كل مرة يدخل إليها، حتى في تلك الليالي التي تصفف فيها شعرها بالطريقة التي يحبّها وتمسح زيت النارجيل على صدرها وبين فخذيها. بعد ذلك الأسبوع قضى أسبوعين آخرين يتظاهر بأنه لا يستطيع الدخول بها بسبب الحَرج الشديد الذي يشعر به. لكنّ الحيلة لم تنجح طويلًا.

قالت له أمّا: «عليك أن تذهب إلى معالِج. هناك أعشاب يمكنك أن تأخذها لتساعدك. إن لم أحمل قريبًا فسوف يبدأ الناس بالقول إنّ هناك مشكلةً بي أنا».

تعاطف معها، فما قالته كان حقيقيًا. عدم الحمل كان دائمًا يُرى على أنه مشكلة المرأة، عقاب لها على خيانتها أو سوء أخلاقها. لكنّ جيمس عرف زوجته جيدًا في هذه الأشهر القليلة، وسرعان ما ستخبر الجميع بأنّ المشكلة **فيه هو**، ثم يصل الخبر إلى والديه بأنه لم يؤدِّ واجباته الزوجية. وتناهى إلى سمعه صوت أمه وهي تقول: «يا إنْيامي، ماذا فعلتُ في حياتي لأستحق هذا؟ أولها زوج ضعيف، والآن ابن ضعيف أيضًا!». أدرك جيمس أنه لا بدّ أن يتصرف بسرعة، وإلا فلن يستطيع أن يظلّ وفيًا لذكرى أكوسوا.

كانت ذكرى عزيزة جدًا يتشبّث بها بقوة. مضت سنة تقريبًا منذ أن وعدها

بالعودة، لكنه حتى الآن لم يبدأ في إعداد خطة لتنفيذ وعده. كان الأشانتيون يربحون المعركة تلو الأخرى ضد البريطانيين، فبدأ أهل قريته يتحدثون أنّ الأشانتيين قد يكسبون الحرب. ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ هل سيأتي المزيد من البِيض مكان الذين ماتوا؟ ومن سيحمي الفانتيين إن جاءهم الأشانتيون لكي ينتقموا أخيرًا من فظاعات أبيكو بادو وفيفي؟ كانت قد مضت فترة طويلة على اتفاق التحالف بين الفانتيين والبريطانيين، وربما يكون البريطانيون قد نَسوه أصلًا.

لكنّ جيمس لم ينسَ أكوسوا. كان يراها كل ليلة حين يأوي إلى فراشه، تتحرك شفتاها وعيناها وساقاها وردفاها في عينيه المغمضتين. هناك في كوخه على طرف المساكن التي بناها لنفسه وأمّا والزوجات الأخريات المفترضات لاحقًا. لم ينسَ جيمس شعوره بالارتياح في بلدة جدّه، بين الأشانتيين، وذلك الدفء الذي شعر به من شعب أمه. وكلما طال مكوثه في أرض الفانتيين، كلما ألحّت عليه أمنيته في الخروج منها. كان يريد أن يعيش حياة بسيطة، مزارعًا مثل والد أكوسوا، لا سياسيًا مثل أبيه. صحيح أنّ عمل أبيه للبريطانيين والفانتيين سنوات طويلة قد أكسبه مالًا وسُلطة، ولكنْ لا شيء غير ذلك، إلا قليلًا.

قالت له زوجته: «جيمس. هل تسمع ما أقوله؟». كانت تحرّك حساء الفلفل، ومئزرها يتدلّى حول خصرها، منحنية للأمام فبدا أنّ ثدييها العاريين سيقفزان في الحساء.

- نعم، عزيزتي. أنتِ محقّة. غدًا سأذهب لرؤية مامپين.

هزّت أمّا رأسها في رضًا. كانت مامپين المداوية الشعبية الأشهر في منطقة كبيرة من أرضهم. كانت الزوجات الصغيرات يذهبن إليها إنْ أردن قتل الزوجات السابقات في هدوء. والإخوة الأصغر يذهبون إليها إن أرادوا الخلافة بدلًا من إخوتهم الأكبر سنًا. كان الناس من طرف المحيط إلى غابات الداخل يذهبون إليها حين تثقلهم مشكلات لا يمكن للدعاء وحده أن يحلّها.

زارها جيمس يوم خميس. كان أبوه وكثيرون غيره يطلقون عليها اسم

الطبيبة الحيزبون، وكان منظرها مناسبًا لهذا الاسم. فلم يبقَ من أسنانها سوى الأربعة الأمامية، مصفوفةً بين مسافات متساوية وكأنها أخذت تطارد جميع الأسنان الأخرى لتخرجها، ثم عادت منتصرة لتجتمع في الوسط. أما ظهرها فكان محدودبًا دائمًا، وتمشي بعصًا خشبيّة سوداء غليظة، منحوتة لكي تبدو وكأنّ أفعى ملتفة حولها. وكانت لها عينٌ هائمة تنظر دائمًا إلى البعيد. حاول جيمس جاهدًا، وحرّك رأسه يمنة ويسرة، لكنه لم يستطع أن يقنع تلك العين بأن تنظر إليه.

تحدثت مامپين إلى الهواء من حولها: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟».

بلل جيمس ريقه، لا يدري هل يتكلم أم لا.

بصقت مامپين على الأرض بصقةً فيها من البلغم أكثر من اللعاب. «ماذا يريد هذا الرجل من مامپين؟ لم لا يتركها في سلام، وهو الذي لا يؤمن أصلًا بقواها؟».

«أيتها العمّة مامپين، لقد أتيتكِ من قريتي بطلب من زوجتي. تريد مني أن آخذ بعض الأعشاب لكي نستطيع أن ننجب». كان قد أعدّ كلامًا في طريقه إليها، عن أنه يريد إسعاد زوجته وإسعاد نفسه أيضًا، لكنّ الكلمات تمنّعت عنه. شعر بالتردد والخوف في صوته، فوبخ نفسه على ذلك.

- هه، يسمّيني العمة؟ هذا الذي تبيع عائلته شعبنا للبيض في الخارج، يتجرأ على أن يسميني عمّة.

«هذا عمل والدي وجدّي من قبله. لكنّه ليس عملي». لم يقل إنه بسبب عملهم لم يُضطرّ إلى العمل، بل كان يستطيع أن يعتاش على اسم عائلته وسلطتها.

حدّجته بعينها السليمة. «في داخلك تسمّيني الحيزبون، هه؟».

- الجميع يسمّونك الحيزبون.

- قل لي، هل مامپين هي التي تنبطح للرجل الأبيض كي يفتح ساقيها؟ ربما كان البيض سيرحلون، لولا أنهم ذاقوا نساءنا.

- الرجل الأبيض سيبقى إلى أن لا تبقى فرص أخرى لجني المال.

- هه، تتحدث الآن عن المال؟ قالت لك مامپين كيف تجني عائلتك المال. بإرسال إخوتك إلى ما وراء البحار كي يُعاملوا مثل الحيوانات.

قال جيمس بهدوء: «أميركا ليست المكان الوحيد الذي فيه عبيد». كان قد سمع أباه يقول ذلك لديڤد من قبل، حين تحدثا عن فضائع الجنوب الأميركي التي قرأ عنها في الصحف البريطانية المنادية بإلغاء الرق. «الطريقة التي يعاملون العبيد بها في أميركا يا أخي، شيء لا يمكن فهمه. لا يمكن فهمه. نحن لا توجد لدينا عبودية كهذه هنا. ليس هكذا».

بدأت الحرارة تدبّ في جسد جيمس، غير أنّ الشمس كانت قد غطست تحت الأرض. كان يودّ لو يستطيع أن يستدير ويرحل. استقرّت عين مامپين الهائمة على شجرة في البعيد، ثم صعدت للسماء، ثم عبرت أذن جيمس اليسرى.

- أنا لا أريد أن أعمل في ما تعمله عائلتي. لا أريد أن أتّحد مع البريطانيين.

بصقت مرة أخرى، ثم ركّزت عينها الهائمة عليه مباشرة، فبدأ يتعرّق. حين انتهت من تحديقتها، عادت عينها إلى دورانها الهادئ، راضيةً أخيرًا بما رأته فيه. «قضيبك لا يعمل لأنك لا تريده أن يعمل. دوائي فقط للذين يريدون. أنتَ تتحدث عما لا تريده، لكنّ هناك شيئًا تريده».

لم يكن ذلك سؤالًا. ولم يخطر لجيمس أنها محل ثقة، لكنه مع ذلك عرف أنّها رأتْه بعينها المعطوبة. رأته فعلًا. ولأنه لم يكن يستطيع أن يصرّف الأمور بمفرده، فقد قرر أن يثق بالطبيبة الحيزبون كي تساعده.

- أريد أن أترك عائلتي وأنتقل إلى أرض الأشانتيين. أريد أن أتزوج أكوسوا مينسه وأعمل مزارعًا، أو شيئًا صغيرًا صغيرًا.

ضحكت مامپين. «ابن الكبير يريد أن يعيش صغيرًا صغيرًا، هه؟».

تركتْه هناك واقفًا ودخلت كوخها، ثم عادت تحمل قدرَين فخاريين صغيرين يدور الذباب حولهما. وصلتْه الرائحة إلى مكانه. جلستْ على كرسيّ وبدأت تحرك سبابتها في أحد القدرين. سحبت إصبعها ولعقت ما كان عليه،

فكاد جيمس أن يتقيأ.

- إن كنت لا تريد زوجتك، فلماذا تزوجتها؟

قال جيمس: «كان المطلوب مني أن أتزوجها لكي تتحد عائلتانا أخيرًا». ألم يكن الأمر واضحًا؟ هي نفسها قالت إنه ابن الكبير. هناك أشياء عليه أن يفعلها، وأشياء ينبغي أن يراه الآخرون يفعلها لكي يظلّ اسم العائلة عاليًا. أما ما كان يريده أكثر من غيره فهو أن يختفي. كان لوالده سبعة أبناء آخرين يمكنهم أن يحملوا إرث الأوتشر-كولنز. كان يريد أن يكون إنسانًا دون اسم. «أريد أن أترك عائلتي دون أن يعرفوا أنني تركتهم».

بصقت مامپين في القدر، ثم حرّكت ما فيه مرة أخرى. وارتفعت عينها السليمة إلى جيمس: «وهل هذا ممكن؟».

- يا عمّة. يقولون إنّ بإمكانك أن تجعلي المستحيل ممكنًا.

ضحكت مرة أخرى. «هه، يقولون ذلك عن أنانسي، عن إنيامي، عن الرجل الأبيض. أما أنا فأستطيع أن أجعل الممكن مستطاعًا. هل ترى الفرق؟».

هزّ رأسه، فابتسمت. أول ابتسامة منحته إياها منذ وصوله. أومأت إليه أن يقترب، فاقترب، راجيًا أن لا تطلب منه أن يأكل ذلك الشيء ذي الرائحة المقرفة. أشارت إليه أن يجلس أمامها، ففعل ذلك دون أن ينطق بكلمة. كان تصرفًا غير مقبول لدى أبويه أن ينحني تحت كرسيّها هكذا، فتبدو هي في مكانة أعلى منه. تناهى صوت أمه وهي تقول «قف!». لكنه واصل انحناءه، فلعلّ مامپين تنجح في ما تفعله، فلا يبقى مكان في رأسه لصوت أمه أو أبيه.

- لقد أتيتَ تسألني ما العمل، لكنك تعرف أصلًا كيف ترحل من دون أن يدري أحد برحيلك.

ظلّ صامتًا. لقد فكّر فعلًا في عدة طرق ليجعل عائلته تظنّ أنه ذهب إلى الأسامانڈو، في حين يرحل هو إلى مكان آخر. أما أفضل الأفكار وأخطرها فكانت أن ينضمّ إلى الحرب الدائمة بين الأشانتيين والبريطانيين. كان الجميع يعلمون عن هذه الحرب التي لا يبدو أنها ستنتهي، وكيف أنّ البِيض كانوا أضعف مما

خطر للجميع، رغم قلعتهم الحجرية الكبيرة.

قالت مامپين: «يظنُّ الناس أنهم يأتونني طلبًا للنصيحة، في حين أنهم في الحقيقة يأتون لأخذ الإذن. إن كنتَ تريد أن تفعل شيئًا، فافعله. الأشانتيّون سيكونون في إيفوتو قريبًا. هذا ما أعرفه».

لم تكن تنظر إليه، بل تركّز في محتويات القدر الذي بين يديها. من غير الممكن أن تعرف هذه المرأة خطط الأشانتيين. لقد كان جيشهم الأقوى في إفريقيا كلها، وقيل إنه لمّا قابل البيضُ المقاتلين الأشانتيين أول مرة بصدورهم العارية ومآزرهم الفارطة سخروا منهم وقالوا: «أوليست هذه الخِرق التي ترتديها نساؤنا؟». تفاخر البريطانيون ببنادقهم ومعاطفهم المزرّرة وبناطيلهم، غير أنّ الأشانتيين ذبّحوهم بالمئات، وقطّعوا قلوب القادة العسكريين وأكلوها لتزيد قوّتهم. وحين فعلوا ذلك كان هناك جنديّ بريطاني واحد على الأقل بلّل بنطاله الذي كان يفاخر به وهو ينسحب من أمام الرجال الذين سخر منهم.

ولئن كان كل ما قيل عن جيش الأشانتيين حقيقيًا، فمن المستحيل أن يكون تنظيمهم سيئًا بالحدّ الذي يسمح لصاحبة تعاويذٍ فانتيّة أن تعرف مخططاتهم. لقد أدرك جيمس أنّ عينها الهائمة وجدت نفسها في إيفوتو، في المستقبل، ورأته هناك، مثلما رأتْ ما يريده قلبه.

لكنّ جيمس غير مستعدٍ بعد للذهاب إلى إيفوتو. حين عاد إلى بيته كانت زوجته في انتظاره.

- ماذا قالت مامپين؟

قال لها: «قالت عليكِ أن تصبري عليّ»، فزفرت زوجته في ضيق. أدرك جيمس أنها ستقضي بقية اليوم في النميمة مع صديقاتها عنه.

ظلّ جيمس تعيسًا مدة أسبوع كامل، وبدأ يساوره الشك في أمر أكوسوا، ورغبته في أن يعيش حياة صغيرة. هل حياته بتلك الدرجة من السوء؟ يمكنه أن يبقى في القرية. يمكنه أن يواصل ما يفعله أبوه. لم يكن قد حسم أمره بعد

حين جاءت جدّته إفيا لتناول الطعام معهم ذات ليلة.

كانت إفيا امرأة عجوز، ومع ذلك بقيت ظِلال من الشباب الذي كان ذات يوم في مكانٍ ما تحت التجاعيد الكثيرة في وجهها. أصرّت إفيا على العيش في كيپ كوست، في المنزل الذي بناه زوجها، حتى بعد أن علا شأن ابنها كوي في القرية. قالت إنها لن تعود أبدًا للعيش في القرية التي شيّدها الشرّ.

بينما كانوا يأكلون عند مساكن كوي، شعر جيمس بجدّته تراقبه. وبعد أن أخذ جميع الأولاد والبنات صحونهم، وخلد أبواه إلى مخدعهما، ظلّ يشعر بعينها تراقبه.

سألتْه حين بقيا وحيدَين: «ما الأمر يا ولدي؟».

لم يتحدث. كان **الفوفو** الذي تناولوه قابعًا في قاع بطنه مثل الصخرة، فشعر أنه سوف يستفرغ. نظر إلى جدّته، تلك التي قيل إنها كانت ذات يوم جميلة جدًا حتى أنّ حاكم القلعة كان مستعدًا لأن يحرق القرية بأكملها لكي ينالها.

لمست قلادة الحجر الأسود التي ترتديها، ثم مدّت يدها تلتقط يد جيمس. «ألست سعيدًا؟».

شعر جيمس بضغطٍ يتنامى خلف عينيه، والدموع تهدّد بالهطول. عصر يد جدته وقال: «طوال حياتي كنتُ أسمع أمي تقول إنّ أبي رجل ضعيف. ولكنْ ماذا لو كنت مثله تمامًا؟». كان ينتظر ردّ فعل من جدته، لكنها بقيت صامتة. «أريد أن أكون شعبَ نفسي». عرف أنها لن تفهم ذلك، لكنْ بدا له أنها سمعتْه. رغم أنه تحدث همسًا، لكنها سمعته.

اكتفت جدّته بالنظر إليه، ثم تحدثت. «كلنا ضعفاء في أغلب الوقت. انظر إلى الطفل، يُولد لأمه، يتعلم منها كيف يأكل، كيف يمشي، كيف يتكلم، ويصيد ويجري. لا يخترع طرقًا جديدة. هكذا يأتي كل منا إلى العالم يا جيمس، ضعيفًا ومحتاجًا، يستميت لكي يتعلم كيف يصبح شخصًا». ثم ابتسمت وقالت: «ولكنْ إذا لم يعجبنا ذلك الشخص الذي تعلمنا أن نكون عليه، هل

نكتفي بالجلوس أمام «**الفوفو**» دون أن نفعل شيئًا؟ أعتقد يا جيمس أنّه ربما من الممكن أن نأتي بطريقة جديدة».

ظلّت مبتسمة، والشمس تغرب خلفهما، فأطلق جيمس العنان لدموعه أمام جدته.

في اليوم التالي قال جيمس لعائلته إنه عائد إلى كيپ كوست مع إفيا، لكنه ذهب إلى إيفوتو. هناك وجد عملًا عند طبيبٍ كانت إفيا تعرفه، إذْ كان قد عمل عند البريطانيين في وقت سكناها في القلعة. لم يتطلّب الأمر سوى أن يقول جيمس للطبيب إنه حفيد جيمس كولنز، فاستلم وظيفته ومحلّ إقامته على الفور.

كان طبيبًا اسكتلنديًا عجوزًا إلى حدّ أنه بالكاد يستطيع المشي منتصبًا، ناهيك عن أن يستطيع علاج الأمراض دون أن يلتقطها. انتقل إلى إيفوتو بعد عمله في الشركة عامًا واحدًا فقط، وكان يجيد التحدث بالفانتية بطلاقة، وشيّد مساكنه بنفسه قطعة قطعة، وظلّ عازبًا رغم أنّ العديد من نساء البلدة قدّمن إليه بناتهنّ للزواج. ورغم أنه كان بالنسبة إلى أهل البلدة سرًا غامضًا، إلا أنهم أحبوه وأطلقوا عليه لقب «الطبيب الأبيض».

كانت وظيفة جيمس هي تنظيف غرفة الأدوية. كان الكوخ الطنّي للطبيب الأبيض مجاورًا لمسكنه، وكان صغيرًا جدًا حتى أنّ الطبيب لم يكن في حاجةٍ إلى مساعدة جيمس. كان جيمس يمسح، ويرتّب الأدوية، ويغسل المناشف. وفي بعض المساءات كان يطبخ وجبة بسيطة لهما، فيجلسان في الفناء قبالة الشارع الرملي، ليحكي الطبيب الأبيض حكايات عن أيامه في القلعة.

حكّ شعره الأبيض الخفيف ثم قال: «أنت تشبه جدّتك. ماذا كانوا يسمّونها؟ آه، الجميلة. إفيا الجميلة، صحيح؟».

أومأ جيمس برأسه، محاولًا أن يرى جدّته من عيني الطبيب.

«كان جدّك مبتهجًا جدًا بالزواج منها. أذكر الليلة قبل مجيئها إلى القلعة. أخذنا جيمس إلى متجر الشركة مع غروب الشمس وقضينا على معظم الشحنة

الجديدة من الكحول. واضطُر جيمس للقول لرؤسائه في إنجلترا إنّ السفينة التي نقلت الكحول غرقت، أو استولى عليها القراصنة. شيئًا كهذا. كانت ليلة عظيمة لنا جميعًا. شيء من المغامرة في إفريقيا». ومرّت على وجهه نظرة حالمة، فتساءل جيمس في نفسه ما إذا كان الرجل العجوز قد حصل على المغامرة التي بدا أنه يجري وراءها هنا في ساحل الذهب.

في غضون شهر، سيحصل جيمس على ما يجري وراءه. جاء النداء في منتصف الليل. لهاث وصراخ متسارع بصوتٍ حاد، بينما يتنقّل حرّاس إيفوتو من كوخٍ إلى آخر، يهتفون بأنّ الأشانتيين قادمون. أرسلت القوات البريطانية والفانتيّة المتمركزة هناك رسالة تطلب فيها تعزيزًا، بيد أنّ الربكة التي بدت في أعين الحراس تنمّ عن أنّ الأشانتيين كانوا في الحقيقة أقرب من أي نجدة قادمة. كانت القرى المنتشرة في أرض الفانتيين تعيش آنذاك في رعبٍ من غزوات الأشانتيين. أما الجنود البريطانيون فكانوا يعسكرون هنا وهناك في البلدات والقرى المحيطة بكيپ كوست. كان هدفهم هو أن يمنعوا الأشانتيين من اقتحام القلعة، لكنّ إفوتو كانت قريبةً من الساحل على نحو لا يبعث على الاطمئنان.

صاح جيمس في الطبيب الأبيض: «لا بد أن تهرب!». كان الرجل قد أشعل مصباحًا من زيت النخيل قرب فراشه وسحب كتابًا مغلفًا بالجلد، يقرأ بنظارتين استقرتا على رأس أنفه. «سوف يقتلونك. لن يراعوا أنك كبير السن».

قلب الطبيب الأبيض الصفحة. لم يرفع عينيه لجيمس وهو يلوّح مودّعًا. هزّ جيمس رأسه في أسى وغادر الكوخ. كانت مامپين قد أخبرته بأنه سيعرف ما يجدر به فعله حين يحين الأوان، لكنه الآن مرتبك جدًا بالكاد يستطيع التنفس. شعر بالسائل الدافئ ينثال على ساقيه وهو يجري، ولم يكن يقوى على التفكير. لم يكن باستطاعته أن يفكر بسرعةٍ تكفي لتدبير خطة، فابتدأت الطلقات من حوله. طارت الطيور، سحابةٌ من أجنحة سوداء وحمراء وزرقاء وخضراء ترتفع. كان يريد الاختباء. في تلك اللحظة لم يستطع أن يتذكر أمرًا سيئًا يدفعه إلى تغيير حياته القديمة. كان يمكنه أن يتعلم كيف يحبّ زوجته. لقد أنفق الكثير

من الوقت في رؤية السوء في زواج أبويه حتى افترض أنه لا بد من وجود شيء أفضل. ولكنْ ماذا لو لم يكن هناك شيء أفضل؟ لقد استأمن الحيزبون على سعادته. على حياته. وها هو بالتأكيد سيموت.

استيقظ جيمس بين شجيرات غابةٍ غير معروفة. ذراعاه وساقاه تؤلمانه، ويشعر كما لو أنّ رأسه ضُرب بصخرة. قبع هناك في مكانه، فاقد الحسّ بالمكان والزمان لفترة بدت كالدهر. ثم كان على رأسه مقاتل أشانتيّ، هادئ في خطواته حتى أنّ جيمس لم ينتبه له إلا حين وقف عند رأسه.

- ألم تمت؟ هل أنت مصاب؟

كيف يقول لمقاتل مثل هذا إنه مصاب بصداع؟ قال لا.

- أنت حفيد أوسي بونسو، صحيح؟ أتذكرك من الجنازة. أنا لا أنسى وجهًا رأيته.

ودّ جيمس لو أنه يخفض صوته، لكنه لم يتكلم.

- ماذا كنت تفعل في إيفوتو؟

فسأله جيمس متجاهلًا سؤاله: «هل يعرف أحد غيرك أنني حي؟».

- لا. أحد المقاتلين ضرب رأسك بصخرة. لم تتحرك، فألقوك في كومة الموتى. ممنوع أن نلمس الكومة، لكنني تعرفت على وجهك فأخرجتك لكي أرسل جثمانك لأهلك. وخبّأتك هنا كي لا يعرف أحد أنني لمست الموتى. لم أكن أعرف أنك حي.

- اسمعني. أنا مُتُّ في هذه الحرب.

اتسعت حدقتا الرجل فبدتا مثل انعكاس للقمر. «ماذا؟».

- أريدك أن تخبر الجميع أنني متّ في هذه الحرب. ممكن؟

هزّ المقاتل رأسه مستنكرًا. قال لا وكررها كثيرًا، لكنه في النهاية سيوافق. كان جيمس يعرف أنه سيوافق. وستكون تلك هي المرة الأخيرة التي يستخدم فيها جيمس سلطته ليأمر شخصًا آخر بتنفيذ طلبه.

أمضى جيمس بقية أيام الشهر مسافرًا إلى أرض الأشانتيين. نام في الكهوف واختبأ في الأشجار، وطلب المساعدة حين رأى بعض الناس في أرض الأحراش، فقال لهم إنه مزارع مسكين تائه. وحين وصل أخيرًا إلى أكوسوا، في اليوم الأربعين من سفره، وجدها في انتظاره.

كُوجو

تعرّضت السفينة العجوز **ألِس** للسرقة، ما يعني أنّ الشرطة سوف تأتي تتشمّم الأخبار حول السفينة، وتحقّق مع جميع من يعمل فيها. كانت سُمعة (جو) ناصعة تمامًا، فقد أمضى ما يقرب من سنتين في العمل على السفن في «فِلز پوينت» ولم يتسبب في أيّ مشكلة. مع ذلك، فكلما سُرق مركب من المراكب كانت الشرطة تقبض على جميع العاملين وتحقّق معهم. تعب جو من هذا الأمر، وكان يُصاب بتوتّر شديد أمام الشرطة أو أي أحد يرتدي زيًّا رسميًا. بل إنّ حتى رؤية ساعي البريد جعلتْه ذات يومٍ يركض للاختباء خلف ستارةٍ شفافة. تقول (ماه أكُو) إنه اكتسب هذه العادة منذ أيام الفِرار في الغابات هربًا من الصيّادين، من بلدةٍ إلى أخرى حتى وصلوا إلى المنزل الآمن في «ماريلاند».

قال جو لصديقه: «هل يمكنك أن تغطّي على غيابي يا پوت؟»، رغم أنه يعلم أنّ الشرطة لن تلاحظ غيابه. فلم يكن باستطاعتهم التمييز بين وجه أسودٍ وآخر. سوف يجيبهم پوت حين ينادون اسمه، ثم يجيبهم مرة أخرى حين ينادون اسم جو، ولن يلاحظوا الفرق.

قفز جو من المركب ونظر خلفه إلى خليج «تشِزاپيك» الجميل، في ذلك الأفق المفتوح والسفن المهيبة التي اصطفّت في مَسْفن «فِلز پوينت». كان يروقه منظر المراكب، ويُبهجه أنّ بناءها وصيانتها كانت على يديه. لكنّ ماه أكُو كانت دائمًا ما تقول إنّ ذلك علامة شؤم، أن يعمل هو وجميع الزنوج

المحرّرين في تلك السفن. كانت تقول إنّ ثمة أمرًا شرّيرًا في أن يصنعوا أشياءً كانت هي التي قد جلبتهم إلى أميركا أصلًا، الأشياء نفسها التي حاولت أن تجرّهم إلى الموت.

سار جو في شارع «ماركِت»، واشترى أرجل خنزير من (جِم) في محل الزاوية قرب المتحف. وما إن همّ بالانصراف حتى انفلت حصان من عربته وركض بلا هوادة، فكاد يدوس عجوزًا بيضاء كانت ترفع تنّورتها لكي تدخل الشارع.

سألها جو وهو يركض إليها مادًا ذراعه: «أنتِ بخير، سيدتي؟».

بدت ذاهلة لوهلةٍ، ثم ابتسمت. «بخير. شكرًا لك».

واصل سَيره. في ذلك الوقت تكون (آنا) ما تزال تواصل عملها في تنظيف المنزل مع ماه أكُو. كان يعلم أنه لا بدّ أن يذهب إليهما للمساعدة، فآنا حامل وماه أكُو قد كبرت كثيرًا فلا ينقطع سعالها ولا آلامها. مع ذلك فقد مضى وقت طويل جدًا منذ آخر مرة سمح لنفسه فيها بالاستمتاع بمدينة «بالتيمور»، بنسيم البحر البارد، برؤية الزنوج الذين يعملون ويعيشون ويلعبون من حوله، بعضهم عبيد وبعضهم أحرار. كان جو عَبدًا ذات يوم. في ذلك الوقت كان لا يزال رضيعًا، لكنه كلما رأى عبدًا في «بالتيمور» شعر بأنه يتذكر. كلما يرى جو عبدًا في «بالتيمور»، يرى نفسه، يرى كيف كانت ستكون حياته لو أنّ ماه أكُو لم تأخذه إلى أبواب الحرية. اسمه في الأوراق الرسمية كُوجو فريمان [الحُرّ]. نصف العبيد السابقين في «بالتيمور» كانوا يحملون هذا الاسم. الكذبةُ إن استمرّت طويلًا تتحول إلى حقيقة.

لم يكن جو يعرف الجنوب إلا من خلال القصص التي تحكيها ماه أكُو، وبالطريقة نفسها كان يعرف أمه وأباه: نِس و سام. يعرفهما كقصصٍ، لا أكثر. لم يكن يشعر بالفقد لشيء لا يعرفه، لشيء لا يستطيع أن يشعر به بيديه أو بقلبه. أما «بالتيمور» فكانت واقعًا ملموسًا. لم تكن محاصيل، وجَلْدات لا نهاية لها. «بالتيمور» هي المرفأ، وصناعة الحديد، والسكك الحديدية. هي أرجل الخنزير التي يأكلها، وابتسامات أطفاله السبعة، والثامن الذي سيلحق بهم. هي آنا التي

تزوّجته وهي في السادسة عشرة، وهو في التاسعة عشرة، ولا يزال يعمل كلّ يومٍ منذ ذلك الوقت، منذ تسعة عشر عامًا.

حين خطرت له آنا قرّر أن يعرّج على بيت (ماثِسِن) حيث تعمل هي وماه أكُو لتنظيفه. اشترى زهرة من محل «أول بِس» في طرف شارع «نورث أند سكستينث»، وحين أمسك بها شعر أخيرًا بإمكانية إخراج الشرطة والسفينة من رأسه.

قالت آنا حين رأته: «أهذا زوجي جو قادمًا؟». كانت تكنس الرواق بما يبدو وكأنه مكنسة جديدة. كان مقبضها بُنّي اللون جميلًا، أغمق من بشرتها ببضع درجات فقط، وشعيراتها كلها واقفة في انتباه. كان يروق لماه أكُو أن تقول دائمًا إنّ المكانس في ساحل الذهب بلا مقابض. البدن هو المقبض، يتحرّك وينثني بسهولةٍ أكبر من أيّ عصا.

قال جو وهو يناولها الزهرة: «أحضرت شيئًا لك». أخذتها منه واستنشقتها، وابتسمت. كان عود الزهرة يخبط على بطنها في المكان الذي بدأ يبرز. هناك وضع جو يده يمسح على بطنها.

- أين ماه؟
- في الداخل تنظّف المطبخ.

قبّل زوجته وتناول المكنسة منها. «اذهبي لتساعديها»، وعصر مؤخرتها وهو يدفعها للداخل. كانت هذه المؤخرّة هي التي فعلت سحرها قبل تسع عشرة سنة، وما تزال. كان قد رآها قادمة من زقاق «ستروبري»، فلاحقها لأربع وحدات سكنية كاملة. كانت مؤخرتها فاتنة، بتلك الطريقة التي تتحرك بها، مستقلة عن باقي جسدها، كما لو أنها تتحرك بتأثير دماغٍ آخر تمامًا، فلقةٌ تضرب الفلقة الأخرى، تتأرجح إحداها قبل أن تعود لتضرب أختها.

حين كان في السابعة من عمره سأل ماه أكُو عما يفترض بالرجل أن يفعله حين تعجبه امرأة، فضحكت. لم تكن مثل بقية الأمهات. كانت غريبة الأطوار قليلًا، ما تزال تحلم بالبلاد التي سُرقت منها قبل سنوات طويلة. في

كثير من الأحيان تذهب عند البحر، وتبدو وكأنها ستقفز فيه، في محاولةٍ لأن تجد سبيلًا للعودة إلى بلادها.

«يا كوجو، في ساحل الذهب يقولون إذا أعجبتك امرأة عليك أن تذهب إلى أبيها وفي يدك ذبيحة». في ذلك الوقت كان قلبه قد خفق لفتاة اسمها (ميرابِل). في الكنيسة يوم الأحد التالي أحضر لوالدها ضفدعًا اصطاده قرب البحر في الليلة السابقة، فضحكت ماه أكُو وضحكت وضحكت، إلى أن قال الأب والقسّ إنها كانت تعلّم جو أمور السحر الإفريقية القديمة، فطردوهما من الصلاة.

أما آنا، فقد لاحق جو تأرجح مؤخرتها، إلى أن توقفت. ذهب إليها ورأى وجهها، بشرتها الحُلوة بلون الكاراميل، وشعرها الفاحم، داكنًا وطويلًا كذيل حصان، تصفّفه دائمًا في جديلة واحدة. قال لها اسمه، وسألها إن كانت تسمح له بالمشي معها. حين وافقت سارا معًا بطول «بالتيمور» وعرضها. ولم يعرف جو إلا بعد عدة أشهر أنها وقعت في مشكلة مع أمها تلك الليلة لأنها أهملت كل المشاوير التي كان عليها أن تقضيها.

السيد ماثِسن وزوجته أبيضان كبيران في السن. منزل والد ماثسن كان في يوم من الأيام محطة للسكك الحديدية السرية، وقد ربّى ابنه على تقديم العون للآخرين. أما السيدة ماثسن فهي التي كانت تملك أموال العائلة، وحين تزوّجا اشتريا منزلًا كبيرًا ووظّفا آنا وماه أكُو وغيرهما من السود الآخرين من «بالتيمور» وضواحيها.

كان المنزل مكوّنًا من طابقين وعشر غرف، يستغرق تنظيفه ساعات كاملة، فالسيد ماثسن وزوجته يحبّان أن يكون البيت ناصعًا. في ذلك اليوم أخذ كوجو عن زوجته بعض الأعمال، وبينما كان ينظّف النوافذ في غرفة الرسم تناهى إلى مسامعه صوت ماثسن وآخرين من المنادين بعتق العبيد.

قال ماثسن: «لو انضمّت كاليفورنيا إلى الاتحاد كولاية حرّة، فسوف ينشغل الرئيس تيلر بالانشقاقيين الجنوبيين».

قال آخر: «وماريلاند سوف تعلق في المنتصف».

- لذلك ينبغي علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لتحرير المزيد من العبيد هنا في بالتيمور.

كان يمكن أن يقضوا ساعات في هذا الحديث. في بداية الأمر كان يروق لجو أن يستمع إليهم. كان حديثهم يمنحه الأمل وهو يرى كل هؤلاء البِيض الأقوياء يقفون إلى جانبه هو ومن مثله. ولكن كلما مرت سنوات كلما أدرك أنّه حتى الأشخاص الطيبين مثل هؤلاء ليس في يدهم أكثر مما فعلوا.

حين انتهى جو وآنا وماه أكُو من تنظيف المنزل قفلوا عائدين إلى شقتهم الصغيرة في شارع 24.

كانت ماه تمسك بذلك الموضع من جسمها الذي ظلّ يؤلمها سنوات عديدة: «ظهري—آه يا ظهري». التفتت إلى جو وقالت باللغة التويّة: «أما تعبنا؟». كان تعبيرًا قديمًا مستهلكًا، لشعورٍ قديم ومستهلك. أومأ لها جو ومدّ يده يساعدها في صعود السلالم.

في الداخل كان الأطفال يلعبون. آغنس، وبيولا، وكيتو، ودالي، ويورياس، وفِلِسِتي، وغريسي. أسماؤهم بترتيب الأبجدية الإنجليزية، وقد بدا أنّ جو وآنا سينجبان طفلًا لكل حرف من هذه الأبجدية. سوف يعلّمان الأطفال قراءة تلك الحروف، ويربّيانهم على أن يعلّموا تلك الحروف للآخرين. أما الآن فكان الجميع يسمّي الطفل القادم بالحرف التالي «اتش»، إلى أن يأتي، ويأتي اسمه معه.

كان جو يرى أنّه مدين لأبويه بأن يصبح أبًا صالحًا، أبويه الذَين لم يستطيعا الوصول إلى الحرية. كان يقضي ليالي عديدة يحاول أن يبتكر صورة ذهنية لوالده. هل كان شجاعًا؟ طويلًا؟ طيبًا؟ ذكيًا؟ هل كان رجلًا صالحًا وعادلًا؟ تُرى أي نوع من الآباء سوف يكون لو أنه أستطاع أن يصبح أبًا حرًّا؟

يقضي جو الآن معظم لياليه واضعًا أذنه على بطن زوجته، يحاول أن يتعرف إلى الطفل «اتش» قبل وصوله. كان قد قطع وعدًا لآنا بأنه سيكون دائمًا سندًا لهم، بعد عجز أبيه عن أن يكون سندًا له. أما آنا فلم ترغب أبدًا في أن

يكون والدها إلى جانبها، إذ تعرف طبيعته والمتاعب التي يحضرها معه. اكتفت بالابتسام وربّتت على ظهر جو.

لكنّ جو كان يعني ما يقول. كان يراقب أطفاله جيدًا في الساعات القليلة التي يراهم فيها قبل نومهم، أو في الصباح قبل أن يخرج إلى حوض السفن. آغنس هي الذراع اليمنى. لم يعرف أبدًا روحًا ألطف ولا أطيب منها. لا آنا، ولا أمه المطحونة بالشقاء. بيولا هي الجميلة، لكنها لم تكن تدرك ذلك بعد. أما كيتو فكان ولدًا ناعمًا، يحاول جو كل يوم أن يخشّنه قليلًا. وأما دالي فكان صاحب المشاجرات، ويورياس في أغلب الأحيان ضحيته. فِلِستي كانت الخجولة التي يمنعها خجلها حتى من ذكر اسمها لو سألتَها. وأما غريسي فكانت كتلةً من الحب. كانت حياته مع آنا وماه والأطفال هي كل ما يريده في تلك الأيام التي قضاها طفلًا وحيدًا يتنقّل من منزلٍ آمن إلى آخر، ومن وظيفة إلى أخرى، يحاول أن يساعد المرأة التي يسميها أمه، وهي تمارس تلك الأمومة التي لم تنشدها، لكنها لم تتأفف منها أبدًا.

بدأت ماه أكُو نوبة سعالها، فجاءت آغنس من فورها لتساعدها على النوم في فراشها. كان للشقة غرفتان تفصلهما ستارة، واحدة لجو وآنا، وواحدة للآخرين وكل الأغراض الأخرى. استلقت ماه أكُو على الفراش بتنهيدة ثقيلة، ولم تمض أكثر من دقائق معدودة حتى تناوب سعالها مع شخيرها.

آنذاك كانت غريسي الرضيعة تمسك ببنطال جو. «بابا، بابا!». انقض عليها جو والتقطها بذراع واحدة كأنها صندوق أدواته الذي يحمله في المركب. عمّا قريب ستكبر غريسي على دور الرضيعة هذا، ربما في الوقت المناسب مع مقدم الرضيع الجديد.

جهزّت آغنس وآنا الأطفال للنوم، ثم خلدت آغنس أخيرًا إلى فراشها. كان جو في غرفة النوم والستارة مسدلة حين جاءت آنا تمسح على بطنها التي كانت ما تزال صغيرة جدًا، تكاد تكون مجرد إحساس لا أكثر.

«جاءت الشرطة اليوم. قالوا سُرق شيء من السفينة». كانت آنا تخلع

ملابسها وتطويها ثم تضعها على الكرسي بجانب الفراش. سوف ترتدي الملابس نفسها غدًا. لم تجد وقتًا لتغسل في ذلك الأسبوع، ولم تجد مالًا لتغسل في الأسبوع الذي قبله. أقصى ما لديها الرجاءُ بأن لا تفوح رائحة كريهة من الأطفال حين يذهبون إلى المدرسة المسيحية.

قالت: «هل أفزعتكَ الشرطة؟»، فوثب سريعًا كالبرق والتقطها بين ذراعيه وسحبها إلى الفراش. «أنا لا يفزعني شيء يا امرأة»، فضحكتْ وخبطت بيديها، متظاهرة أنها تعاركه.

من قُبلةٍ لأخرى، ثم أسرع جو في خلع ما تبقى عليها من ملابس. أخذ يتذوّقها، وكان لا يسمع بل يشعر بالمتعة التي يرسلها كالتيّار في جسدها، وكيف تكتم تأوهاتها لئلا يستيقظ الأطفال، وقد أصبحت خبيرة بذلك بعد ليال كثيرة، وسبعة أطفال. فرغا في سرعةٍ وهدوء، رجاةَ أن يستر الظلام حركاتهما لو أنّ واحدًا من الأطفال استعصى عليه النوم فأخذ يتلصص من الستارة. أمسك بمؤخرتها بيديه الجائعتين. سيظلّ دائمًا يشعر بالمتعة والرضا أن يملأ يديه بوفرة جسمها.

في الصباح التالي عاد جو للعمل في سفينة **ألِس**. جاء پوت ليقتسم إفطاره معه، قليلًا من مخبوزات الذرة وبعض السمك.

سألَه جو: «هل جاؤوا؟». في الصباح الباكر كان جو قد جهّز خيوط الحبال، ونقّعها في قطران الصنوبر. لفّها ثم سدّ بها الفتحات بين الألواح. هذا ما يفعله جو بالأدوات نفسها منذ أن بدأ عمله قلّافًا. بمطرقته وحدائده. كان يروقه ذلك الصوت الذي تحدثه هذه الأدوات معًا حين يضع الخيوط في الفتحات، ضاربًا على الحدائد بخفّة لتثبيت الخيوط، وسدّ الفتحات، وحماية السفينة من التسريب.

«نعم، جاؤوا. سألوا الأسئلة المعتادة. مرّ الأمر بسلام، وسمعتُ أنهم وجدوا الرجل الذي سرق». وُلد پوت حُرًا، وقد نشأ وعاش في «بالتيمور» طيلة

حياته. كان قد مضى على عمله في سفينة **ألس** قرابة العام، لكنه عمل قبلها في كل السفن الأخرى تقريبًا. كان واحدًا من أفضل القلّافين في الأنحاء، ويُقال إنه لو وضع أذنه على السفينة فسوف تخبره أين تحتاج إلى إصلاح. حين أتى جو، عمل تحت إشرافه، فأصبح يعرف كل ما يمكن معرفته عن السفن.

زَفَّتَ بَدَن السفينة، داهنًا الزفت الساخن عليه ثم مغطيًا إياه بصفائح النحاس. في بداية عمله كاد جو يموت وهو يسخّن الزفت. كانت النار هائلة شديدة الحرارة كأنفاس الشيطان، وسرعان ما بدأت تلاحق خشب السطح. تطلّع جو في كل ذلك الماء في البحر، ثم إلى النار التي كانت تهدّد بالتهام السفينة بأكملها، على أمل أن تحدث معجزة تنقذه. كان پوت هو المعجزة. أطفأ النار بأسرع ما يمكن، وهدّأ من غضب الرئيس وقال له إنه لو طرد جو فسوف يرحل معه. أما الآن فكان جو يعرف جيدًا كيف يتصرف مع النار.

ما إن انتهى جو من عمله على بدن السفينة ومسح العرق عن عينيه حتى رأى آنا واقفةً تلوّح له من حوض السفن. يندر أن تأتي لملاقاته بعد العمل، لأنه في العادة ينتهي من عمله قبلها. على أيّ حال كان سعيدًا برؤيتها.

حين التقط أدواته وسار ناحيتها، أدرك أنّ ثمة خطبًا.

«يقول لك السيد ماثسن تعال بأسرع ما يمكن». كانت تعتصر منديلها في يدها، وهي عادة من أثر التوتّر كان جو يمقتها، إذْ تنتقل عدوى التوتر إليه حين يراها.

«هل ماه بخير؟». سألها وهو يتناول يدها ويهزّها قليلًا إلى أن توقّفت عن الارتعاش.

- نعم.
- ما الأمر إذًا؟
- لا أعرف.

رمقها بقوّة، فأدرك أنها صادقة. كانت متوترة لأنّ ماثسن لم يطلب من قبل أبدًا أن يرى جو. لم يحدث هذا في السنوات السبع التي عملت فيها هي وماه

في تنظيف منزله، ولم تكن تستوعب معنى أن يطلب منها هذا الآن.

سارا عدة أميال نحو منزل ماثسن، بسرعة شديدة جعلت الحدائد تقرقع بصوت مزعج في صندوق أدواته. كان جو يتقدّم آنا قليلًا، ويسمع طقطقة قدميها الصغيرتين وهما تجاهدان للّحاق بساقيه الطويلتين.

وما إن وصلا حتى وجدا ماه أكُو تنتظرهما في الرواق، لا تحية تقدّمها لهما سوى السعال. قادت المرأتان جو إلى الصالون، حيث يجلس ماثسن وبضعة رجال بيض على أرائك بيضاء وثيرة، عليها وسائد ممتلئة فبدت مثل تلال صغيرة أو ظهور فِيَلة.

صاح ماثسن وهو يقف ليصافحه: «كوجو!». كان قد سمع ماه أكُو تناديه بهذا الاسم من قبل فسألهم عن معناه. وحين أخبرته إنه اسم أشانتيّ للولد الذي يُولد يوم الاثنين، صفّق بيديه وكأنه يستمع إلى أغنية جميلة، ثم أصرّ على أن ينادي جو باسمه الكامل. قال حينها بتجهّم: «الخطوة الأولى أن يسلبوك اسمك». كان متجهّمًا جدًا، فشعر جو أنه ليس من الحكمة أن يسأل عن قصده. الخطوة الأولى لماذا بالضبط؟

قال السيد ماثسن: «اجلس لو سمحت»، مشيرًا إلى كرسي أبيض. شعر جو فجأة بالتوتر. كان بنطاله مغطى بالزفت الجاف، شديدَ السواد وكأنه مملوء بمئات الثقوب. خاف جو أن يلطّخ الكرسي بالزفت، فيزداد عمل آنا وماه أكُو في اليوم التالي. هذا إن كان لهما يوم تال هناك.

- آسف أنني حمّلتك مشقة المجيء كل هذه المسافة، لكنّ زملائي أخبروني بأنباء سيئة جدًا.

كان هناك رجل أبيض أسمن من ماثسن، بلل ريقه فرأى جو رقبته تهتزّ وهو يتحدث. «سمعنا في الفترة الماضية عن قانون جديد يُكتب في الجنوب وحزب التربة الحرّة. ولئن صودق على هذا القانون، فسوف تُستخدم السلطة القانونية لاعتقال أي عبد هارب في الشمال وإعادته إلى الجنوب، بصرف النظر عن المدة التي قضاها منذ هروبه».

كانت أعين الرجال جميعًا تحدّق فيه، منتظرين ردّه، فهزّ رأسه.

قال السيد ماثسن: «إنني قلق على وضعك أنت وأمك»، فنظر جو إلى الباب حيث كانت آنا واقفة قبل لحظات. ربما عادت الآن إلى التنظيف وهي قلقة مما قد يقوله ماثسن لزوجها. «لأنكما هاربان، فالمشكلة لديكما أكبر من آنا والأطفال لأنهم وُلدوا أحرارًا».

هزّ جو رأسه، لكنه لم يستطع أن يتصوّر شخصًا يبحث عنه أو عن ماه أكُو بعد تلك السنوات. لم يكن جو يعرف حتى اسم سيده القديم أو وجهه. كل ما تتذكره ماه أكُو هو أن نِس كانت تطلق عليه اسم «الشيطان».

قال السيد ماثسن: «عليك أن تبتعد بأسرتك أكثر نحو الشمال. إلى نيويورك أو حتى كندا. لو صودق على هذا القانون فلا أحد يعرف حجم الفوضى التي سيحدثها».

«هل سيطردوني؟». سألته زوجته وهما جالسان على فراشهما تلك الليلة، بعد أن غطّ الأطفال في نومهم واستطاع جو أخيرًا أن يخبرها بما حدث.

- لا. يريدون أن يحذرونا، لا أكثر.

- لكنّ سيّد أمك القديم مات. أخبرتنا روثي بذلك، ألا تذكر؟

كان يذكر. روثي ابنة عم آنا هي التي أرسلت هذا الخبر من مزرعة إلى أخرى إلى بيت آمن فآخر، وأخيرًا وصل الخبر إلى ماه أكُو بأنّ الرجل الذي كان يملكها قد مات. في تلك الليلة تنفّسوا الصعداء.

- يقول السيد ماثسن إنّ هذا غير مهم. يستطيع أهله أن يأخذوها لو أرادوا.

- ماذا عني والأطفال؟

هزّ جو كتفيه. لقد رعاها سيّدها القديم ثم أعتقها مع أمها. كانت لديها أوراق حرية حقيقية، ليست مزوّرة مثل أوراق جو وماه أكُو. والأطفال كلهم وُلدوا في «بالتيمور» أحرارًا. لن يبحث عنهم أحد. «الأمر يتعلق بي أنا وماه فقط. لا

تقلقي أبدًا».

كان جو يعرف أنّ ماه أكُو لن تبرح «بالتيمور» أبدًا. لن تكون لها وجهة أخرى أبدًا إلا إذا كان باستطاعتها العودة إلى ساحل الذهب. لا كندا، ولا حتى الجنة إن كانت موجودة على الأرض. فهذه المرأة حين قرّرت أن تصبح حرّة، قرّرت أيضًا أن تظلّ حرة. في طفولته كان جو ينظر بتعجبٍ إلى السكين التي تخبئها ماه أكُو تحت مئزرها، تلك السكين التي حملتْها في مئزرها منذ أن كانت عبدة أشانتية، ثم عبدة أميركية، ثم امرأة حرّة. وكلما كبر جو كلما فهم أكثر عن تلك المرأة التي يسميها «ماه». كلما فهم أكثر أنّ البقاء حرًا يتطلب في بعض الأحيان تضحيات لا يمكن تخيّلها.

في الغرفة الأخرى بدأت بيولا تئنّ في نومها. كانت تعاني من نوبات فزع في الليل. وكان هذا الفزع يأتي متقطعًا، فيأتي شهرًا ثم يختفي، ويأتي يومين ويختفي. تشتدّ النوبات في بعض الأيام فتستيقظ على صرخاتها، أو تصحو لتجد خدوشًا في ذراعيها من عِراكات لا يراها أحد. وفي أيام أخرى كانت تنام في هدوء يشبه الموت، بينما الدموع تنهمر على وجنتيها. وحين يسألونها ماذا رأت في حلمها، تهزّ كتفيها وتقول: «لا شيء».

في ذلك اليوم مدّ جو بصره فرأى ساقيها تبدآن في التحرّك. تثني ركبتها، وتركل، وتركل. كانت بيولا تركض. خطر لجو أنّ هذه ربما تكون البداية. ربما كانت بيولا ترى شيئًا ما بوضوح أكثر حين ترى هذه الأحلام، طفلةً سوداء صغيرة تقاتل في نومها خصمًا لا تستطيع أن تحدّده حين يأتي الصباح؛ ففي النهار كان ذلك الخصم يبدو مثل العالم الذي من حولها. شرٌّ غير ملموس. ظلم مريع. بيولا كانت تركض في نومها، تركض وكأنها سرقت شيئًا، في حين أنها لم تفعل سوى أن تنتظر السلام والوضوح الذي يأتي مع الأحلام. خطر لجو أن هذه كانت البداية، نعم، ولكن متى وأين انتهى الأمر؟

***

قرّر جو أن تبقى أسرته في «بالتيمور». كانت آنا قد بلغت مبلغًا من الحمل لا يجعلها قادرة على حمل متاعها والابتعاد عن المدينة التي نشؤوا فيها جميعًا، كما أنّ «بالتيمور» بدت حتى الآن مدينة آمنة. ظلّ الناس يتهامسون عن القانون الجديد، وثمة أُسر لملمت أغراضها وارتحلت شمالًا مخافة أن يصدر القانون. حتى (أول بِس) الذي كان يبيع الورود رحل. ومثله رحل (إيفِرِت) و(جون) و(دوثَن) الذين كانوا يعملون على ظهر السفينة **ألِس**.

«يا للأسف». قالها پوت في اليوم الذي جاء فيه ثلاثة آيرلنديين على السفينة مكانهم.

سأله جو: «هل تفكر يومًا في الرحيل يا پوت؟».

شَخَر مستنكرًا. «سيدفنونني هنا في بالتيمور يا جو. بطريقة أو بأخرى. سيلقون جسدي في بحر تشِزاپيك».

يعرف جو أنه يعني ما يقول. كان پوت دائمًا يقول إنّ «بالتيمور» مدينة رائعة للإنسان الأسود. ففيها يعمل السود عتّالين ومعلّمين وواعظين وباعة جائلين. والحرُّ منهم ليس مضطرًا لأن يعمل خادمًا أو سائق عربة. يستطيع أن يفعل ما يريد بيديه. يُصلح شيئًا، أو يبيع شيئًا. يمكنه أنه يبني شيئًا من هذه الأرض ثم يرسله عبر البحر. پوت نفسه تعلّم القلافة وهو في سنّ المراهقة، وكان يقول مازحًا إنّ الشيء الوحيد الذي يحب إمساكه أكثر من المطرقة هو المرأة. كان متزوجًا ولكن لا أطفال له، لا ولد ينقل إليه صنعته. السفن هي التي تشعره بالفخر، لذلك لن يترك «بالتيمور» أبدًا.

الغالبية ظلّوا في «بالتيمور». كانوا متعبين من الهروب، معتادين على الانتظار. لذلك انتظروا ما سوف يأتي.

أخذ بطن آنا يكبر أكثر فأكثر، والطفل «اتش» كان يعبّر عن وجوده كل يوم بضربات ولكمات في أحشاء آنا. قال كيتو ذو العشرة أعوام وهو يضع أذنه على بطن أمه: «اتش سيصبح مُلاكِمًا».

ردّت آنا: «لا. لن أقبل أي عنف في **هذا** البيت». بعد خمس دقائق كان

دالي يركل ساق يورياس، فضربتْه أمه على مؤخرته ضربًا قويًا حتى أنه أصبح يلوي وجهه متألما كلما جلس في ذلك اليوم.

بلغت آغنس السادسة عشرة، وحصلت على وظيفة منظّفة في الكنيسة المنهجيّة [الميثودية] في شارع كارولين. أما بيولا فقد استمتعت بدورها الجديد كأكبر الأطفال في تلك الساعة المسائية قبل أن تعود آغنس من العمل.

ذات ليلة قالت آغنس: «يقول تِمي إنه والقسّ جون لن يرحلا». كان ذلك في شهر آب/أغسطس من عام 1850، والجوّ في «بالتيمور» شديد الحرارة والرطوبة. كانت آغنس تعود إلى البيت كل ليلة وحبّات العرق تغطي أعلى شفتيها، ورقبتها، وجبينها. أما تِمي فهو ابن القسّ، وكان جو وبقية الأسرة يضطرّون يوميًا إلى سماع تقارير آغنس عن ماذا خطر لتِمي، وماذا فعل تِمي، وماذا قال تِمي في ذلك اليوم.

قالت آنا بابتسامة ساخرة: «إذًا، يبدو أنك لن ترحلي إلى أي مكان أيضًا، صحيح؟». خرجت آغنس من البيت حانقة. قالت إنها خرجت تبحث عن شوكولاته للأطفال، لكنّ الجميع كانوا يعرفون أنّ آنا ضربت على وترٍ حسّاس.

أطلقت ماه أكُو ضحكة حين انصفق الباب. «هذه الطفلة لا تعرف أي شيء عن الحب». وسرعان ما تحوّلت ضحكتها إلى سَعلة، وكان عليها أن تنحني لتخرج سعلتها.

طبع جو قبلةً على جبين آنا ونظر إلى ماه. «ما الذي تعرفينه عن الحب، ماه؟»، مستلمًا زمام الضحكة التي تركتْها. فهزّت إصبعها في وجهه: «لا تسأل ماذا أعرف وماذا لا أعرف. لا تعتقد أنك الوحيد الذي لَمستَ أحدًا أو لمسك أحد».

هنا جاء دور آنا في الضحك، وأسقط جو يد آنا التي كان يمسكها، شاعرًا بالخيانة قليلًا. «من يكون، ماه؟».

هزّت رأسها ببطء. «لا يهم».

بعد أسبوعين، جاء تمي إلى حوض السفن ليطلب يد آغنس من أبيها.

- هل لديك صنعة يا ولد؟
- سأصبح واعظًا مثل بابا.

زفر جو في ضيق. لم يذهب إلى الكنيسة منذ ذلك اليوم الذي طُرد فيه منها مع ماه أكُو بتهمة السحر إلا مرة واحدة فقط، يوم عرسه. ولو تزوّجت آغنس من ولد الواعظ هذا فعليه أن يذهب مرة أخرى لعرسها، ومن يدري كم مرة أخرى بعد ذلك.

بكى جو في ذلك اليوم الذي سار فيه مع ماه أكُو خمسة أميال من الكنيسة المعمدانية إلى المنزل، بعد أن قدّم الضفدع إلى والد ميرابل. بكى كثيرًا، فتركتْه ماه أكُو بضعة دقائق يبكي، ثم أمسكت أذنه وسحبته إلى زقاق وحدجته بنظرة قوية: «لماذا تبكي يا ولد؟».

«القسّ يقول إننا نمارس السحر الإفريقي». لم يكن كبيرًا بما يكفي ليعرف معنى العبارة، لكنه كان كبيرًا بما يكفي ليعرف الإحساس بالمهانة. في ذلك اليوم امتلأ حتى أذنيه بالمهانة.

بصقت ماه أكُو خلف كتفها الأيسر، وهي لا تفعل ذلك إلا إذا كانت تشعر بالقرف فعلًا. «من قال لك أن تبكي على ذلك؟». هزّ كتفيه، وحاول أن يوقف سيلان أنفه، فقد بدا أنّه يزيدها غضبًا. «اسمع. لولا أنهم اختاروا إله البِيض بدلًا من آلهة الأشانتيين، لما استطاعوا أن يقولوا لي هذه الأشياء».

أدرك جو أنه من المفترض أن يهزّ رأسه موافقًا، ففعل. «إله البِيض مثل الإنسان الأبيض تمامًا. يعتقد أنه الإله الوحيد، مثلما يعتقد الأبيض أنه الإنسان الوحيد. لكنّ السبب الوحيد في أنه إله بدلًا من إنْيامي أو تشوكوُو أو غيرهما هو أننا **نسمح** له بذلك. نحن لا نقاتله. نحن حتى لا نشكّك فيه. أخبرَنا البِيض أنه السبيل، فقلنا نعم. ولكن متى قال لنا البِيض شيئًا خيّرًا لنا وكان بالفعل شيئًا خيّرًا؟ يقولون ساحرة إفريقية، وما المشكلة؟ ما المشكلة؟ وما أدراهم ما هي الساحرة؟».

كان جو قد انتهى من بكائه، فمسحت ماه أكُو بقع الملح البيضاء على

وجنتيه بحافة ثوبها. ثم أعادتْه إلى الشارع ساحبة إياه من ذراعه، تدمدم بلا توقف.

وقف تِمي أمام جو بيدين مرتجفتين، فأخذ هذا يراقبه. كان ولدًا طويلًا هزيلًا، يداه ناعمتان لم تحترقا أبدًا بزفتٍ ساخن أو تُصابا بضربة حديد. كان تِمي من نسل عائلة حُرّة، إذْ وُلد وترعرع في «بالتيمور» لوالدَين وُلدا وترعرعا أيضًا هنا. قال له جو أخيرًا: «طيب، إنْ كان هذا ما تريده آغي».

في الشهر التالي كان زواجهما، في اليوم نفسه الذي صدر فيه قانون العبيد الهاربين. خاطت آنا ثوب آغنس طوال الليالي على ضوء شمعة، فكان جو يجدها في الصباحات بعينين مجهدتين ترفّهما بنفسها كي تبقى مستيقظة وهي تستعد للذهاب إلى بيت ماثسن. أصبح الطفل «اتش» كبيرًا جدًا في بطنها، حتى أنها لم تكن تقوى على المشي دون أن تتهادى، وقدماها منتفختان حتى أنها حين تدخلهما في نعليها ينطويان، مثل خبزة أُغرقت بالخميرة فلم تعد المِقلاة تستوعبها.

أقيم الزفاف في كنيسة والد تِمي، وطبخت النساء وجبة تليق بملك، رغم أن هناك من كان يغمز تِمي لزواجه من فتاةٍ أهلها لا يواظبون على الحضور إلى الكنيسة، ولا حتى الكنيسة المنهجية المنافسة لها في الشارع المقابل.وقفت بيولا إلى جانب أختها آغنس في ثوب أرجواني، في حين وقف (جون الصغير) إلى جانب أخيه. أما القسّ الذي زوّجهما فكان جون والد تِمي. لكنّه لم يختتم طقس التزويج بالطريقة المعتادة حيث يعلنهما زوجين ويطلب أن يقبّل العريس عروسه، بل طلب من الحضور أن يمدّوا أيديهم تجاه العريسين وهو يباركهما بالدعاء. وما إن وصل إلى جملة: «فقال جميع الشعب»، حتى ظهر صبيّ صغير عند باب الكنيسة صائحًا: «صَدَر القانون! صَدَر القانون!».

«آمين» التي كان ينتظرها القسّ جاءت من البعض مكتومةً، بلا روح. ومن الآخرين لم تخرج أبدًا. بدأ قلة منهم يتململون في أماكنهم، وخرج أحدهم مندفعًا بقوة حتى أنّ المقعد الطويل اهتزّ بأكمله وكاد ينقلب.

نظرت آغنس إلى أبيها بطيفٍ من التوتّر العالق في عينيها، فردّ بنظرة ثابتة كان يجيدها. ذاب خوفها مع تصاعد خوف الجميع. وانتهى القسّ من مراسم الزواج، فبدأ الجميع في تناول الوليمة التي أعدّتها آنا وبقية النساء.

في غضون أسبوعين وصلت أنباء بأنّ (جيمس هاملت) العبد الهارب من «بالتيمور» اختُطف وحوكم في «نيويورك». وقد كتب البِيض عن ذلك في صحيفة **نيويورك هيرالد** وفي صحيفة **سَن** في «بالتيمور». كانت هذه هي الحالة الأولى، لكنّ الجميع يعلم أنها لن تكون الأخيرة. بدأ الناس يرحلون شمالًا بالمئات إلى كندا. وذات أسبوع ذهب جو إلى «فِلز پوينت»، فلاحظ اختفاء تلك الأمواج من الوجوه السوداء التي كان يراها عند البحر الأزرق المخضرّ. حرص ماثسن على أن تكون لدى أسرة جو كلها أوراق إثبات الحرية، لكنه مع ذلك كان يعرف آخرين لديهم أوراقهم ورحلوا.

تحدّث ماثسن مرة أخرى إلى جو. «أريد أن أتأكد من إدراكك خطر الواقع هنا يا جو. لو أمسكوا بك، فسوف يحاكمونك، ولن يؤخذ بكلامك أبدًا. ستكون دعوى الإنسان الأبيض من دون أن يواجهها أي دفاع على الإطلاق. عليك أن تحمل أوراقك معك دائمًا، مفهوم؟». هزّ جو رأسه.

كانت هناك تجمهرات ومظاهرات بطول الشمال الأميركي وعرضه، وليس بين الزنوج وحدهم. كان هناك بِيض ينضمّون إليها بحماس لم ير جو مثيلًا له لديهم من قبل حول أي قضية أخرى. لقد أحضر الجنوبيّون هذه المعركة إلى ميدان الشماليين، بينما الكثير منهم لم يرغبوا في أن يكون لهم أي شأن بها. الآن أصبح من الممكن أن يدفع الأبيض غرامة لو قدّم وجبة أو وظيفة أو مسكنًا لأحد الزنوج في حال ثبُت أنّه زنجيّ هارب. ولكنْ من أين لهم أن يعرفوا من الهارب ومن ليس هاربًا؟ لقد أنتج هذا القانون وضعًا لا يُحتمل، وأولئك الذين كانوا يصرّون على البقاء عند حاجز الحياد وجدوا أنفسهم فجأة دون حاجز على الإطلاق.

في الصباحات، كان جو يدرّب أطفاله على إظهار أوراقهم. كان يؤدي دور الموظف القضائي، فيمشي إلى كل واحدٍ منهم -حتى غريسي الصغيرة- ويقول في تجهّم قدر الإمكان: «إلى أين تذهبون؟». فيدخلون أيديهم في الجيوب التي خاطتها آنا في ملابسهم، ودون أن ينبسوا ببنت شفة يدفعون بتلك الأوراق في يدَي جو.

انفجر الأولاد ضحكًا في المرة الأولى، ظانّينَ أنها لعبة. لم يكونوا يعرفون عن خوف جو من الذين يرتدون الزيّ الرسمي. لم يعرفوا معنى أن تنبطح في سكون وتحبس أنفاسك تحت ألواح الأرضية في مقرٍ لجمعية كويكرز[4]، تنصت إلى كعب حذاء واحدٍ من الصيّادين يدوس على اللوح الذي فوقك. لقد بذل جو كل جهده لكي لا يُضطر أطفاله إلى وراثة هذا الخوف، لكنه في تلك اللحظة كان يتمنى لو يتحصّلون على نُتَفٍ صغيرة منه.

قالت آنا: «أنت تبالغ في قلقك. لن يبحث أحد عن الأطفال. ولا أحد يبحث عنا أيضًا». اقتربت ساعة ولادتها، ولاحظ جو أنّ زوجته قد أصبحت متقلبة المزاج، لا تنفكّ تنهره بحدّة على أبسط الأشياء. وكانت تشتهي السمك والليمون. تمشي ويداها أسفل ظهرها، وكانت تنسى كثيرًا. مرة تنسى المفاتيح، ومرة تنسى المكنسة، فخاف جو أن تنسى أوراقها بعد ذلك. رآها ذات مرة وقد تركتْها إلى جانب الفراش مجعّدة بالية حين خرجت إلى السوق، فزجرها بعنف إلى أن بكت. صحيح أنه شعر بالذنب، لكنه عرف أنها لن تنسى الأوراق مرة أخرى أبدًا.

وذات يوم، لم تعد آنا إلى البيت. هرع جو إلى الغرفة ليتأكد من أنها لم تنسَ الأوراق، فلم يجدها في أي مكان، وتناهى إليه صوتها الحلو وهي تقول: «أنت تبالغ في القلق. تبالغ في القلق». عادت بيولا مع إخوتها وقد شبكوا أياديهم معًا، فسألهم جو ما إذا كانوا قد رأوا أمهم.

قال يورياس: «هل سيأتي الطفل اتش يا بابا؟».

(4) كويكرز (Quakers): جمعية دينية معروفة، وكانت تعاليمها تناهض الرقّ.

ردّ جو بشرود: «ربما».

ثم عادت ماه أكُو، ويداها على قفاها من الألم. وما لبثت أن مسحت الغرفة بعينيها. «أين آنا؟ قالت إنها ستحضر بعض السردين وتعود إلى البيت». ولم تكد تنهي جملتها حتى كان جو قد عبر نصف المسافة إلى الباب.

ذهب إلى البقال، ومحلّ الزاوية، ومحل القماش. ذهب إلى سوق السمك، والإسكافي، والمستشفى. ذهب إلى حوض السفن، والمتحف، والمصرف. كان ردّ الجميع: «آنا؟ لم تأتِ اليوم».

ولأول مرة في حياته، قرع جو باب إنسانٍ أبيض في الليل. كان ماثسن بنفسه من فتح الباب. قال له جو وهو يقاوم غصّته: «لم تعد إلى البيت منذ الصباح». مضى وقت طويل منذ أن بكى، ولم يكن يريد أن يبكي أمام رجل أبيض، مهما كان حجم المساعدة التي قدّمها هذا الرجل.

- عد إلى أطفالك يا كوجو. سأبدأ البحث عنها فورًا. عد إلى البيت.

هزّ كوجو رأسه، لكنّه في مشيته الدائخة نحو المنزل راح يفكر في حياته من غير زوجته، المرأة التي طالما أحبها بقوة. كان الجميع قد سمع بما بات يُعرف بـ «قانون الكلب المتعقِّب». سمعوا عن الكلاب، والاختطافات، والمحاكمات. سمعوا كلّ شيء، ولكنْ ألم ينالوا حريتهم باستحقاق؟ تلك الأيام التي هربوا فيها في الغابات وعاشوا تحت ألواح الأرضيات. ألم يكن ذلك ثمنًا دفعوه لحريتهم؟ لم يشأ جو أن يتقبل ما بدأ يعرفه بالفعل في قلبه: لقد ضاعت آنا، والطفل «اتش».

لم يقوَ جو على انتظار ما سيفعله ماثسن. ربما يملك ماثسن كل ما يتمناه المرء من علاقات مع البيض الأثرياء، لكنّ جو كان يعرف المهاجرين الفقراء في «بالتيمور» من البيض والسود. هكذا بدأ يذهب في الليل بعد عمله للحديث معهم، محاولًا أن يجد معلومة هنا أو هناك. لكنّ الجواب كان واحدًا في كل مكان يذهب إليه. لقد رأوا آنا صباح ذلك اليوم، واليوم الذي قبله، وقبل ثلاث

ليال. في اليوم الذي اختفت فيه كانت في منزل السيد ماثسن حتى السادسة مساء. بعد ذلك، لا شيء. لم يرها أحد.

كان زوج آغنس رسّامًا جيّدًا، فرسم صورة لآنا من ذاكرته بدت أقرب إلى ملامحها من أي رسمة رآها جو. في الصباح أخذ جو الصورة إلى «فلز پوينت» معه، وصعد على كل القوارب المستعدة للإبحار، يُري الناس وجه آنا المرسوم بالفحم الثقيل.

كلهم اعتذروا له.

أخذ الصورة معه إلى سفينة **ألِس**، ورغم أنّ جميع زملائه كانوا يعرفون شكلها، فإنهم سايروه، ناظرين إلى الصورة بعناية قبل أن يقولوا لجو ما كان يعرفه. لم يروها أيضًا.

بدأ جو يحمل الصورة معه في جيبه أثناء عمله. هناك أغرق نفسه في صوت المطرقة على الحديد، ذلك اللحن الثابت الذي يعرفه جيدًا. كان يبعث فيه الراحة. وذات يوم بينما كان يجهّز خيوط الحبال سقطت الصورة من جيبه، فتنقّعت حوافها في قطران الصنوبر. حاول إزالته لكنّ القطران التصق بأصابعه، وحين رفع يده ليمسح العرق عن عينيه، التمع وجهه بالقطران.

قال جو لپوت: «عليّ الذهاب»، ملوّحًا بالصورة في اهتياج، رجاةَ أن تجففها النسمات. صاح پوت: «لا يمكنك التغيّب أكثر من ذلك يا جو. سيعطون وظيفتك لواحد من الآيرلنديين. فماذا ستفعل، هه؟ من سيطعم أطفالك يا جو؟».

كان جو يركض نحو اليابسة.

حين وصل إلى محلّ الأثاث في شارع أليسيانا ظلّ يقدّم الصورة لكل المارّة. ولم ينتبه لنفسه حين ألصق الصورة في وجه امرأة بيضاء خارجة من المحل.

- من فضلك سيدتي. هل رأيتِ زوجتي؟ أبحث عن زوجتي.

ابتعدت المرأة إلى الخلف ببطء وعيناها تتسعان من أثر الخوف، لكنها

لم تنقل بصرها عن عينيه، وكأنها لو استدارت عنه فقد يهاجمها.

قالت المرأة ويدها أمامها: «ابتعد عني».

- أبحث عن زوجتي. من فضلك سيدتي. انظري إلى الصورة. هل رأيتِ زوجتي؟

هزّت رأسها ويدها المعلّقة، رغم أنها لم توجّه نظرها مرة واحدة للصورة. قالت له: «لديّ أطفال. أرجوك لا تؤذيني».

هل كانت تسمع شيئًا مما قاله؟ فجأةً شعر جو بذراعين قويتين تمسكانه من الخلف. «هذا الزنجي يضايقك؟».

قالت المرأة: «لا أيها الضابط. شكرًا لك أيها الضابط». وتنفّست بارتياح ثم ذهبت.

أدار الشرطيّ جو ليرى وجهه. كان جو خائفًا جدًا حتى أنه لم يرفع عينيه. رفع الصورة وقال: «أرجوك، زوجتي يا سيدي. إنها حامل في شهرها الثامن ولم أجدها منذ أيام».

قال الشرطي وهو يخطف الصورة من يديه: «زوجتك، هه؟ زنجية جميلة، صحيح؟».

مع ذلك، لم يستطع جو أن ينظر إليه.

قال الشرطي: «ما رأيك أن آخذ هذه الصورة معي؟».

هزّ جو رأسه معترضًا. كاد يفقد الصورة مرة واحدة ذلك اليوم، ولا يعرف ماذا سيفعل لو فقدها ثانية. «أرجوك سيدي. ليس عندي غيرها».

ثمّ سمع جو صوت ورقٍ يتمزّق. رفع عينيه فرأى أنف آنا وأذنيها وخصلات شعرها، قطعًا ممزقة من الورق تسبح في الهواء.

- لقد سئمتُ من هؤلاء الزنوج الهاربين الذين يظنّون أنهم فوق القانون. إن كانت زوجتك زنجيةً هاربة، فقد أخذت ما تستحق. ولكنْ ماذا عنك؟ هل أنت هارب أيضًا؟ ربما آخذك لترى زوجتك.

لم يصرف جو عينيه عن نظرة الشرطي. كان جسمه كلّه يبدو وكأنه

يرتعد. لم يستطع أن يرى ذلك، لكنه يشعر به داخله، ارتعاد لا يمكن إيقافه. «كلا، سيدي».

- ارفع صوتك.

- كلا، سيدي. لقد وُلدتُ حرًا، هنا في بالتيمور.

ابتسم الشرطي بسخرية. «عد إلى البيت»، ثم استدار ومشى بعيدًا. وتلك الرعدة التي كانت في مكانٍ ما في عظام جو بدأت تهرب شيئًا فشيئًا إلى أن جلس على الأرض، محاولًا أن يستجمع نَفْسه.

***

قال ماثسن: «أخبره بما أخبرتَني». كان جو واقفًا في صالون ماثسن بعد ثلاثة أسابيع. لم تعد ماه أكُو تقوى على العمل بعد أن سقطت طريحة الفراش، لكنّ جو كان يعرّج على منزل ماثسن في طريقه إلى البيت ليسأل عن أي أخبار جديدة.

في ذلك اليوم كان ماثسن يمسك بطفلٍ زنجيّ مرعوب من كتفيه. لم يكن بأي حال من الأحوال أكبر بكثير من عمر دالي، ولو أنّ رعبه من استدعاء هذا الرجل الأبيض زاد قليلًا لتحوّلت بشرته إلى الرمادي بدلًا من سوادها القطراني.

وقف الصبي بيدين مرتعشتين ورفع عينيه إلى جو. «رأيت رجل أبيض يأخذ مرأة حامل في عربته. قال هي حامل ولا تقدر أن تمشي، لذلك أخذها».

انحنى جو حتى أصبحت عيناه في مستوى الطفل المرتعش. أمسك ذقن الصبيّ بيده وجعله ينظر في عينيه، ثم راح يفتّش في مقلتَي الصبي فترةً بدت كأنها أيام، ثلاثة أسابيع بالتحديد، بحثًا عن آنا.

قال وهو يقف. «لقد باعوها».

فأجابه ماثسن: «لسنا متأكدين من ذلك يا جو. ربما كانوا يحاولون الإسراع في تقديم الرعاية الطبية. آنا حرة بالقانون، وكانت حبلى». لكنّ صوته لم يكن واثقًا مما يقول. لقد فتّشوا في كل مستشفى وعند كل قابلة، وحتى عند

المعالجين الشعبيين. لم ير أحدٌ آنا أو الطفل «اتش».

كرّر جو: «لقد باعوها وباعوا الطفل أيضًا»، فتملّص الصبي قبل أن يتمّا كلامهما أو يشكراه، وجرى خارجًا يسبق البرق. في الغالب سيحدّث أصدقاءه عمّا جرى، أنه كان في البيت الكبير لرجلٍ أبيض كان يسأله عن امرأة زنجية. سيحسّن صورته في القصة ويقول إنه وقف منتصب القامة وتحدّث بثبات، وإنّ الرجل صافحه بعد ذلك ونَفَحه ربع دولار.

قال ماثسن وهو ينظر إلى المكان الخالي الذي تركه الصبيّ: «سنواصل البحث يا جو. لم ينته الأمر. سنجدها. سأذهب إلى المحكمة إن لزم الأمر يا جو. أعدك بذلك».

لم يعد جو قادرًا على سماع صوته. كانت الريح تهبّ من الباب الذي تركه الصبيّ مواربًا. تتحرك الريح حول الأعمدة البيضاء الكبيرة التي ترفع البيت، تتقوّس حولها، ثم تنحني إلى أن تدخل في أذنه الضيّقة. لقد جاءت الريح لتخبره أنّ الخريف قد وصل إلى «بالتيمور»، وأنه سيقضيه وحده يعتني بماه المريضة وأطفاله السبعة، من دون حبيبته آنا.

كان الجميع في انتظاره حين عاد إلى البيت. جاءت آغنس مع زوجها. كانت حبلى، وهو يشعر بذلك، لكنه يعرف أنها كانت خائفة جدًا من إخباره، من أن تجرح حزنه أو ذكرى الثلاثة أسابيع منذ اختفاء أمها، تخاف أن تكون قطعةُ الفرح الصغيرة التي تحملها مخزيةً قليلًا.

صاحت ماه أكُو: «جو؟». كان جو قد أعطاها غرفة النوم منذ أن ازدادت آلامها. ذهب إليها. كانت مستلقية على ظهرها، تحدّق في السقف، ويداها على صدرها. أدارت رأسها نحوه وتحدّثت باللغة التويّة كما كانت تفعل حين كان صغيرًا، ثم توقفت تمامًا تقريبًا منذ أن تزوّج آنا.

سألته: «ضاعت؟». أومأ لها جو، فأطلقت تنهيدة. «سوف تتغلب على هذا يا جو. إنْيامي لم يخلق أشانتيين ضعفاء، وأنت ستبقى أشانتيًا، مهما رغب

الناس هنا من البيض أو السود أن يمحوا هذا الجزء منك. أمّك من أناسٍ أقوياء أشدّاء. أناس لا ينكسرون».

قال لها جو: «أنتِ أمي». وبجهدٍ بالغ أدارت جسدها كله نحوه وفتحت ذراعيها. فزحف إلى الفراش معها وبكى مسندًا رأسه على صدرها، كما كان يفعل في طفولته. في تلك الأيام كان يبكي لكي يسمع عن سام أو نِس. الشيء الوحيد الذي كان يهدهده تلك القصص التي تحكيها ماه عنهما، حتى وإن كانت القصص غير مفرحة. تقول له ما إنّ سام لم يكن يتكلم كثيرًا، لكنّ كلامه كان مليئًا بالحب والحكمة، وإنّ نِس كانت تحمل بعضًا من أبشع الندبات التي رأتها. في تلك الأيام كان جو خائفًا من انقطاع نسبه، وفقدانه إلى الأبد، فلا يعرف من كان شعبه، ومن كان أهلهم قبلهم. كان يخاف ألا يسمع القصص التي عليه أن يسمعها عن أصوله. وحين يتملكه هذا الشعور كانت ماه تحضنه، وبدلًا من قصص أبويه تحدّثه عن قصص الشعوب. الفانتيّون في الساحل، والأشانتيّون في الداخل، والأكانيون.

حين ينام الآن عند هذه المرأة، يعرف أنه ينتمي إلى أحد، وكان هذا في يوم من الأيام كافيًا بالنسبة إليه.

***

عشر سنوات مضت. ومعها مضت ماه أكُو. أصبح الآن لآغنس ثلاثة أطفال، وبيولا حبلى، وكيتو وفِلِستي قد تزوّجا. أما يورياس وغريسي الأصغر من بين أبناء جو فقد وجدا بأسرع ما يمكنهما عملًا يقتضي السكنى في مكان العمل. قالا إنهما يحاولان تخفيف الحمل عن جو، لكنه كان يعرف الحقيقة. لم يعد أبناؤه يحتملون العيش بقربه، وهو كذلك لم يعد يحتمل العيش بقربهم، رغم أنه يكره الاعتراف بذلك.

المشكلة كانت آنا. كان يراها في كل مكان في «بالتيمور»، عند أي محلّ، وفي كل شارع. كان أحيانًا يرى مؤخرات وافرة تمشي في زاويةٍ ما، فيلاحقها. وذات

مرة صُفع بسبب ذلك. كان في فصل الشتاء، وكانت المرأة ذات بشرة فاتحة كالزبدة التي انسكبت فوقها قطرة من القهوة، فاستدارت عند زاوية وانتظرته. صفعتْه بسرعة، حتى أنه لم يلاحظ من فعل ذلك إلا حينما استدارت ورأى ذلك الهفيف الوافر من فخذيها.

رحل إلى نيويورك. لم يكن يهمّه أنه غدا واحدًا من أفضل القلّافين في تشِزابيك. لم يعد يقوى على النظر إلى مركبٍ مرة أخرى. ولم يكن يستطع أن يحمل إزميلًا أو يشمّ رائحة الخيوط أو القطران دون التفكير في حياته السابقة، والمرأة والأطفال الذين كانوا حوله. كان التفكير أكثر مما يحتمِل.

في نيويورك اشتغل في أي عمل يستطيعه. في أغلب الأحيان كان يعمل في النجارة، وأحيانًا في السباكة حين يأتيه عمل، رغم أنه كثيرًا ما كان يحصل على أجر زهيد. استأجر غرفة نوم من امرأة زنجية عجوز كانت تطبخ له وتغسل ثيابه دون أن يطلب منها. أما المساءات فكان يقضي معظمها في حانةٍ للسود.

ذات يوم عاصف في شهر كانون الأول/ديسمبر دخل الحانة وجلس في مكانه المعتاد، ثم أخذ يحرّك يده على خشب البار الأملس. كانت صنعته متقنة، وكان يعتقد في داخله أنّ زنجيًا هو الذي صنعه، ربما في أيامه الأولى من الحرية في نيويورك، سعيدًا جدًا بأن يصنع شيئًا لنفسه لا لشخصٍ آخر، فصنعه بكلّ ما في روحه من شغف.

كان ساقي الحانة رجلًا ذا عَرجة خفيفة لا تكاد تُرى. صبّ له شرابه قبل أن يطلبه ووضعه أمامه. أما الرجل الذي بجانبه فكان يقلّب الصحيفة التي غدت مجعّدة ومبللة من رطوبة البار أو القطرات الساقطة من شرابه.

قال الرجل دون أن يحدّث شخصًا بعينه: «كارولاينا الجنوبية انشقّت اليوم». لم يجد ردًا من أحد، فتطلّع من فوق الصحيفة ونظر إلى الرجال القلة الموجودين. «الحرب قادمة».

بدأ الساقي يمسح البار بخرقةٍ بدتْ لجو أوسخ من البار نفسه. قال بهدوء: «لن تحدث أي حرب».

سمع جو الأحاديث الدائرة عن الحرب لسنوات. لم يكن يعنيه الموضوع كثيرًا، وكان يحاول تغيير مجرى الحديث متى استطاع، حذرًا من المتعاطفين مع الجنوب، أو من البيض المتحمسين الذين كانوا يريدون منه أن يكون أكثر غضبًا وصخبًا، ليدافع عن نفسه وحقه في الحرية.

لكنّ جو لم يكن غاضبًا. لم يعد غاضبًا. وفي الحقيقة لم يكن يستطيع الجزم ما إذا كان شعوره سابقًا هو الغضب. كان شعورًا لم يجد فائدة له، ولم يحقق أي شيء، ولم يكن ذا معنى. في الواقع، ما كان يشعر به جو هو التعب.

- صدّقني. هذا مؤشّر سيء. ولاية جنوبية تنشقّ، والبقية ستلحق بها. لا يمكن أن نسمي أنفسنا الولايات المتحدة الأميركية لو ذهبت نصف الولايات. اذكُر كلامي هذا جيدًا. الحرب قادمة.

قلّب الساقي مقلتيه. «لن أذكر شيئًا. وإنْ لم يكن عندك مال لكأسٍ آخر، أعتقد أن الوقت حان لكي تتوقف عن الذِكر وتذهب».

نفخ الرجل بصوت عال وهو يلفّ الصحيفة في يده. وبينما هو يمشي، نقر على كتف جو بالصحيفة. استدار جو لينظر إليه، فغمز له بعينه كما لو أنه هو وجو ضالعَين في مخططٍ ما، كما لو أنهما يعرفان شيئًا لا يعرفه غيرهما في هذا العالم. لكنّ جو لم يستطع أن يعرف ما هو ذلك الشيء.

آبِنا

بينما كانت (آبِنا) تغذّ الخطى عائدة إلى قريتها، تحمل بذورًا جديدة في يدها، إذْ خطر لها، مرةً أخرى، كم تبلغ من العمر الآن. لم يكن أمرًا معهودًا أن تكون امرأة في سنّ الخامسة والعشرين غير متزوجة، لا في قريتها ولا في أيّ قرية أخرى في تلك القارة بأكملها، أو في التي تليها. غير أنّ الرجال كانوا قِلّة في قريتها، ولا أحد منهم يودّ أن يجرّب حظّه مع ابنة «المتعوس». لم تنمُ محاصيل أبيها أبدًا، وسنةً تلو أخرى، فصلًا بعد آخر، كانت أرضه إما تبصق نباتات فاسدة، أو لا تُنبت أبدًا. من أين جاء سوء الحظ هذا؟

تحسّست آبِنا البذور في يديها، صغيرةً مدوّرة وصلبة. من يصدّق أنها قد تتحوّل إلى حقلٍ كامل؟ تساءلت في نفسها ما إذا كانت البذور ستفعلها هذا العام من أجل والدها. كانت آبِنا واثقة من أنها لا بدّ ورثتْ ذلك الشيء الذي أكسب والدها لقبه. كانوا ينادونه أحيانًا بالرجل الذي بلا اسم. وأحيانًا يسمّونه «المتعوس». بدا الآن أنّ مشكلاته قد انتقلت إليها. فحتى صديق طفولتها الأقرب إليها (أوهيني نْياركو) لم يفكر في أن يتّخذها زوجة ثانية له. صحيح أنه لم يقل شيئًا، لكنها تعرف ما يدور في رأسه، أنّ الأمر لا يستحق كلفة اليامات أو الخمر الذي سيدفعه مهرًا للعروس. كان يخطر لها أحيانًا وهي نائمة في الكوخ الذي بناه لها والدها أنها هي اللعنة، لا الأرض غير المحروثة من حولهم، وإنما هي نفسها.

صاحت آبنا وهي تدخل كوخ والديها: «أيها الرجل العجوز، أحضرت لك البذور التي طلبتها». كانت قد ذهبت إلى القرية المجاورة بعد أن خطر لوالدها، مرة أخرى، أنّ تغيير البذور قد يغيّر الحظ. ردّ عليها: «شكرًا».

في داخل الكوخ كانت أمّها تكنس الأرضية، محنية الظهر، يدها على ظهرها الصغير، والأخرى قابضة على سعفات المكنسة، تتمايل على وقع موسيقى لا أحد غيرها يسمعها.

بللت آبنا ريقها. «أريد أن أزور كُوماسي. أريد أن أراها مرة قبل أن أموت».

رفع أبوها عينيه بحدّة. كان يتفحّص البذور في يديه، يقلّبها ويقرّبها من أذنه كأنه يستطيع سماعها، ثم يضعها على شفتيه كأنه يستطيع أن يتذوّقها. ردّ بصرامة: «لا».

لم تنتصب أمها واقفة، لكنها توقفت عن الكنس. لم تعد آبنا تسمع السعفات وهي تنظّف الطين اليابس.

قالت آبنا دون أن تخفض بصرها: «حان الأوان لكي أقوم بهذه الرحلة. حان الأوان لكي ألتقي أشخاصًا من قرى أخرى. قريبًا سأصبح امرأة عجوزًا بلا أطفال، ولن أعرف شيئًا غير هذه القرية وجارتها. أريد زيارة كوماسي. أريد أن أرى كيف تبدو المدينة الكبيرة، وأمشي عند قصر الملك الأشانتيّ».

حين سمع أبوها «الملك الأشانتيّ» كوّر قبضتيه، فحطّم البذور التي في يديه إلى مسحوق تسرّب من بين أصابعه. صاح فيها: «ولماذا ترين قصر الملك الأشانتيّ؟».

«ألستُ أشانتيّة؟». قالتها وهي تتحداه أن يقول الحقيقة، أن يفسّر تلك اللكنة الفانتيّة في لهجته، وذلك البياض في بشرته. «أليس أصل قومي من كوماسي؟ لقد أبقيتني هنا كالسجينة مع حظّك السيء. يسمّونك المتعوس، لكنّ اسمك ينبغي أن يكون العار، أو الخائف، أو الكاذب. أيها الصحيح أيها العجوز؟».

صفعها بقوة على خدّها الأيسر، فتناثر مسحوق البذور على وجهها. مدّت يدها إلى مكان الألم تتحسسه، فلم يضربها من قبل. كل طفل في القرية تعرّض

للضرب، أحيانًا لشيء صغير مثل إراقة الماء من الدلو، وأحيانًا لشيء كبير مثل ممارسة الجنس قبل الزواج. لكنّ أبويها لم يضرباها قط. بل كانا يتعاملان معها على أنها مساوية لهما، يطلبان رأيها، ويناقشانها في ما يريدان فعله. الشيء الوحيد المحظور عليها كان الذهاب إلى كوماسي، أرض الملك الأشانتيّ، أو إلى أرض الفانتيين. ولأنها لم يكن لها أي غرض في الساحل، ولا احترام للشعب الفانتيّ، فقد كان فخرها بالأشانتيين كبيرًا. كان يتعاظم هذا الفخر يومًا تلو الآخر، والأنباء تأتي عن الجنود الأشانتيين البواسل في معاركهم مع البريطانيين، وعن بأسهم، وسعيهم إلى إنشاء مملكتهم الحرة.

في كل سنوات حياتها التي تتذكرها، كان والداها يقدّمان العذر تلو الآخر. إما أنها صغيرة جدًا، أو أنها لم يأتها دمها بعد، أو أنها ليست متزوجة. لم تكن في طريقها إلى الزواج أبدًا. وبدأت آبنا تعتقد أنّ أبويها قتلا شخصًا ما في كوماسي، أو كانا مطلوبين لدى حرّاس الملك، وربما من الملك نفسه. لم يعد يهمّها الأمر.

مسحت آبنا مسحوق البذور من وجهها، وكوّرت قبضتها، لكنّها قبل أن تستخدمها جاءت أمها خلفها واختطفت ذراعها. «كفى».

أخفض العجوز رأسه وهو يمشي خارج الكوخ. وحين ضرب الهواء البارد قفاها العاري، بدأت آبنا تبكي.

قالت أمها وهي تشير إلى الكرسي الذي تركه أبوها: «اجلسي». جلست وأخذت تنظر إلى أمها، المرأة التي بلغت الخامسة والستين لكنها لم تبدُ أكبر مما تبدو هي نفسها. ما تزال جميلة جدًا، حتى أنّ أولاد القرية كانوا يتهامسون ويصفّرون حين تنحني لرفع الماء. «أنا وأبوك غير مرحّب بنا في كوماسي». كانت تتحدث إليها كما يتحدث المرء إلى امرأة عجوز تحوّلت ذاكرتها، التي كانت ذات يوم شرنقات صلبة، إلى فراشات وطارت بعيدًا بلا عودة. «أنا من كوماسي. وحين كنتُ صغيرة وقفتُ في وجه أبويّ لكي أتزوج والدك. جاء ليأخذني، قطع المسافة كلها من أرض الفانتيين».

هزّت آبنا رأسها. «ولماذا لم يوافقا على زواجكما؟».

وضعتْ أكوسوا يدها على يد آبنا تمسّدها. «أبوكِ كان...»، وتوقفت، تبحث عن الكلمات المناسبة. أدركت آبنا أنّ أمها لا تريد أن تقول لها سرًا ليس من حقها أن تفشيه. «كان ابنًا لرجل كبير، وحفيد رجلين كبيرين، لكنه أراد أن يعيش حياة لنفسه، لا الحياة التي اختيرت له. وأراد لأطفاله الشيء نفسه. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك. اذهبي إن شئتِ إلى كوماسي. أبوكِ لن يوقفك».

خرجت أمها من الكوخ وراء أبيها، فأخذت آبنا تحدّق في جدران الطين الأحمر من حولها. كان من المفترض أن يكون أبوها كبيرًا، لكنه اختار هذا، اختار الطين الأحمر المصنوع في شكل دائرة، والسقف المصنوع من القشّ، والكوخ الصغير الذي لا يسع أكثر من بضعة كراسٍ من جذوع النخيل. وفي الخارج لا شيء سوى تربة خَرِبة من مزرعة لم تستحق أبدًا اسم مزرعة. ذلك القرار الذي اتّخذه أبوها يعني خِزيها، الخزي بلا زواج ولا أطفال. سوف تذهب إلى كوماسي.

في المساء، حين تأكدت من دخول أبويها للنوم، تسلّلت آبنا إلى مساكن (أوهيني نياركو). كانت زوجته (ميفيا) تغلي الماء خارج كوخها، تتعرّق من أثر البخار الصاعد من القدر ومن الهواء.

«أختي ميفيا، هل زوجك بالداخل؟». قلّبت ميفيا مقلتيها وأشارت إلى الباب.

كانت مزارع أوهيني نياركو تُثمر كل عام. مساحة قريتهم لم تكن تزيد عن أربعة أميال، ولم يكن هناك شخص يمكن أن يُسمّى زعيمًا أو كبيرًا. أرضهم ومكانتهم كانت صغيرة جدًا، ومع ذلك كان أوهيني نياركو يحظى باحترام كبير. كان رجلًا يمكن أن يبلغ مبلغًا كبيرًا، لولا أنه وُلد هنا.

قالت له آبنا: «زوجتك تكرهني».

فردّ وعيناه تبرقان شيطنةً: «تظنُّ أني ما زلتُ أضاجعك». أرادت أن تضربه.

انكمشت حين خطر لها ما حدث بينهما. كانا طفلين آنذاك، متلازمَين طوال الوقت ومشاغبَين. اكتشف أوهيني أنّ القضيب الذي بين ساقيه يفعل حركات عجيبة. وحين كان والد آبنا ووالدتها في الخارج يتسوّلان حصتهما من الطعام المخصص لكبار السن، كما يفعلان كل أسبوع، كشف أوهيني لآبنا عن تلك الحركات.

«أرأيتِ؟»، قال لها حين رأياه يرتفع بعد أن لمستْه. كلٌّ منهما رأى شيء والدِه هكذا. رآه أوهيني في تلك الأيام التي يخرج فيها أبوه من كوخ زوجةٍ إلى التالية، ورأته آبنا قبل أن يكون لها كوخها الخاص. لكنهما لم يعرفا أنّ شيء أوهيني يفعل ذلك أيضًا.

- كيف هو الإحساس؟

هزّ كتفيه وابتسم، فعرفت أنّ الإحساس جميل. لقد وُلدت لأبوين يشجّعانها على أن تقول ما يخطر ببالها، وأن تسعى إلى ما تريد، حتى وإن كان الشيء حكرًا على الأولاد. وقد أرادت هذا الشيء الآن.

قالت له وهي تتذكر ما رأتْ أبويها يفعلانه كثيرًا: «انبطح فوقي». كان الجميع في القرية يتندّرون على أبويها، ويقولان إنّ المتعوس كان أفقر من أن يستطيع الزواج بثانية، لكنّ آبنا كانتِ تعرف الحقيقة. في تلك الليالي التي كانت تنام فيها في الركن القصيّ من كوخهم الصغير متظاهرة بأنها لا تسمع شيئًا، سمعت أباها يهمس: «أكوسوا، أنتِ وحدك حبيبتي، أنتِ فقط».

قال أوهيني مرعوبًا: «لا يمكن أن نفعل ذلك إلا بعد الزفاف». جميع الأطفال سمعوا خرافات عن الذين يتضاجعون قبل الزفاف. فهناك خرافة واسعة الخيال عن الرجل الذي تحوّل قضيبه إلى شجرة وهو داخل المرأة، فأنبت فروعًا في بطنها ولم يستطع الخروج من جسدها. وهناك قصص أبسط من ذلك وأكثر صدقًا، عمّن عوقب بالنفي أو الغرامة، أو تلطّخ بالعار.

وأخيرًا في تلك الليلة استطاعت آبنا أن تقنع أوهيني. راح يتلمّس طريقه بارتباك، يرهز في مَدْخلها، إلى أن أدخله فتألّمت. يرهز داخلها، مرةً، وأخرى، ثم

لا شيء. لا تأوهات أو أنين مثل الذي كانا يسمعانه من أبيها أو أبيه. غادر المكان مثلما جاء.

في ذلك الوقت كانت هي الأقوى، هي التي لا تهتزّ، هي التي يمكنها أن تقنعه بفعل أي شيء. أما الآن فقد أخذت تحدّق فيه بكتفيه العريضين ونصف ابتسامته، وهو ينتظر منها الطلب الذي أدرك أنه معلّق على شفتيها.

«أريدك أن تأخذني إلى كوماسي». فلم يكن من الحكمة أن تسافر وحيدةً وغير متزوجة، وأبوها لن يأخذها إلى هناك.

ضحك أوهيني عاليًا. «حبيبتي، لا يمكن أن آخذك إلى كوماسي الآن. الرحلة تأخذ أكثر من أسبوعين، وقريبًا سينزل المطر. عليّ الاعتناء بمزرعتي».

«أولادك هم الذين يقومون بمعظم الأعمال». كانت تكره أن يناديها «حبيبتي»، ودائمًا بالإنجليزية مثلما علّمتْه حين كانا طفلين بعد أن سمعتها من والدها وسألتْ عن معناها. كانت تكره أن يناديها أوهيني «حبيبتي» بينما زوجته في الخارج تطبخ عشاءه، وأولاده في الخارج يعتنون بمزرعته. لم يكن يصحّ له أن يتركها نهبًا للعار كما فعل طوال السنوات الماضية، وليس الآن حين أدركت من مجرد النظر إلى حقوله أنه عما قريب سيجني ثروة كافية ليتخذ زوجة ثانية.

- آه، ولكنْ من يشرف على أولادي؟ شبح؟ لا يمكنني أن أتزوجك إذا لم تنبت اليامات.

«ما دمت لم تتزوجني حتى الآن فلن تتزوجني أبدًا». قالتها هامسة، وفوجئت بتلك الكتلة الصلبة التي تشكّلت سريعًا في حنجرتها. كانت تكره مزاحه فيما يتعلق بالزواج منها.

طقّ أوهيني بلسانه وسحبها إلى صدره. «لا تبكي. سآخذك لعاصمة الأشانتيين. طيب؟ لا تبكي يا حبيبتي».

كان أوهيني نياركو رجلًا وفيّ الوعد، ومع نهاية ذلك الأسبوع انطلق الاثنان إلى كوماسي، بلد الأسانتيهيني. كل شيء بدا جديدًا لآبنا. المساكن كانت مساكن

حقيقية، مصنوعة من الحجر، تتألف من خمسة أو ستة أكواخ، لا كوخًا أو اثنين على الأكثر. كانت الأكواخ طويلة جدًا حتى أيقظت عندها صورة العمالقة الذين كانت تحكي لها أمها عنهم في القصص. العمالقة الذين كانوا يطأطئون ليلتقطوا الأطفال الصغار من الأرض إذا تشيطنوا. تخيّلت آبنا العمالقة وهي تعيش في البلدة، يحضرون الماء، ويشعلون النار كي يطبخوا الأطفال السيئين في حسائهم.

امتدّت كوماسي أمامهما بلا نهاية. لم تذهب آبنا في حياتها إلى مكان لا تعرف أسماء كلّ من فيه. لم تذهب أبدًا إلى مزرعة لا يمكنها أن تقيسها بعينيها؛ فأراضي الأُسَر صغيرة جدًا. أما هنا فقد كانت الأراضي المزروعة كبيرة مترفة ومليئة بالرجال الذين يعملون فيها. كان الناس يبيعون بضائعهم وسط البلدة، يبيعون أشياء لم ترها من قبل، بقايا من أيام التجارة المستقرة مع البريطانيين والهولنديين.

بعد الظهيرة مشيا عند قصر الأسانتيهيني. كان طويلًا وواسعًا، فعرفت أنه قد يتسع لمئة شخص، ما بين زوجات وأطفال وعبيد وغيرهم.

قالت آبنا: «هل يمكننا رؤية الكرسي الذهبي؟». فأخذها أوهيني إلى الغرفة التي وُضع الكرسي فيها، محفوظًا خلف جدار زجاجي كي لا تقربه الأيدي.

كان هذا هو الكرسي الذي يحتوي على **السُونسوم**، الروح، أو شعب الأشانتيين. مغطى بالذهب الخالص، وقد نزل من السماء وحطّ على حِجر أول أسانتيهيني: أوسي توتو. لم يكن مسموحًا لأحد أن يجلس عليه، ولا حتى الملك نفسه. شعرت آبنا، رغمًا عنها، بوخز الدموع في عينيها. فهي قد سمعت عن هذا الكرسي طوال حياتها من كبار السنّ في القرية، لكنها لم تره بعينيها من قبل.

بعد أن انتهت من تجوالها في القصر مع أوهيني، خرجا عبر البوابات الذهبية. في ذلك الوقت نفسه دخل رجل لم يكن أكبر بكثير من والد آبنا، مؤتزرًا بالكينتي ويتوكأ على عصا. وقف هناك، محدّقًا في وجه آبنا.

سأل فيما يشبه الصراخ: «هل أنت شبح؟ أهذا أنت يا جيمس؟ قالوا إنك

مُتّ في الحرب، لكنني كنتُ أعلم أنّ هذا مستحيل!». مدّ يده اليمنى ومسّ خدها الأيمن برفق، لمسة طويلة حميمة حتى اضطُرّ أوهيني أخيرًا إلى إبعاد يده.

- أيها الرجل العجوز. ألا ترى أنها امرأة؟ لا يوجد جيمس هنا.

نفض الرجل رأسه كما لو أنه ينظّف عينيه، لكنّه حين أعاد النظر إلى آبنا مرة أخرى لم يجد سوى الحيرة. «آسف». وغادر بعَرْجته.

وما إن ذهب حتى أخذ أوهيني يدفع آبنا أمامه عبر البوابة، حتى عادا إلى صخب المدينة. دمدم قائلًا وهو يقودها من مرفقها: «ذلك الرجل العجوز ربما يكون أعور».

قالت: «اششش»، رغم أنه لا يمكن لذلك الرجل أن يسمعهما. «ذلك الرجل ربما يكون من العائلة الحاكمة». زفر أوهيني ساخرًا: «لو كان مثل هذا من العائلة الحاكمة لكنتِ أنتِ أيضًا منها». قالها وهو يضحك بصخب.

واصلا السير، وأراد أوهيني أن يشتري أدوات زراعة جديدة من بعض الناس في كوماسي قبل عودتهما، لكنّ آبنا لم تحتمل أن تضيّع الوقت مع أناس لا تعرفهم في حين يمكنها الاستمتاع بالمدينة. لذلك افترقت عنه على أن يلتقيا مرة أخرى قبل حلول الظلام.

مشت آبنا حتى بدأ الجلد الخشن في كعبيها يؤلمها، ثم توقّفت لحظةً واستظلّت بظلّ نخلة.

- لو سمحتِ، سيدتي. أودّ أن أحدثك عن المسيحية.

رفعت آبنا عينيها. كان الرجل داكن البشرة قويّ البنية، ولغته التويّة بدت لها إما مكسّرة أو عتيقة. أفسحت له، لكنها لم تستطع أن تحدّد من وجهه أيًا من القبائل التي تعرفها. «ما اسمك؟ من أي شعب أنت؟».

ابتسم الرجل وهزّ رأسه. «لا يهم اسمي ولا شعبي. تعالي معي، أريكِ ما نفعله هنا». ساورها الفضول، فذهبت معه.

أخذها إلى أرض مقطوعة، تنتظر بل تتوسل أن تُبنى، لئلا تبدو المدينة الممتدة حولها مثل حلقة مكسورة. في البداية لم تر آبنا شيئًا كثيرًا، ثم جاء

المزيد من الرجال ذوي البشرة الداكنة بوجوه لا يمكن تحديد أصلها، ومشوا إلى تلك الأرض حاملين معهم جدعات نخلٍ للجلوس. ثم ظهر رجل أبيض. كان أول رجل أبيض تراه آبنا في حياتها. ورغم أنّ الجميع كان يلمز أباها بالبياض الذي فيه، لكنه بالنسبة إليها كان مجرد صورة أفتح منها.

ها هو إذًا الرجل الذي تحدّث عنه القرويون، الرجل الذي جاء إلى ساحل الذهب بحثًا عن العبيد والذهب بأي طريقة. لا يهم أن يسرق أو يكذب، أو يعد الفانتيين بالتحالف معهم، أو يعد الأشانتيين بالسلطة. فالرجل الأبيض دائمًا يجد طريقة للحصول على ما يريد. لكنّ تجارة العبيد انتهت أخيرًا، وانتهت حربان بين الإنجليز والأشانتيين. هذا الرجل الأبيض، الذي كانوا يسمّونه «**أبرونِي**» (الشرير)، لم يعد مرحّبًا به بعد المشكلات التي تسبب بها.

مع ذلك فقد رأته آبنا، يجلس على جدعة شجرة مقطوعة، يتحدث إلى الرجال الداكنين الذين لا قبائل لهم. سألت آبنا الرجل الذي بجانبها: «من هذا؟».

- الرجل الأبيض؟ إنه المبشّر.

كان المبشّر ينظر إليها الآن، مبتسمًا ومشيرًا لهما أن يقتربا، لكنّ الشمس كانت قد بدأت في الغروب، تغطس تحت قمم النخيل التي تحدد الجانب الغربي من المدينة. وأوهيني سيكون في انتظارها الآن.

قالت وهي تبتعد: «عليّ الذهاب».

فقال لها الرجل ذو البشرة الداكنة: «لو سمحتِ». ومن خلفه قام المبشّر مستعدًا للّحاق بها. «نحن نحاول أن نبني كنائس في كل أرض الأشانتيين. ابحثي عنا لو احتجتِ إلينا في أي وقت».

أومأت آبنا، رغم أنها كانت تجري الآن. وحين وصلت إلى مكان اللقاء، كان أوهيني يشتري بعض اليامات المشوية من فتاة قرويّة. فتاة مثل آبنا، جاءت من قرية أشانتية، رجاةَ أن ترى شيئًا جديدًا لتغيير حياتها.

قال أوهيني: «ايه، أيتها المرأة الكوماسية». كانت الفتاة قد رفعت قِدر

اليامات الطينيّ الكبير على رأسها وابتعدت، فخذاها يمضيان في وتيرة متأرجحة ثابتة. «لقد تأخرتِ».

«رأيتُ رجلًا أبيض». كانت تضغط براحة يدها على جدار مسكنٍ من المساكن، في محاولة لاستجماع أنفاسها. «رجل كنيسة».

بصق أوهيني على الأرض ومصمص أسنانه. «هؤلاء الأوروبيون! لم لا يتعدون عن أرض الأشانتيين؟ ألم نهزمهم في الحرب الأخيرة؟ لا نريد منهم شيئًا! فليأخذوا دينهم للفانتيين قبل أن نقضي عليهم جميعًا».

أومأت آبنا في شرود. الرجال في قريتها كانوا كثيرًا ما يتحدثون عن صراع مستمر بين الأشانتيين والبريطانيين، وعن تعاطف الفانتيين مع هؤلاء، وأنه لا يجرؤ رجل أبيض على دخول بلادهم والقول إنهم لم يعودوا يملكونها. وهؤلاء مزارعون قرويون لم يشهدوا حربًا قط، ومعظمهم لم ير الساحل الذي أرادوا حمايته في ساحل الذهب.

في ليلة من تلك الليالي كان واحد من أكبر الرجال سنًا في قريتهم (پاپا كوابِنا) يتحدث عن تجارة العبيد. «أتدرون، كان لي ابن عم في الشمال سُرق من كوخه في منتصف الليل. تك تك تك، هكذا أُخذ، ولا نعرف من أخذه. هل أخذه مقاتل أشانتي؟ فانتي؟ لا نعرف. ولا نعرف إلى أين أخذوه».

قال أبو آبنا: «إلى القلعة»، فالتفت الجميع إليه. المتعوس. يجلس دائمًا في مؤخرة اجتماعات القرية، واضعًا ابنته على ركبتيه وكأنها ابنه. وقد سمحوا بذلك شفقةً عليه.

سأله پاپا كوابِنا: «أي قلعة؟».

- هناك قلعة على الساحل في أرض الفانتيين اسمها قلعة كيپ كوست. هناك كانوا يحتفظون بالعبيد قبل أن يأخذوهم إلى **الأبوركريه**: إلى أميركا وجامايكا. كان التجار الأشانتيون يجلبون أسراهم، فيتحفظ الوسطاء من الفانتيين أو الإيوي أو الغا عليهم، ثم يبيعونهم للبريطانيين أو الهولنديين، أو أي أحد يدفع أكثر. الكل كان مسؤولًا عما جرى. كلنا..كلنا.

أومأ الرجال جميعًا، رغم أنهم لم يكونوا يعرفون ما القلعة، وما أميركا. لكنهم لم يريدوا أن يظهروا بمظهر الأغبياء أمام المتعوس.

بصق أوهيني قطعة محروقة من اليام، ووضع يده على كتف آبنا. «أنتِ بخير؟».

- كنتُ أفكّر في أبي.

ندّت على وجهه ابتسامة. «أوه، المتعوس. تُرى ماذا سيقول لو رآكِ معي الآن هنا، هه؟ «ولده» العزيز، آبنا، يفعل شيئًا طالما منعه من فعله». وضحك. «حسنًا، هيا بنا لأعيدك إليه الآن».

تحرّكا في سرعةٍ وهدوء، مع إطارٍ كبير اشتراه أوهيني لمزرعته، كان يشقّ الطريق أمامها على أرضٍ محفوفة بأخطار لا تجرؤ آبنا على مجرد التفكير بها. ومع نهاية الأسبوع الثاني أصبح بمقدورهما رؤية خطّ الأفق البعيد فوق قريتهما الصغيرة.

قال أوهيني وهو يشير إلى بقعة أمامهما: «لم لا نرتاح هنا؟». أدركت آبنا أنّ آخرين ارتاحوا في هذا المكان من قبل. فقد تشكّل كهف صغير من حطام أشجار ساقطة.

«ألا يمكننا مواصلة السير؟». كانت قد بدأت تشتاق إلى أمها وأبيها. فهي لم تخفِ شيئًا عنهما منذ أن قالت أول كلمة في حياتها، ولم تكن تقوى على الانتظار لتخبرهم عن رحلتها، رغم معرفتها بأنّ أباها سيكون غاضبًا حتى الآن. لكنه في داخله سيودّ أن يسمعها. لم يبق من عمر أبويها قدر ما مضى، وهي تعرف أنه لم يعد لديهما وقت للضغينة.

وضع أوهيني أغراضه على الأرض. «بقي لنا يوم واحد للوصول. أنا متعب جدًا، حبيبتي».

قالت وهي تُسقط أغراضها على الأرض وتجلس في الكهف الصغير: «لا تقل هذه الكلمة».

- لكنها الحقيقة.

لم تكن تريد أن تتكلم. أرادت أن تحبس الكلمات داخل فمهما، لكنها تعبر الآن من حنجرتها وتضغط على شفتيها. «إذًا لماذا لا تتزوجني؟».

جلس أوهيني إلى جانبها. «تحدثنا عن هذا. سأتزوجك حين يأتي الحصاد الكبير. كان أبواي دائمًا يقولان لا تتزوج امرأة لا تعرف أصلها، وأنكِ لن تجلبي سوى العار لأطفالي، إن أنجبنا أطفالًا، لكنني لم أعد أخضع لكلامهما. لا يهمني ما يقوله أهل القرية. لا يهمني أنهم كانوا يرون أمك عاقرًا، إلى أن حملت بك. ولا يهمني أنك ابنة رجل بلا اسم. سوف أتزوجك فور أن تقول لي أرضي إنني جاهز للزواج منك».

لم تستطع أن تنظر إليه. تحدّق في لحاء أشجار النخيل. تلك الأشكال المعيّنة المتقاطعة. كل قطعة تختلف عن الأخرى، كل قطعة تشبه الأخرى.

وضع يده على ذقنها وأدار وجهها نحوه. «اصبري».

«صبرتُ حتى تزوجتَ زوجتك الأولى. بدأ ينحني ظهر أبي وأمي، وعما قريب سيسقطان مثل هذه الأشجار، ثم ماذا؟». دارت هواجسها، لا تدري هل هي فكرة أن تصبح وحيدة من دون أبوين، أم وحدتها الحالية. لكنها لم تستطع أن تقاوم، فبدأت الدموع تنهمر على وجهها.

وضع أوهيني يديه على خدّيها ومسح أدمعها بإبهاميه، لكنها كانت تتساقط أسرع من حركته، فاستخدم شفتيه، يقبّل الخطّ المالح الذي بدأ يتشكّل على وجنتيها.

وما لبثت أن التقت شفتاها شفتيه. لم تكن تلك الشفاه التي تتذكرها من أيام الطفولة، تلك الشفاه الرفيعة الجافة لأنه يرفض دهنها. كانت الشفاه الآن أغلظ، مثل فخٍ منصوبٍ لشفتيها، ولسانها.

وسرعان ما افترشا ظلال الكهف، نزعت آبنا مئزرها، وسمعت أوهيني يحبس أنفاسه وهو ينزع مئزره. في أول الأمر ظلا يحدّقان في بعضهما، يتشرّبان الجسدين، يقارنان الذي أمامهما بالذي عرفاه من قبل.

مسّها، فجفلت، إذْ عادت إليها ذكرى اللمسة الأولى. حين كانت مستلقية على أرضية كوخهم، تحدّق في سقف القشّ، وتتساءل إن كان في الأمر أكثر مما يجري. الألم أكثر بكثير من المتعة التي لم تفهم سبب حدوثها في كل مكان، في قريتها، في بلادها، وفي العالم كله.

والآن ثبّت أوهيني ذراعيها على الطين الأحمر الجاف. عضّت ذراعه فهَدَر، تاركًا إياها، فعانقته. كان يتصرّف كما لو أنه يعرف المشاهد التي تدور في رأسها. سمحت له أن يدخلها، وسمحت لنفسها بأن تنسى كل شيء، إلا هو.

وحين فرغا، كانا متعرّقين ومستنفذَين، يلتقطان الأنفاس. وضعت آبنا رأسها على صدره، تلك الوسادة اللاهثة، تسمع قلبه يدقّ في أذنها.

ذات مرة قضت آبنا يومًا كاملًا تحضر الماء لمزرعة أبيها. تذهب إلى النبع، تغطس دلوها، وتعود قافلة، وتفرغ الماء في الحوض. كان الوقت يقترب من حلول الظلام، ورغم كلّ الماء الذي أحضرتْه، لم يكن كافيًا. في الصباح التالي ماتت جميع النباتات، ذبلت إلى أوراق صفراء تلوّث الأرض أمام كوخهم.

كانت في الخامسة آنذاك، ولم تكن تفهم أنْ تموت الأشياء حين يحاول المرء جاهدًا أن يبقيها حية. كل ما كانت تعرفه هو أنّ والدها أخذ ينظر إلى تلك النباتات، علّه يجد تدبيرًا من السماء، وأنّ والدها في كل موسم حين يأتي القضاء المحتوم يرفع رأسه عاليًا ويبدأ من جديد. لم تره يبكي أبدًا، يرحّب بأقداره السيئة كما لو أنها فرص جديدة. لذلك بكت هذه المرة، من أجله.

وجدها في الكوخ، فجلس إلى جانبها. «لماذا تبكين؟».

قالت بين نشْجةٍ وأخرى: «النباتات..كلها ماتت. وكنت أستطيع مساعدتها!» .

- آبنا. ما الذي كنتِ ستفعلينه غير ما فعلتِه لو كنتِ تعلمين أن النباتات سوف تموت؟

فكّرت لحظة، ومسحت أنفها بظاهر كفها. «كنتُ سأجلب المزيد من الماء».

هزّ والدها رأسه. «إذًا، في المرة القادمة أحضري المزيد من الماء، ولكن لا تبكي على هذه المرة. لا ينبغي أن يكون في حياتك متسع للندم. إن كنتِ شعرتِ في لحظة الفعل بصفاء الرؤية، والثقة، فلماذا بعد ذلك تشعرين بالندم؟».

كانت تهزّ رأسها وهو يتحدث رغم أنها لم تفهم ما يقول، فقد كانت تعرف حتى في ذلك السنّ أنّ كلامه كان موجهًا لنفسه أكثر منه إليها.

أما الآن، ورأسها يتحرك في إيقاع مع أنفاس أوهيني ودقات قلبه، والعرق المتمازج يتقطّر بينهما، فقد تذكّرت تلك الكلمات جيدًا، ولم تندم على شيء.

***

ذلك العام الذي زارت فيه آبنا كوماسي، كان عامًا مجدبًا للجميع في قريتها. وكذلك العام الذي يليه، ولأربعة أعوام بعدها. بدأ أهل القرية يرحلون. بعضهم بلغ به اليأس أن يرحل إلى الشمال المخيف، عابرًا بحيرة ڤولتا، بحثًا عن أرضٍ لا مالك لها، عن أرضٍ لم تخذله.

شاخ والد آبنا، ولم يعد ظهره مستقيمًا ولا يداه ثابتتين. لم يعد يقوى على الزراعة، فانتقل الأمر إلى آبنا، عاجزة أمام الأرض التالفة التي تلفظ الموت عامًا بعد عام. أمسك أهل القرية عن الطعام، وقالوا إنها كفّارة، لكنهم يعلمون أنه خيارهم الوحيد.

حتى أراضي أوهيني نياركو التي كانت ذات يوم وافرة أصبحت جدباء. ولم يعد وعده بالزواج من آبنا بعد المحصول الكبير واردًا.

غير أنهما كانا يلتقيان باستمرار. في العام الأول، قبل أن يعرفا نتيجة المحصول، كانت لقاءاتهما مفضوحة. كانت أمها تقول لها في الصباح بعد أن يتسلل أوهيني من كوخها: «احذري يا آبنا. هذا نذير شؤم». لكّنها لم تهتم. ماذا إن عرف الناس؟ ماذا إن حملت؟ عمّا قريب ستصبح زوجة أوهيني، لا صديقته القديمة التي أصبحت عشيقته.

لكنّ نباتاته هي أول ما فسد. حار الناس في سبب ذلك. ولما ماتت

نباتاتهم قالوا لا بدّ أنّ ثمة ساحرة بينهم. هل تأخرت المصائب التي اعتقدوا أنّ المتعوس سيجلبها عليهم؟ كان أول من رأى أوهيني خارجًا من كوخ آبنا في العام الثاني امرأةٌ اسمها (آبا).

«إنها آبنا». هكذا صاحت في اجتماع القرية، بين كبار السنّ الذين ملؤوا المكان، ويدها قابضة على صدرها الجائش. «لقد أتت بالشرّ إلى أوهيني نياركو، وها هو الشرّ ينتشر إلينا جميعًا».

استمع الكبار إلى أوهيني وآبنا، وبعد ذلك ظلوا يتجادلون ثماني ساعات. كان مقنعًا بالنسبة إليهم أن يعد أوهيني بالزواج منها بعد محصولٍ جيد، لكنهم لم يستطيعوا السماح بأن يمرّ الزنا هكذا من دون عقاب، خوفًا من أن يكبر الأطفال وهم يعتقدون أنه شيء مقبول، وخوفًا من أن يستمرّ أهل الخرافة بينهم في تحميل آبنا مسؤولية ما يحدث للأرض. كل ما كانوا متأكدين منه هو أنّ آبنا جدباء مثل الأرض نفسها، وأنهم لو طردوها من القرية الآن فسوف يغضب أوهيني ويمتنع عن مساعدتهم لإصلاح الأرض. وفي النهاية توصلوا إلى قرار أعلنوه للجميع. تخرج آبنا من القرية إذا حبلت، أو مرّت سبع سنوات من الجدب. أما إذا أثمرت الأرض قبل أيٍ من الأمرين، يسمحون لها بالبقاء.

في اليوم الثالث من سنة الجدب السادسة سألت آبنا زوجة أوهيني: «هل زوجك في البيت؟». كانت السماء تمطر حولها وهي في طريقها القصير، لكنها توقفت الآن حين وصلت.

لم تلتفت ميفيا إليها ولم تتحدث. بل إنها لم تتحدث إلى آبنا منذ الليلة التي تشاجرت فيها مع زوجها، متوسلةً إياه أن يُنهي علاقته بآبنا، أن يضع حدًا للعار الذي يجلبه على أسرته، لكنه قال إنه لن يخلف وعده. مع ذلك حاولت آبنا أن تتصرف بلطافة قدر استطاعتها.

طالت لحظة الصمت بينهما، وغدا الموقف ثقيلًا لا يُطاق، فذهبت آبنا إلى كوخ أوهيني. وجدتْه يحزم أشياء في كيسٍ صغير من قماش الكينتي.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى أوسو. يقولون إنّ شخصًا أحضر نبتة جديدة. يقال إنها ستنبت جيدًا هنا.

- وماذا أفعل وأنت في أوسو؟ ربما يطردونني بمجرد أن تذهب.

أنزل أوهيني أغراضه، ورفع آبنا بذراعيه لتكون في مستوى وجهه. «عندها عليهم أن يواجهوني حين أعود».

أنزلها. وفي الخارج كان أطفاله يقطفون اللحاء من أشجار التوبيبا، كي يصنعوا منها قصبات للمضغ يأخذونها إلى كوماسي فيبيعونها مقابل الطعام. كانت آبنا تعلم أنّ أوهيني يشعر بالخزي، ليس لأنّ أطفاله وجدوا شيئًا مفيدًا يفعلونه، بل لأنهم يفعلون ذلك من عجزه عن إطعامهم.

طارحها الغرام على عجل، وما لبث أن انطلق في رحلته. عادت آبنا إلى البيت فوجدت أبويها يجلسان أمام النار يحمّصان بعض الفول السوداني.

- يقول أوهيني نياركو إنّ هناك نبتة جديدة في أوسو تنمو جيدًا جدًا. ذهب للحصول عليها وسوف يحضرها إلينا.

هزّت الأم رأسها، فيما هزّ الأب كتفيه. كانت آبنا تعلم أنها ألحقت العار بهما. وحين انتشر الخبر عن قرار نفيها ذهب أبواها إلى الكبراء للتفاهم معهم، لكي يعيدوا النظر. كان المتعوس آنذاك، ولا يزال، الشيخ الأكبر سنًا في القرية. كان يستحق الاحترام لسنّه، حتى وإن لم يُسمح له بأن يكون من الكبراء لأنّ أصوله ليست من هذه القرية. قال لهم الشيخ: «ليس لنا إلا هذه البنت الوحيدة»، لكنّ الكبراء أشاحوا عنه.

على العشاء في تلك الليلة قالت لها أمها وهي تنثر أدمعها في يديها، قبل أن ترفعهما إلى السماء: «ماذا فعلتِ؟ ما الذي فعلتُه كي أستحق هذه الطفلة؟».

كانت قد مرّت سنتان فقط من سنوات الجدب، وراحت آبنا تؤكد لهما أنّ النباتات سوف تنمو، وأنّ أوهيني سوف يتزوجها. عزاؤهما الوحيد هو أنّ آبنا تبدو كما لو أنها ورثت جَدب أمها، أو ربما لعنة أبيها الشيخ، أو شيئًا آخر كان

يمنعها من الحمل.

قال الشيخ: «لا شيء سينمو هنا. هذه القرية انتهت. لا أحد يستطيع الاستمرار في العيش هكذا. لا أحد يمكنه أن يتحمّل سنة أخرى لا يأكل سوى الفول السوداني ولحاء الشجر. يظنّون أنهم ينفونك أنتِ فقط، في حين أنّ الأرض قد حكمت علينا جميعًا بالنفي. سوف ترين. إنها مسألة وقت فقط».

عاد أوهيني بعد أسبوع ببذور جديدة. كان اسم النبتة «كاكاو»، وقد أخبرهم أنها ستغيّر كل شيء. قال لهم إنّ شعب الأكوابِم في المنطقة الشرقية يحصدون الآن ثمار النبتة الجديدة، يبيعونها للرجل الأبيض في الخارج بأسعارٍ تذكّر بأيام التجارة القديمة.

«لا تتخيلون كم كلّفتني هذه البذور الصغيرة!». هكذا قال وهو يمسك بها في راحته، لكي يراها الجميع ويلمسها ويشمّها. «لكنها مجدية. صدقوني. سيضطرون إلى التوقف عن تسميتنا ساحل الذهب، ويقولون ساحل الكاكاو».

وكان على حق. ففي غضون أشهر قليلة نمت أشجار الكاكاو، حاملةً ثمارها باللون الذهبي والأخضر والبرتقالي. لم يكن أهل القرية قد رؤوا شيئًا كهذا من قبل، واستبدّ بهم الفضول، متعطشين إلى لمس القرون وفتحها قبل نضجها، حتى أنّ أوهيني وأولاده اضطُروا إلى النوم في الخارج لحراستها. وحين يطردهم أولاده أو يصرخ هو عليهم، يتساءلون: «ولكن هل هذه ستطعمنا؟».

قلّت لقاءات آبنا وأوهيني في تلك الأشهر القليلة الأولى من زراعته أشجار الكاكاو، لكنّ هذا الغياب طمأنها. فكلما ازداد عمله في المزرعة، اقترب الحصاد المثمر، وكلما اقترب هذا الحصاد، اقترب زواجهما. وفي تلك الأيام التي التقته فيها كان لا يتحدث إلا عن الكاكاو والكلفة التي تكبّدها. كانت يداه تنضحان بتلك الرائحة الجديدة، رائحة حلوة قوية ترابية، تظلّ آبنا بعد ذهابه تشمّها في الأماكن التي لمسها، حتى في الدائرتين الداكنتين حول حلمتيها، أو خلف أذنيها. كان تأثير النبتة فيها كلها.

أخيرًا، أعلن أوهيني أنّ الوقت قد حان للحصاد. جاء الرجال والنساء من أهل القرية يفعلون ما يقوله أوهيني لهم، مثلما علّمه المزارعون في المنطقة الشرقية. كسروا ثمرة الكاكاو فوجدوا اللبّ الأبيض الحلو يحيط بحبات أرجوانية صغيرة، فوضعوا الحبوب على أوراق الموز، ثم غطّوها بأوراق أكثر. وبعد ذلك طلب منهم أوهيني العودة إلى بيوتهم.

تهامس أهل القرية وهم عائدون إلى بيوتهم: «لا يمكن أن نعتاش على هذا». بعض الأسر بدأت تحزم أشياءها، إذْ لم يروا في قرون الكاكاو ما يشجّعهم على البقاء. غير أنّ البقية عادوا بعد خمسة أيام لنشر الحبوب المتخمّرة تحت الشمس لتجفّ. تبرّع الجميع بأكياس الكينتي، وما إن جفّت الحبوب حتى وضعوها في تلك الأكياس.

«والآن؟». أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر بينما كان أوهيني يضع الأكياس في كوخه.

ثم خرج عليهم وقال: «الآن نرتاح. غدًا أذهب إلى السوق وأبيع ما يمكنني بيعه».

بات ليلته تلك في كوخ آبنا، في صفاقةٍ وعلى الملأ كما لو أنهما متزوجان منذ أربعين سنة أو يزيد، وهذا ما أعطاها أملًا في قرب زواجهما. لكنّ الرجل الذي بجانبها الآن لم يكن ذلك الرجل الواثق الذي وعد القرية بأكملها بالخلاص. هذا الرجل، الذي تعرفه منذ أن كانا طفلين لا يغطيان فرجَيهما بقماش، إلى جانبها الآن يرتعش.

سألها ورأسه مدفون في صدرها: «ماذا لو لم ينجح الأمر؟ ماذا لو لم أستطع بيعها؟».

- اشش، لا تقل هذا. سوف تُباع. لا بد أن تُباع.

لكنه ظلّ يبكي ويرتعش، حتى أنها لم تسمعه حين قال: «خائف من هذا أيضًا». ولم تكن لتفهمه حتى لو سمعته.

حين استيقظت في الصباح كان قد رحل. وجد أهل القرية معزاة صغيرة

هزيلة فذبحوها استعدادًا لعودته، وطبخوا لحمها الصلب يومًا بعد يوم، على أمل أن يصبح ليّنًا. أما الأطفال الصغار الذين يرون في أنفسهم السرعة والخفة والذكاء، فكانوا يحاولون أن يخطفوا قطعًا صغيرة شبه مطبوخة حين تبتعد أنظار الأمهات، لكنّ النساء مولودات بحاسّة سادسة ترصد شيطنات الأطفال. فأخذن يضربنهم ثم يشددْنهم من معاصمهم ويضعونهم فوق النار حتى يبكون ويحلفون أن يتأدبوا.

لم يعد أوهيني نياركو تلك الليلة، ولا الليلة التالية. جاء في عصر اليوم الثالث، يسحب أربع معزات سمان حرونة، تثغو كما لو أنها كانت تشمّ نصل السكاكين التي ستذبحها. أما الأكياس التي أخذها معه، تلك المملوءة بحبات الكاكاو، فقد عادت مليئة باليامات وجوز الكولا، وبعضٍ من زيت النخيل الطازج، وكثير من نبيذ النخل.

أقام أهل القرية حفلًا لم يقيموا مثله منذ سنوات، بين رقصٍ وصخبٍ ونهودٍ عارية مهتزّة. رقص الكبار والكبيرات رقصة «الأدوا»، يهزّون خواصرهم ويرفعون أياديهم للأعلى ثم ينزلونها، كما لو أنهم يستعدون لاستلام شيء من الأرض، ثم يعطونها.

كانت بطونهم قد ضمرت، كما يبدو، وسرعان ما شبعوا. فملؤوا فراغات بطونهم بنبيذ النخل الحلو.

وكان المتعوس وأكوسوا سعيدَين للغاية بانقضاء أعوام الجدب، فوقفا ملتصقين ينظران إلى الآخرين يرقصون، وإلى الأطفال يطبّلون على بطونهم الممتلئة مع أنغام الموسيقى.

وفي وسط هذا الحفل، تطلّعت آبنا إلى أوهيني وهو يراقب أهل القرية التي يحبوّنها حبًا شديدًا، ووجهه ممتلئ بالفخر، وشيءٍ آخر لم تتبيّنه.

اقتربت منه. «أحسنت». كان قد آثر الابتعاد عنها طوال تلك الليلة، فخطر لها أنّه لم يرغب في إثارة الانتباه إليهما في وسط الحفل، ولم يرغب أن يبدأ أهل القرية يفكرون في معنى ما حدث بالنسبة لنفي آبنا. لكنّ المعنى هو

الشيء الوحيد الذي كانت آبنا تستطيع التفكير فيه. لم تكن قد أخبرت أحدًا بعد بأنّ دمها قد تأخر أربعة أيام. ورغم أنه تأخر أربعة أيام من قبل، وخطر لها أنّ الأمر قد يتكرر ذات يوم، لكنها كانت تتساءل في نفسها عما إذا كانت هذه المرة هي **المرة**.

كانت تريد أن يقوم أوهيني ويصرخ من أسقف البيوت أنه يحبها. أن يقول لها: الآن وقد أكلت القرية واحتفلت، سأتزوج. اليوم، وليس غدًا. هذا اليوم. وهذا الحفل سيكون لنا.

لكنه قال: «أهلًا آبنا. هل أكلتِ ما يكفي؟».

- نعم، شكرًا.

أومأ لها، وشرب من قَرعةٍ نبيذَ النخل.

قالت وهي تمدّ يدها إلى كتفه: «أحسنتَ يا أوهيني»، غير أنّ يدها لم تطل شيئًا سوى الهواء. عيناه لا تحطّ على عينيها. قالت وهي تتراجع: «لماذا تحركت؟».

- ما بك؟

- لا تقل «ما بك» وكأنني مجنونة. حاولتُ أن ألمسك فتحرّكت.

- أخفضي صوتك يا آبنا. لا تفرّجي الناس علينا.

لم تفرّج الناس عليهما. لكنها استدارت وبدأت تمشي، أمام الراقصين، أمام والديها، وتبكي، إلى أن وصلت إلى أرضية كوخها فانبطحت عليها. يدها تقبض على قلبها، والأخرى تقبض على بطنها.

على هذه الحال وجدها الكبراء في اليوم التالي حين جاؤوا يخبرونها أنّ بإمكانها البقاء في القرية. سنوات الجدب قد انتهت قبل السنة السابعة من الزنا، وهي لم تحمل بعد. وقالوا أيضًا إنّ حصاد أوهيني كان مثمرًا جدًا، وبإمكانه أخيرًا الوفاء بوعده.

قالت آبنا من مكانها على الأرض: «لن يتزوجني»، وأخذت تتقلب يمنة

ويسرة، يدها على بطنها، والأخرى على قلبها، على المكانين اللذين يؤلمانها.

حكّ الكبراء رؤوسهم وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض. هل فقدت عقلها بعد كل تلك السنوات من الانتظار؟

- ماذا تقصدين؟

وكرّرت لهم: «لن يتزوجني»، ثم استدارت، ولم تقدّم لهم سوى ظهرها.

هرع الكبراء إلى كوخ أوهيني نياركو. كان قد بدأ يعدّ للموسم التالي، يجهّز البذور ويقسّمها لكي يعطي حصةً للمزارعين الآخرين في القرية.

«إذًا فقد أخبرتُكم». لم يرفع عينيه لينظر إليهم، واستمرّ في عمله. كومةٌ لأسرة ساربونغ، كومةٌ لأسرة جسي، كومة لأسرة أساري، وأخرى لأسرة كانكام.

- ما الحكاية يا أوهيني؟

كان قد جهّز جميع الكومات، وفي العصر سيأتي ربّ كل أسرة ليأخذ حصته وينثرها في أرضه الصغيرة، في انتظار الأشجار الجديدة الغريبة التي ستنمو وتزهر، فتستعيد القرية ما كانت عليه، أو أكثر.

- لكي أحصل على نباتات الكاكاو، اضطُررت إلى أن أقطع وعدًا لرجلٍ في أوسو بأن أتزوج ابنته. والآن عليّ أن أستخدم ما تبقى من تجارتي في الكاكاو لدفع مهرها. لا يمكنني أن أتزوج آبنا هذا الموسم. عليها أن تنتظر.

في كوخها، نهضت آبنا أخيرًا عن الأرض الصلبة ونفضت الغبار عن ركبتيها وظهرها. كانت تعرف أنها لن تنتظر.

- أنا راحلة أيها الرجل العجوز. لا يمكن أن أبقى هنا وأُستغفل. لقد عانيتُ بما فيه الكفاية.

سدّ أبوها باب الكوخ بجسده. كان كبيرًا جدًا، واهنًا جدًا، وكانت تعلم أنها لو لمسته سيسقط، ويفسح لها الطريق، فتمضي.

- لا يمكنكِ الرحيل بعد. ليس بعد.

وببطءٍ تراجع عن الباب، ليرى ما إذا كانت ستبقى. وإذْ لم تتحرك من مكانها، التقط مجرفته ومضى إلى بقعةٍ في أرضه، وبدأ يحفر.

«ماذا تفعل؟». كان المتعوس ينضح عرقًا. يتحرّك ببطءٍ شديد، فأشفقت آبنا عليه. أخذت المجرفة من يده وبدأت تحفر. «عمّ تبحث؟».

نزل أبوها على ركبتيه، وبدأ يحثو التراب بكلتا يديه، يمسكه هنيهة، ثم يتركه ينساب من بين أصابعه. وحين توقف، كان الذي بقي في راحة يده قلادة من الحجر الأسود.

نزلت آبنا إلى جواره ونظرت إلى القلادة. كانت تلمع ذهبًا، باردة الملمس.

نفخ بصوتٍ عالٍ، محاولًا أن يستجمع أنفاسه. «هذه قلادة جدّتي، جدّتك الكبيرة إفيا، أخذتها من أمها».

كرّرت آبنا خلفه: «إفيا». كانت أول مرة تسمع فيها اسم أحد من أسلافها. فتذوّقت طعم الاسم على لسانها، وكانت تريد أن تقوله مرة تلو المرة. إفيا. إفيا.

- كان أبي تاجر عبيد غنيًا جدًا. وحين قرّرتُ أن أترك أرض الفانتيين، فلأنني لم أشأ أن أشترك في ذلك العمل الذي قامت به عائلتي. كنتُ أريد أن أعمل لنفسي. نعم، يسمّيني أهل القرية هؤلاء «المتعوس»، لكنني في كل موسم أشعر بأنني محظوظ بهذه الأرض التي أملكها، بأنني أعمل هذا العمل الشريف وليس العمل المخزي الذي تتخذه عائلتي. حين أعطاني أهل القرية قطعة الأرض الصغيرة هذه، فرحتُ كثيرًا حتى أنني دفنتُ هذا الحجر هنا لأقدّم شكري.

«لن أوقفكِ إن أردتِ الذهاب، ولكن أرجوكِ خذيها معك. علّها تساعدك كما ساعدتني».

ارتدت آبنا القلادة وعانقت والدها. كانت أمها عند الباب تراقبهما. فخرجت آبنا من الحفرة وعانقتها.

في اليوم التالي انطلقت آبنا إلى كوماسي، وحين وصلت إلى كنيسة المبشّر هناك، لمست الحجر الأسود في رقبتها، وشَكَرت أسلافها.

الجزء الثاني

اتش

ما كان لهم أن يصرعوا (اتش) أرضًا إلا بثلاثة أفرادٍ من رجال الشرطة، وأربعةٍ منهم كي يضعوا الأغلال في يديه.

صاح حين أدخلوه الزنزانة: «لم أفعل شيئًا»، لكنّ كلامه لم يصل إلا إلى الهواء الذي تركوه خلفهم. لم ير قطّ أناسًا يغادرون بهذه السرعة، فأدرك أنه أخافهم.

هزّ القضبان بيديه، واثقًا أنه يستطيع ثنيها أو كسرها لو أنه حاول.

قال رفيقه في الزنزانة: «كفّ وإلا قتلوك».

تذكّر أنه رأى الرجل في البلدة. ربما اشترك معه في العمل في إحدى المزارع.

«لا يقدر أحدٌ أن يقتلني». كان لا يزال يضغط على القضبان، فيتناهى إليه صوت المعدن وقد بدأ يخضع بين أصابعه. بعدها شعر بيد رفيقه على كتفه. استدار اتش بسرعة، فلم يجد الآخر وقتًا للتحرّك أو التفكير قبل أن يرفعه اتش من حلقه. كان اتش يربو على الستة أقدام، وحين رفع الرجل عاليًا كاد رأسه يمسّ السقف. لو رفعه أكثر من ذلك، فسوف يكسره. «لا تلمسني مرة أخرى».

قال الرجل وكلماته تخرج ضعيفة بطيئة: «تحسبُ أنّ هؤلاء البيض لن يقتلوك؟».

«وماذا فعلت؟». أنزلَ الرجل إلى الأرض، فجلس هذا على ركبتيه يلهث

طويلًا.

- يقولون إنك كنت تلهو مع امرأة بيضاء.

- من يقول؟

- الشرطة. سمعتهم يتكلمون عن ماذا سيقولون قبل أن يخرجوا لإحضارك.

جلس اتش إلى جانبه. «يقولون كنت أتكلم مع من؟».

- كورا هوبز.

قال اتش وقد اشتعل غضبه مجددًا: «لم أكن ألهو مع أي فتاة اسمها هوبز». لئن كانت هناك إشاعات عنه وعن امرأة بيضاء، لفضّل أن تكون امرأةً أجمل من ابنة رئيسه السابق في المزرعة.

نظر إليه رفيقه بنظرة مليئة بالغل، حتى أنّ اتش فجأةً غدا خائفًا من هذا الرجل الأصغر حجمًا والأكبر سنًا: «يا ولد، انظر لنفسك. ليس مهمًا فعلتَ أم لم تفعل. كلّ ما يحتاجون إليه هو أن يقولوا أنك فعلت. لا أحد يريد أن يرى رجلًا أسود بمنظرك يمشي مختالًا مثل الطاووس، وكأنه لا توجد فيك ذرة خوف». أسند رأسه إلى جدار الزنزانة وأغمض عينه لحظة ثم قال: «كم كان عمرك حين انتهت الحرب؟».

حاول اتش أن يحسب، لكنه لم يكن يجيد الحساب أبدًا. وكانت الحرب الأهلية طويلة جدًا فصارت الأرقام أكبر مما يستطيع اتش حسابها. «لا أدري. ربما ثلاثة عشر».

- ممم، أكيد. كنتَ صغيرًا. العبوديةُ مجرد نقطةٍ في عينك، هه؟ اسمع مني. الحرب ربما انتهت، لكنّ العبودية لا.

أغمض الرجل عينيه مرة أخرى وترك رأسه يميل على الجدار يمنة ويسرة. بدا متعبًا، ففكّر اتش في المدة التي قد قضاها في تلك الزنزانة.

قال أخيرًا في ما يشبه عربون الصداقة: «اسمي اتش».

قال رفيقه دون أن يفتح عينيه: «لا يبدو اتش اسمًا».

- هذا الذي عندي.

وما لبث أن استسلم الرجل للنوم. ظل اتش يستمع إليه يشخّر، وصدره يعلو ويهبط. في اليوم الذي انتهت فيه الحرب، غادر اتش مزرعة سيده القديم وبدأ السير نحو «جورجيا» ثم «ألاباما». كان يبحث عن مناظر وأصوات جديدة، تناسب حريته الجديدة. كان سعيدًا جدًا بحريّته، وكل الذين يعرفهم كانوا سعداء بحريتهم. غير أنها لم تدم طويلًا.

قضى اتش أربعة أيام في سجن المقاطعة. في اليوم الثاني أخذ الحراس رفيقه. ولا يعرف إلى أين أخذوه. وحين عادوا لاتش، لم يقل له الحرّاس ما تهمته. قالوا له فقط أنّ عليه دفع غرامة قيمتها عشرة دولارات تلك الليلة.

قال اتش: «كل الذي أملكه خمسة دولارات». لقد ظلّ يدّخر هذا المبلغ عشر سنوات من عمله في نظام الزراعة بالمحاصصة.

قال له نائب الضابط وهو يمضي إلى الشخص التالي: «ربما تساعدك أسرتك». فقال اتش دون أن يسمعه أحد: «لا أُسرة عندي». لقد سار اتش بمفرده من «جورجيا» إلى «ألاباما». كان معتادًا على أن يكون وحيدًا، غير أنّ «ألاباما» غيّرت وحدة اتش إلى ما يشبه الوجود المحسوس. كان يستطيع أن يمسك بها حين يأوي إلى فراشه ليلًا. كانت في مقبض مجرفته، في كرات القطن المتطايرة.

كان اتش يبلغ الثامنة عشرة حين التقى فَتاته (إيثي). في ذلك الوقت أوتي بسطةً في الجسم، فلم يجرؤ أحد على منازعته. إذا دخل مكانًا سارع الرجال والنساء إلى الخروج مفسحين له المكان. لكنّ إيثي كانت دائمًا تبقى في مكانها. كانت المرأة الأكثر صلابة في من رآهن في حياته، وعلاقته بها كانت أطول علاقة أقامها مع أي إنسان. كان سيطلب منها المساعدة الآن، لولا أنها لم تتحدث معه منذ ذلك اليوم الذي ناداها فيه باسم امرأة أخرى. أخطأ حين خانها، وأخطأ أكثر حين كذب عليها. لم يكن يستطيع أن يتصل بها الآن، لا سيما مع شعوره بالخزي. كان قد سمع عن نساء سوداوات يأتين إلى السجن بحثًا عن أبنائهنّ

وأزواجهنّ، فيؤخذن إلى غرفة خلفية ويُقال لهنّ إنّ ثمة طرقًا أخرى لدفع الغرامة. طرد اتش هذه الفكرة من رأسه. من الأفضل لإيثي أن يبتعد عنها.

مع شروق الشمس في يوم قائظ جدًا من أيام تموز/يوليو عام 1880، كان اتش مقيدًا بالأغلال مع عشرة أشخاص آخرين، مُباعين إلى ولاية «ألاباما» للعمل في مناجم الفحم خارج «بيرمنغهام».

صاح رئيس المنجم: «التالي!»، فدفع نائب الضابط اتش أمامه. كان يراقبهم وهم يتفحصون كل واحدٍ من العشرة المربوطين معه في الأغلال طيلة رحلة القطار. لم يكونوا جميعًا رجالًا، بل رأى اتش فيهم صبيًا لا يبلغ أكثر من اثنتي عشرة سنة، يرتعش في زاوية القطار. حين دفعوا بالصبيّ أمام رئيس المنجم تبّول على نفسه، والدموع تنهمر على وجهه، إلى أن بدا وكأنه هو نفسه سوف يذوب إلى بركة ماء عند قدميه. كان الصبيّ صغيرًا جدًا، وربما لم ير في حياته سوطًا مثل ذلك الذي وضعه رئيس المنجم فوق مكتبه. ربما سمع عن هذه الأسواط فقط في القصص الكابوسية التي سمعها من والديه.

«رجل ضخم، هه؟». قالها نائب الضابط وهو يعصر كتفي اتش كي يرى الرئيس بنفسه قدر صلابتهما. كان اتش أطول الرجال وأقواهم هناك. كان طيلة الرحلة في القطار يحاول أن يجد طريقةً لكسر أغلاله.

صفّر الرئيس، ثم قام من كرسيه ودار حول اتش. أمسك ذراعه، فاندفع اتش ناحيته لولا أن أوقفتْه أغلاله. لم يستطع أن يكسر أغلاله، لكنه يعلم جيدًا أنّه لو طاوعته الأغلال قليلًا فلن يأخذ الأمر أكثر من ثانية واحدة ليكسر رقبة الرئيس.

قال هذا: «اووهووو! يبدو أننا نحتاج إلى تعليم هذا آداب التصرف. كم تريد له؟».

قال نائب الضابط: «عشرين دولارًا في الشهر».

- أنت تعلم أننا لا ندفع أكثر من ثمانية عشر دولارًا، حتى للفئة الأولى.

- قلتَ بنفسك إنه ضخم. أراهن أنه سيستمر معك. لن يموت في المناجم كالآخرين.

صاح اتش: «أنت وهو، ليس من حقكما فعل ذلك. أنا حرّ. أنا إنسان حرّ!».

«اسمع!». قال الرئيس، وهو ينظر إلى اتش بتركيز ويسحب سكينًا من داخل معطفه. بدأ يشحذها على حجر كان يحتفظ به على مكتبه. «لا يوجد شيء اسمه زنجيّ حرّ». خطا ببطء نحو اتش، ومدّ السكين الحادة إلى رقبته كي يشعر اتش بحدّها البارد المحزّز، متلهفًا لاختراق الجلد.

استدار الرئيس إلى نائب الضابط. «سنعطيك تسعة عشر». ثم مرّر طرف السكّين ببطء على رقبة اتش، فظهر خطّ رفيع من الدم، خط مستقيم تمامًا، وكأنّ الرئيس يضع خطًا تحت كلماته. «قد يكون ضخمًا، لكنه ينزف دمًا، مثل البقية».

لم يخطر في بال اتش أبدًا خلال تلك السنوات العديدة التي عمل فيها في المزارع أنّ ثمة شيئًا تحت الأرض غير التراب والماء والحشرات والجذور. أما الآن فقد رأى أنّ هناك مدينة كاملة تحت الأرض. مدينة أكبر وأكثر امتدادًا من أيّ مقاطعة عاش أو عمل فيها. وهذه المدينة يكاد يكون جميع سكّانها من الرجال والصبية السود. شوارعها مَهَاوٍ، وبيوتها حُجُرات. في كل حجرة، وكل مكان، كان هناك فحم.

الأرطال الألف الأولى من الفحم هي الأصعب في جرفها. كان اتش يقضي ساعات، بل أيامًا كاملة جاثيًا على ركبتيه. وبانتهاء الشهر الأول أصبحت المجرفة كما لو أنها امتداد لذراعه، بل إنّ ظهره بدأ يتموّج حول عظام كتفيه، ينمو أكثر كما يبدو لكي يفسح مكانًا للوزن الجديد.

يُنزَل اتش وآخرون بأذرعهم المجرفيّة حوالي ستمئة وخمسين قدمًا في المهوى، إلى داخل المنجم. وما إن يصلوا إلى المدينة تحت الأرض حتى يبدؤون الترحال ثلاثة أميال أو خمسة أو سبعة إلى جدار المنجم، حيث يعملون هناك

إلى نهاية اليوم. ورغم ضخامة اتش، فإنه كان رشيق الحركة. يستطيع الانبطاح على جانبيه والتسلّق على الفتحات والشقوق، والزحف على يديه وركبتيه في الأنفاق حتى يصل إلى الحجرة المطلوبة.

وما إن يصل إلى الحجرة حتى يجرف ألفًا وأربعمئة رطل من الفحم وهو زاحف على ركبتيه وبطنه وجنبيه. حين يغادر المنجم هو والآخرون يكونون دائمًا مكسوّين بطبقة من الغبار الأسود، وأذرعتهم محترقة. كان يخطر لاتش أحيانًا أنّ ذلك الألم الحارق قد يشعل الفحم فيموتون هناك جميعًا، من الألم. لكنه كان يعرف أنّ ما يقتل الرجال في المنجم شيئًا آخر غير الألم. لقد رأى أكثر من مرة حارس السجن يضرب عاملًا لأنه لم يُكمل حصته من أطنان الفحم العشرة. وذات يوم رأى رجلًا من الفئة الثالثة يجرف 11,829 رطلًا من الفحم، وَزَنها رئيس المنجم في نهاية اليوم، وحين وجد أنها ناقصة 171 رطلًا أمر الرجل أن يرفع يديه عاليًا على جدار الكهف، ثم أخذ يجلده إلى أن مات. لم يحرّك الحرّاس البيض جثّته، لا تلك الليلة ولا في اليوم التالي، تاركين الغبار يغطّي جسده، تحذيرًا للسجناء الآخرين. في مرات أخرى كانت حفيرات المنجم تتهدم فتدفن السجناء أحياء. ومرّات أخرى كثيرة جدًا كانت انفجارات الغبار تقضي على مئات من الرجال والصبيان. قد يعمل اتش قرب رجل كان مقيّدا إليه في الليلة السابقة، فيموت الرجل في اليوم التالي لسببٍ لا يعلمه أحد.

كان في ما مضى يحلم بالانتقال إلى «بيرمنغهام»، فقد عمل في مزارع المحاصصة منذ انتهاء الحرب، وسمع أنّ «بيرمنغهام» هي المكان الذي يستطيع فيه الرجل الأسود أن يبني حياته. كان يريد الانتقال إلى هناك ليبدأ حياته أخيرًا. ولكنْ أي حياة هذه؟ على الأقل حين كان عبدًا كان سيده يحرص على حياته كي يحقق ربحه. أما لو مات اتش الآن، فسوف يستأجرون سجينًا غيره. البغل هنا أعلى قيمة منه.

بالكاد يتذكر أيام حرّيته، ولم يستطع أن يحدّد ما إذا كان الشيء الذي يفتقده هو الحرية أم القدرة على التذكر. في بعض الأحيان يعود إلى مهجع النوم

الذي يشترك فيه مع أكثر من خمسين رجلًا، وجميعهم مقيّدون بعضهم إلى بعض على أسرّة خشبية كي لا يستطيعون الحركة وهم نائمون إلا إذا تحركوا جميعًا، يحاول أن يتذكّر التذكّر. يجبر نفسه على التفكير في كل الأشياء التي لا يزال عقله قادرًا على استدعائها: غالبًا إيثي. جسمها الممتلئ، والنظرة في عينيها حين ناداها باسم امرأة أخرى، كيف كان خائفًا من أن يخسرها، كيف كان آسفًا. في بعض الأحيان حين ينام كانت الأصفاد تحتكّ بكاحليه، على نحوٍ يذكّره بيدَي إيثي في ذلك المكان، فيتعجّب دائمًا أن يذكّره المعدنُ بملمس الجلد.

كان كل السجناء الذين يعملون في المناجم تقريبًا مثله. سود، عبيد سابقون، أحرار سابقون، عبيد مرة أخرى. هناك (تِمُثي) المقيّد إلى اتش، وقد احتُجز عند منزله الذي بناه بعد الحرب. كان هناك كلب ينبح طوال الليل في حقل قريب، فخرج له تِمُثي آمرًا الكلب أن يسكت. وفي الصباح التالي احتجزتْه الشرطة بدعوى الإزعاج. وهناك (سولومون) أيضًا، المسجون لسرقة نِكْلة. حُكم عليه بالسجن عشرين عامًا.

بين فترةٍ وأخرى يحدث أن يُحضر أحد الحرّاس سجينًا أبيض من الفئة الثالثة. عادة ما يكون السجين الجديد مقيّدًا إلى رجل أسود، فيقضي السجين الدقائق الأولى كلها في التذمّر. يصرخ قائلًا إنه أفضل من الزنوج، ويتوسّل إلى إخوته البيض -أي الحرّاس- كي يرحموه، كي ينقذوه من هذا الخزي. يظلّ هكذا يشتم ويبكي. بعد ذلك يؤخذ مع الآخرين إلى المنجم، وهناك ما يلبث السجين الجديد أن يتعلم درسًا مهمًا: إذا أراد أن يعيش فعليه أن يضع ثقته في رجلٍ أسود.

مرّة قُيِّد اتش إلى رجل أبيض من الفئة الثالثة يُدعى (تومَس)، أخذت يداه ترتعشان بقوة، فلم يستطع أن يرفع المجرفة. كان ذلك في الأسبوع الأول لتومَس، لكنه كان يعرف أنّ الذي لا يُكمل حصّته من الفحم يُجلد مع رفيق أغلاله، ربما حتى الموت. راقب اتش ذراعَي تومَس المرتعشتين وهي ترفع بضعة أرطال من الفحم ثم تهويان، قبل أن ينهار على الأرض يبكي ويتمتم بأنه لا يريد

أن يموت هنا وحيدًا بين الزنوج.

دون كلام، أخذ اتش مجرفة تومَس. أمسك اتش بمجرفته في يد، ومجرفة رفيقه في اليد الأخرى، وأكمل حصّتيهم من الفحم معًا، في حين كان الرئيس يراقب المشهد.

قال الرئيس حين انتهى اتش: «لم أر أحدًا من قبل يجرف بكلتا يديه»، ونبرة من الاحترام تغلّف صوته. هزّ اتش رأسه، وركل الرئيسُ تومَس على الأرض حيث جلس هناك ينتحب. «هذا الزنجيّ أنقذ حياتك». فنظر تومَس إلى اتش، لكنّ هذا لم يقل شيئًا.

تلك الليلة، في المهجع مع الرجلين المقيّدين إلى جانبيه، والسرير الذي فوقه بقدمين، أدرك اتش أنه غير قادر على تحريك ذراعيه.

سألَه (جويسي) وقد لاحظ أنه ثابت بلا حراك: «ما بك؟».

همس اتش مرتعبًا: «لا أشعر بذراعي». هزّ جويسي رأسه.

«لا أريد أن أموت يا جويسي. لا أريد أن أموت. لا أريد أن أموت. لا أريد أن أموت». لم يقو اتش على إيقاف نفسه من تكرار كلامه، وسرعان ما أدرك أنه يبكي، ولم يستطع أن يمنع دموعه. بدأ غبار الفحم الجاثم تحت عينيه ينزل إلى وجهه، وواصل اتش في صمت: «لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت».

هدّأه جويسي وهو يحتضنه قدر استطاعته مع الأغلال التي تقرقع وهو يتحرك. «لا أحد سيموت الليلة. ليس هذه الليلة». نظر الاثنان حولهما خشية أن يكون الآخرون قد استيقظوا بسبب الصوت. وصل الخبر إليهم جميعًا أنّ اتش أنقذ رفيقه الأبيض، لكنهم يعلمون جيدًا أنّ هذا لا يستدعي رحمة الرئيس. سيكون على اتش في اليوم التالي أن يفي بحصّته من الفحم في كل الأحوال.

في اليوم التالي أُسندت نوبة الصباح إلى اتش، وجُعل تومَس رفيقًا له مرة أخرى. استيقظ اتش ورجال النوبة الصباحية حين كان القمر لا يزال ساطعًا في السماء، رفيعًا مقوّسًا كما لو أنه ابتسامة الليل الداكن بسنٍّ بيضاء معوجّة.

ذهبوا إلى المطعم ليتناولوا كوب قهوة وشريحة لحم، واستلموا أكياس غدائهم. بعد ذلك أُنزلوا حوالي مئتي قدم تحت الأرض، حتى وصلوا إلى بطن المنجم. ومن هناك واصل اتش وتومَس مسافة ميلين اثنين للأسفل، حتى بلغا الحجرة التي كان عليهما العمل فيها ذلك اليوم. في العادة كان لكل حجرة رجلان اثنان، لكنّ هذه الغرفة كانت أصعب من غيرها، فأُشرك جويسي ورفيقه معهما، وهو سجين من الفئة الثالثة يسمّونه «ثور»، لا بسبب قصر قامته وامتلاء بدنه وعنفوانه، بل لأنّ رجال الـ «كُو كلوكس كلان» وَسَموا وجهه حرقًا ذات ليلة، ليعرف الجميع أنه إنسان سيء.

تثاقل اتش طوال الصباح، وذراعاه مطبقتان بألمٍ على جانبيه، فلم يأخذ القهوة واللحم، ولم يستطع أن يحمل معه كيس الغداء، وجرّ نفسه جرًّا إلى المهوى. قضى فترة الصباح دون أن يثير انتباه أحد، محاولًا أن يحتفظ بطاقته إلى حين ينبغي عليه أن يبدأ العمل.

اتخذ جويسي دور الكسّار في ذلك اليوم. لم تكن قامته أطول من 162,5 سم، لكنه كان يجيد التعامل مع الصخر على نحوٍ لم ير اتش مثله من قبل. كان جويسي من الفئة الأولى ويحظى باحترام الجميع، يعمل في سنته السابعة من أصل ثماني سنوات هي فترة عقوبته، لكنه يعمل بحماس كما كان يعمل في السنة الأولى. كان يتحدث دائمًا عن أنه سيصبح حرًا ويبدأ العمل في المناجم أجيرًا مثلما فعل بعض السود الآخرين. ولم يكن من المسموح جَلْد عاملٍ حرّ.

في ذلك اليوم كانت المسافة بين الأرضية والصخر قدمٌ واحدة فقط. وكان اتش قد رأى من قبل رجالًا يتهزهزون في تلك المسافات الصغيرة ويرتعشون وتتسارع أنفاسهم بقوّة، فيضطرون إلى الخروج. وذات مرة رأى رجلًا يصل إلى المنتصف ثم يقف هناك وقد أشلّه الرعب، لا هو يستطيع أن يتحرك، ولا هو يستطيع أن يتنفس. نادوا جويسي كي يحاول إخراجه من هناك، لكنه حين وصل كان الرجل قد فارق الحياة.

أما جويسي فلم يرفّ له جفن في تلك المسافة الصغيرة. سحب جسمه

تحت الصخرة وانبطح أرضًا على ظهره، ثم بدأ يقصّ الطبقة المعدنية من أسفل. وحين انتهى صنع ثقبًا في الصخرة، يستمع إليها كما كان يحب أن يقول، ليعرف منها أي بقعة لن تتحطم فوقه وتقتله. وبمجرد أن صنع الثقب وضع إصبع الديناميت وأشعله. انفجر الفحم، فالتقط كلٌّ من تومَس والثور معوله ليبدأ في تكسير الصخر إلى قطع يمكن التعامل معها، ليبدؤوا جميعًا التحميل في عربة المنجم.

حاول اتش أن يرفع مجرفته، لكنّ ذراعيه لم تتحركا. حاول مجددًا، وركّز كل قوةٍ وطاقةٍ في عقله على كتفه وساعده ومعصمه وأصابعه. ولم يحدث شيء.

في البدء ظلّ الثور وتومَس يحدّقان فيه، ولكنْ سرعان ما بدأ جويسي يجرف حصة اتش من الفحم، ثم عاونه الثور. وبعد ذلك، أخيرًا، بعد ما بدا مثل ساعات طويلة، بدأ تومَس يؤدي ما عليه، إلى أن جرف كلّ من في تلك الحجرة حصّته وحصّة اتش.

وحين انتهوا قال تومَس: «شكرًا على مساعدتك ذلك اليوم».

ذراعاه ما تزالان تؤلمانه. يشعر بهما مثل حجرٍ لا يتحرك، ملتصقتين إلى جانبيه بجاذبيةٍ من نوعٍ ما. هزّ رأسه لتومَس. كان يحلم بقتل الرجال البيض مثلما قتلوا السُود. كان يحلم بالحبال والسياط، والأشجار، ومهاوي المناجم.

- قل لي، كيف اسمك اتش؟

قال: «لا أدري». الشيء الوحيد الذي كان يفكّر فيه هو الهروب من المناجم. في بعض الأحيان كان يتفحص تلك المدينة الواقعة تحت الأرض ويفكّر فيما إذا كان هناك مكان، أو طريق، يستطيع العبور منه والخروج من الجانب الآخر.

- يا رجل، لا بد أنّ أحدًا منحك اسمًا ما.

- سيدي السابق يقول إن ماما كانت تسميني اتش. طلبوا منها أن تسميني اسمًا لائقًا قبل أن تلدني، لكنها رفضت. قتلت نفسها. يقول سيدي إنهم اضطروا لاقتطاعي من بطنها قبل أن تموت.

لم يقل تومَس شيئًا، واكتفى بهزّ رأسه وهو يشكره مرة أخرى. بعد شهر، حين مات تومَس متأثرًا بالسلّ، لم يستطع اتش أن يتذكر اسمه. كلّ ما كان يتذكره ملامحه حين التقط اتش المجرفة بدلًا منه.

هكذا كانت الأمور تجري في المناجم. لم يعرف اتش أين أصبح الثور الآن. كثيرون نُقلوا إلى أماكن أخرى، تستأجرهم أو تأخذهم واحدة من الشركات الجديدة. كان من السهل أن تكسب أصدقاء، ولكن من المستحيل أن تحتفظ بهم. آخر ما وصل إلى علم اتش أنّ جويسي أنهى مدّته، فبدأ جميع المحكومين يروون القصص عن صديقهم القديم الذي أصبح أخيرًا واحدًا من عمّال المناجم الأحرار، أولئك الذين كانوا يسمعون عنهم لكنّهم لم يحلموا أبدًا أن يصبحوا منهم.

***

جرف اتش آخر ألف رطل من الفحم من محكوميّته عام 1889. ولأنه ظلّ يعمل في مناجم «روك سلوپ» معظم تلك السنوات بجدّ ومهارة، فقد خرج من السجن قبل انقضاء مدّته بسنة. في ذلك اليوم الذي أخذه المصعد إلى النور، ونزع الحارسُ الأغلال عن قدميه، أخذ ينظر في عين الشمس مباشرة، يختزن من أشعّتها، خشية أن تكون هناك خدعة قاسية في الأمر تعيده إلى المدينة تحت الأرض. ولم يحيّد بصره عن الشمس حتى تحوّلت إلى بقع صفراء عديدة في عينيه.

خطر له أن يعود إلى موطنه، لكنّه أدرك أنه لم يكن يعرف موطنه. ولم يبق له شيء في المزارع السابقة التي عمل فيها، ولا أسرة يعود إليها. في الليلة الأولى من حرّيته الثانية، سار إلى أبعد ما يستطيع، سار إلى أن لم يبق منجم في مرمى البصر، ولا رائحة فحم تلتصق بمنخريه. دلف إلى أول حانةٍ رآها تحتوي على سُود، وبالمال القليل الذي معه طلب شرابًا.

كان قد استحمّ صباح ذلك اليوم، وحاول أن يمسح آثار الأغلال من

كاحليه، والسخام من تحت أظافره. حدّق في نفسه في المرآة حتى أصبح واثقًا أنّ لا أحد سيكتشف أنه كان في المناجم.

لفتت انتباهه امرأة وهو يرتشف من كأسه. كان كل ما يستطيع التفكير فيه هو أنّ بشرتها تذكّره بلون سيقان القطن. كان يفتقد ذلك السواد، إذْ لم يعرف سوادًا في السنوات العشر الماضية إلا سواد الفحم.

«من فضلك يا آنسة. هل يمكنك أن تخبريني أين هذا المكان؟». لم يكن قد تحدّث إلى امرأة منذ اليوم الذي نادى فيه إيثي باسم امرأة أخرى.

سألته مبتسمة: «ألم ترَ اللوحة قبل أن تدخل؟».

- أظنني لم أرها.
- أنت في حانة پيت، يا...
- اسمي اتش.

تحدّثا مدة ساعة، وعرف أنّ اسمها (دينا)، تسكن في «موبايل» لكنها كانت تزور ابنة عم لها في «بيرمنغهام»، وهي امرأة مسيحية ملتزمة لن يروقها أن ترى قريبتها تشرب. تملّكت اتش فكرة أن يطلب يدها للزواج، قبل أن ينضمّ إليهما رجل على حين فجأة.

قال الرجل: «تبدو عظيم القوّة».

هزّ اتش رأسه قائلًا: «أظنّ ذلك».

سأله: «وكيف أصبحت قويًا جدًا؟»، فهزّ اتش كتفيه. «هيّا، ارفع كمّك، أرنا عضلاتك».

بدأ اتش يضحك، ثم نظر إلى دينا فوجد عينيها تتلألآن على نحوٍ ينبئ بأنها ربما لا تمانع النظر. فشمّر عن ساعديه.

في البدء كان كلّ منهما يهزّ رأسه إعجابًا. ثم اقترب الرجل أكثر. «ما هذا؟»، وأخذ يشدّ قميصه عند الظهر إلى أن قطعه، فانشقّ القميص الرخيص وانفلت.

صاحت دينا وهي تغطّي فمها: «يا إلهي!».

مدّ اتش رقبته محاولًا أن ينظر إلى ظهره، لكنه تذكّر وعرف أنه لم يكن في

حاجة إلى النظر. كانت قد مضت خمس وعشرون سنة على انتهاء العبودية، ولم يكن من المفترض أن يحمل الأحرار نُدبًا جديدة على ظهورهم من آثار السياط.

قال الرجل: «كنت أعرف. كنت أعرف أنه واحد من المحكومين في المناجم. لا يمكن أن يكون غير ذلك! دينا، لا تضيّعي وقتك أكثر في الحديث مع هذا الزنجيّ».

ولم تضيّع وقتها. ابتعدت مع الرجل إلى الجانب الآخر من الحانة، فأنزل اتش كمّه وأدرك أنه لم يكن بمقدوره العودة إلى العالم الحرّ وهو مَوسُوم هكذا.

انتقل إلى «پرات سِتي»، بلدة المحكومين السابقين، البيض منهم والسود. البلدة التي يعيش فيها عمّال المناجم المحكومون بعد أن أصبحوا عمّالًا أحرارًا. في ليلته الأولى هناك لم يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق في السؤال حتى وجد جويسي مع زوجته وأطفاله، وقد انتقلوا إلى «پرات ستي» ليكونوا معه.

قالت زوجة جويسي وهي تقلي شرائح اللحم لاتش: «أليس عندك أحد؟»، وهي تبذل جهدها لتعوّض عنه حرمانه من تناول وجبة جيدة عشر سنوات، وربما أكثر.

- كانت عندي فتاة اسمها إيثي، قبل فترة طويلة، لكني أظن أنها لن تريدني الآن.

رمقته الزوجة بنظرة شفقة، وأدرك اتش ما يدور في رأسها، أنها تعرف القصة بأكملها وهي التي تزوّجت رجلًا قبل أن يأتي الرجل الأبيض ويصنّفه على أنه من المحكومين.

نادت الزوجة على ابنها: «جو الصغير»، وظلّت تنادي إلى أن ظهر. «هذا ولدنا جو الصغير. يعرف القراءة والكتابة».

نظر اتش إليه. ربما يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، لا أكثر. له ركبتان بارزتان، وعينان صافيتان. كان يشبه أباه كثيرًا، لكنه مختلف أيضًا. ربما لن ينتهي به المطاف في حاجةٍ إلى أن يستخدم بدنه للعمل. ربما سيكون نوعًا

جديدًا تمامًا من السُود، نوعًا يمكنه أن يستخدم عقله.

قالت الزوجة: «سيكتب لفتاتِك».

تذكّر اتش كيف خرجت إيثي من الغرفة في آخر لقاء لهما، فرّت منه وكأن روحًا تطاردها. قال: «لا داعي».

طقّت الزوجة بلسانها مرتين، وثلاثًا. «لا أريد أن أسمع هذا الكلام. لا بدّ أن يعرف أحد أنك حرّ الآن. لا بد أن يعرف أحد هذا الأمر على الأقل».

- مع احترامي سيدتي. تكفيني نفسي. هذا كل ما احتجت إليه في حياتي كلها.

سدّدت إليه زوجة جويسي نظرة طويلة حادة، وتبيّن اتش فيها قدرًا من الشفقة والغضب، لكنه لم يهتم. لم يتراجع عن موقفه، فتراجعت هي.

في اليوم التالي ذهب اتش مع جويسي إلى المنجم ليبحث عن عمل هناك.

طلب رئيس المنجم (مستر جون) من اتش أن ينزع قميصه. تفحّص عضلات ظهره وذراعيه، وصفّر إعجابًا.

سأله وهو ينظر إليه بعينيه الزرقاوين الثاقبتين: «إنّ الرجل الذي يستطيع أن يقضي عشر سنوات يعمل في روك سلوپ ويعيش بعدها، يستحق التأمل. أيّ صفقة عقدتَها مع الشيطان، هه؟».

قال جويسي: «إنه مجرد عامل كادح. كادح وذكيّ أيضًا».

- تضمنه يا جويسي؟

- لن تجد أحسن منه غيري.

خرج اتش بمعولٍ في يديه.

لم تكن الحياة سهلة في «پرات سِتي»، لكنها كانت أفضل من الحياة التي عرفها في أي مكان آخر. كانت حياة جديدة لم ير مثلها في أي مكان. البِيض وعائلاتهم يتجاورون مع السُود وعائلاتهم. اللونان ينضمّان إلى الاتحادات

نفسها، ويطالبون للحصول على الأشياء نفسها. لقد علّمتهم المناجم أن يعتمد بعضهم على بعض إن أرادوا البقاء، فنقلوا هذه العقلية معهم حين بنوا مساكنهم، ذلك أنّ من يعرفونهم إما زملاء في المنجم أو زملاء محكومين سابقًا، وكانوا يدركون معنى أن يعيش المرء في «بيرمنغهام» ويحاول أن يستخلص شيئًا من الماضي الذي سينساه قريبًا.

لم يتغيّر عمل اتش عما كان يفعله سابقًا، سوى أنه أصبح يتلقّى أجرًا. كان أجرًا حقيقيًا كاملًا، إذْ إنه كان عاملًا مستأجرًا في شركات الفحم من سجن الولاية لقاء تسعة عشر دولارًا في الشهر. والآن أصبح هذا المبلغ في جيبه هو. في بعض الأحيان يكون لديه أربعون دولارًا في شهر واحد. خطر له المبلغ القليل الذي ادّخره في سنتين من زراعة المحاصصة في مزارع هوبز، وأدرك كيف أنّ الأقدار الغريبة جعلت المنجم واحدًا من أفضل الأشياء التي حدثت له في حياته. لقد تعلّم هناك مهارة جديدة، مربحة، ولن تُضطرّ يداه إلى قطف القطن أو حرث الأرض مرة أخرى.

كان جويسي وزوجته كريمَين معه فسمحا له بالعيش معهما، لكنه سئم أن يعتاش على أشخاص آخرين، فأمضى الوقت الأوفر من شهره الأول في بناء مسكنه الجديد. كان ينتهي من عمله في المنجم فيتجه فورًا إلى قطعة الأرض المجاورة لمنزل جويسي ويبدأ العمل.

ذات ليلة بينما كان يطرق الخشب جاءه جويسي. «لماذا لم تنضمّ إلى الاتحاد حتى الآن؟ يمكن أن نستفيد من شخص في شجاعتك».

كان اتش قد حصل على ألواح خشب جيّدة من صديقٍ قديم آخر في المنجم، والوقت الوحيد الذي يملكه لبناء المنزل كان بين الثامنة مساء والثالثة صباحًا. أما بقية ساعات اليقظة كلها فكانت في المنجم.

قال اتش: «ما عدتُ كذلك». ورغم أنه لم يكن يحمل نُدبًا على رقبته منذ ذلك اليوم الذي جرح فيه رئيس المنجم رقبته، إلا أنه كان يمرر يده على الجرح من وقتٍ لآخر، ليذكّر نفسه بأنّ الرجل الأبيض يمكن أن يقتله لأبسط سبب.

- لم تعد كذلك، هه؟ يا اتش، نحن نطالب بأشياء يمكن أن تفيدك أيضًا. ألا تحبُّ أن يكون لك أحد معك في هذا البيت الذي تبنيه؟ الاتحاد قد يفيدك.

اتخذ اتش مقعدًا في مؤخرة الاجتماع الأول الذي ذهب إليه، شابكًا ذراعيه على صدره. في مقدمة القاعة كان طبيب يحدّثهم عن مرض الرئة السوداء.

- غبار المعدن الذي يغطي الجزء الخارجي من أجسامكم حين تخرجون من المنجم يدخل في أجسامكم أيضًا. يسبّب المرض. ساعات عمل أقل، ونظام تهوية أفضل. هذه هي الأشياء التي ينبغي عليكم أن تطالبوا بها.

استغرق الأمر من اتش شهرًا تقريبًا، غير أنّ الذي أقنعه بالانضمام ليس كلام جويسي فقط. الحقيقةُ هي أنه كان خائفًا من الموت في المناجم. حرّيته لم تستطع أن تلغي هذا الخوف، ففي كل مرة يُنزَل فيها إلى المناجم كان يتصوّر موته. كان الرجال يُصابون بأمراض لم تُعرف من قبل. ولكنْ بما أنه حرّ الآن فبإمكانه أن يستخلص فائدة من هذا الخطر.

قال اتش: «أجور أعلى. هذا ما يجب أن نطالب به».

بدأت الهمهمات تنتقل في القاعة، والرجال يمطّون رقابهم لمعرفة من الذي تحدّث. «صاحب المجرفتين هنا»، «هل هو صاحب المجرفتين؟». مضت فترة طويلة لم يحضر فيها اتش أي اجتماع.

قال اتش: «ليس هناك مهرب من تنفّس الغبار يا دكتور. اللعنة، معظم الرجال في هذه القاعة يقتربون من الموت. الأفضل إذًا أن نحصل على أجور جيدة قبل أن نموت».

ارتفع صرير الباب خلف اتش، ودخل صبيّ ينطّ على ساق واحدة. لم يكن بأي حال أكبر من أربع عشرة سنة، لكنّ اتش شعر أنه يستطيع استعراض شريط حياته كاملًا. ربما بدأ حياته كسّارًا، يجلس محدودبًا على أطنان من الفحم ليفصله عن الصخر. بعد ذلك ربما رقّاه رؤساؤه إلى وظيفة كبّاح، لأنهم رأوه ذات يوم يجري في الخارج وعرفوا أنه سريع. كان على الصبيّ أن يجري مع

عربات الفحم ليضع القضبان في عجلاتها كي تتباطأ، ولكن ربما واحدة منها لم تتباطأ فقفزت من مسارها وأخذت ساق الصبي ومستقبله كله معها. ولعلّ الذي أحزن الصبيّ أكثر من غيره بعد أن بتر الطبيب ساقه، هو أنه لن يصبح عاملًا من الدرجة الأولى مثل أبيه.

حوّل الطبيب نظره من اتش إلى الصبيّ الأعرج، ثم عاد إلى اتش. «النقود جميلة، لا أنكر. لكنّ العمل في المناجم يمكن أن يكون أكثر أمانًا مما هو عليه. الحياة تستحق المطالبة بها أيضًا». تنحنح الطبيب، ثم استمرّ في الحديث عن أعراض الرئة السوداء.

في الطريق إلى منزله تلك الليلة أخذ اتش يفكّر في الطفل الأعرج، وكم كان سهلًا أن يختلق له قصة حياته. كم هو سهل أن تمضي الحياة بطريقةٍ ما دون الأخرى. يتذكر ما قاله لرفيق زنزانته أنّ لا شيء يمكن أن يقتله، لكنه الآن يرى فناءَه في كل صوب. ماذا لو لم يكن اتش متعجرفًا في شبابه؟ ماذا لو أنه لم يُقبض عليه؟ ماذا لو أنه أحسن معاملة فتاته؟ لكان لديه الآن أطفال. لكانت لديه الآن مزرعة صغيرة، وحياة كاملة.

فجأةً شعر اتش أنه لا يستطيع التنفس، كما لو أنّ غبار السنوات العشر كان يتسلق من رئتيه إلى حلقه ويخنقه. احدودب اتش وبدأ يسعل، ويسعل، ويسعل. وحين انتهى من سعاله سار في ارتباكٍ إلى منزل جويسي وقرع الباب.

فتح جو الصغير الباب، والنومُ في عينيه. «بابا لم يعد من الاجتماع يا عم اتش».

- لستُ هنا من أجل أبيك يا بنيّ. أريد..أريدك أن تكتب لي رسالة. ممكن؟

هزّ الصبيّ رأسه، وأحضر الأدوات التي يحتاج إليها. وأخذ يكتب ما يمليه عليه اتش:

عزيزتي إيثي. هاذا أنا اتش. أنا الآن حر، وأعيشو في پرات ستي.

في صباح اليوم التالي أرسل الرسالة.

***

قال أحد الأعضاء البيض في الاتحاد: «ما نحتاج إليه هو إعلان الإضراب».

كان اتش في الصفّ الأمامي في الكنيسة التي يعقدون فيها اجتماعات الاتحاد. قائمة المشكلات لا تنتهي، والإضراب كان الحل الأول. أنصت اتش جيدًا بينما بدأت همسات الموافقة تنتقل عبر القاعة فيما يشبه الهمهمة.

سأله اتش: «ومن سيهتم بإضرابنا؟». كان قد أصبح يتحدث أكثر في الاجتماعات.

- نقول لهم لن نعمل إلى أن يرفعوا أجورنا ويوفروا السلامة في العمل. رغمًا عنهم سيستمعون.

نفخ اتش هازئًا: «ومنذ متى يستمع الرجل الأبيض إلى رجلٍ أسود؟».

- أنا هنا الآن، صح؟ أنا أستمع.

- أنت محكوم.

- وأنت محكوم أيضًا.

نظر اتش في القاعة. كان هناك ما يقرب من الخمسين رجلًا، أكثر من نصفهم سُود.

سأل اتش بعد أن أعاد نظره إلى الرجل الأبيض: «ماذا كانت تُهمتك؟».

في البدء، لم يرغب الرجل في التحدث. أخفض رأسه، وتنحنح كثيرًا، حتى خطر لاتش أنه لم يبق شيء في فمه. خرجت كلماته أخيرًا: «قتلتُ رجلًا».

- قتلتَ رجلًا، هه؟ أتعرف لماذا صديقي جويسي هنا؟ غلطته أنه لم يعبر الشارع حين كانت امرأة بيضاء تعبر في الوقت نفسه. لهذا السبب حكموا عليه بتسع سنين. وأنت حكموا عليك بتسع سنين لقتل إنسان. لسنا مثلك.

- علينا العمل سويةً الآن، مثلما نعمل في المنجم. لا يمكن أن نعمل معًا هناك ونفترق هنا.

لم يتحدث أحد. كلهم التفتوا إلى اتش، ينتظرون ماذا سيقول أو يفعل. كان جميعهم قد سمع عن قصته حين التقط المجرفة الثانية.

أخيرًا هزّ اتش رأسه. وبدأ الإضراب في اليوم التالي.

خمسون رجلًا فقط جاؤوا في اليوم الأول. قدّموا قائمة المطالب إلى رؤسائهم: أجور أعلى، عناية أفضل للمرضى، ساعات عمل أقل. الأعضاء البيض كتبوا القائمة، ثم قرأها ابن جويسي بصوتٍ عال للأعضاء السود كي يطمئنوا إلى ما فيها. كان جواب الرؤساء أنه من السهل إحلال محكومين مكان العمال الأحرار، وبعد أسبوع واحد جاءت عربة محمّلة بالمحكومين السود، وكلهم دون سنّ السادسة عشرة، مرتعبين للغاية حتى أنّ اتش أراد أن يوقف الإضراب إذا كان ذلك سيؤدي إلى القبض على مزيد من الناس لسدّ النقص. ومع نهاية الأسبوع كان الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الطرفان هو أنه لن يكون هناك قتل.

مع ذلك، فقد قُبض على آخرين وأحضروا إلى المناجم. خطر لاتش أنه ربما لم يبق رجل أسود في الجنوب لم يوضع في السجن، فقد جلبوا الكثير منهم ليملؤوا المناجم. حتى العمّال الأحرار الذين لم ينضمّوا إلى الإضراب جيء بمحكومين بدلًا منهم، فانضمّ المزيد منهم إلى صفوف المضربين. كان اتش يقضي ساعات في بيت جويسي وجين، يصنع اللافتات مع جو الصغير.

«ما المكتوب هنا؟». يسأل اتش جو الصغير، مشيرًا إلى قطعة خشب مخطوطة بالقطران.

- أجور أعلى.
- وما المكتوب هنا؟
- أوقفوا السلّ.

سأله اتش: «أين تعلمت أن تقرأ هكذا؟». كان يزداد تعلّقًا بجو الصغير، لكنّ رؤيته لابن صديقه جويسي لم تزده إلا شعورًا بالشوق إلى ولدٍ من صلبه.

عَلِقت رائحة القطران الذي كان الصغير يستخدمه للكتابة في شعيرات أنفه، فسعل قليلًا، وخرج خيطٌ مخاطيّ أسودٌ من فمه.

- درستُ قليلًا في هنتسفِل قبل أن يأخذوا بابا. حين قبضوا عليه قالوا إنه وعائلتنا كلها كانت تزداد تكبّرًا. قالوا إنّ هذا هو السبب في أنّ بابا لم يعبر

الشارع حين كان المرأة البيضاء تعبر.

- وما رأيك أنت؟

هزّ جو الصغير كتفيه.

في اليوم التالي، حمل جويسي واتش اللافتات معهما إلى مكان الإضراب. كان هناك نحو مئة وخمسين رجلًا واقفين في الهواء البارد. يتفرّجون على الدفعة الجديدة من المحكومين وهم يمشون، منتظرين أن يُنزلوا إلى المناجم.

صاح اتش بصوتٍ عال: «دعوا الأطفال يذهبون!». كان أحد الصبية قد تبوّل على نفسه وهو ينتظر المهوى، فتذكّر الصبيّ الذي كان مقيدًا في القطار، ذاك الذي تبوّل على نفسه وبكى دون توقف حين وقفوا أمام رئيس المنجم. «إنهم مجرد أطفال. اتركوهم!».

جاءه الردّ: «هل ستكفّون عن هذه الحماقة وتعودون للعمل؟».

وفجأة، انطلق ذلك الصبيّ الذي تبوّل على نفسه يجري مبتعدًا. في عين اتش، لم يكن ذاك الصبيّ سوى بقعة ضبابية تتحرّك، قبل أن تنطلق الرصاصة.

اخترق المضربون الصفوف، واندفعوا نحو الرؤساء البيض الذين كانوا واقفين يحرسون المكان. كسروا المهاوي، وألقوا بالفحم من العربات قبل أن يحطّموها. أما اتش فقد التقط رجلًا أبيض من حلقه ورفعه فوق حفرة كبيرة.

قال له: «في يوم من الأيام سيعرف العالم ماذا فعلتم هنا». كان الخوف واضحًا في عينيه الزرقاوين الجاحظتين إذْ يضيّق اتش الخناق على حلق الرجل.

أراد اتش أن يقذف به إلى المدينة الواقعة تحت الأرض، لكنه أمسك نفسه. لم يكن اتش مجرمًا كما قيل له.

استغرق الأمر ستة أشهر أخرى من الإضراب قبل أن يخضع الرؤساء. خمسون سنتًا ستُضاف إلى أجور العمّال. لم يمت أحد في ذلك الصراع سوى الولد الذي حاول الهروب. كانت زيادة الأجور انتصارًا صغيرًا، لكنه انتصار سيرضى به الجميع. بعد اليوم الذي مات فيه الولد، ساعد العمّال المضربون

في تنظيف الفوضى التي أحدثها العراك. حملوا مجرفاتهم ودفنوا الولد المقتول في مقبرة المجهولين. لم يعرف اتش ما الذي دار في رأس الآخرين حين وضعوا جثة الصبي بين مئات المحكومين الآخرين الذين ماتوا هناك، بلا أسماء، لكنه أدرك أنه كان يشعر بالامتنان.

بعد الاجتماع الذي أُعلنت فيه زيادة الأجور، سار اتش مع جويسي إلى المنزل، فأوصل صديقه إلى منزله وتوجّه هو إلى منزله. حين وصل رأى الباب مفتوحًا، ورائحة غريبة تنبعث من الداخل. كان لا يزال يحمل معوله، ببقايا التراب والفحم من المنجم. رفع المعول فوق رأسه، وهو واثق أنّ أحد الرؤساء جاء ليلتقيه. مشى على أطراف أصابعه، مستعدًا لأي شيء.

كانت إيثي، بمريلة على خاصرتها ومنديلٍ معقود حول رأسها. استدارت من الفرن، حيث كانت تطبخ بعض الخضراوات، ونظرت إليه.

قالت: «يمكنك الآن أن تنزل ذلك الشيء».

نظر اتش إلى يديه. كان المعول لا يزال مرفوعًا، فوق رأسه بقليل فقط، فأخفضه إلى جانبه ثم إلى الأرض.

قالت إيثي: «وصلتني رسالتك»، فهزّ اتش رأسه وظلّ الاثنان هناك يحدّقان في بعضهما لحظةً قبل أن تستجمع إيثي صوتها من جديد.

- اضطُررتُ إلى أن أحضر الآنسة بنتن من الشارع لتقرأها لي. في البداية تركتُها على طاولتي. وكل يوم كنت أمرّ جوارها، وأفكر فيما سأفعله. شهران على هذا الحال.

بدأ الأكلُ في قاع القدر يطقطق. لم يعرف اتش ما إذا كانت إيثي تسمعه، لأنها لم ترفع عينيها عنه، ولا هو رفع عينيه عنها.

- لا بدّ أن تفهم يا اتش. حين ناديتني باسم تلك المرأة، كنت أقول في نفسي أما عانيتُ كفاية؟ أليس كل شيء أحصل عليه يؤخذ مني؟ حريتي، عائلتي، جسمي. والآن حتى اسمي؟ أما أستحق أن أكون إيثي، لكَ أنت على الأقل؟ ماما أعطتني هذا الاسم. قضيتُ ست سنوات معها قبل أن يبيعوني إلى لويزيانا

للعمل في قصب السكر. كل ما ظلّ عندي منها هو اسمي. هذا كل ما كان عندي من نفسي أيضًا. وأنتَ لم تحفظ لي ذلك حتى.

بدأ الدخان يتجمّع فوق القدر. ارتفع الدخان أعلى فأعلى، إلى أن كانت سحابةٌ منه ترقص حول رأس إيثي، وتقبّل شفتيها.

- لفترةٍ طويلة لم أكن مستعدةً لأن أغفر لك ذلك، وحين أصبحتُ مستعدة كان البيض ينتقمون منك لشيء أعلم أنك لم تفعله، ولكن لم يخبرني أحدٌ كيف أُخرجك. وماذا كان عليّ أن أفعل يا اتش؟ أخبرني. ماذا كان عليّ أن أفعل حينها؟

أدارت إيثي وجهها بعيدًا وعادت إلى القدر. بدأت تقشر قاع القدر، وكان الشيء الذي رفعته بالملعقة أسود مثل كل الأشياء التي رآها اتش.

ذهب إليها، واحتضنها بين ذراعيه، يشعر بوزن جسمها كله عليه. لم يكن مثل وزن الفحم، ذلك الجبل الصخري الأسود الذي قضى ثلث حياته تقريبًا وهو يرفعه. لم تسلّم إيثي نفسها بسهولة. فلم تمِل إليه إلا بعد أن نظفت قاع القدر.

أكْوِيا

كلّما أسقطت (أكْوِيا) قطعة يامةٍ في زيت النخيل الساخن، قفزتْ من أثر الصوت. كان صوتًا جائعًا، صوت الزيت وهو يبتلع أي شيءٍ يُقدَّم إليه.

كانت أذُنها تكبُر. تعلّمت أكويا أن تميّز الأصوات التي لم تسمعها من قبل. وقد نشأت في المدرسة التبشيرية، حيث عُلِّموا اللجوء إلى الربّ بكل مخاوفهم ومشكلاتهم، لكنّها حين جاءت إلى «إجيسو» وامتلأ بصرُها وسمعُها بمنظر الرجل الأبيض إذْ تبتلعه النار حيًا، نفضَت ركبتيها وسجدت، متوسلةً أن يأخذ الربُّ الصوتَ والصورة. لكنّ الربّ رفض أن يحتفظ بهما، وأعاد خوفها إليها كل ليلة في كوابيس مريعة، حيث تلتهم النار كل شيء، تجري من ساحل أرض الفانتيين تشقّ الطريق إلى داخل أرض الأشانتيين. في أحلامها كانت النار على هيئة امرأةٍ تضمّ طفلتين إلى قلبها، وكانت امرأة النار تحمل الطفلتين معها إلى غابات الداخل ثم تختفي الطفلتان. ويستحيلُ حزنُ امرأة النار إلى ذرّاتٍ برتقالية وحمراء وزرقاء تندفعُ إلى كل شجرةٍ وكل نبتةٍ في مرمى البصر.

لا تذكر أكويا أول مرة رأت فيها نارًا، لكنها تذكر جيدًا أول مرة حلمت فيها بالنار. كان ذلك في عام 1895، أي بعد ست عشرة سنة من ذهاب أمها (آبنا) ببطنها المنتفخة إلى المبشّرين في كوماسي، بعد خمس عشرة سنة من موت آبنا. آنذاك لم تكن النار في حلم أكويا سوى ومضةٍ سريعة من اللون الأحمر. أما الآن فقد استشاطت امرأة النار غضبًا.

كانت أذُن أكويا تنمو، فأصبحت تنام على ظهرها أو بطنها، لا على جنبيها، خشية أن تسحق الجلد الجديد. كانت متأكدة من أنّ الأحلام تدخل من أذنها التي تكبر، أنها تلتصق بالأصوات الساخنة للأشياء المقليّة بالزيت آناء النهار، ثم تأوي إلى عقلها آناء الليل. لذلك أصبحت تنام على ظهرها كي تسمح لها بالدخول، فهي وإنْ خافت من الأصوات الجديدة، إلا أنها كانت تعرف حاجتها إلى أن تسمعها.

أدركتْ أكويا أنها رأت ذلك الحلم مرةً أخرى حين استيقظت على وقع صراخها. خرج الصوت من فمها مثل النَفَس، مثل دخان الغليون. استيقظ زوجها (أساموا) بجانبها، فالتقط منجله من جانبه، وألقى نظرة سريعة على الأطفال، ثم على الباب، وأخيرًا على زوجته.

سألها: «ماذا هناك؟».

كانت أكويا ترتعش، إذْ أصيبت بالبرد فجأة. «كان حُلمًا». لم تكن تدرك أنها ظلّت تبكي إلى أنْ جذبها أساموا بين ذراعيه. قالت في صدر زوجها: «ما كان ينبغي لك أنت وبقية القادة أن تحرقوا ذلك الرجل الأبيض»، فدفعها عن صدره.

- تُدافعين عن الرجل الأبيض؟

هزّت رأسها بسرعة. كانت تدرك أنها منذ اختارته زوجًا كان يخافُ أنّ تكون حياتها بين المبشّرين البيض قد جعلتها ضعيفة، وقلّلت من أشانتيّتها على نحوٍ ما. «لا. إنها النار. إنني أحلم بالنار».

طقّ أساموا بلسانه. لقد عاش في «إجيسو» حياته كلها، وعلى خدّه علامة الأشانتيين، مصدر فخره. «وماذا يهمّني من النار حين ينفون الأسانتيهيني؟».

لا جواب. لقد ظلّ الملك پرمپه الأول يرفض السماح للبريطانيين بالاستحواذ على مملكة الأشانتيين، ويصرّ على أن تبقى السيادة لشعبه. قبضوا عليه ونفوه من البلاد، فظلّ الغضب يختمر في شعب الأشانتيين ويتعاظم. وكانت أكويا تعرف أنّ أحلامها تلك لن تمنع ذلك الغضب من الاختمار في قلب زوجها. فقرّرت أن تحتفظ بأحلامها لنفسها، أن تنام على بطنها أو ظهرها، فلا

يسمع أساموا صرخةً منها أبدًا.

***

كانت أكويا تقضي أيامها في المساكن مع حماتها (نانا سِرواه) وطفلتيها (آبي) و (أمّا سِرواه). كانت تبدأ يومها بالكنس، إذْ تستمتع دائمًا به لفرط التكرار فيه، وفرط الهدوء. كانت هذه وظيفتها في المدرسة التبشيرية أيضًا، لكنّ المبشّر كان دائمًا ما يضحك وهو يراقبها، مشيرًا إلى أنّ أرضية المدرسة طينيّة. «وهل يُكنس التراب عن التراب؟». فتسأل أكويا نفسها كيف تبدو الأرضيات في البلاد التي أتى منها.

بعد الكنس كانت تُساعد النساء الأخريات في الطبخ. أما ابنتها آبي فكانت في الرابعة من عمرها، وتحبّ أن تمسك عصا التقليب الكبيرة كما لو أنها تساعدهنّ. «ماما، انظري!»، تقول وهي تحتضن العصا الطويلة. كانت العصا أطول منها، وأثقل. أما طفلتها الرضيعة أمّا سِرواه فكانت لها عينان كبيرتان برّاقتان، تنظران من أعلى العصا إلى أختها المرتعشة قبل أن تحدّج في أمها.

تقول أكويا لابنتها آبي: «أنتِ قوية جدًا!». فتطقّ حماتُها بلسانها. «سوف تسقط وتؤذي نفسها»، ثم تلتقط العصا من يدي آبي وهي تهزّ رأسها. كانت أكويا تعلم أنها لا تعجب حماتها كثيرًا، وكثيرًا ما كانت تردّد بأنّ المرأة التي تركتْها أمها للرجال البيض يعلّمونها لن تعرف كيف تربّي الأطفال. في هذا الوقت كانت نانا سِرواه ترسلها إلى السوق لتأتي ببعض الطعام الذي سيطبخنه لأساموا والرجال الآخرين الذين يقضون يومهم خارج البيت يجتمعون ويخطّطون.

تحبُّ أكويا المشي إلى السوق. هناك تجد الفرصة للتفكير، بعيدًا عن أنظار النساء والشيوخ الذين يفترشون الأرض عند المساكن يضحكون عليها حين تطيل النظر إلى بقعةٍ ما على جدار الكوخ. يقولون بصوت عالٍ: «ليست على ما يرام»، ولا شكّ يتعجّبون كيف يختارها أساموا للزواج. لكنها لم تكن تحدّق في الفضاء. كانت تستمع إلى كل صوتٍ في هذا العالم، تستمع إلى جميع

الناس الذين يسكنون تلك الأماكن التي لا يراها الآخرون. كانت أكويا تهيم بعيدًا.

في طريقها إلى السوق كانت كثيرًا ما تتوقف في المكان الذي أُحرق فيه الرجل الأبيض. رجل بلا اسم، هائم هو الآخر، وجد نفسه في البلدة الخطأ، في الوقت الخطأ. كان في البداية آمنًا، مستلقيًا تحت شجرة يحمي وجهه من الشمس بكتاب. فجأة ظهر (كوفي پوكو)، طفل في الثالثة من عمره بينما كانت أكويا على وشك أن تسأل الرجل إن كان تائهًا أو في حاجةٍ إلى مساعدة، وإذا بالطفل يشير إليه بسبابته الصغيرة ويصرخ: «**أوبروني!**».

شعرت أكويا بالكلمة كالوخز في أذنيها. سمعتها أول مرة حين كانت في «كوماسي»، من طفل لم يلتحق بالمدرسة التبشيرية قال للمبشّر: «يا أوبروني»، فاحمرّ وجه المبشّر كالشمس الحارقة وسار مبتعدًا. كانت أكويا آنذاك في السادسة من عمرها، ولم تكن تعرف معنى للكلمة سوى «الرجل الأبيض». لم تكن تعرف لماذا استاء المبشّر، فتمنّت لو تستطيع أن تتذكر أمها. ربما يكون لديها الجواب. لكنها انسلّت في المساء إلى كوخ كاهنٍ إفريقي في أطراف البلدة يُقال إنه كان موجودًا حين وصل الرجل الأبيض إلى ساحل الذهب أول مرة.

قال لها الكاهن بعد أن أخبرته بما حدث: «فكّري في الكلمة». في المدرسة التبشيرية كانوا يسمّون البِيض إما «أستاذ» أو «أبونا» أو «آنسة». وحين ماتت آبنا تُركت أكويا عند المبشّر ليربّيها. فهو الوحيد الذي كان سيقبل بذلك. «الكلمة لم تكن **أوبروني** في البداية. كانت كلمتين: **أبرو نِي**».

- الشرير؟

هزّ الكاهن رأسه. «عند الأكانيين هو الرجل الشرير، هو الذي يؤذي. وعند الإيوي في جنوب الشرق اسمه الكلب المحتال، ذاك الذي يتظاهر باللطف ثم يعضّكِ».

- لكنّ المبشّر ليس شرّيرًا.

يحتفظ الكاهن ببعض المكسّرات في جيبه، وعلى هذا النحو كان لقاؤهما الأول. فبعد أن ماتت أمها، كانت أكويا تبكي عليها في الطرقات. لم تكن قد

فهمت معنى الفقد بعد. البكاء هو الذي تعرفه حين تتركها أمها للذهاب إلى السوق أو البحر. كان البكاء أمرًا معتادًا، لكنه هذه المرة استمرّ نهارًا بأكمله ولم تعد أمها لتهدهدها و تحضنها و تقبّل وجهها. وحين رآها الكاهن في ذلك اليوم أعطاها جوزة كولا، هدأت لبعض الوقت حين مضغتها.

أعطاها الآن جوزة أخرى وقال: «لماذا ليس شريرًا؟».

- إنه من أهل الرب.
- وأهل الربّ ليسوا أشرارًا؟

هزّت رأسها موافقة. فسألها: «هل أنا شرير؟». لم تعرف كيف تجيبه. في ذلك اليوم حين أعطاها جوزة الكولا جاء المبشّر باحثًا عنها فوجدها معه. اختطفها من يده وسحبها بعيدًا وأمرها أن لا تتحدث مع الكهّان. كانوا يسمّونه كاهنًا لأنه كاهن، لأنه لم يكفّ عن الصلاة للأسلاف، أو الرقص، أو جمع النباتات والأحجار والعظام والدم لبذل القرابين. لم يُعمَّد. تعرف أكويا أنه موسومٌ بالشرّ والإثم، وأنها ستلقى متاعب لا حصر لها لو عرف المبشّرون أنها ذهبت لزيارته. ومع ذلك أدركت أنّ طيبته وحبّه كان مختلفًا عن طيبتهم وحبّهم. كان أكثر دفئًا وصدقًا على نحوٍ ما.

- لا، لستَ شريرًا.
- يا أكويا، لا تحكمي على الشرّير إلا من أفعاله. الرجل الأبيض استحقّ اسمه هنا. تذكّري هذا.

تذكّرت. تذكّرت هذا الأمر حتى حين أشار الطفل إلى الرجل الأبيض النائم تحت الشجرة وصاح: «**أوبروني**». تذكّرت الأمر حين احتشد الناس، وحين احتدم الغضب المتراكم منذ أشهر في القرية. أيقظ أهل القرية الرجل الأبيض حين قيّدوه إلى الشجرة. أشعلوا النار، ثم أحرقوه. كان أثناء ذلك يصرخ بالإنجليزية: «أرجوكم، إن كان هنا أحد يفهم كلامي، اتركوني! أنا مجرّد رحّالة، لستُ من الحكومة. لستُ من الحكومة!».

لم تكن أكويا الوحيدة التي تفهم الإنجليزية بينهم، ولم تكن الوحيدة التي

لم تفعل شيئًا لتنقذه.

حين عادت أكويا من السوق كان الجميع في اهتياج. كانت تستشعر في الهواء هرجًا ومرجًا يتشكّل ويحتدم، ممزوجًا بصخبٍ وخوف، مع دخان الطبخ وطنين الذباب. كانت نانا سِرواه تنضح عرقًا بينما يداها المجعّدتان تقلبّان **الفوفو** لتغرف الطعام للجمع الكبير من الرجال الذين جاؤوا. رفعت المرأة عينيها وأبصرت أكويا.

- أكويا، ما بك؟ لماذا تقفين هناك؟ تعالي هنا ساعدينا. لا بدّ أن يتناول الرجال طعامهم قبل اجتماعهم التالي.

نفضت أكويا نفسها من ذهولها، وجلست عند حماتها تقلّب النشاء المهروس في دوائر صغيرة وتمرّرها إلى المرأة التالية التي تملأ الطاسات بالحساء.

يتعالى صوت الرجال صاخبًا، صاخبًا جدًا حتى غدا من شبه المستحيل تمييز ما يقوله أحدهم. كان الصوت واحدًا. غضب. هياج. رأت أكويا زوجها هناك، غير أنها لم تجرؤ على النظر إليه. كانت تعلم أنّ مكانها مع حماتها والنساء الأخريات وكبار السن، لا أن تستجدي الأجوبة بعينيها.

همست لنانا سرواه: «ماذا يحدث؟». كانت هذه تنظّف يديها في قَرعة ماء، ثم تجفّفهما بمئزرها.

تتحدث في صوت خافت، وشفتاها بالكاد تنفرجان. «الحاكم الإنجليزي، فرِدرك هوجسن، كان في كوماسي اليوم. يقول إنهم لن يُعيدوا الملك پرمپه الأول من المنفى».

أطبقت أكويا شفتيها متفكّرة. هذا ما كانوا جميعًا يخشون منه.

واصلت حماتُها: «ليس هذا فقط. يقول إنّ علينا أن نعطيه الكرسي الذهبي كي يجلس عليه، أو يرسله هديةً لملكتهم».

ارتعشت يدا أكويا في القدر فندّت طقطقة وفسدت هيئة **الفوفو**. إذًا

فقد كان الأمر أسوأ مما يخشون منه، أسوأ من نشوب حرب أخرى، أسوأ من انقياد بضع مئات أخرى إلى الموت. كان الأشانتيون أمةً مقاتلة، والحرب هي كل ما يعرفون. فإن سلب الرجل الأبيض كرسيّهم الذهبي، ماتت روح الأشانتيين، وهذا ما لا يطيقون تحمّله.

مدّت نانا سرواه ذراعها ولمست يدها. كانت واحدة من بوادر الطيبة القليلة التي تُظهرها أمّ أساموا لها، منذ أيام المغازلات الأولى بين ابنها وأكويا، ثم الزواج. الاثنتان الآن تعلمان ما سوف يأتي.

في الأسبوع التالي انعقد اجتماع بين قادة الأشانتيين في كوماسي. والأخبار التي انتقلت بعد ذلك تحكي عن أنّ الرجال كانوا خائفين مترددين، لا يتفقون فيما سيقولونه للبريطانيين أو ماذا سيفعلون. كانت الملكة (يا أشانتيوا) الملكة الأمّ لـ «إجيسو» هي التي وقفت وطالبت بالقتال، وقالت إذا لم ينهض الرجال للقتال، فإنّ النساء هي التي ستقاتل.

انفضّ معظم الرجال في الصباح التالي. قبّل أساموا ابنتيه، ثم قبّل زوجته واحتضنها لحظة. تأملتْه وهو يرتدي ثيابه، وتأملتْه وهو ينصرف. عشرون رجلًا آخر من أهل البلدة خرجوا معه، وظلّ قلة منهم في المساكن ينتظرون أن يُطعموا.

كان زوج نانا سرواه يحتفظ دائمًا بمنجل ذي مقبض ذهبي إلى جانبه، وبعد أن مات احتفظت به أرملته في المكان الذي اعتاد النوم فيه. منجلٌ بدلًا من جسد. بعد أن وصل نداء الملكة الأمّ إلى «إجيسو» سحبت نانا سرواه ذلك المنجل من سريرها وخرجت به. ألقى الرجال المتخلفون عن القتال نظرة على المرأة العجوز وفي يدها ذلك السلاح الكبير، فغادروا. وهكذا بدأت الحرب.

كان المبشّر يحتفظ بسوطٍ طويل رفيع فوق مكتبه. قال لها: «لن تحضري الدروس في الصفّ مع بقية الأطفال». كان ذلك بعد أيام قليلة من حادثة الطفل الذي قال للمبشّر «أبروني»، لكنّ أكويا لم تكد تتذكر ذلك. كانت

قد تعلّمت لتوّها أن تكتب اسمها الإنجليزي، ديبورا، في ذلك اليوم تحديدًا. كان أطول اسم بين أسماء الأطفال جميعًا في الصف، وقد اجتهدت أكويا كي تكتبه. «من الآن فصاعدًا ستأخذين الدروس مني. مفهوم؟».

- نعم.

بالتأكيد سمع أنها أتقنتْ كتابة اسمها. سوف تتلقى معاملة خاصة.

- اجلسي.

جلست. تناول المبشّر السوط من مكتبه ومدّه نحوها. كان طرف السوط على بعد سنتيمترات من أنفها. وحين وجّهت عينيها تحت أنفها رأته بوضوح. حينها فقط أصيبت بالذعر.

قال لها: «أنتِ أثيمة ووثنيّة». لم تكن أول مرة تسمع هذا الوصف، فقد كان المعلّمون يقولون لهم ذلك. «أمك كانت بلا زوج حين أتتنا حبلى، تطلب المساعدة. ساعدتُها لأنّ هذا ما يريدني الربّ أن أفعله. لكنها كانت أثيمة ووثنية، مثلك».

هزّت أكويا رأسها، وكان الخوف قد بدأ يستقرّ في مكانٍ ما في أحشائها، يُشعرها بالغثيان.

- ينبغي للناس كلهم في القارة السوداء أن يكفّوا عن وثنيّتهم، وأن يتوجهوا إلى الرب. فلتكوني ممتنةً أنّ البريطانيين هنا كي يعلمّوكم كيف تعيشون حياةً خيّرة صالحة.

لم تهزّ رأسها. نظرت إلى المبشّر، لكنها لم تعرف كيف تصف النظرة التي حدجها بها. وبعد أن أمرها بالوقوف والانحناء، بعد أن عاقبها بالسوط خمسًا وطلب منها التوبة عن خطاياها وترديد «ليحفظ الربّ الملكة»، بعد أن أُذن لها بالانصراف، بعد أن تقيّأت خوفها أخيرًا، كانت الكلمة الوحيدة التي انفجرت في رأسها «جائع». لقد بدا المبشّر جائعًا، وكأنه لو كان في مقدوره، لالتهمها.

كلّ يوم، كانت أكويا توقظ ابنتيها والشمس ما تزال نائمة. تلفّ مئزرها ثم

تمشي مع ابنتيها إلى الطرق الترابية حيث تجتمع نانا سرواه و(أكوس) و(مامبي) وبقية النسوة الأخريات من «إجيسو». كانت أكويا صاحبة الصوت الأقوى بينهنّ، لذلك كانت هي التي تقودهنّ في الغناء:

أورادي إنْيامي كُوم دوم

أوبوا دِيه إنْيامي كوم دوم

إنّيه ييكو كوم دوم آفا دِيه

أوبوا دِيه إنْيامي كوم دوم

سوسي بي هُون، ميجيدي بي هون

ظلّت النسوة تغنّي هكذا في الشوارع. حتى أمّا سرواه الطفلة الصغيرة كانت تغنّي، وصوتها كان الأعلى والأكثر نشازًا، تغنّي بكلام غير مفهوم، إلى أن تصل إلى الجملة التي تحبّها فتصرخ: «يا ربّ يا خالق، اهزم قوّاتهم». في بعض الأحيان كانت النساء تضعها في المقدمة، فتظل ساقاها الصغيرتان تضربان الأرض بشجاعة، إلى أن تلتقطها أكويا وتحملها بقية الطريق.

بعد الغناء تعود أكويا لتغتسل هي والأطفال، ثم تدهن جسمها بالطين الأبيض علامةً على دعم القتال، وتتناول طعامها، ثم تعود للغناء مجددًا. كانت النساء تطبخ بالتناوب، لكي يكون هناك دائمًا طعام يرسلونه. وفي الليل تنام أكويا وحدها، فتحلم بالنار. تصرخ من جديد، فزوجها ليس هناك.

كان قد مضى على زواج أكويا وأساموا خمس سنوات. كان تاجرًا له أعمال في كوماسي، ورآها ذات يوم في المدرسة التبشيرية فتوقّف للحديث معها. ومنذ ذلك اليوم ظلّ يتوقف للحديث معها كل يوم. بعد أسبوعين عاد ليطلبها للزواج والانتقال معه إلى «إجيسو»، فقد كان يعلم أنها يتيمة وليس لديها مكان آخر تعيش فيه.

لم تجد أكويا في أساموا شيئًا لافتًا يميّزه عن غيره. فلم يكن وسيمًا مثل (أكواسي) الذي كان يأتي إلى الكنيسة كل أحد، يقف في الخلف مترددًا،

يتظاهر أنه لا يلاحظ الأمهات وهنّ يلقين بيناتهنّ نحوه. ولم يكن أساموا يمتلك قدرًا وافرًا من الذكاء العقلي، فحياته كلها كانت تدور حول الذكاء البدني، حول ماذا يمكنه أن يصيد أو يبني أو يحمل لكي يأخذه إلى السوق. ذات مرة رأته يبيع قطعتَي كينتي بسعر واحدة لأنه لم يكن يجيد الحساب. لم يكن أساموا الخيار الأفضل، لكنه كان الخيار الأكيد، فاطمأنت نفسُها بقبول خطبته. حتى ذلك الوقت كانت تظنّ أنها ستبقى في المدرسة التبشيرية إلى الأبد، تلعب تلك اللعبة الغريبة، لعبة التلميذة والأستاذ، لعبة الوثنيّة والمخلّص. مع أساموا ربما تكون حياتها شيئًا مختلفًا عن تصوّرها السابق لحياتها.

قال المبشّر حين أخبرتْه: «أمنعك من ذلك».

فقالت: «لا يمكنك أن تمنعني». الآن وقد أصبحت لها خطة وأملٌ في الخروج، شعرت بالقوة.

قال المبشّر هامسًا ورأسه بين يديه: «إنكِ..إنكِ أثيمة»، ثم ارتفع صوته: «إنكِ وثنية. ينبغي أن تسألي الرب أن يغفر خطيئاتك».

لم تجبه. طوال السنوات العشر كانت تُشبع جوع المبشّر. أما الآن فقد أرادت أن تلتفت إلى جوعها.

صاح وهو يرميها بسوطه: «اسألي الربّ أن يغفر خطيئاتك!».

أصابها السوط في كتفها الأيسر، ثم رأته يهوي إلى الأرض. وبهدوء، خرجتْ. من خلفها كان المبشّر يصيح: «إنه ليس من أهل الرب. ليس من أهل الرب». لكنّ أكويا لم يعد يعنيها الرب. كانت قد بلغت السادسة عشرة، والكاهن الإفريقي مات قبل عام. كانت تذهب إليه كلما استطاعت أن تهرب من المدرسة، وتقول له إنها كلما عرفت عن الربّ أكثر في المدرسة، كلما ازدادت أسئلتها. أسئلة كبيرة مثل: لئن كان الرب كبيرًا جدًا، وقويًا جدًا، فلماذا احتاج إلى الرجل الأبيض كي يحضره إليهم؟ لماذا لم يستطع أن يخبرهم بنفسه، ويعلن عن وجوده لهم كما فعل في الزمان المذكور في الكتاب، أيام قيام الموتى والنار التي نودي منها موسى. لماذا ذهبت أمّها إلى هؤلاء المبشّرين، هؤلاء البيض، من بين

كل الناس؟ لماذا لم تكن لديها أسرة، ولا أصدقاء؟ وكلما طرحت هذه الأسئلة على المبشّر رفض أن يجيبها. فقال لها الكاهن الإفريقي إنّ الربّ المسيحي قد يكون **هو** نفسه سؤالًا، بل حلقة دوّامة من «لماذا». لم ترض أكويا بهذا الجواب أبدًا، وحين مات الكاهن لم يعد الرب يرضيها كذلك. أما أساموا فكان حقيقيًا. ذراعاه غليظتان كاليامات، وبشرته بنيّة مثلها. إن كان الربُّ «لماذا»، فأساموا كان «نعم، ونعم».

الآن وقد اقتربت رحى الحرب منهم، فقد لاحظت أكويا أنّ نانا سرواه أصبحت أكثر لطفًا معها. كانت الأخبار تأتي كل يوم عن موت هذا أو ذاك، فتحبس المرأتان أنفاسهما، واثقتين من أنها مسألة وقت، قبل أن ينطق الرسول الآتي من هناك اسم أساموا.

كانت «إجيسو» خالية. غيابُ الرجال عنها كأنه هو نفسه حضورها. يخطر لأكويا أحيانًا أنّ الأمور لم تتغير كثيرًا، ثم ما تلبث أن ترى الحقول الخالية، واليامات التالفة، والنساء الباكيات. أحلامُها ازدادت سوءًا هي الأخرى؛ فقد استشاطت امرأة النار من غياب ابنتيها. في بعض الأحيان كانت تتحدث إلى أكويا، كما لو أنها تناديها. بدا شكلها مألوفًا، فأرادت أكويا أن تسألها. أرادت أن تسأل ما إذا كانت امرأة النار تعرف الرجل الأبيض الذي أُحرق، وما إذا كان كلّ من تمسّه النار جزءًا من العالم نفسه، وما إذا كانت هي تُنادى إليه. لكنها لم تتحدث. كانت تصحو على صراخها. وفي وسط هذا العذاب كانت حُبلى، في شهرها السادس على الأقل، كما تخمّن من شكل بطنها وثقله.

ذات يوم، وبعد أنّ مرّ وقت على الحرب، كانت أكويا تغلي بضع يامات لترسلها إلى الجنود، فلم تستطع أن ترفع عينيها عن النار.

قالت نانا سرواه: «مرةً أخرى؟ ظننتُ أننا انتهينا من كَسَلك هذا. هل نرسل رجالنا يقاتلون هناك كي تجلسي هنا تحدّقين في النار وتصرخين في الليل ويسمعك أطفالك؟».

«كلا، أمي»، ونفضت نفسها من ذهولها. لكنّها عادت إلى ذلك في اليوم التالي، فنهرتها حماتُها مرة أخرى. والشيء نفسه حدث في اليوم الذي تلاه، والذي تلاه، فسلّمت نانا سرواه أنّ أكويا مريضة ولا بد أن تمكث في كوخها إلى أن يغادرها المرض. أما البنتان فتأخذهما نانا سرواه إلى أن تشفى أمهما تمامًا.

في اليوم الأول من منفاها في الكوخ شعرت أكويا بالامتنان. فهي لم تذق طعم الراحة منذ أن غادر الرجال للحرب. كانت إما تمشي في البلدة تغنّي أهازيج الحرب، أو تقف أمام قدر كبير تنضح العَرَق. قالت في نفسها إنها لن تنام قبل حلول الليل. سوف تستلقي في الجانب الذي كان ينام فيه أساموا، تستحضر رائحته كي يكون معها إلى أن يحلّ الليل فيُرخي ظلامه الكئيب على الغرفة. لكنها نامت في غضون ساعات، وظهرت لها امرأة النار مرة أخرى.

كانت امرأة النار قد كبُرت، وتحوّل شعرها إلى شجيرات برّية حمراء وزرقاء. ومعها كانت تكبُر جُرأتها، فلا تكتفي بحرق الأشياء من حولها، بل أصبحت تُدرك وجود أكويا، تراها.

سألتْها: «أين ابنتاكِ؟». كانت أكويا مذعورة جدًا فلم تجب. كانت تشعر بجسمها في الفراش، وتشعر أنها تحلم، ومع ذلك لم تكن قادرة على التحكم بذلك الشعور. لم تستطع أن تخلق له يدين تنكزها فتستيقظ. لم تستطع أن تجعله يسكب الماء على امرأة النار فيطفئها من أحلامها.

«عليكِ أن تعرفي دائمًا أين ابنتاكِ»، فارتعدت أكويا.

في اليوم التالي حاولتْ أن تغادر الكوخ، لكنّ نانا سرواه أتت بـ«البدين» كي يجلس عند بابها. بدانته تمنعه من الاشتراك في الحرب، لكنها كانت مناسبة جدًا لحبس أكويا.

صرخت أكويا: «أرجوكم! دعوني أرى ابنتيّ فقط».

لكنّ البدين لم يتزحزح. صاحت نانا سرواه وهي واقفة بجانبه: «سترينهما حين يذهب مرضك».

ظلّت أكويا تقاوم بقية اليوم. تدفع الباب لكنّ البدين لا يتحرك. تصرخ

لكنه لا يتحدث. تخبط الباب لكنّ أذنيه لا تسمعان شيئًا.

من فترة لأخرى تسمع أكويا صوت نانا سرواه تأتيه فتحضر له الأكل والشراب. يقول شكرًا، ولا يزيد. كان كما لو أنه وجد أخيرًا طريقةً لتقديم خدماته. بذلك جاءت الحرب إلى باب أكويا.

مع حلول الظلام ازداد خوف أكويا فلم تقو على الحديث. ربضت هناك في زاوية الكوخ تصلّي لكل ربّ تعرفه. ربّ المسيحيين الذي وصفه المبشّرون لها غاضبًا ومحبًّا. إنْيامي ربّ الأكانيين العليم البصير. صلّت كذلك لـ(أساسي يا) وابنتيها (بيا) و (تانو). بل إنها صلّت لـ(أنانسي)، رغم أنه لم يكن سوى مخادع يضعه الناس في قصصهم ينشدون التسلية. صلّت أكويا بصوتٍ عال ومحموم كي لا تنام. ومع حلول الصباح هدّها الوهنُ فلم تعد قادرة على مقاومة البدين، غير قادرة حتى على معرفة ما إذا كان لا يزال في مكانه.

ظلّت هكذا أسبوعًا. لم تكن تفهم المبشّرين حين يقولون إنهم يقضون في بعض الأحيان يومًا كاملًا في الصلاة، لكنها الآن فهمت. الصلاةُ لم تكن شيئًا مقدّسًا. لم تكن تُقال صريحةً باللغة التويّة أو الإنجليزية. الصلاة لا تحتاج سجودًا على الركبتين أو يدين مضمومتين. بالنسبة إلى أكويا كانت الصلاةُ أنشودةً تؤدّى في اهتياج، لغةً تعبّر بها رغبات القلب التي لا يدرك العقل وجودها. كانت الصلاةُ كشطَ الأرض في راحتيها الداكنتين. كانت الصلاةُ أن تجثم هناك في ظلّ الغرفة. كانت تلك الكلمة التي خرجت من شفتيها مرة، تلو الأخرى، تلو الأخرى.

النار..النار..النار.

لم يسمح المبشّر لأكويا بترك الميتم كي تتزوج من أساموا. ومنذ أن أخبرته عن خطبة أساموا، أوقف دروسه، ولم يعد يقول لها إنها وثنية أو يأمرها بالتوبة أو يطلب منها أن تقول «ليحفظ الرب الملكة». كان يكتفي بمراقبتها.

قالت: «لا يمكنك أن تجبرني على البقاء». كانت تجمع آخر أشيائها من

مهجعها، فأساموا سيعود قبل حلول الليل ليأخذها. كانت «إجيسو» في انتظارها.

وقف المبشّر أمام الباب، والسوط في يده.

- ماذا ستفعل؟ هل ستضربني حتى أبقى؟ لن تبقيني هنا إلا إذا قتلتني.

قال لها أخيرًا: «سأخبرك عن أمك». أسقط السوط من يده، وسار نحوها فاقترب إلى الحدّ الذي كانت تشمّ معه ذَفْرًا خفيفًا من السَمَك في أنفاسه. طوال السنوات العشر الماضية لم يقترب منها أكثر من المسافة الفاصلة بين سوطه وبينها. ولعشر سنوات كان يرفض الإجابة عن أسئلتها حول أهلها. «سأخبرك عن أمك. أي شيء تريدين معرفته».

تراجعت خطوة للوراء، وتراجع هو أيضًا. أخفض عينيه، ثم قال: «أمك أبنا لم توافق على التوبة. جاءتنا حُبلى، وأنتِ خطيئتها، لكنها لم توافق على التوبة. بَصَقت على البريطانيين. كانت تجادل وتغضب. أظنها كانت سعيدة بخطيئاتها. أظنها لم تندم عليكِ، ولا على أبيك، رغم أنه لم يعرها اهتماما كما ينبغي له».

كان يتحدث بهدوء، بهدوء شديد حتى أنّ أكويا لم تكن واثقة من أنها تسمعه. «بعد ولادتك، أخذتُها إلى الماء لتعميدها. لم تكن ترغب في الذهاب، لكنني..لكنني أجبرتها. كانت تخبط بيديها وقدميها وأنا أحملها إلى الغابة، إلى النهر. ظلّت تخبط وأنا أنزلها إلى الماء. كانت تخبط، وتخبط، وتخبط، ثم هدأت». رفع المبشّر رأسه ونظر إليها أخيرًا. «كنتُ فقط أريدها أن تتوب. فقط..فقط..أردتها أن تتوب...».

وبدأ المبشّر يبكي. لم يكن منظر الدموع هو الذي لفت انتباهها، بل الصوت. ذلك الصوت الفظيع، صوت التنهيد، كما لون أنّ شيئًا كان يُنزع من الحلق.

- أين جثّتها؟ ماذا فعلت بجثّتها؟

توقّف الصوت. «أحرقتُها في الغابة. أحرقتُها مع كل أشيائها. ربّ اغفر لي! ربّ اغفر لي!».

وعاد الصوت، لكنّه كان مشفوعًا برعدة، برجفة قوية جدًا، فما لبث المبشّر أن هوى على الأرض.

اضطُرّت أكويا أن تدوس على جسده كي تغادر.

***

عاد أساموا في نهاية الأسبوع. سمعتْ أكويا صوته بأذنها التي تكبُر، رغم أنها لم تره بعد. كانت تشعر بثقلها على الأرض، أطرافها مثل ألواح ثقيلة على أرض غابةٍ ظلماء.

عند الباب كانت نانا سرواه تنحب: «أبني! اوه، ابني، ابني!». ثم سمعت أكويا بأذنها التي تكبر صوتًا جديدًا. خطوة صاخبة. فراغ. خطوة صاخبة. فراغ.

قال أساموا: «ماذا يفعل البدين هنا؟». كان صوته عاليًا جدًا حتى أنّ أكويا فكّرت في النهوض، ولكنْ بدا كما لو أنها عادت إلى فضاء الأحلام من جديد، لا تستطيع أن تجبر جسمها على أن يصغي لعقلها.

لم تجب نانا سرواه على سؤال ابنها، إذْ شغلها البكاء. تحرّك البدين، فكان حجمه الهائل مثل جلمودٍ يتقلّب فيكشف عن الباب. دخل أساموا الغرفة، لكنّ أكويا ظلت عاجزة عن النهوض.

زمجر أساموا: «ما الذي يحدث؟»، في حين كانت أمه مزعزعةً من أثر البكاء.

- كانت مريضة. كانت مريضة، فقررنا...

ثم تهدّل صوتُها. تناهى إلى مسمع أكويا ذلك الصوت مرة أخرى. خطوة صاخبة. فراغ. خطوة صاخبة. فراغ. خطوة صاخبة. فراغ. بعدها كان أساموا واقفًا عند رأسها، لكنّها لم ترَ ساقيه، بل ساقًا واحدة.

جثم متأنيًا حتى التقت أعينهما، محتفظًا بتوازنه على نحوٍ جعلها تتساءل كم مضى عليه منذ أن رأى ساقه المفقودة آخر مرة. فقد بدا متأقلمًا جدًا مع ذلك الفراغ.

لاحظ بطنها المنتفخة وارتجف. مدّ يده، فنظرت أكويا إليها. لم تنم منذ أسبوع، وقد بدأ النمل يمرّ من فوق أصابعها، فأرادت أن تنفضها، أو تعطيها لأساموا، كي يشبك أصابعها الصغيرة بين أصابعه الكبيرة.

وقف أساموا والتفت إلى أمه. «أين البنتان؟». بدأت نانا سرواه تبكي مجددًا، لكنها الآن تبكي لمنظر أكويا وهي ملتصقة بالأرض، فهرعت لإحضار البنتين.

جاءت أمّا سرواه وآبي. لم تتغيّر الطفلتان في عين أكويا. كانت كل منهما تمصّ إبهامها، رغم أنّ نانا سرواه كانت تضع الفلفل الحار على طرف الإصبع صباحًا وظهرًا وليلًا حتى تكفّا عن ذلك. كانت الطفلتان تكتسبان ذائقةً جديدة تستعذب الفلفل. تقلبّان النظر بين أساموا وأكويا وهما ممسكتان بيد الجدّة، والإبهام في الفم. ومن دون أي كلام، لفّت آبي جسمها الصغير حول ساق أبيها كما لو أنها جذع، كما لو أنها عصا **«الفوفو»** التي كانت تحب الإمساك بها، لكنها الآن أقوى مما كانت عليه، وأصلب. وأما أختها فاقتربت من أكويا، فلاحظت هذه أنها كانت تبكي. فقد انزلق خطّ مخاطي غليظ من أنفها إلى شفتها العليا، وفمها مفتوح باتساع. مثل يرقانةٍ تخرج من كُهيفٍ لتدخل في كهف كبير. لمستْ ركبة أبيها، لكنها ظلّت تتحرك كي ترتاح عند أكويا، فاستلقت إلى جانبها. وشعرتْ أكويا بقلبها الصغير يدقّ في تناغمٍ مع دقات قلبها المكسور. مدّت يدها لتلمس ابنتها، لتضمّها بين ذراعيها، ثم وقفت تنظر حولها في المكان.

***

انتهت الحرب في شهر أيلول/سبتمبر، وقد بدأت الأرض من حولهم تشهد على خسارة الأشانتيين. شقوقٌ طويلة ظهرت في الطين الأحمر حول المساكن، فقد كان الموسم شديد الجفاف. هلكتْ المحاصيل، وشحّ الطعام، إذْ اضطُروا إلى تقديم كل ما عندهم للرجال الذين ذهبوا إلى الحرب. لقد أعطوهم كل ما يملكون، واثقين من عودته إليهم مع وفرة الحرية. وأما الملكةُ

الأم (يا أسانتيوا) فقد نُفيت إلى سيشل، ولن يراها أحد أبدًا من الذين عاشوا في القرية. وحين تهيم أكويا على وجهها في البلدة، كانت تمرّ أحيانًا بقصر الملكة وتسأل نفسها: ماذا لو؟

في اليوم الذي نهضت فيه من الأرض لم تكن تريد أن تتكلم، ولا أن يغيب زوجها أو طفلتاها عن نظرها. وهكذا عشعشت تلك الأسرة المتكسرة بعضها في بعض، وكل منهم يرجو أن يسدّ حضورُ الآخرين ذلك الجرحَ الذي انفتح من معاركه.

في بادئ الأمر لم يكن أساموا يريد أن يلمسها، وهي لم تكن تريد أن تُلمَس. فذلك الفراغ الذي حلّ مكان ساقه كان كما لو أنه يهزأ بها. لم تعرف كيف تفرش جسمها إلى جانبه حين يستلقيان ليلًا في الفراش. في السابق كانت تتكوّر عنده، فتشبك إحدى ساقيها بين ساقيه، أما الآن فلم يكن بمقدورها أن ترتخي بسلام، واضطرابها هذا كان يزيد من اضطرابه. لم تعد تنام ليلًا، لكنّ أساموا كان يكره أن يراها مستيقظة متعذّبة، فتتظاهر بالنوم وتترك أمواج صدرها تعلو وتهبط مع تيار أنفاسها. في بعض الأحيان كان أساموا يلتفت ويحدّق فيها، فتشعر به يراقبها وهي تتصنّع النوم. وما إن تزلّ وتفتح عينيها أو تتوقف أنغام تنفسّها، حتى يأتيها صوته المدوّي يأمرها أن تنام. أما حين يقتنع بنومها، تنتظر حتى تتوافق أنفاسه الحقيقية مع أنفاسها المختلقة، ثم تستلقي في مكانها تتمنى أن ترحل عنها امرأة النار. وإنْ نامت، تنام نومًا خفيفًا، تغمس مغراف النوم في حوض أحلامٍ ضحل، رجاةَ أن لا ترى امرأة النار هناك قبل أن توقظ نفسها.

ذات يوم لم يرغب أساموا في النوم، فأخذ يداعب عنقها. «أعلم أنك مستيقظة. أعلم أنك لا تنامين هذه الأيام يا أكويا». ومع ذلك ظلّت تتظاهر، تتجاهل أنفاسه الحارّة، تواصل تنفّسها المصطنع.

«أكويا». استدار نحوها فالتصق فمه بأذنها، وصوت اسمها كان عصًا قوية تضرب طبلًا أجوف.

لم تجبه، وظلّ يكرر اسمها. حين خرجت إلى البلدة أول مرة بعد أسبوعها

في الكوخ كان أهل البلدة يشيحون بوجوههم عنها، وهم في حَرَجٍ وخِزي لأنهم سمحوا لنانا سرواه أن تعاملها على ذلك النحو. حماتُها أيضًا لم تستطع أن تنظر إليها دون أن تنفجر باكية، وصوت بكائها يطغى على رجائها بالصفح. الوحيد الذي تكلّم كان (كوفي پوكو)، ذلك الطفل الذي أشار إلى الرجل الأبيض، الشرير، فسلّمه إلى الحرق. حين رأى أكويا الصامتة همس: «المجنونة». المجنونة. زوجة الأعرج.

في تلك الليلة أدار الأعرجُ المجنونةَ على ظهرها وأولج فيها، بقوةٍ في أول الأمر، ثم على استحياء. فتحت عينيها لتراه يرهز ببطءٍ غير معتاد، يستخدم يديه كي يدفع، ثم يسحب، وحبّات العرق تتقطّر ببطءٍ على جسر أنفه، لتسقط على جبينها ثم تنزلق إلى الأرض.

حين انتهى، أدار ظهره عنها وأخذ يبكي. كانت البنتان نائمتين في الجهة المقابلة، والإبهام في الفم. أدارت أكويا ظهرها أيضًا. وإذْ هدّها التعب نامت. في الصباح، حين أدركت أنها لم تحلم بالنار، شعرت أنها ستكون بخير. وبعد أسابيع، حين انتزعت نانا سرواه الطفل (ياو) من بين ساقي أكويا بيدٍ واحدة، وقطعت الحبل السرّي بالأخرى، حين سمعت أكويا صوت بكائه العالي، عرفت أنّ ابنها سيكون بخير أيضًا.

شيئًا فشيئًا بدأت أكويا تتكلم. كان نومها نادرًا، لكنها حين تنام تسير في نومها. أحيانًا تستيقظ عند الباب، وأحيانًا أخرى تجد نفسها متكوّرة بين ابنتيها. كان وقت النوم قصيرًا، سريعًا، فما تكاد تسير حتى تستيقظ. تعود إلى مكانها عند أساموا، وتظلّ تحدّق في سقف القشّ والطين فوقهما إلى أن تتسلل أشعة الشمس عبر الشقوق. وفي مرّات نادرة كان أساموا يضبطها في سرنماتها وهو نصف نائم. يتناول منجله، ثم يتذكر ساقه المفقودة، فيستسلم. تقول أكويا في نفسها إنه مهزوم، من زوجته ومن تعاسته.

كانت أكويا متحفظة في تعاملها مع أهل القرية، ولم يكن هناك أحد

يمنحها بعض الفرح سوى أطفالها. أصبحت أمّا سرواه تتكلم كلامًا مفهومًا الآن، وتركت تلك اللغة السريعة العجيبة التي كانت تتحدث بها في سنيّها الأولى. لم يعد أحد يستنكر جولاتها حين تريد أن تمشي طويلًا مع أطفالها. لم يُنكر أحد عليها حين رأت في العصا أفعى، أو حين تركت الأكل في النار إلى أن احترق. وحين يصفونها بـ«المجنونة»، كانوا يقولون ذلك بعيدًا عن مسمع نانا سرواه، فهي إذا سمعتهم تجلدهم بلسانها جَلدًا يكاد يساوي في لسعاته ما يفعل السوط الحقيقي.

حين تريد أكويا أن تخرج للمشي تسأل ابنتيها إلى أين تريدان الذهاب، ثم تعلّق رضيعها (ياو) حول ظهرها بقماش وتنتظر توجيه البنتين. وفي كثير من الأحيان كانتا تكرران الأماكن. كانتا تحبّان المشي عند قصر يا أسنتيوا، وقد ظلّ مكانُها على هيئته تكريمًا لذكراها. كانت البنتان تحبّان الوقوف عند البوابة والترنّم بأغاني ما بعد الحرب. أمّا أغنيتهما المفضّلة فكانت:

كو كو هين كو

يا أسنتيوا يِه!

أوبا باسيا

أوجينا بريمو أنو يِه!

وايِه بيا جاي

نَوابو مودِن

في بعض الأحيان كانت أكويا تنضمّ إليهما تغنّي بصوت خفيض، تهدهد رضيعها مع الموسيقى وهي تتغنى ببطولة المرأة التي حاربت أمام المدافع.

وكثيرًا ما تتعب البنتان من المشي فتطلبان الراحة، وكانتا تفضّلان الراحة تحت الشجر. كانت أكويا تقضي أوقاتًا طويلة بعد الظهيرة مع أطفالها، فيخلدون إلى قيلولة تحت شرائح الظلّ الصغيرة الساقطة من أشجارٍ هائلة الحجم.

قالت أمّا سرواه ذات مرة: «أريد أن أكون مثل يا أسنتيوا حين أصبح عجوزًا». كان التعب قد أخذ من البنتين كلّ مأخذ وأرادتا قسطًا من الراحة، غير أنّ الشجرة

الوحيدة قربهم كانت تلك التي أُحرق فيها الرجل الأبيض. وقد بدا السوادُ في اللحاء المحروق كما لو أنه يزحف من الجذور إلى أول الفروع. تردّدت أكويا بادئ الأمر، لكنّ وزن الرضيع على ظهرها كان يبدو مثل عشر حفنات من اليامات. توقّفت هناك أخيرًا، واستلقت على ظهرها. بطنها لم يعد إلى حالته الأولى بعد، فأخفى انتفاخُه البنتين عنها وهما عند قدميها، أما ياو الصغير فكان إلى جانبها.

قالت أكويا لابنتها: «وهل سيغنّون الأغاني عنك يا حبيبتي؟»، فانفجرت أمّا سرواه ضاحكة. «نعم، سيقولون انظروا إلى العجوز أمّا سرواه. أليست قوية، وجميلة أيضًا؟».

فقالت أكويا وهي تغطّي عينيها من شمس الظهيرة: «وأنتِ يا آبي؟».

- يا أسنتيوا كانت الملكة الأم، وابنة كبير. لذلك يغنّون لها. أنا وأمّا سرواه لسنا سوى ابنتَي مجنونةٍ ربّاها رجالٌ بِيض.

لم تعد أكويا تستطيع التحرك بسرعة كالسابق. ولم تعرف ما إذا كان هذا بسبب الطفل الذي كان ينمو في بطنها ويطلب الطعام والطاقة، أم أنه نتيجة الأسبوع الذي قضته منفيّة على أرض كوخها. كانت تريد أن تثب على قدميها وتنظر في عين ابنتها، لكنّ كل ما استطاعت فعله هو أن تحرّك ظهرها ذات اليمين وذات الشمال إلى أن استجمعت ما يكفي من القوة كي تجلس وتنظر إلى آبي التي كانت تلعب باللحاء المتقشّر.

«من قال لكِ إنني مجنونة؟». هزّت الطفلة كتفيها وحسب، إذْ لم تُدرك بعد متى تعرف أنها في ورطة. أرادت أكويا أن تغضب أكثر، لكنها لم تستطع العثور على قوةٍ لذلك في أي مكان في جسمها. كانت في حاجة إلى النوم. أن تنام فِعلًا. قبل يومين كانت قد نسيت اليامات التي وضعتها في الزيت. نسيتها بينما عيناها تغفوان، وحين أيقظتها حماتُها كانت اليامات قد تفحّمت. لم تقل حماتُها شيئًا.

- الجميع يقول إنك مجنونة. أحيانًا تصرخ نانا عليهم، لكنهم ما زالوا يقولون.

أسندت أكويا رأسها على صخرة، ولم تتحدث إلى أن تناهت إلى سمعها أنفاس البنتين، نائمةً خفيفةً تطفو حولها مثل فراشات صغيرة.

في الليل عادت أكويا مع الأطفال إلى البيت. كان أساموا يتناول الطعام وسط الأكواخ. صاح وابنتاه تهرعان لاحتضانه: «كيف حال ابنتيّ؟». وقفت أكويا وهي تتابع بعينيها البنتين تمشيان إلى الكوخ. كان يومًا قائظًا، فأخذت أمّا سرواه تنزع مئزرها وهي تركض إلى الداخل. كان يطير خلفها مثل العلم.

نظر أساموا إلى حيث ياو الصغير معلقّ في قماش على ظهر أكويا: «وكيف ابني؟». مشت إلى زوجها كي يلمس الطفل. «إنه بخير، بمشيئة إنْيامي». فردّ عليها أساموا بنخرةٍ موافقًا.

قال: «تعالي لتأكلي». ونادى أمه، فظهرت في ثوانٍ. عمرُها الكبير لم يضعف من خفّة حركتها، ولم يضعف من قدرة أذنها على تمييز نبرة الحاجة في صوت ابنها البكر. خرجت نانا سرواه وأومأت إلى أكويا. لم تتوقف عن البكاء حين تراها إلا قبل أيام فقط.

قالت لها: «ينبغي أن تأكلي كي يكون حليبك غنيًا»، وغمست يديها في طاسة الغسل كي تبدأ إعداد **«الفوفو»**.

أكلت أكويا حتى انتفخ بطنُها، إلى الحدّ الذي بدا معه كأنه يمكن أن يُثقب، وكأنّ حليبًا حُلوًا سيتدفق من سرّتها. هذا كل ما كان يمكنها أن تتصوره وهي تنظّف يديها. أن يتدفق الحليب كالنهر تحت قدميها. شكرت نانا سرواه، وأمالت جسمها يمنة ويسرة كي تنهض عن كرسيّها، ثم مدّت يديها إلى أساموا كي يقف أيضًا. التقطت رضيعها، ثم ذهبت إلى الكوخ.

كانت البنتان قد خلدتا إلى النوم، فغبطتهما على ذلك، على السهولة التي تدخلان بها عالم الأحلام. كل واحدة تمصّ إبهامها، دون أن تعبأ بالفلفل الذي تضعه الجدّة كل صباح.

إلى جانبها تقلّب أساموا مرة، ومرّتين. هو أيضًا كان نومه أفضل مما كان

في أيامه الأولى بعد عودته. في بعض الأحيان كان يمدّ يده إلى شبح ساقه في منتصف الليل، فلا تقبض على شيء، فيبكي بهدوء. لم تكن أكويا تخبره عن ذلك حين يصحو.

استلقت أكويا على ظهرها، وسمحت لنفسها أن تغمض عينيها. تخيّلت نفسها مستلقية على رمال الشواطئ في كيپ كوست، وجاءها النوم كالأمواج. يلعق أصابع قدميها الملتفّة على نفسها، وقدميها المنتفختين، وكاحليها المتألمتين. وحين وصل إلى فمها، وأنفها، وعينيها، لم تعد خائفة منه.

حين دخلت أرض الأحلام كانت على الشاطئ نفسه. لم ترَ هذا الشاطئ إلا مرة واحدة مع المبشّرين، حين كانوا يريدون أن يبنوا مدرسة جديدة في قرية مجاورة، لكنّ أهل البلدة لم يرحّبوا بهم. كانت أكويا مفتونة بلون الماء، ولم تعرف كلمةً تصف ذلك اللون لأنها لم تر شيئًا مثله في عالمها. لا الأشجار الخضراء، ولا السماء الزرقاء، ولا الأحجار أو اليامات أو الطين. في أرض الأحلام كانت أكويا تمشي إلى طرف المحيط المتموّج، تغمس إصبع قدمها في ماءٍ باردٍ شعرت أنها تستطيع تذوّقه، مثل نسمةٍ على جدار حلقها. بعد ذلك أصبحت النسمة ساخنةً حين احترق المحيطُ بالنار. بدأت النسمة في حلق أكويا تدور، وتدور، وتدور، تزداد سرعتها إلى الحدّ الذي لم يعد يمكن أن تبقى في فم أكويا، فبصقتْها. وأخذت تلك النسمة المبصوقة تحرّك المحيط الناري، تغطس في الأعماق تستجمع قوّتها إلى أن تحوّلت الريح اللولبية والمحيط الناريّ إلى المرأة التي أصبحت أكويا الآن تعرفها جيدًا.

لكنّ امرأة النار لم تكن غاضبة هذه المرة. أومأت لأكويا بالدخول في المحيط. ورغم أنها كانت خائفة إلا أنها خطت نحوه، فاحترقت قدماها. وحين رفعت إحدى قدميها شمّت رائحة الجلد. ومع ذلك تحرّكت، تتبع امرأة النار إلى أن قادتْها إلى مكانٍ بدا مثل كوخ أكويا. وهناك كانت امرأة النار تحمل البنتَين الناريّتين اللتين كانت تمسك بهما في الحلم الأول. كانت كلّ منهما ملتصقة

بذراع، تسند رأسها على ثدي أمها. صرخاتهما بلا صوت، لكنّ أكويا كانت ترى الصوت يطفو من الفم مثل نفخة دخانٍ من غليون الكاهن. شعرتْ أكويا بالرغبة في أن تمسك الطفلتَين، فمدّت يديها، فاحترقتا بالنار، لكنّها لمستهما. وسرعان ما وضعتهما تحت يديها المحترقتين، تلعب بالحبال النارية المجدولة فوق رأسيهما، وبشفتيهما المسودّتين كالفحم. غشاها الهدوء، بل السعادة، لأنّ امرأة النار وجدت طفلتيها أخيرًا. ولأنها حين أمسكتهما لم تعترض المرأة، ولم تحاول أن تختطفهما منها. بل أخذت تنظر، وتبكي من الفرح. كانت دموعها بلون ماء المحيط في أرض الفانتيين، ذلك اللون اللا أخضر واللا أزرق، الذي تذكره أكويا من أيام طفولتها. بدأ اللون يتجمّع، أزرق فأزرق، أخضر فأخضر، إلى أن بدأ وابل الدموع يطفئ النار في يدي أكويا. وإلى أنْ بدأت الطفلتان تختفيان.

«أكويا المجنونة! أكويا المجنونة!».

شعرت بصوت اسمها في بطنها المنتفخة، وزنُه يشبه القلق. بدأت عيناها تنفتحان، فرأت «إجيسو» كلها حولها. كانت محمولة. عشرة رجال على الأقل، يحملونها فوق رؤوسهم. أدركت هذا كله قبل أن تدرك الألم الذي أصابها، فحين مدّت بصرها رأت يديها وقدميها المحترقة.

كانت النسوة النائحات خلف الرجال. صاحت بعضهنّ: «شريرة!»، وقالت أخريات: «آثمة!».

من خلفهنّ كان أساموا يحجُل بعصاه، يحاول اللحاق بهم.

ثم أخذوا يربطونها بشجرة الحرق. هنا وجدت أكويا صوتها. «أرجوكم، إخوتي. قولوا لي ما الذي يحدث!».

بدأ أحد الكبراء (أنتوي أجيه) يجأر، ثم صاح في الرجال الذين تجمّعوا: «تريد أن تعرف ما يحدث؟».

لفّوا الحبل حول معصميها، فصرختْ حروقُها، ثم صرختْ هي.

قال أنتوي أجيه: «أي نوعٍ من الشرّ هذا الذي لا يدرك ذاته؟»، فضرب

الجمعُ أقدامهم بالأرض.

علّقوا الحبل حول خصرها.

- عُرفت بيننا بالمجنونة، والآن انكشفت. امرأة آثمة، شريرة. ربّاها الرجال البيض، ولها الآن أن تموت مثلهم.

شقّ أساموا طريقه بين الجمع. «أرجوكم».

فصرخ أنتوي أجيه: «هل تقف في صفّها؟ وهي التي قتلت طفلتيك؟». تردّد صدى غضبه في صرخات الجمع، في أقدامهم الضاربة، وأياديهم الخابطة، وألسنهم المتلوّية.

توقف عقلُ أكويا. المرأة التي قتلت طفلتيها؟ التي قتلت طفلتيها؟ كانت نائمة. لا بدّ أنها ما تزال نائمة.

أخذ أساموا يبكي، ينظر إلى عيني أكويا، وهي تنظر بعينيها تستجدي الأجوبة.

قال وهو لا يزال يتحدث إلى الجمع: «ياو لا يزال حيًا. التقطتُه قبل أن يموت، ولكنني لم أستطع أن أحمل إلا واحدًا. سوف يحتاج ابني إليها. لا يمكنكم أن تأخذوها مني».

نقّل بصره بين أنتوي أجي وأهل «إجيسو». من كان نائمًا انضمّ الآن إلى الآخرين كي يرى المرأة الشريرة تحترق.

سألهم أساموا: «أولم أفقد من لحمي ما يكفي؟».

ما لبثوا أن قطعوا الحبل وأنزلوها. تركوها مع أساموا ليعودا إلى الكوخ. كانت نانا سرواه مع الطبيب يعالجان جروح الصغير ياو. كان يصرخ، والصوت الصادر منه كأنه آتٍ من مكان آخر. لم يخبروها أين وضعوا آبي وأمّا سرواه. لم يقولوا شيئًا على الإطلاق.

وِلي

كان يوم سَبت، في الخريف. وقفت (وِلي) في مؤخرة الكنيسة، تمسك بيد كتاب الترانيم مفتوحًا تقرأ منه، وتخبط بالأخرى على ساقها. الأخت (بيرثا) والأخت (دورا) كانتا تقودان السوبرانو والألتو[5]، وهما سيدتان كريمتان كبيرتا الصدر، تؤمنان بأنّ الرفع إلى السماء[6] قد اقترب.

قالت الأخت بيرثا: «وِلي، كلّ ما عليكِ فعله هو أن تتركي نفسك للغناء يا فتاة». كانت وِلي قد جاءت لتوّها من تنظيف أحد البيوت. هرعت لإزالة مريلتها وهي تدخل، لكنها لم تكن تعرف أنّ بقعةً من دهن الدجاج كانت ما تزال على جبينها.

كان (كارسن) جالسًا بين الحضور، ضَجرًا كما استنتجت وِلي. كان يسألها كثيرًا عن الذهاب إلى المدرسة، لكنها لم تستطع أن تتركه يذهب إلى أن تصبح (جوزِفين) كبيرة بما يكفي لكي تذهب أيضًا. عقد جبينه حين أخبرتْه، وكانت في بعض الأحيان تحلم بأن ترسله إلى الجنوب كي يعيش مع أختها (هازل). ربما لن تمانع أن يعيش معها طفل بذلك القدر من الكراهية الطافي حول عينيه. لكنّها كانت تعلم جيدًا أنها لا تستطيع فعل ذلك أبدًا. في رسائلها التي تبعثها لأهلها كانت تقول إنّ الأشياء تسير على ما يرام، وأنّ (روبرت) كان يتأقلم شيئًا فشيئًا.

---

(5) السوبرانو طبقة الصوت النسائي الأعلى، والألتو طبقة الصوت النسائي الأخفض. (المترجم).

(6) مُعتقد ديني مسيحي بـ"صعود المؤمنين جميعًا من الأحياء والأموات إلى السماء للقاء يسوع في عودته الثانية".

أما (هازل) فكانت تقول في رسائلها إنها ستزورهم قريبًا، لكنّ وِلي تعلم أنها لن تزورهم أبدًا. كان الجنوب لها. لم ترغب في شيءٍ من الشمال.

قالت الأخت دورا: «نعم، كلّ ما تحتاجين إليه هو أن تتركي الربّ يأخذ ذلك الصليب الذي تحملينه».

ابتسمتْ وِلي، وأخذت تترنّم بطبقة الألتو.

نزلت من المسرح فسألت كارسن: «جاهز للذهاب؟».

- منذ مدة.

غادرت الكنيسة مع كارسن. كان يومًا خريفيًا باردًا، إذ تأتيهما الريح الباردة من النهر. ثمة سيارات قليلة في الشارع، ورأت وِلي امرأة ثريّة بلون الماهوغني، تمشي بمعطفٍ من فرو الراكون يبدو ناعمًا كسحابة. في شارع «لينوكس» كانت اللافتات تقول إنّ (دْيوك إلنغتن)[7] سوف يعزف هناك، يوم الخميس والجمعة والسبت.

قالت وِلي: «هيا نمشي أكثر»، فهزّ كارسن كتفيه، لكنه أخرج يديه من جيبيه فأسرع في خطاه، وعرفتْ وِلي أنها أخيرًا قالت الكلمة المناسبة.

توقّفا لوهلةٍ كي تمرّ السيارات، ورفعت وِلي بصرها فرأت ستة أطفال صغار ينظرون إليها من نافذة إحدى البنايات. كان هَرَمًا من الأطفال، حيث الأكبر سنًا والأطول في الخلف، والأصغر منهم في المقدمة. رفعت وِلي يدها ولوّحت لهم، لكنّ امرأةً انتزعتهم من هناك وأغلقت الستارة. عبرت الطريق مع كارسن، وبدا أنّ هناك مئات من الناس في «هارلِم» ذلك اليوم. آلاف ربما. كانت الأرصفة مثقلةً بأوزانهم، بل إنّ بعضها كان يتشقّق فعلًا من تحتهم. رأت وِلي رجلًا بلون شاي الحليب يغنّي في الشارع، وإلى جانبه امرأة بلون لحاء الشجر تصفّق معه وتهزّ رأسها. كانت «هارلِم» تبدو مثل فرقةٍ سوداء كبيرة بها الكثير من الآلات الثقيلة، حتى أنّ المسرح الذي يحملها كان يتداعى.

استدارت جنوبًا إلى الشارع السابع، ومرّت أمام محل الحلاقة الذي كانت

(7) موسيقار أميركي أسود، من أشهر عازفي الجاز في تاريخ الموسيقى الأميركية. (المترجم).

تمسحه من وقتٍ لآخر لتكسب بعض السنتات، وأمام عدة حانات ومحلّ آيس كريم. أدخلت وِلي يدها في حقيبتها وأخذت تتحسّس إلى أن وجدت معدنًا. رمت بنِكلةٍ في يد كارسن، فابتسم الصبيّ لها فيما بدا أول ابتسامة منذ سنوات. حلاوةُ الابتسامة نفسها كانت مُرّة، فقد ذكّرتها بالأيام التي كان يبكي فيها بلا انقطاع. في تلك الأيام التي لم يكن هناك في العالم سواهما، ولم تكن كافية بالنسبة إليه. بالكاد كانت كافية لنفسها. هرع كارسن ليشتري الآيس كريم، وحين عاد به أكملا المشي.

إنْ كان بإمكان وِلي أن تقطع الشارع السابع جنوبًا إلى «پرات سِتي»، فلربما فعلت. أخذ كارسن يلعق الآيس كريم برقّة، ينحت بلسانه في ذلك الشكل الدائري. كان يلعق الدائرة كلها ثم ينظر إليها بعنايةٍ، ويلعق. لم تعد تتذكر آخر مرة رأته سعيدًا هكذا، وكيف كان سهلًا أن تجعله هكذا. كل ما كلّفها الأمر نِكلة، ومِشية. لو أنهما يمشيان إلى الأبد، لربما تصبح سعيدة هي الأخرى. لربما تستطيع أن تنسى كيف انتهى بها المطاف إلى «هارلم»، بعيدًا عن «پرات ستي»، بعيدًا عن بلدتها.

لم تكن وِلي سوداء بلون الفحم. لقد رأت في حياتها ما يكفي من الفحم لكي تعرف ذلك جيدًا. لكنّها في اليوم الذي جاء فيه (روبرت كلفْتِن) مع أبيه إلى اجتماع الاتحاد ليستمع إليها وهي تغنّي، لم يخطر في بالها سوى أنه أبيضُ فتى أسود رأته في حياتها. وبسبب هذا الخاطر بدأت بشرتها تبدو لها أقرب فأقرب إلى الشيء الذي كان يحضره أبوها من المناجم، تحت أظافره وعلى ملابسه، كل يوم.

كانت وِلي تُنشد النشيد الوطني في اجتماعات الاتحاد طوال سنةٍ ونصف قبل ذلك اليوم. كان أبوها (اتش) زعيم الاتحاد، فلم يكن من الصعب إقناعه بأن يسمح لها بالغناء.

وفي اليوم الذي جاء فيه روبرت كانت هي في الغرفة الخلفية للكنيسة

تتدرب على السلّم الموسيقي. سألها أبوها: «جاهزة؟». لم يكن النشيد الوطني يُغنّى في الاجتماعات قبل توسّلاتها بأن تغني. هزّت رأسها لأبيها وخرجت إلى حرم الكنيسة حيث كان جميع الأعضاء ينتظرون. كانت صغيرة، لكنها كانت تدرك أنها أفضل مغنّية في «پرات ستي»، وربما حتى في «بيرمنغهام» كلها. كان الجميع بما في ذلك النساء والأطفال يأتون إلى الاجتماعات لكي يستمعوا إلى صوتها، إلى ذلك الصوت المحمّل بشجن العالم ينثال من جسدها الصغير.

قال اتش للحضور: «قيامٌ للنشيد من فضلكم»، ففعلوا. دمعتْ عيناه عندما غنّت أوّل مرّة. حينها، سمعتْ رجلًا يقول: «انظر إلى العجوز صاحب المجرفتين. إنه متأثر. أليس كذلك؟».

غنّت وِلي، والحضور يتابعها مبتسمًا مبتهجًا. خطر لها أنّ الصوت يخرج من كهفٍ في قعر أحشائها، وأنّها مثل أبيها وجميع الرجال الجالسين أمامها، عاملة منجمٍ تنزل إلى أعماقها كي تستخرج شيئًا ثمينًا. وما إن انتهت حتى وقف الجميع يصفّقون ويصفّرون، وهنا أدركت وِلي أنها وصلت إلى قعر الكهف تمامًا. بعد ذلك، انشغلوا في اجتماعهم، وجلست وِلي في حضن والدها متململةً، تتمنى لو تغنّي ثانية.

قال لها رجل بعد الاجتماع: «وِلي، غنّيتِ بشكلٍ جميل الليلة». كانت واقفة مع أختها الصغيرة هازِل خارج الكنيسة، تطالع الناس وهم يمضون إلى بيوتهم بينما اتش يُغلق الأبواب. لم تكن تعرف هذا الرجل من قبل، كان جديدًا، محكومًا سابقًا، يعمل في الطرق قبل أن يصبح عاملًا حرًا في المناجم. «أودّ أن أعرّفكِ بابني روبرت. هو خجول، لكنه يحبُّ أن يستمع إلى غنائك جدًا».

ظهر روبرت من خلف والده. فقال الرجل وهو يدفع ابنه إلى الأمام قليلًا قبل أن يمضي إلى البيت: «هيا اذهبا للّعب قليلًا».

كان والدُه بلون القهوة، أما روبرت فبلون القشدة. لم يكن غريبًا على وِلي أن ترى البيض والسود سويةً في «پرات ستي»، لكنها لم ترهما في أسرة واحدة، وفي شخصٍ واحدٍ معًا.

قال روبرت: «صوتك جميل». كان ينظر إلى الأرض وهو يتحدث، ويركل التراب. «من فترة آتي لأسمعك».

ردّت وِلي: «شكرًا». وأخيرًا نظر إليها روبرت وابتسم. يبدو أنه ارتاح أخيرًا أنه تحدّث. أما وِلي فقد أذهلتها عيناه.

سألته وِلي بينما كانت أختها هازل خلفها تعاين روبرت من خلف ركبة ولي: «لماذا عيناك هكذا؟».

- هكذا كيف؟

بحثتْ وِلي عن الكلمة المناسبة، لكنها أدركت أنه لا توجد كلمة واحدة تصف عينيه. كانتا تبدوان مثل كثير من الأشياء. مثل البِرَك الصافية فوق الطين، تلك التي كانت هي وهازِل تحبّان القفز فيها، أو مثل لمعةِ نملةٍ ذهبيةٍ رأتْها ذات يوم تحمل عُشبة على كومة تراب. كانت عيناه تتبدّلان أمام ناظريها، ولم تعرف كيف تقول له ذلك، فهزّت كتفيها.

قالت هازل: «أنت أبيض؟»، فلَكَزتْها وِلي.

- لا، لكنّ ماما تقول لدينا الكثير من البياض في دمنا. أحيانًا يأخذ وقتًا لكي يظهر.

قالت هازل وهي تهزّ رأسها: «لكنّ هذا ليس شيئًا صحيحًا».

فقال روبرت: «أبوكِ عجوز مثل التراب. وهذا ليس شيئًا صحيحًا أيضًا». لم تدرِ وِلي بنفسها إلا وهي تدفعه. تعثّر، وسقط على مؤخرته، ثم نظر عاليًا إلى وِلي متعجبًا بعينيه البنّيتين الخضراوين الذهبيّتين، لكنها لم تهتم. كان والدها واحدًا من أفضل عمّال المناجم الذين شهدتهم «بيرمنغهام». كان نورَ حياتها، وهي نور حياته. لطالما أخبرها كيف أنه انتظر قدومها، وانتظر، وانتظر، وحين جاءت ذاب قلبُه الكبير من السعادة.

نهض روبرت ونفض التراب عن جسمه. فقالت هازل وهي تلتفت إلى وِلي: «أوه، سأخبر ماما عنكِ». لم تكن هازل لتفوّت فرصة الوشاية بأختها.

فقال روبرت: «لا داعي. عادي». نظر إلى وِلي. «عادي».

تلك الدفعةُ كسرت ما يشبه الحاجز بينهما، ومنذ ذلك اليوم أصبح الاثنان مقرّبين من بعضهما للغاية. حين بلغا السادسة عشرة أصبحا يتواعدان، وما إن بلغا الثامنة عشرة حتى تزوّجا، ثم أنجبا ولدًا وهما في العشرين. كان أهل «پرات ستي» يتحدّثون عنهما في نَفَسٍ واحد، يذكرونهما في اسم واحد: روبرتوَوِلي.

بعد ولادة كارسن بشهر، مات أبوها، وفي الشهر الذي يليه ماتت أمها. لم يكن عمّال المناجم منذورين لطول الحياة. كان لدى وِلي أصدقاء مات آباؤهم حين كان أولئك الأصدقاء لا يزالون يسبحون في أرحام أمهاتهم، غير أنّ هذا لم يهوّن الأمر عليها.

في الأيام الأولى لم يكن شيء يعزّيها فيما حدث. لم ترغب في النظر إلى كارسن ولا حتى إمساكه. كان روبرت يحتضنها في الليل، يقبّل أدمعها المتواصلة بينما الرضيع يغفو. كان يهمس لها: «أحبكِ يا وِلي»، وكان ذلك الحب يؤلمها أيضًا، ويدفعها للبكاء أكثر فأكثر، لأنها لم تكن تريد أن تصدّق أنّ هذا العالم يمكن أن يحدث فيه شيء جيّد بعد أن رحل والداها عنه.

غنّت وِلي في مراسم العزاء، وكان بكاء المعزّين يحمل الصوت إلى المناجم تحت الأرض. لم تعرف مثل هذا الحزن أبدًا من قبل، ولم تعرف كل أولئك المئات من الناس الذين تجمّعوا ليودّعوا أبويها. وما إن بدأت الأغنية حتى ارتعش صوتُها. لقد هزّت الأغنية شيئًا بداخلها.

راحت وِلي تغنّي: «سألبسُ تاجًا»، وصوتُها يدوّي، كما لو أنه يخرج من أسفل الحفرة إليهم جميعًا وهم يمشون حول المناجم. وسرعان ما عبروا من مقبرة المجهولين، ذلك المكان الذي دُفن فيه مئات الرجال والأولاد من مجهولي الأسماء والوجوه. كانت وِلي سعيدة أنّ أباها مات حرًّا على الأقل. على الأقل مات حرًا.

وانطلق صوتُها مرة أخرى: «سألبس تاجًا»، وهي تحمل كارسن بين ذراعيها. كان بكاؤها رفيقها في الغناء، ودقّات قلبه بندول إيقاعها. رأتْ وهي تغنّي العلامات الموسيقية تطفو من فمها مثل فراشات صغيرة، تحمل معها شيئًا من

حزنها بعيدًا، فأدركت أخيرًا أنها سوف تتجاوز الأمر.

سرعان ما بدأت «پرات ستي» تبدو مثل ذرة رملٍ في عينيها. لم تكن قادرة على التحرر منها، وكانت تعلم أنّ روبرت يتلهّف للرحيل أيضًا. كان أرقّ قليلًا من العمل في مناجم الفحم. هذا ما كان يراه الرؤساء على الأقل حين يقرر روبرت أخيرًا الذهاب والبحث عن وظيفة هناك، وهذا ما كان يفعله مرةً كل عام منذ أن بلغ الثالثة عشرة. لكنه عمل موظفًا في محل «پرات ستي».

بعد ذلك، بعد ولادة كارسن، أصبح المحل فجأة غير كافٍ بالنسبة إلى روبرت، فكان يقضي أسابيع كاملة في التذمر منه.

قال ذات ليلةٍ لوِلي: «لا تمنحكِ هذه الوظيفة إحساسًا بالشرف». كانت تجلس وبطنها لصق بطن الصغير كارسن، بينما يحاول هذا أن يختطف الضوء المنعكس من قرطَيها. «لا إحساس بالشرف في عمل المناجم».

لطالما خُيِّل لوِلي أنّ زوجها سوف يموت في المناجم لو جاءته فرصة للعمل هناك. كان أبوها قد ترك المناجم منذ سنوات طويلة قبل موته. وكان يفوق طول روبرت بمرّتين، وأقوى منه بعشر مرات. مع ذلك، لم يكد يتوقف أبدًا عن السعال، وفي بعض الأحيان حين يسعل يخرج من فمه خيط مخاطيّ أسود، ويتلوّى وجهه، وتجحظ عيناه، فيبدو لوِلي كما لو أنّ هناك رجلًا خفيًا من ورائه يطوّق عنقه السميكة فيخنقه. ورغم أنها كانت تحبّ روبرت حبًا أكبر مما تخيّلت أن يوجد في الحب، إلا أنها حين كانت تنظر إليه لم تكن ترى رجلًا يمكنه أن يطوّق عنقه بيديه. ولم تقل له ذلك أبدًا.

بدأ روبرت يذرع الغرفة. كانت الساعة على الجدار متأخرة بخمس دقائق، وصوتُ عقرب الثواني بدا لوِلي كصوت رجلٍ يصفّق مع الإيقاع في احتفال ديني في الكنيسة: سيء، لكنه واثق.

- علينا الرحيل. نتوجّه شمالًا، إلى مكانٍ يمكنني فيه أن أتعلّم صنعةً جديدة. لم يعد لنا شيء في پرات سِتي بعد رحيل والديك.

فقالت وِلي فور أن خطر الاسم ببالها: «نيويورك». «هارلِم». وقعتْ الكلمة في نفسها مثل الذكرى. ورغم أنها لم تزر هارلِم قطّ، إلا أنها كانت تشعر بحضورها في حياتها. شيء أشبه بالهاجس أو النذير، ذكرى من المستقبل.

قال روبرت مبتسمًا: «نيويورك، هه؟»، وأخذ كارسن بين ذراعيه، فبكى الطفل جافلًا بعد أن ضاع منه الضوء.

- يمكن أن تجد عملًا هناك. وأنا يمكن أن أغنّي.

أرجحَ روبرت إصبعه أمام عيني كارسن وهو يقول: «تغنّين، هه؟»، فأخذ الطفل يتبع الإصبع بعينيه، هنا، وهناك. «ما رأيك يا سَني؟ أمّك تغنّي؟»، وأنزل إصبعه إلى بطن كارسن الناعمة يدغدغه، فدوّت ضحكة الطفل.

قال روبرت وهو يضحك: «أظنّ الفكرة أعجبته يا ماما».

كلُّ أحدٍ كان يعرف أحدًا متجهًا إلى الشمال، وكل أحدٍ كان يعرف أحدًا قد استقرّ هناك. وِلي وروبرت كانا يعرفان (جو تيرنر) الذي كان يُعرف في صباه باسم «جو الصغير»، ابن (جويسي) الذكيّ في «پرات ستي». لقد أصبح الآن معلّمًا في «هارلِم»، فآواهما في منزله في شارع 134.

ظل ذلك الإحساس بالوجود في «هارلم» للمرة الأولى باقيًا في ذاكرة وِلي طوال حياتها. كانت «پرات ستي» بلدة مناجم، وكلّ ما فيها متمركز حول ما يقع تحت الأرض. أما «هارلِم» فكانت بلدة السماء. فلم ترَ وِلي في حياتها مبانيَ أطول من تلك التي في «هارلِم»، كثيرة ومكتظة ومتلاصقة. كان النَفَس الأول من هواء «هارلِم» نظيفًا، دون غبار فحمٍ يدخل في الأنف فيستقرّ في جدار الحلق. كان التنفّس في حدّ ذاته أمرًا مبهجًا.

«أول شيء علينا أن نفعله هو العثور على مكان أغنّي فيه يا جو الصغير. سمعتُ تلك السيدات في زاوية الشارع، وأنا متأكدة أنني أفضل منهنّ». أدخلوا آخر حقيبة من حقائبهم الثلاث، واستقرّوا أخيرًا في الشقة الصغيرة. لم يكن جو قادرًا على تحمّل إيجارها بنفسه، فكان سعيدًا جدًا بأن يقتسمها صديقاه معه.

ضحك جو. «لا بد أن تغنّي أفضل من الفتيات التي تغنّي في زاوية الشارع يا وِلي، وإلا كيف ستتخطين مرحلة الشارع إلى الغناء في داخل المبنى؟».

كان روبرت يمسك بكارسن، يهزّه قليلًا كي لا يثير جلبة. «هذا ليس أول ما علينا أن نفعله. أول شيء علينا أن نفعله هو العثور على وظيفة لي. أنا الرجل، هل نسيتِ؟».

فقالت وِلي وهي تغمز: «أوه، أنتَ الرجل. تمام». فقلّب جو عينيه في استخفاف. «المهمّ أن لا تزيدوا الأطفال في البيت حاليًا».

في تلك الليلة، وليال كثيرة بعدها، نامت وِلي وروبرت وكارسن على فراش واحد في الصالة الصغيرة، في الطابق الرابع من بناية قرميد عالية. في السقف فوق السرير بقعة بنية كبيرة، وحتى هذه البقعة بدت جميلة لوِلي.

كانت البناية التي يسكنها جو مليئة بالسُود، ربما جاؤوا حديثًا من «لويزيانا» و «مِسِسِبي» و «تكساس». حين دخلوا البناية أول مرة سمعتْ وِلي تلك اللهجة المميزة المتشدّقة، والتي يُعرف بها الناس من «ألاباما». كان الرجل يحاول أن يدفع أريكة عريضة عبر باب ضيّق. وفي الجهة الأخرى من الباب لهجةٌ مشابهة تعطيه الإرشادات: يسار أكثر، يمين قليلًا.

في الصباح التالي تركت وِلي ابنها مع جو الصغير، وخرجت مع روبرت لأخذ جولة في «هارلم»، وربما للبحث عن أيّ إعلانات توظيف في الحيّ. سارا في الأنحاء لساعات، يطالعان الناس ويتحدثان، يتشرّبان كل شيء مختلف في «هارلِم»، وكل شيء شبيه.

وما إنْ سارا أمام محلّ آيس كريم حتى لاحظا إعلان وظيفة على باب المحل، فقرّرا الدخول لكي يتحدث روبرت معهم. حين همّا بالدخول تعثّرت وِلي على شفا دَرجة الباب، فأمسكها روبرت من ذراعها وأوقفها ثم ابتسم لها وهو يطبع قبلة سريعة على خدّها. دخلا المحل، فالتقتْ عينا وِلي بعيني الموظّف، وشعرتْ بريحٍ باردة تهبّ في ذلك الخيط البصريّ بينهما، من عينيه إلى عينيها، ثم تدخل في جوفها.

قال روبرت: «من فضلك، سيّدي. رأيت الإعلان في الخارج».

فقال الموظّف وعيناه لا تبرحان عينَي وِلي: «أنتَ متزوج من سوداء؟».

نظر روبرت إلى وِلي. ثم قال بهدوء: «عملتُ سابقًا في محل. في الجنوب».

- لا وظائف هنا.

- لديّ خبرة في...

كرّرها الرجل بفظاظةٍ أكثر: «لا وظائف هنا».

كانت وِلي في طريقها نحو الباب حين تحدّث الرجل مرة أخرى، فقالت: «هيا بنا يا روبرت».

ظلّا صامتَين بعض الوقت، ومرّا أمام مطعمٍ بلافتة معلّقة، ولم تكن وِلي في حاجةٍ إلى النظر إلى روبرت كي تعرف أنه لن يتوقف عندها. وما لبثا أن عادا إلى شقة جو الصغير.

قال جو حين دخلا الشقة: «عدتُما سريعًا!». كان كارسن نائمًا على الفراش، وجسمه الصغير متكوّر.

- كانت وِلي تريد أن تطمئنّ على الصغير. وأرادت أن تعطيك فرصة للراحة. أليس كذلك يا وِلي؟

شعرتْ وِلي بجو ينظر إليها وهي تردّ: «بلى، صحيح».

استدار روبرت وخرج من الباب في غمضة عين.

جلست وِلي بجانب ابنها، تطالعه وهو نائم. خطر لها أن تطالعه هكذا طوال اليوم، فحاولت، لكنها بعد هنيهة تملّكها ذُعر غريب لا يُقاوَم، دون أن تعرف له سببًا. فجأةً خافت أنه لم يكن يتنفّس حقًا، أنه لم يكن يدري بجوعه فلا يبكي لكي تطعمه، أنه لن يعرفها من بين النساء الأخريات في هذه المدينة الجديدة الكبيرة. أيقظتْه كي تسمعه يبكي، فانطلق بكاؤه هادئًا في البداية ثم بصوتٍ صارخ، حينها فقط استطاعت أن تهدأ.

قالت وِلي: «ظنّوا أنه أبيض يا جو». كانت تشعر به ينظر إليها وهي تطالع ابنها.

فهزّ جو رأسه. «مفهوم». قالها باختصار، ثم قام وتركها في حالها تلك.

انتظرت وِلي عودة روبرت بقلق. للمرة الأولى خطر ببالها ما إذا كانا قد أخطآ بالرحيل عن «پرات ستي». فكّرت في أختها هازِل التي لم تسمع شيئًا عنها منذ أن رحلت، فاجتاحتها موجة من الشوق اليائس الحزين. وما لبثت أن تشكّلت في رأسها ذكرى مستقبليّة أخرى، وهذه المرة عن الوحدة. شعرت بها تقترب أكثر، وهو أمر ينبغي عليها أن تتعلم التعايش معه.

عاد روبرت. كان قد ذهب إلى الحلاق، فقصّ شعره قصيرًا. اشترى ثيابًا جديدة، وخطر لوِلي أنه اشتراها بآخر ما كان لديهما من مدّخرات بالتأكيد. أما ملابسه التي كان يرتديها حينما خرج فلا أثر لها. جلس على السرير إلى جانب وِلي، يمسّد عنق ابنه الصغير. نظرت إليه، لكنه لم يبدُ على طبيعته.

قالت: «أنفقتَ المال؟». لم يكن ينظر في عينيها، ولم تستطع أن تتذكر آخر مرة تجنّب النظر إلى عينيها هكذا. حتى في المرة الأولى التي لعبا فيها معًا، حتى حين دفعتْه، وحتى حين وقع، كان دائمًا يثبّت عينيه في عينيها، فيما يشبه النهم. كانت عيناه أول ما أثار تساؤلاتها عنه، وأول ما أثار حبّها.

قال روبرت وعيناه ما تزالان على كارسن: «لن أكون مثل أبي يا وِلي. لن أصبح من الرجال الذين يعرفون عملًا واحدًا فقط. سوف أصنع حياةً لنا. متأكد أنني أستطيع».

نظر إليها أخيرًا، وداعب خدّها بيده ثم مسّد مؤخرة رقبتها. «نحن هنا الآن يا وِلي. لِنَكن هنا».

«لِنَكُن هنا» بالنسبة إلى وِلي تعني ما يلي: أن تستيقظ كل صباح هي وروبرت، وتجهّز كارسن لتودعه عند امرأة عجوز اسمها (بِس) ترعى أطفال البناية كلها مقابل أجرة بسيطة. يحلق روبرت ذقنه ويسرّح شعره ويزرّر قميصه، ثم يمشيان في «هارلم» بحثًا عن عمل. روبرت بملابسه الأنيقة، ووِلي بملابسها البسيطة.

أن يكونا هنا تعني أيضًا أن لا يمشيا معًا فوق الرصيف. كان روبرت دائمًا يمشي أمامها، ولا تلمس يده يدها. لم تكن تناديه باسمه أبدًا، حتى لو كانت ستسقط في الشارع، أو تتعرض لسرقة، أو كانت هناك سيارة تتجه نحوها. فعلتْها مرة واحدة، واستدار روبرت، فأخذ الجميع يحدّق.

في بداية الأمر بحث الاثنان عن عمل في «هارلم». بل إنّ محلًا وظّف روبرت، قبل أن يحدث سوء تفاهم بعد أسبوع. فقد انحنى زبون أبيض على روبرت وسأله كيف يستطيع أن يقاوم أخذ واحدة من الزنجيات اللائي يترددن إلى المحل لنفسه. عاد روبرت تلك الليلة يبكي لوِلي، يقول إنّها يمكن أن تكون هي التي يتحدث عنها الرجل. لذلك ترك العمل.

في اليوم التالي استأنف الاثنان البحث مجددًا. سارا جنوبًا ثم انفصلا، ففقدت وِلي أثر روبرت في «منهاتن». أصبح يبدو الآن شديد البياض، وما هي إلا ثوان معدودة حتى فقدتْه تمامًا، فأصبح وجهًا أبيض واحدًا من بين وجوه كثيرة، كلهم ينطلقون مسرعين على الأرصفة. وبعد أسبوعين في «منهاتن» وجد روبرت وظيفة.

أما وِلي فلم تجد عملًا إلا بعد ثلاثة أشهر. في شهر كانون الأول/ديسمبر أصبحت مدبّرة منزل السيد مورِس وزوجته، وهي أسرة سوداء ثريّة تسكن في الطرف الجنوبي من «هارلم». لم تكن الأسرة قد أذعنت لسوادِها بعد، فأخذت تزحف ناحية البيض بقدر ما تسمح به المدينة. لم يكن ممكنًا لهم أن يتوغّلوا أكثر في المسكن، فبشرتهم لا تؤهلهم للحصول على شقة في الشارع التالي.

كانت ولي ترعى ابن مورِس في النهار، تطعمه وتحمّمه وتنوّمه. ثم تنظّف الشقة من أولها إلى آخرها، وتتأكد من مسح أسفل الشمعدان لأنّ السيدة مورِس كانت دائمًا ما تتفحص ذلك المكان. ومع بداية المساء تشرع في الطبخ. فرغم أنّ السيد مورِس وزوجته جاءا إلى «نيويورك» منذ ما قبل «الهجرة الكبيرة»، إلا أنهما كانا يتناولان طعامهما كما لو أنّ الجنوب حاضر في مطبخهما، لا على بعد أميالٍ وأميال. تعود السيدة مورِس عادةً قبل زوجها، وكانت تعمل خيّاطة، لذلك

كثيرًا ما تكون يداها متّقبتين نازفتين. وما إن تعود إلى المنزل حتى تغادر وِلي لتحضر اختبارات الأداء الغنائية.

لم تؤهلها بشرتها الداكنة للغناء في نادي الجاز. هذا ما قالوه لها حين ذهبت لاختبار الأداء. وقف رجل طويل وهزيل جدًا، ووضع كيسًا ورقيًا عند خدّها ثم قال: «داكنة جدًا».

هزّت رأسها وقالت: «لكنني أغنّي جيدًا. اسمع». فتحتْ فمها وأخذت نفسًا عميقًا، فوضع اصبعين أمامها، فنفخت الهواء.

كرّر قائلًا: «داكنة جدًا. الجاز للفتيات الفاتحات فقط».

- رأيتُ رجلًا داكنًا كالليل يدخل هنا مع ترومبون.

- قلتُ فتيات يا عزيزتي. لو كنتِ رجلًا، ربما.

قالت في نفسها لو أنها كانت روبرت! كان روبرت يستطيع الحصول على أيّ وظيفة يريدها، لكنها تعلم جيدًا أنه شديد الخوف من التجربة. خائف من افتضاح أمره، خائف من قلة تعليمه. ذات ليلة قال لها إنّ رجلًا سأله لماذا يتحدث «بتلك الطريقة»، فخاف أن يتكلم. لم يخبرها أبدًا عن طبيعة عمله، لكنه كان يعود إليها ورائحته مثل البحر واللحم، وكان يجني في الشهر مبلغًا لم تره في حياتها كلها.

كان روبرت بطبيعته حذرًا، وهي بطبيعتها مغامرة. حين مارسا الجنس أول مرة كان مرتبكًا للغاية حتى أنّ قضيبه ظلّ نائمًا على ساقه اليسرى، كلوحٍ على نهرٍ فخذه المرتعش. قال لها: «أبوكِ سيذبحني». كانا في السادسة عشرة آنذاك، وأبواهما في اجتماع الاتحاد. فقالت وهي تحاول أن توقف اللوح: «لا أفكّر الآن في أبي يا روبرت». وضعت كل إصبع من أصابعه في فمها، واحدًا تلو الآخر وهي تعضّ أطرافه، وتنظر في عينيه. ساعدته لكي يولج فيها، واعتلتْه، حتى أصبح يتوسّل إليها أن تكفّ، أن لا تتوقف، أن تسرع، أن تبطئ. وحين أغمض عينيه طلبت منه أن يفتحهما، أن ينظر إليها. كانت تحبّ أن تكون نجمة الحدَث.

وهذا ما أرادته الآن أيضًا، في الوقت الذي ما تزال تفكّر فيه بروبرت. كيف يمكنها أن تستفيد من بشرته، وأن تكون أقلّ حذرًا منه لو كانت مكانه. لو كان الأمر بيدها لوضعت صوتها في جسده، في بشرته. لكانت وقفت على مسرح نادي الجاز تستمع إلى كلمات الإطراء تندفع إليها، مثلما تندفع إليها ذكريات الغناء على طاولة أبويها. «يا أخي صوتها رائع فعلًا. صَدَقت».

قال لها الرجل الهزيل وهو يوقظها من أفكارها قبل أن تسودّ: «اسمعي. عندنا وظيفة تنظيف النادي في الليل إذا أردتِ. الأجر مقبول. وقد تصلين إلى مكانٍ ما مستقبلًا».

قبلتْ الوظيفة فورًا، وحين عادت إلى البيت أخبرت روبرت أن أسرة مورِس يحتاجون إليها للعمل ليلًا. لم تعرف ما إذا صدّق كلامها أم لا، لكنه هزّ رأسه. في تلك الليلة ناما وكارسن بينهما. كان قد بدأ يلفظ بعض الكلمات. ذات يوم حين أخذته وِلي من شقة بِس، سمعته يناديها ماما، فاجتاحتها غصّة مريعة وهي تضمّه إليها وتأخذه لشقة جو.

قالت لروبرت وهي تسحب إبهام كارسن من فمه: «الأجر معقول». بدأ الصغير يبكي ثم صاح فيها: «لا!».

قال روبرت: «هيه سَني، لا تكلم ماما هكذا». وضع كارسن إبهامه في فمه مرة أخرى وحدّق في أبيه. «لا نحتاج إلى المال. نحن بخير يا وِلي. بإمكاننا حتى أن نستأجر شقةً لنا قريبًا. لستِ مضطرة إلى العمل».

ردّت بعصبية: «وأين نعيش؟». لم تكن تقصد أن تبدو فظّة جدًا. بل على العكس كانت الفكرة مغرية، أن تكون لها شقّتها، أن يكون لها وقت أكثر تقضيه مع كارسن. لكنها تعرف جيدًا أنها لم تُخلق لتلك الحياة، وأن تلك الحياة لم تُخلق لها.

- الأماكن موجودة يا وِلي.

- أيُّ مكان؟ في أي عالم تعتقد أننا نعيش يا روبرت؟ معجزةٌ أنك تخرج من هذه الأبواب ثم تدخل إلى هذا العالم دون أن يقتلك أحد لأنك تضاجع الزنج...

«كفى!». لم تسمع وِلي في حياتها تلك القوة في صوته.

أدار ظهره ليواجه الجدار، أما هي فاستلقت على ظهرها تحدّق في السقف. بدأت البقعة البنّية الكبيرة على السقف تبدو ناعمة، كما لو أنّ ذلك الشيء كلّه سيسقط فوق رؤوسهم في أي لحظة.

قال روبرت وصوته للجدار: «أنا لم أتغيّر يا وِلي».

فردّت: «نعم. لكنّك لست مثلما كنت أيضًا».

ولم يتحدثا أكثر. في وسطهما بدأ كارسن يشخّر، يعلو شخيره أكثر فأكثر، مثل دمدمةٍ تخرج من بطنه إلى أنفه. بدا الصوت لها مثل خلفيةٍ موسيقية للسقف الذي سيسقط، فبدأت تشعر بالخوف. لو أنّ كارسن كان لا يزال رضيعًا، لو أنهم لا يزالون في «پرات ستي» لكانت أيقظتْه. أما هنا في «هارلم» فلم تستطع أن تتحرك. كان عليها أن تظلّ هناك ثابتة، مع الدمدمة، والسقوط، والخوف.

لم يكن تنظيف نادي الجاز صعبًا. كانت وِلي تودع ابنها عند العجوز بِس قبل وقت العشاء، ثم تتجه إلى المحل رقم 644 في شارع «لينوكس».

كان العمل نفسه الذي تؤديه في بيت مورِس، لكنه مختلف أيضًا. جمهور النادي للبيض فقط، أما الفنانات اللائي يظهرن على المسرح كل ليلة فكنّ مثل ما قال الرجل الهزيل: طويلات، سُمر، رائعات. والمعنى حسب ما فهمتْه وِلي: الطول 5,5 قدم، البشرة فاتحة، السنّ شباب. كانت وِلي تجمع الأوساخ وتنظّف الأرضيات وتمسح، وتطالع الرجال وهمْ يشاهدون الذين فوق المسرح. كان ذلك كلّه غريبًا عليها.

في أحد العروض التي يقيمها النادي، تظاهر أحد الممثلين بأنه تائه في أدغال إفريقية. كان يرتدي إزارًا قصيرًا من العشب، وتغشى رأسه وذراعيه علامات مرسومة. لم يكن يتكلم، بل يجأر. ومن فترة لأخرى يفتُل عضلات بطنه ويخبط على صدره. التقط واحدة من الفتيات الطويلات السمراوات الشابات،

وأسدلها فوق كتفه مثل دمية قماشية. وأخذ الجمهور يضحك، ويضحك.

وذات ليلة استرقتْ وِلي النظر إلى عرضٍ كان من المفترض أن يكون تصويرًا للجنوب الأميركي. ثلاثة ممثلين ذكور، أكثرهم سوادًا كان يقطف القطن على المسرح. ثم بدأ أحدهم يتذمّر. قال إنّ الشمس شديدة الحرارة، والقطن شديد البياض. ثم جلس على طرف المسرح، يؤرجح ساقيه بكسل، للأمام والخلف، للأمام والخلف.

اقترب منه صاحباه ووضعا أيديهما على كتفيه، ثم انطلقوا يغنّون أغنية لم تسمعها ولي من قبل، أغنية تعبّر عن امتنانهم جميعًا بأنّ لهم أسيادًا طيّبين يعتنون بهم. وما إن انتهوا من الأغنية حتى وقفوا وعادوا إلى قطف القطن.

لم يكن هذا هو الجنوب الذي تعرفه وِلي، ولم يكن الجنوب الذي عرفه والداها أيضًا، غير أنها أدركت من أصوات الجمهور أنه لا يوجد من بينهم من وطأت قدماه ذلك الجنوب. كل ما كانوا يريدونه هو أن يضحكوا ويشربوا ويصفّروا للفتيات. شعرت وِلي بما يشبه السعادة أنها كانت الفتاة التي تنظّف المسرح، لا التي تغنّي عليه.

مضى على عمل وِلي هناك شهران، ولم تكن علاقتها على ما يرام بروبرت منذ الليلة التي سألته فيها عن المكان الذي سيسكنون فيه. لم يكن روبرت يعود إلى المنزل في معظم الليالي. حين تعود من النادي، قبل شروق الشمس بساعات، تجد كارسن نائمًا، وحيدًا في الفراش. كان جو يأخذه من شقة بِس بعد انتهائه من التدريس ويضعه على سريره كل ليلة. وحين تصل وِلي تستلقي إلى جانبه وتنتظر، بعينين مفتوحتين، صوت حذاء روبرت قادمًا. حين تسمع «كلوب..كلوب..كلوب» تعرف أنّ زوجها سيكون معها تلك الليلة. فإذا سمعته، أغمضت عينيها سريعًا، ليؤدي الاثنان تمثيلية، مثل أولئك الممثلين على مسرح النادي. كان دور روبرت أن يتسلل إلى جانبها بهدوء، أما دورها فأن لا تسأل عن شيء، وأن تجعله يصدّق أنها ما تزال مؤمنة به، مؤمنة بهما.

خرجت ولي من النادي لإلقاء القمامة، وحين عادت كان رئيسها يمشي

نحوها. بدا منزعجًا، لكنّ ولي لم تلاحظ أنه ينظر إلى أي اتجاهٍ آخر غيرها. كان قد شارك في الحرب وخرج منها بعرجةٍ يحب القول إنها حرمتْه من الحصول على وظيفة محترمة أكثر من هذه. الشيء الوحيد الذي كان يشعره بالسعادة كما يبدو هو الخروج في الهواء الطلق والاتكاء على قرميد البناية، وتدخين سيجارة، بعد سيجارة، بعد سيجارة.

قال وهو يخرج: «تقيّأ أحدهم في حمّام الرجال».

اكتفت وِلي بهزةٍ من رأسها. كان هذا يحدث مرة في الأسبوع على الأقل، وكانت تعرف جيدًا الإجراءات المتبعة دون الحاجة لأن يقول لها أحد ما يتوجب عليها فعله. التقطت دلو الماء والماسحة وانطلقت. دقّت الباب مرةً، ومرتين. لم تسمع جوابًا.

قالت بصوت قويّ: «سأدخل». اكتشفت قبل أسابيع أنه من الأفضل دخول الغرف بقوّة بدلًا من التردد، ذلك أنّ السكارى يميلون إلى فقدان حاسة السمع. وبكل تأكيد كان الرجل داخل الحمّام قد فقد سمعه. كان محدودبًا ووجهه في المغسلة، يتمتم لنفسه.

قالت وِلي معتذرة: «أوه، آسفة». حين استدارت لكي تغادر، رفع الرجل عينيه فأبصر عينيها في المرآة.

- وِلي؟

عرفتْ الصوت مباشرة. لكنها لم تستدر. لم تجبه. كلّ ما خطر في بالها آنذاك هو أنها لم تعرفه.

في وقتٍ من الأوقات، حين كانا مجرد حبيبين يتواعدان، وزوجين في بداية زواجهما، كانت وِلي تقول في نفسها إنها تعرف روبرت أفضل مما تعرف نفسها. والأمر لا يقف عند معرفة لونه المفضل، أو ما يريده للعشاء دون أن يطلب. كان الأمر يتعلق بمعرفة أشياء هو نفسه لا يستطيع أن يسمح لنفسه بمعرفتها. مثل أنه ليس من أولئك الرجال الذين يمكنهم احتمال يدين خفيّتين حول عنقه. مثل أنّ مولد كارسن غيّره، ولكن ليس للأفضل. فقد جعله شديد

الخوف من نفسه، يتساءل دائمًا عن خياراته، ولا يصل أبدًا إلى المعيار الذي وضعه لنفسه، المعيار المتأتي من حبّ والده الوفير، ذلك الحب الذي أتاح له ولأمه الحياة، حتى حين كانت الكلفة عظيمة. لقد أخافها الأمر جدًا، أخافها أنها استطاعت معرفة تلك الأشياء في روبرت، لكنها لم تتعرف على ظهره المحدودب ورأسه المتدلي.

دخل رجلان أبيضان، دون أن يلاحظا وجود وِلي. كان أحدهما يرتدي بدلة رمادية، والآخر زرقاء. فحبست وِلي أنفاسها.

قال الأزرق: «ما زلتَ هنا يا روب؟ البنات سيدخلن المسرح».

سدّد روبرت نظرة يائسة إلى وِلي، بينما تابع الرماديّ الذي لم يتحدث بعد تحديقته إلى جسمها. نظر إليها من الأعلى للأسفل، والابتسامة ترتسم ببطء على وجهه.

هزّ روبرت رأسه. «حسنًا يا شباب، هيا بنا». حاول أن يبتسم، لكنّ أطراف شفتيه سقطت من فورها تقريبًا.

قال الرماديّ: «يبدو أنّ روبرت وجد فتاةً لنفسه».

فقال روبرت: «إنها هنا للتنظيف فقط». ورأتْ وِلي عينيه تستجديانها. هنا فقط أدركت أنها وقعت في مأزق.

قال الرماديّ: «ربما لا نحتاج إلى الخروج أصلًا». أرخى كتفيه، وأمال جسمه على الجدار.

وبدأ الأزرق يكشّر عن ابتسامته أيضًا.

قبضتْ وِلي على الماسحة. «لا بدّ أن أذهب. سيبحث المدير عني». حاولتْ أن تغيّر صوتها كما فعل روبرت، حاولت أن يبدو صوتها مثلهم.

أزال الرماديّ الماسحةَ بعيدًا. «ما زال هناك تنظيف». ومرّر يده على وجهها. بدأت يداه تنزلان على جسمها، وقبل أن تصلا إلى نهديها، بصقتْ في وجهه.

- وِلي، لا!

استدار الاثنان نحو روبرت، والرماديّ يمسح البصقة عن وجهه. سأله الأزرق: «أنت تعرفها؟»، أما الرماديّ فكان قد تجاوزه بخطوات. قرأت وِلي في عينيه أنه يستجمع كل الإشارات في رأسه: ذلك اللون القاتم في بشرة روبرت، والصوت الغليظ، والليالي التي كان يقضيها بعيدًا عن منزله. سدّد نظرة مدمّرة لروبرت. «هذه امرأتك؟».

هنا بدأت عينا روبرت تمتلآن. كانت بشرته شاحبة من أثر التقيّؤ، وقد بدا أنه سوف يتقيأ مرة أخرى في أي لحظة. هزّ رأسه.

قال الرمادي: «طيب. لماذا لا تأتي إلى هنا وتعطيها قبلة؟». بدأ يفكّ سحّاب بنطاله بيده اليسرى، ثم أخذ يحرّك قضيبه باليد اليمنى. «لا تقلق. لن ألمسها».

لم يلمسها. روبرت هو الذي أدّى كل شيء تلك الليلة، بينما كان الأزرق يحرس الباب. لم تكن أكثر من بضعة قبلات ملطّخة بالدموع، ولمسات مُحكَمة. وقبل أن يطلب الرمادي من روبرت أن يولج فيها، قذف. هزّة مصحوبة بأنفاس مسموعة. بعد ذلك، مباشرةً، شعر بالضجر من لعبته.

قال وهو يخرج مع الأزرق: «لا تأتِ للعمل غدًا يا روب».

شعرت وِلي بنسمةٍ صغيرةٍ تأتيها من الباب المنغلق، أوقفت شعر بدنها. كان جسمها كله متصلّبًا كقطعة خشب. مدّ روبرت يده إليها، واستغرق الأمر منها ثانيةً لإدراك أنها كانت ما تزال مسيطرة على جسمها. كان يلمسها في الوقت الذي ابتعدت فيه.

قال: «سأرحل الليلة». كان يبكي مجددًا، وعيناه البنيّتان الخضراوان الذهبيتان تلتمعان خلف الدموع.

غادر الحمّام قبل أن تقول له وِلي إنه كان قد رحل أصلًا.

***

كان كارسن لا يزال يلعق الآيس كريم. يمسكه بيد، وبالأخرى يمسك يد

وِلي. كان ذلك الإحساس بملمس جلده على يديها كافيًا لاستدرار دموعها. أرادت أن تواصل السير، حتى منتصف البلدة إن لزم الأمر. لقد مضى زمن منذ أن رأت ابنها سعيدًا هكذا.

بعد ذلك اليوم مع روبرت، عرض عليها جو الزواج، لكنّها لم تستطع احتمال الفكرة. أخذت ابنها وغادرت الشقة في منتصف الليل، ثم وجدت في الصباح مكانًا لهمّا بعيدًا بما يكفي لكي لا ترى أحدًا تعرفه. لكنها لم تستطع أن تترك «هارلِم»، فبدأ ذلك الطرف الصغير من المدينة العظيمة يضغط على أعصابها. كل الوجوه كانت وجه روبرت، ولا وجه منها وجهه.

لم يكن كارسن يكفّ عن البكاء، حتى بدا وكأنه يبكي أسابيع كاملة. في مسكنها الجديد لم يكن لديها امرأة عجوز تترك ابنها عندها، فأصبحت تتركه وحده حين تذهب للعمل، بعد أن تغلق النوافذ والأبواب وتخفي الأدوات الحادّة. وحين تعود ليلًا تجد أنه نوّم نفسه، والفراش مبتلٌّ بدموعه التي لا تغيب.

كانت تعمل في وظائف متعددة لا نظامية، أغلبها في التنظيف، لكنها كانت تذهب بين فترةٍ وأخرى لاختبارات الأداء. كانت تلك الاختبارات تنتهي دائمًا بالطريقة نفسها. تقف على المسرح يملؤها الشعور بالثقة. ينفتح فمها، ولكن لا صوت يخرج. وما تلبث أن تنفجر باكيةً وتتوسّل الشخص الذي أمامها أن يغفر لها. أحدهم قال لها ذات مرة أن تذهب إلى الكنيسة إن كانت تريد المغفرة.

وهكذا فعلت. لم تذهب وِلي إلى الكنيسة منذ أن غادرت «پرات ستي»، أما الآن فأصبحت لا تكتفي منها. في كل أحدٍ تسحب ابنها، الذي أصبح في سنّ الخامسة الآن، إلى الكنيسة المعمدانية في شارع 128 غربًا، بين شارع «لينوكس» والشارع 7. وهناك التقت (إيلاي).

كان من الذين يذهبون إلى الكنيسة بين مدةٍ وأخرى، لكنّ المصلّين كانوا يسموّنه الأخ إيلاي، فقد كانوا يرون أنّ فيه ثمرةً من الروح القدس. لم تكن وِلي تعرف أي ثمرة. كان قد مضى عليها شهرٌ وهي تذهب إلى الكنيسة، تجلس في الصف الأخير وتضع ابنها في حِجرها، رغم أنه أصبح كبيرًا جدًا على جلسة

الحِجر، وكان وزنه يؤلم ساقيها. دخل إيلاي الكنيسة يحمل كيسًا من التفاح إلى جانبه، واستند على الباب الخلفي.

قال الواعظ: «سقطت نار الله من السماء وأحرقت الغنم والرّعيان وأكلتهم، ونجوتُ أنا وحدي لأخبرك»[8].

فقال إيلاي: «آمين».

رفعت وِلي عينيها ناحيته، ثم أعادتهما إلى الواعظ الذي كان يقول: «هبّت ريح شديدة طلعت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع، فسقطت عليهم فماتوا، ونجوتُ أنا وحدي لأخبرك».

فقال إيلاي: «تبارك الرب».

خشخش الكيس، ورفعت وِلي عينيها فرأت إيلاي يتناول تفّاحة. غمزها وهو يقضم التفاحة، فأشاحت وجهها بسرعة إلى الواعظ. «الربّ أعطى والربّ أخذ تبارك اسم الربّ».

تمتمت وِلي: «آمين». بدأ كارسن يتململ فهزّته على ساقها قليلًا، لكنّه تضايق أكثر. ناوله إيلاي تفاحة، فأمسكها بيديه، فاغرًا فمه لآخره، كي يأخذ قضمةً صغيرة.

قالت له وِلي: «شكرًا».

أمال إيلاي رأسه على الباب وهمس: «تعالَي نمشي معًا». تجاهلته وهي تساعد كارسن على الإمساك بتفاحته كي لا تسقط على الأرض.

فكرّرها إيلاي بصوتٍ أعلى: «تعالَي نمشي معًا». أسكتَه أحدهم، وخشيت وِلي من أن يكرّر ذلك بصوتٍ أعلى، فنهضت من كرسيّها وخرجت معه.

أمسك إيلاي يد كارسن وهم يمشون. في «هارلم» كان من المستحيل أن لا تمرّ بشارع «لينوكس». كان مكانًا يجتمع فيه كلّ ما هو قذر، وصالح، وقبيح، وجميل. كان نادي الجاز لا يزال في مكانه، وحين مرّوا أمامه ارتعشت وِلي.

---

(8) هذه العبارة والتي تليها من كلام الواعظ مأخوذة نصًا من الترجمة العربية للكتاب المقدّس، سفر أيوب، الإصحاح الأول، الآيات 16 و 19 و 21: www.bible.com

سألها إيلاي: «ماذا هناك؟».

- شعرتُ ببردٍ فقط.

أحسّت وِلي كما لو أنهم قطعوا «هارلم» كلّها مشيًا، ولم تستطع أن تتذكر متى مشت هكذا آخر مرة. لم تصدّق أيضًا أنّهم مشوا تلك المسافة كلها دون أن يبكي كارسن. كان منشغلًا بتفاحته، وبدا سعيدًا جدًا حتى أنّ وِلي أرادت أن تعانق إيلاي لأنه أعطاه تلك القطعة الصغيرة من الهدوء.

حين وجدوا أخيرًا مكانًا يجلسون فيه قالت وِلي: «ماذا تعمل؟».

- أنا شاعر.

- وهل تكتب قصائد جيدة؟

ابتسم إيلاي، وتناول لبّ التفاحة الذي كان يتدلّى من يدي كارسن. «لا، ولكن لديّ إنتاجٌ غزير من القصائد السيئة».

ضحكت وِلي وسألته: «وما قصيدتك المفضّلة؟». فهبّ مقتربًا منها على الكرسي، وشعرتْ بأنفاسها تتلاحق. لم يحدث لها ذلك أمام رجلٍ منذ اليوم الذي قابلت فيه روبرت أول مرة.

قال إيلاي: «الكتاب المقدّس أفضل ما يوجد من الشعر».

- إذًا لماذا لا أراك كثيرًا في الكنيسة؟ ربما يجدر بك أن تدرس الكتاب المقدّس.

هنا جاء دوره في الضحك. «على الشاعر أن يعيش أكثر مما يدرس».

واكتشفتْ وِلي أنه كان «يعيش» كثيرًا. في البداية كانت تستخدم الكلمة نفسها أيضًا. كانت صُحبته فَورةً عارمة. لفّ بها مدينة «نيويورك» وأخذها إلى أماكن لم تكن لتحلم بالذهاب إليها قبله. كان يريد أن يأكل كل شيء، ويجرّب كل شيء. لم يكن يعبأ بشحّ المال. وحين حبلت، بدأت روحه المغامرة تكبُر أكثر، على العكس من روبرت. فمولد كارسن جعله يريد أن يمدّ جذوره في الأرض، في حين أنّ مولد (جوزِفين) جعل إيلاي يودّ لو تنبت له أجنحة.

لم تكد الطفلة تخرج من بطن أمها حتى طار إيلاي. وفي المرة الأولى

كانت ثلاثة أيام.

عاد إلى البيت ورائحة الكحول تفوح منه. «كيف طفلتي؟». هزهز أصابعه أمام وجه جوزِفين، فتابعتها بعينيها.

«أين كنتَ يا إيلاي؟». حاولت وِلي ألا تُظهر الغضب في صوتها، رغم أنّها لم تشعر بشيء سوى الغضب. تذكّرت كيف كانت تمكث هادئة في الليالي التي يعود فيها روبرت بعد غياب، ولم تشأ أن تكرر الخطأ.

- أوه، مستاءة مني يا وِلي؟

مال كارسن على ساق بنطاله. «عِندكَ تفاح يا إيلاي؟». كان قد بدأ يشبه روبرت، ولم تكن وِلي تطيق الأمر. في ذلك الصباح قصّت شعره، وكلما قصر شعره كلما ظهر روبرت أكثر. كان كارسن يركل ويصرخ ويبكي وهي تقصّ شعره. وحين ضربتْه على مؤخرته هدأ، لكنه سدّد إليها نظرة شريرة، فلم تدرِ أيهما كان أسوأ. خطر لها أنّ ابنها قد بدأ يكرهها بقدر ما كانت هي تصارع كي لا تكرهه.

قال إيلاي وهو يخرج تفاحة من جيبه: «طبعًا، لديّ تفاحة لك يا سَني».

صرّت وِلي بأسنانها وقالت: «لا تناديه بهذا الاسم». كان يذكّرها بالرجل الذي تحاول نسيانه.

هوى وجه إيلاي قليلًا، ثم فرك عينيه. «آسف يا وِلي، طيب؟ أنا آسف».

صاح كارسن: «اسمي سَني». عضّ التفاحة وأكمل: «أحبّ أن أكون سَني!»، بينما عصارة التفاح تنبجس من فمه.

بدأت جوزفين تبكي، فالتقطتها وِلي وأخذت تهدهدها. «ارتحتَ الآن؟». وظلّ إيلاي يفرك عينيه.

كبر الأطفال. كانت وِلي في بعض الأحيان ترى إيلاي كل يوم مدّة شهر. كان هذا حين تتدفق القصائد، وبعض المال. تعود وِلي إلى المنزل بعد تنظيف بيتٍ من البيوت، فتجد مِزقًا وحُزمًا من الأوراق في الشقة كلها. بعض الأوراق تحمل كلمة واحدة، مثل «فلايت» أو «جاز». وبعضها تحمل قصائد كاملة. وجدت

وِلي ورقةً عليها اسمها، فجعلها ذلك تشعر أنّ إيلاي ربما جاء هذه المرة ليبقى.

لكنه غاب بعد ذلك. وتوقّف المال. في البداية كانت وِلي تأخذ صغيرتها معها إلى العمل، لكنها فُصلت من وظيفتين لهذا السبب، فبدأت تتركها مع كارسن، إذْ لم تستطع أن تجعله يستمر في الدراسة. طُردوا من مسكنهم ثلاث مرات خلال ستة أشهر، رغم أنه في ذلك الوقت كان كل من تعرفه يتعرض للطرد، فيعيش مع عشرين شخصًا غريبًا في شقة واحدة، يقتسمون سريرًا واحدًا. وكُلما طُردوا من مسكن أخذت تنقل أغراضها القليلة مسافة مجمّع سكنيّ واحد لا أكثر. كانت تقول لصاحب المسكن الجديد إنّ زوجها شاعر مشهور، وهي تعلم جيدًا أنه ليس زوجًا ولا مشهورًا . ذات مرة عاد إلى المنزل ليلةً واحدة فقط، فصاحت فيه: «لا يمكن أن نأكل قصيدةً يا إيلاي». ولم تره مرة أخرى إلا بعد ثلاثة أشهر.

حين بلغت جوزفين سنّ الرابعة، وبلغ كارسن العاشرة، انضمّت وِلي إلى جوقة الكنيسة. كانت تريد ذلك منذ أول يوم سمعتهم يغنون فيه، بيد أنّ المسارح كانت تذكّرها بنادي الجاز، حتى وإن كان المسرح عبارة عن قاعة كنيسة. ثم التقت إيلاي وتوقفت عن الذهاب إلى الكنيسة. وحين يغيب تعود إلى الكنيسة. في نهاية المطاف ذهبت إلى تدريبٍ على الغناء لكنها كانت تقف في الخلف في هدوء، تحرّك شفتيها، دون أن يخرج شيء منهما.

اقتربت وِلي وابنها من حدود «هارلم». كان كارسن يطحن البسكوتة بأسنانه وينظر إليها في تشكّك، فابتسمت له تطمئنه، مع أنها كانت تعرف، وهو يعرف، أنّ عليهما العودة عمّا قريب. حين تبدأ الألوان تتغير، لا بدّ أن يعودا أدراجهما.

لكنهما لم يرجعا. كثير من البيض حولهما، حتى أنّ وِلي بدأت تشعر بالذعر، فأمسكت بيد ابنها. كانت أيام الاندماج بين السود والبيض في «پرات ستي» قد وّلت منذ زمن، وشعرتْ وِلي كما لو أنها كانت مجرد أحلام في منامها.

حاولت أن تتضاءل، فضمّت يديها إلى جنبيها وأخفضت رأسها. وشعرت بكارسن يفعل ذلك أيضًا. عبرا مسافة مجمّعين سكنيين على هذا النحو، أمام البقعة التي غاب فيها بحر «هارلم» الأسود، وحلّت محله اندفاعةٌ بيضاء من بقية العالم. توقفا أخيرًا عند تقاطع طرق.

كان هناك الكثير من الناس يمشون حولهم، حتى أنّ وِلي فوجئت أنها لاحظت. لكنها لاحظت.

كان روبرت. جاثيًا على ركبةٍ واحدة، يربط حذاء صبيّ صغير ربما في الثالثة أو الرابعة من عمره. وعلى الجانب الآخر امرأة ممسكة بيد الصغير. كان للمرأة شعر أشقر مموّج قصير، فأطول خصلاته كانت بالكاد تلمس طرف ذقنها. انتصب روبرت واقفًا. قبّل المرأة، فانحشر الصغير بينهما للحظة. ثم رفع روبرت بصره باتجاه التقاطع. والتقت عيناه بعيني وِلي.

مرّت السيارات، فمال كارسن على أمه. «ألن نعبر يا ماما؟ السيارات ذهبت. يمكننا أن نعبر».

في الشارع المقابل كانت شفتا المرأة الشقراء تتحركان. لمستْ كتف روبرت.

ابتسمت وِلي لروبرت، وهنا فقط أدركت أنها سامحتْه. لقد شعرت كما لو أنّ الابتسامة قد فتحت صمّامًا، كما لو أنّ ضغط الغضب والحزن والحَيرة والفقد قد انفجر منها، وارتفع إلى السماء بعيدًا. بعيدًا.

ردّ روبرت الابتسامة، لكنه سرعان ما التفت إلى الشقراء، ومضى الثلاثة في اتجاه مختلف.

تابع كارسن نظرة أمه إلى المكان الذي كان فيه روبرت. «ماما؟».

هزّت وِلي رأسها. «لا يا كارسن. لا يمكننا أن نبتعد أكثر. أظنّ أنه علينا الرجوع».

في ذلك الأحد امتلأت الكنيسة. كان ديوان الشعر الذي كتبه إيلاي مُعدًا

للنشر في الربيع، وكان سعيدًا جدًا أنه مكث مدةً أطول من أيّ مرة سابقة تذكرها وِلي. جلس في الصف الأوسط وجوزفين في حضنه، وكارسن إلى جانبه. ذهب القسّ إلى المنبر وقال: «أهل الكنيسة، أليس الرب عظيمًا؟».

- آمين.
- أهل الكنيسة، أليس الرب عظيمًا؟
- آمين.
- أهل الكنيسة. أقول لكم إنّ الربّ أحضرني اليوم إلى الجانب الآخر. يا أهل الكنيسة، إني أضع صليبي، ولن أحمله ثانية أبدًا.

وجاءت الصيحة: «المجدُ، تبارك الرب، هاليلويا».

كانت وِلي واقفة في مؤخرة الجوقة تمسك بدفتر الترانيم حين بدأت يداها ترتعشان. كانت تفكّر في اتش حين يعود إلى البيت كل ليلة من المناجم بمعوله ومجرفته. كان يضعهما على الشرفة ويخلع حذاءه قبل الدخول كي لا توبّخه إيثي لو أدخل غبار الفحم إلى المنزل الذي كانت تحافظ على نظافته. كان يقول إنّ أفضل لحظات يومه حين يضع المجرفة ويدخل البيت ليرى ابنتيه في انتظاره.

نظرت وِلي إلى الصفوف. كان إيلاي يهزّ جوزفين على ركبتيه، والصغيرة تبتسم. يدا ولي ما تزالان ترتعشان، وفي لحظة من الهدوء المطبق، أسقطت دفتر الترانيم على المسرح بصوتٍ مكتوم مدوّ. الجميع في قاعة الكنيسة التفتوا إليها، الحضور والقس، والأخت دورا والأخت بيرثا، والجوقة بأكملها. تقدّمت، وهي ما تزال ترتعش، وغنّت.

ياو

كانت رياح الهارمَتّن قادمة، ورأى (ياو) الغبار يتطاير من الطين اليابس إلى صفّه في الطابق الثاني من المدرسة في «تاكردي»، حيث لا يزال يدرّس منذ عشر سنوات. وأخذ يفكر تُرى كيف ستكون الرياح هذا العام. حين كان في الخامسة من عمره، في «إجيسو»، كانت الرياح شديدةً للغاية، تقتلع جذوع الشجر. والغبار كان كثيفًا جدًا، حتى أنه لو أخرج أصابعه لا يكاد يراها.

قلّب ياو أوراقه. أتى إلى الصف في العطلة الأسبوعية قبل بدء الفصل الثاني لكي يفكّر، ويكتب ربّما. تأمّل عنوان كتابه: **دعوا الأفارقة يملكون إفريقيا.** كتب حتى الآن مئتي صفحة، ومزّق مثلها تقريبًا. حتى العنوان نفسه بدأ يزعجه الآن. قرّر تأجيل الأمر، إذْ أدرك أنه قد يُقدم على شيءٍ متهوّر. أن يفتح نافذته ربما، ويترك الريح تحمل الأوراق بعيدًا.

«أنت تحتاج إلى زوجة، سيّد إيجيكم، لا إلى ذلك الكتاب السخيف». كان ياو يتناول عشاءه في منزل (إدوَرد بُواهن) للمرة السادسة في ذلك الأسبوع، وبحلول يوم الأحد سيكون قد قضى أسبوعًا يتناول عشاءه هناك. كان يطيب لزوجة إدوَرد أن تتذمّر من أنها متزوجة من رجلين لا رجل واحد، لكنّ ياو كان يطري على طبخها كثيرًا، فيعرف أنها سوف ترحّب به.

سألها ياو: «ولماذا أحتاج إلى زوجةٍ وأنتِ موجودة؟».

فقال إدوَرد: «هيه، احترس!»، متوقفًا لأول مرة عن دفع الطعام إلى فمه

منذ أن وضعتْ زوجته العشاء.

كان إدوَرد معلّم الحساب في المدرسة الكاثوليكية الرومانية في «تاكردي»، وهي نفسها التي يعلّم فيها ياو التاريخ. عرف الاثنان بعضهما في مدرسة أتشيموتا في «أكرا»، وكان ياو يعتزّ بهذه الصداقة أكثر مما يعتزّ بأغلب الأشياء الأخرى.

قال ياو: «الاستقلال آتٍ». فأطلقت السيدة بواهن واحدةً من تنهيداتها العميقة. «إن كان آتيًا، فليأتِ. تعبتُ من سماعك تتحدث عنه. ماذا سيفيدك هذا الاستقلال إن لم يكن لديك شخص يطبخ عشاءك؟»، وانطلقتْ إلى البيت الحجري الصغير كي تحضر مزيدًا من الماء، فضحك ياو. خطر له التوصيف الذي قد يُوضع تحت اسمها في الصحف الثوريّة: «امرأة نمطيّة من ساحل الذهب، تهتمّ بالعشاء أكثر من اهتمامها بالحرية».

قال إدوَرد: «ما تحتاج إليه هو ادّخار مزيدٍ من المال للسفر إلى إنجلترا أو أميركا لمواصلة تعليمك. لا يمكنك أن تقود ثورةً من طاولة المعلّم».

- لقد كبرتُ على الذهاب إلى أميركا الآن. كبرتُ على الثورة أيضًا. أضف إلى ذلك أننا إذا ذهبنا إلى الرجل الأبيض للدراسة، فلن نتعلّم إلا بالطريقة التي يريدها الأبيض لنا. سنعود ونبني الدولة التي يريدها الأبيض لنا. دولة تستمر في خدمتهم. لن نصبح أحرارًا أبدًا.

فهزّ إدوَرد رأسه. «أنت عسير جدًا يا ياو. لا بدّ أن نبدأ من مكانٍ ما».

«إذًا فلنبدأ بأنفسنا». وهذا تحديدًا موضوع كتابه، لكنه لم يقل المزيد، إذْ كان يعرف الجدل الذي سينتج من ذلك. لقد وُلد الرجلان في الفترة التي ضُمّت فيها أرض الأشانتيين إلى المستعمرة البريطانية، وقاتل والداهما في حروبٍ عديدة من أجل الحرية. كانت أهدافهم واحدة، لكنّهما يختلفان في الطرق الموصلة إليها. والحقيقة أنّ ياو لم يرَ أنه يستطيع أن يقود ثورةً من أي مكان. فلا أحد سيقرأ كتابه، حتى لو أنهاه.

عادت السيدة بواهن مع طاسة كبيرة من الماء، فبدأ الرجلان يغسلان أيديهما.

- سيّد إيجيكم، أعرف فتاةً جيدة. ما تزال في سنوات الإنجاب، لذلك لا داعي للقلق—

«عليّ الذهاب»، قاطعها ياو. كان يُدرك فظاظته، فالسيدة بواهن لم تكن مخطئة. صحيح أنها غير مضطرة إلى أن تطبخ له، لكنه شعر أنها لا تملك الحق في أن تعطيه دروسًا أيضًا. صافح إدورد، وصافح السيدة بواهن، ثم غادر إلى بيته الصغير في أرض المدرسة.

وهو يمشي هناك في أرض المدرسة رأى الأولاد يلعبون كرة القدم. كانوا رشيقين، متحكمين تمامًا في حركات أجسامهم، ولديهم جرأة في حركاتهم لم يكن يملكها حين كان في مثل سنّهم. وقف يتفرّج عليهم لحظةً، وسرعان ما جاءت الكرة تطير نحوه. التقفها، وشعر بالامتنان لذلك القدر الضئيل من الرياضة.

لوّحوا له، وأرسلوا تلميذًا جديدًا كي يحضر الكرة. سار الولد مبتسمًا في أول الأمر، لكنه حين اقترب اختفت ابتسامته وحلّت ملامح الخوف مكانها. وقف أمام ياو دون أن ينبس ببنت شفة.

سأله ياو: «هل تريد الكرة؟». هزّ الولد رأسه بسرعة، دون أن يُبعد عينيه عن ياو.

ألقى ياو الكرة، بقوةٍ أكبر بكثير مما كان يريد، فالتقطها الولد وركض.

سمعه ياو يقول حين اقترب من الآخرين: «ما بال وجهه؟». ولكنْ قبل أن يجيبوه كان ياو قد انصرف.

كانت تلك هي السنة العاشرة لياو في عمله في المدرسة. وكلّ سنةٍ كانت كأختها. الدفعة الجديدة من التلاميذ سوف تزهر في أرض المدرسة عمّا قريب، بشعورهم المقصوصة، وزيّهم المدرسيّ المكويّ. سيجلبون جداولهم وكتبهم والنقود القليلة التي استطاع ذووهم أو أهل قريتهم أن يجمعوها لهم. وسوف يسأل بعضهم بعضًا من يعلّم هذه المادة أو تلك، وحين يقول أحدهم المستر

إيجيكم، سوف يحكي تلميذ آخر القصة التي كان قد سمعها أخوه الأكبر أو ابن عمه من قبل عن معلّم التاريخ.

في اليوم الأول من الفصل الثاني راقب ياو التلاميذ الجدد وهم يسيرون على مهل. كانوا دائمًا أطفالًا مؤدبين، إذْ يجري انتقاؤهم على أساس الذكاء أو الثروة كي يلتحقوا بهذه المدرسة، ويتعلموا كتاب الرجل الأبيض. في الممرات يعلو صخبهم، ويمكن للمرء أن يتخيل كيف كانوا في قراهم، يتصارعون ويغنّون ويرقصون قبل أن يعرفوا ما هو الكتاب، قبل أن يدرك أهلُهم أنّ الكتاب شيءٌ يمكن أن يريده الطفل، بل يمكن أن يحتاج إليه. وحين يصلون إلى الصف، وفور أن توضع الكتب المدرسية على الطاولات الخشبية الصغيرة، يغشاهم الهدوء والذهول. كانوا هادئين جدًا في ذلك اليوم الأول، حتى أنّ ياو كان يسمع صغار الطيور على إفريز النافذة وهي جائعة تطلب الطعام.

قال ياو: «ما المكتوب على السبّورة؟». كان يدرّس تلاميذ الصف الأول، وهم غالبًا في سنّ الرابعة عشرة والخامسة عشرة، وقد تعلّموا سابقًا القراءة والكتابة بالإنجليزية. حين حصل ياو على وظيفته هذه تجادل مع مدير المدرسة مطالبًا بالسماح له بأن يدرّس التلاميذ بلغاتهم المحليّة، لكنّ المدير اكتفى بالضحك. كان ياو يُدرك أنها أمنية حمقاء؛ فاللغات هناك كثيرة جدًا ولا تسمح بمجرد المحاولة.

راقبهم ياو. كان يمكنه دائمًا تحديد التلميذ الذي سيرفع يده قبل الآخرين، يعرف ذلك من الطريقة التي يجلس بها متحفّزًا ويحرّك عينيه هنا وهناك ليرى إن كان هناك أحد سيسبقه في الحديث. هذه المرة كان الذي رفع يده صبيّ صغير اسمه (پيتر).

قال پيتر: «مكتوب: التاريخُ سردُ القصص». ثم ابتسم وقد أطلق السعادة المكبوتة داخله.

كرّر ياو بعده: «التاريخُ سردُ القصص». ثم سار بين صفوف المقاعد، يحرص على النظر إلى كل ولد في عينيه. وحين انتهى وقف في مؤخرة

الصفّ، والأطفال يمطّون رقابهم كي يروه. سألهم: «من يريد أن يروي لنا كيف تَشوّه وجهي؟».

تلوّى التلاميذ في مقاعدهم، وأطرافهم ترتعش. نظر كلّ منهم إلى الآخر، وسعل، وأشاح بوجهه.

قال ياو مبتسمًا يهزّ رأسه كي يشجّعهم: «لا تخجلوا. بيتر؟». الولد الذي كان سعيدًا جدًا بالكلام قبل لحظات أصبح الآن يستجدي بعينيه. كان اليوم الأول في الدراسة دائمًا اليوم المفضّل لياو.

- نعم، مستر إيجيكم.

فسأله ياو محتفظًا بابتسامته كي يطرد بعض الخوف المتنامي في نفس الطفل: «ما القصة التي سمعتها؟ عن تشوّه وجهي».

بلع بيتر ريقه ونظر إلى الأرض. «يقولون إنك وُلدت من النار. ولذلك أنت ذكيّ جدًا. لأنّ النار أشعلتْك».

- هل من قصةٍ أخرى؟

على استحياء، رفع ولد اسمه (إدم) يده. «يقولون إنّ أمّك كانت تقاتل أرواحًا شريرة من الأسامانْدو».

ثم (وِليَم): «سمعتُ أنّ أباك كان حزينًا جدًا لهزيمة الأشانتيين، فأخذ يلعن الآلهة، فانتقمتْ منه».

ثم ولد اسمه (تومَس): «سمعتُ أنك فعلتَ هذا بنفسك، كي تكون لك قصة تتحدث عنها في أول يوم».

ضحك الأولاد جميعًا، واجتهد ياو في إخفاء شعوره بالتسلية. كانوا يتناقلون ما يحدث في صفّه، يعرف ذلك. كان الأولاد الكبار يخبرون الصغار.

عاد إلى مقدمة الصفّ لينظر إلى تلاميذه، أولئك التلاميذ الأذكياء في ساحل الذهب الحائر، يتعلّمون الكتاب الأبيض من رجلٍ مشوَّه.

سألهم ياو: «أيّ قصةٍ هي الصحيحة؟». نظر الأولاد إلى زملائهم الذين تكلّموا، كما لو أنهم يحاولون تحديد ولاءاتهم، وإعطاء أصواتهم بالنظرات.

وحين خفتَ صوتُ التمتمات أخيرًا، رفع بيتر يده. «مستر إيجيكم، لا يمكننا أن نعرف أيَّ قصةٍ هي الصحيحة». نظر إلى زملائه وهو يستوعب على مهل. «لا يمكننا أن نعرف أيَّ قصةٍ هي الصحيحة لأننا لم نكن هناك».

هزّ ياو رأسه. جلس على مقعده في مقدّمة الصفّ ونظر إلى هؤلاء الصغار. «هذه مشكلة التاريخ. لا يمكننا معرفة الذي لم نكن موجودين فيه كي نرى ونسمع ونعرف بأنفسنا. علينا أن نعتمد على كلام الآخرين. أولئك الذين كانوا في الأيام الخالية، قالوا قصصًا للأطفال، كي يعرفوا، وكي يمكن لهؤلاء الأطفال أن يخبروا أطفالهم. وهكذا، وهكذا. وهنا نأتي إلى مشكلة القصص المتضاربة. كُوجو إنْياركو يقول إنه حين جاء المقاتلون إلى هذه القرية كانت معاطفهم حمراء، لكنّ كْوامي أدُو يقول إنها كانت زرقاء. قصةُ من نصدّق إذًا؟».

لم يتكلم أحد. حدّقوا فيه في انتظار.

- نحن نصدّق من يملك السلطة؛ فهو الذي يُتاح له أن يروي القصة. لذلك، فعندما تدرسُ التاريخ عليكَ أنْ تسأل نفسك: ما القصةُ المفقودة هنا؟ ما الصوتُ الذي تعرّض للقمع كيما يمكن لهذا الصوت أن يظهر ويتفرّد؟ وحين تعرفُ الإجابة، عليكَ أن تعثر على تلك القصة أيضًا. عندها، تتضحُ الصورة أكثر، وإنْ ظلّت منقوصة.

هدوء تام في الصفّ. الطيور على الإفريز ما تزال تنتظر الطعام، ما تزال تصرخ في طلب أمها. أمهل ياو تلاميذه بعض الوقت ليفكّروا في ما قاله، ويعلّقوا. ولكنْ حين ظلّوا صامتين قال: «لنفتح الكتاب، الصفحة——».

تنحنح أحد التلاميذ، فرفع ياو عينيه ورأى وِليَم رافعًا يده. أومأ للصبيّ أن يتكلم.

- ولكنْ مستر إيجيكم، حتى الآن لم تخبرنا كيف تشوّه وجهك.

شعر ياو بجميع الأولاد ينظرون إليه، لكنه أبقى رأسه مخفضًا. قاوم الرغبة في أن يضع يده على الجانب الأيسر من وجهه، ويتحسس الجلد البارز بدوائره وخطوطه التي كانت في طفولته تذكّره بالخرائط. كان يريد من تلك

الخارطة أن تقوده إلى خارج «إجيسو»، وهذا ما فعلته على نحوٍ ما. كانت قريته لا تقوى على النظر إليه، فجمعوا له مالًا لكي يرسلوه إلى مدرسةٍ يتعلّم فيها، لكنّهم أيضًا -كما اعتقد ياو- لم يرغبوا في شيء يذكّرهم بعارهم. من جهةٍ أخرى لم تقده تلك الخارطة إلى أي مكان. فلم يتزوج، ولم يصبح قائدًا. لقد جاءت «إجيسو» معه.

لم يلمس ياو وجهه. وضع كتابه على الطاولة بهدوء، وذكّر نفسه أن يبتسم. «كنتُ مجرد طفلٍ رضيع. وكلّ ما أعرفه هو ما سمعتُه».

الذي سمعه هو أنّ مجنونةَ «إجيسو» الهائمة، أمّه أكويا، أشعلت النار في الكوخ بينما كان هو (الرضيع) وأختاه نائمين. أنّ أباه، أساموا الأعرج، استطاع أن ينقذ واحدًا منهم فقط، ابنه. أنّ الأعرج أنقذ المجنونة من الحَرق. أنّ تلك المجنونة والأعرج نُفيا إلى ضواحي البلدة. أنّ البلدة جمعت نقودًا كي تُرسل الولد المشوَّه إلى المدرسة، وهو لا يزال صغيرًا لم ينسَ بعد صدر أمّه. أنّ الأعرج مات حين كان الولد المشوَّه لا يزال في المدرسة. أنّ المجنونة ظلّت حية.

لم يعد ياو إلى «إجيسو» منذ أن غادرها. ظلت أمّه ترسل له الرسائل سنةً وراء أخرى، وكلها مكتوبة بخط أي أحدٍ استطاعت إقناعه بأن يكتب لها في ذلك اليوم. كانت تتوسّل ابنها أن يأتي لرؤيتها، لكنه لم يردّ على رسائلها أبدًا، فتوقفّت في نهاية المطاف. في ذلك الزمان كان يقضي إجازاته المدرسية مع عائلة إدورد في «أوسيم». استضافوه كما لو أنه ابنهم، وأحبَّهم كما لو أنه واحد منهم. حبٌّ لا يقبل التبرير أو التشكيك، كأنْ يحبّ المرء كلبًا ضالًا يتبعه من العمل إلى منزله كل مساء وهو سعيد، لا لشيء إلا لأنه يسمح له بالمشي إلى جانبه. في «أوسيم» التقى بأول فتاةٍ نبض لها قلبُه. ولأنه كان يحب الشعراء الرومنسيين أكثر من غيرهم، فقد أمضى لياليه في «أوسيم» يستنسخ أشعار (ووردزورث) و(بليك) على أوراق الشجر، يبعثرها عند النهر في المكان الذي كانت تذهب إليه الفتاة لجلب الماء.

أمضى أسبوعًا كاملًا على هذا النحو، وهو يعلم أنّ كلمات الإنجليز البيض لن تحرّك شيئًا فيها، وأنها لا تستطيع قراءتها. كان يعلم أنها سوف تضطر إلى المجيء إليه لتعرف المكتوب على الأوراق. كان هذا ما يشغله كل ليلة، أن تأتي الفتاة ومعها أوراق الشجر كي يقرأ لها قصيدة «حُلم»، أو «خاطر ليلي».

لكنها ذهبت إلى إدوَرد، وهو الذي قرأ الأشعار لها، ثم قال لها إنّ ياو هو الذي كتب القصائد على ورق الشجر.

قال إدورد: «إنه معجبٌ بك. ربما سيطلب يدك للزواج يومًا ما».

لكنّ الفتاة هزّت رأسها وطقت لسانها في نفور. «إنْ تزوّجته سيصبح أطفالي قبيحين».

في تلك الليلة كان ياو مستلقيًا إلى جانب إدورد في غرفته، يستمع إلى صديقه العزيز وهو يقول له إنه شرح للفتاة أنّ تلك التشوّهات لا تُورَّث.

والآن، وقد شارف ياو على بلوغ الخمسين من عمره، لم يعد متأكدًا ما إذا كان يصدّق ذلك أم لا.

انتهى الفصل الدراسي. وفي شهر حزيران/يونيو أطلق زعيمٌ سياسي من «انكروفُل» يُدعى (كْوامي انْكروما) حزب المؤتمر الشعبي، وما لبث إدورد أن انضمّ إليه. «الاستقلال آتٍ يا أخي». كان يحبّ أن يقول ذلك لياو حين يتناول العشاء معه ومع زوجته. لكنّ تلك الزيارات كانت تقلّ شيئًا فشيئًا. فالسيدة بواهن كانت تترقب وصول طفلها الثالث، وكان الحمل عسيرًا. كان عسيرًا جدًا حتى أنّها وزوجها لم يعودا يستضيفان الآخرين. بدأ الأمر مع المعلمين الآخرين وأصدقاءهم في البلدة، ثم لاحظ ياو أنّ الترحيب به هو أيضًا قد بدأ يخفت.

وهكذا جلب ياو فتاةً لخدمته في المنزل. كان في السابق يرفض أن يحضر أي أحدٍ إلى بيته. فهو قادر على طبخ بضعة أكلات، ويستطيع أن يجلب الماء ويغسل ثيابه. لم يكن يحافظ على ترتيب منزله كما كان معتادًا في المدرسة، لكنّه لا ينزعج من ذلك. كان يفضّل العيش مع البعثرة والأطباق البسيطة لو

كان هذا هو الثمن الذي سوف يدفعه لكي لا يكون معه شخص آخر في المنزل، ينظر إليه.

قال إدورد: «هذا سخف! أنت معلّم، والناس تحدّق فيك طول النهار».

بالنسبة إلى ياو كان الأمر مختلفًا. فهناك في مقدمّة الصفّ كان شخصًا آخر. كان ممثّلًا، على طريقة الراقصين والحكّائين. أما في المنزل فكان هو على حقيقته. خجولًا وحيدًا، غاضبًا ومُحرجًا. لم يكن يريد أن يراه أحد هناك.

تفحّص إدورد جميع المتقدّمات للعمل بنفسه، وفي النهاية اختيرت (إستر)، الفتاة الأهانتيّة من «تاكردي» نفسها. كانت إستر فتاة عادية جدًا، بل ربما قبيحة. لها عينان كبيرتان جدًا بالنسبة إلى رأسها، ورأس كبير جدًا بالنسبة إلى جسمها. في اليوم الأول قادها ياو إلى غرفتها التي ستسكن فيها في الجانب الخلفي من المنزل، وأخبرها أنه يقضي معظم وقته في الكتابة، وطلب منها أن لا تزعجه. ثم عاد إلى مكتبه.

كان الكتاب الذي يكتبه قد بدأ يتعسّر. القادة السياسيون لحركة الاستقلال في ساحل الذهب (الستة الكبار) تلقّوا تعليمهم في أميركا وإنجلترا، وعلى حدّ علمه فقد كانوا جميعًا مثل إدورد؛ صبورين لكنّهم أقوياء، واثقين من الاستقلال. كان ياو يقرأ أكثر فأكثر عن حركة السُود في أميركا نحو الحرية، وكان معجبًا بالغضب الذي يشتعل في كل جملةٍ من كتبهم. كان يريد الشيء نفسه في كتابه. أن يكون فيه غضب أكاديمي. لكنّه لم يستطع أن يقدّم فيه سوى التذمّر الرتيب.

- معذرة، سيدي.

رفع ياو عينيه عن كتابه. كانت إستر واقفة أمامه مع مكنسة طويلة مصنوعة يدويًا أصرّت على إحضارها معها، رغم أن ياو أخبرها أنّ لديه الكثير من المكانس.

- لستِ مضطرة إلى الحديث بالإنجليزية.

- نعم، سيدي. لكنّ أختي تقول إنك معلّم. لذلك عليّ أن أتحدث بالإنجليزية.

بدت الفتاةُ مرتعبة، كتفاها محدودبان ويداها قابضتان على المكنسة بقوة، حتى لاحظ ياو احمرار المفاصل بين أصابعها. كان يودّ لو يغطي وجهه، كي يهوّن عليها.

قال ياو بلغته الأم: «هل تفهمين التويّة؟»، فأومأتْ. «إذًا تكلّمي بحرية. نحن نسمع ما يكفي من الإنجليزية كل يوم».

كان كما لو أنه فتح بوابة، إذْ بدأ جسدها يرتخي إلى وقفةٍ مرتاحة، فأدرك ياو أنّ الذي أثار الرعب فيها ليس وجهه المشوّه، بل حاجز اللغة، ذلك الذي يشير إلى مستوى تعليمها وطبقتها الاجتماعية مقارنةً به. كانت خائفةً جدًا من اضطرارها إلى الحديث باللغة البيضاء مع شخصٍ يعلّم الكتاب الأبيض. أما الآن وقد تخفّفت من الإنجليزية، فقد بدت ابتسامتها أكثر إشراقًا من أيّ ابتسامة رآها ياو منذ سنوات. في ابتسامتها رأى تلك الفَلجة الكبيرة مثل بابٍ بين أسنانها الأمامية، فراح يعوّد نظره على ذلك الباب كما لو أنه يستطيع أن ينفذ منه إلى حلقها، وأحشائها، بل إلى موطن روحها.

«سيّدي، أنهيتُ تنظيف غرفة النوم. هل تعرف أنّ لديك كتبًا كثيرة هناك؟ هل تقرأ كل تلك الكتب؟ هل يمكنك القراءة بالإنجليزية؟ سيدي، أين تحتفظ بزيت النخيل؟ لم أجده في المطبخ. إنه مطبخ جميل. ماذا تريدني أن أطبخ للعشاء؟ هل أذهب إلى السوق؟ ماذا تكتب».

ترى هل التقطت أنفاسها؟ لو أنها فعلت فبالتأكيد لم يسمعها ياو. أخذ يقلب صفحات كتابه، ثم وضعه جانبًا بينما يفكّر في الذي سيقوله.

- اطبخي ما تريدين للعشاء. لا يهمّني.

هزّت رأسها، وهي غير راضية كما يبدو لأنه لم يجب إلا عن سؤال واحد. أخفضت بصرها ونقّلته يمينًا ويسارًا في الأرضية، وكأنها تبحث عن أيّ أفكار ربما سقطت منها: «سأطبخ حساء اللحم بالفلفل. سأذهب للسوق اليوم». ثم رفعت بصرها: «هل تودّ الذهاب معي؟».

على حين غرّة بدا ياو غاضبًا ومتوترًا، لا يعرف أيهما تحديدًا، فاختار أن

يردّ بالغضب. «ولماذا أذهب معك إلى السوق؟ أولا تعملين عندي؟».

فمُها الآن مطبق، وذلك المنفذ إلى روحها أصبح مخفيًا. أمالت رأسها جانبًا وحدّقت فيه كما لو أنها الآن فقط انتبهت إلى أنّ له وجهًا، وأنّ وجهه مشوّه. تأملته ثانيةً أخرى، ثم ابتسمت مجددًا. «قلتُ ربما تريد بعض الراحة من الكتابة. تقول أختي إنّ المعلمين جادّون جدًا لأنهم ينجزون كل أعمالهم في عقولهم، لذلك ينبغي تذكيرهم أحيانا أن يستخدموا أجسامهم. ألن تستخدم جسمك لو مشيت إلى السوق؟».

هنا جاء دوره في الابتسام. ضحكت إستر، وانفتح فمها الواسع كله، أما ياو فقد خامرته رغبة غريبة في أن يمدّ يده ويسحب شيئًا من تلك السعادة، كيما يحتفظ بها دائمًا معه.

ذهبا إلى السوق. نساء بدينات مع أطفالهنّ الرضّع يبعنَ الحساء والذرة واللحم واليامات. رجال وأولاد يقايضون. بعضهم يبيع الطعام، وبعضهم يبيع المنحوتات والطبول الخشبية. توقف ياو عند أحد الأكشاك فيه ولدٌ في حوالي الثالثة عشرة من عمره يستخدم سكينًا رفيعة لينحت بعض الرموز في طبل. أما والده فقد وقف إلى جانبه يراقبه بعناية. تذكّر ياو هذا الرجل من مهرجان «الكُوندُوم» في العام الفائت، إذْ كان واحدًا من أفضل قارعي الطبول الذين رآهم ياو في حياته. وبينما كان الرجل يحدّق في ابنه، أدرك ياو أنه يريد للولد أن يتفوّق عليه.

سألتْه إستر: «هل تحبّ أن تطبّل؟».

لم يدرك ياو أنها كانت تراقبه، إذْ نادرًا ما كان يهتمّ بالآخرين. لم يكن غاضبًا، لكنه متوتّر لا أكثر.

- أنا؟ لا ، لا. لم أتعلم قرع الطبول أبدًا.

هزّت رأسها، ثم سحبت التيس الذي اشترياه للتوّ وراءها. كان التيس في بعض الأحيان يقاوم، ويحفر أظلافه في الأرض وينطح هنا وهناك، فينعكس الضوء على قرنيه. شدّته بقوّة، فثغا، ربما منها، وربما لأنه كان سيثغو على أيّ حال.

أدرك ياو أنّ عليه قول شيء. بلع ريقه ونظر إليها، لكنه لم يجد ما يقوله. فابتسمت له.

- أعرف كيف أطبخ حساءً لذيذًا باللحم والفلفل.
- صحيح؟

«نعم، لذيذٌ جدًا، حتى أنك ستعتقد أنه من صنع أمك. بالمناسبة، أين أمك؟». سألتْه على طريقتها في طرح الأسئلة بلا توقف.

توقّف التيس وصرخ، فلفّت إستر الحبل لفةً أخرى على معصمها وسحبته. خطر لياو أنه ربما يجدر به أن يسحب التيس بدلًا منها، لكنه لم يفعل.

«أمي تعيش في إجيسو. لم أرها منذ أن بلغت السادسة»، ثم توقف. «هي التي فعلت هذا بي»، وأشار إلى آثار الحروق في وجهه، ثم أمال رأسه كي يمكنها أن تراها بوضوح.

توقفت إستر عن المشي، فتوقف هو أيضًا. نظرت إليه، فخشي أن تمدّ يدها وتحاول أن تلمسه، لكنها لم تفعل. «أنتَ غاضب جدًا».

«نعم». كان نادرًا ما يعترف بذلك لنفسه، ناهيك عن أن يقوله للآخرين. فكلما أطال النظر إلى نفسه في المرآة، ازداد انزواؤه عن الناس، وكلما بقيت الدولة التي يحبها تحت حكم الاستعمار، ازداد غضبه. كانت أمّه هي الشيء الذي يصبّ غضبه عليه. تلك المرأة التي بالكاد يذكر ملامحها، غير أنّ ملامحها تلك تنعكس في تشوّهات وجهه.

«القلق لا يليق بك». ثم سحبت التيس سحبةً قوية أخرى، فظلّ التيس يثغو وهما يمشيان أمامه.

وقع في غرامها. مرّت خمس سنوات قبل أن يدرك ذلك فعلًا، رغم أنه كان يعرف منذ ذلك اليوم الأول. كان الوقتُ صيفًا، وكُتلة الحرارة كانت جاثمة فوقهم، حاضرة دائمًا حتى بدت كالطنين الخفيض، حرارةً يمكن للمرء أن يسمعها. لم تكن لياو حصص تدريسية في الصيف، فأصبحت لديه ساعات بل

أيام كاملة للجلوس والقراءة والكتابة. غير أنه كان يقضيها في النظر من مكتبه إلى إستر وهي تنظّف. كان يتظاهر بالانزعاج حين تشرّع باب الأسئلة اللامنتهية، لكنه منذ ذلك اليوم الأول كان يجيب على كل أسئلتها. عند غياب المطر كان يجلس في الخارج تحت ظل شجرة المانجو الكبيرة، بينما تسحب إستر الماء من البئر. تحمله إلى المنزل في دلوين، فتنشدّ عضلاتها المنتفخة على ذراعيها، وتلتمع حبات العرق. وحين تمرّ أمامه تبتسم، فتجتاحه رغبة في البكاء لفرط ما يرى من جمال في فلجة أسنانها.

كلّ شيء كان يدعوه إلى البكاء، وتمثّلت أمامه الفروق بينهما مثل واديين صغيرين طويلين، يستحيل أن يتقاطعا. فقد كان كبيرًا، وهي شابة. كان متعلمًا، وهي غير متعلمة. كان مشوّهًا، وهي مكتملة. كل فرق من هذه الفروق كان يزيد من انفصال الواديين، أكثر فأكثر. لم يكن ثمة سبيل.

لذلك، آثر الصمت. في المساءات كانت تسأله ماذا يريد أن يتناول للعشاء، وما الذي يكتبه، وما إذا كان قد سمع أيّ أخبار جديدة عن حركة الاستقلال، وما إذا كان يفكّر بعدُ في السفر لإكمال دراسته.

كان يجيب بالقدر الذي يكفي للجواب، لا أكثر.

وبينما هما يتناولان العشاء ذات ليلة، قالت: «**البانكو** دبقٌ جدًا اليوم». في بادئ الأمر كانت تصرّ على أن تتناول طعامها لوحدها، إذْ لا ترى أنه من المناسب لهما أن يأكلا معًا. كانت مُحقّة في ذلك، غير أنّ بقاءها وحيدة في الغرفة دون منفذ لأسئلتها الكثيرة بدا لياو خيارًا أسوأ. لذلك كانت في تلك الليلة، وكل ليلة، تجلس قبالته على طاولته الخشبية الصغيرة.

ردّ عليها: «إنه جيد»، وابتسم. كان يتمنّى لو أنه وسيم، بشرة ناعمة كالطين. لكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يكفي حضورهم للفوز بامرأة. كان عليه أن يفعل شيئًا ما.

- لا، كنتُ أطبخه أفضل من ذلك بكثير. لستَ مضطرًا لأكله إن لم يعجبك. سأطبخ لك شيئًا آخر. تريد حساء؟

كانت تهمّ بتناول صحنه، فأمسكه على الطاولة.

قال مرة أخرى بنبرة أقوى: «إنه جيّد». وتساءل في نفسه ما الذي ينبغي أن يفعله لكي يفوز بها. كانت طوال السنوات الخمس الماضية تشدّه للخروج من نفسه أكثر فأكثر. لا تنفكّ تطرح عليه الأسئلة عن دراسته، وعن إدورد، وعن ماضيه.

قال ياو: «هل تودّين الذهاب معي إلى إجيسو؟ لزيارة أمي». وما لبث أن شعر بالندم فور أن قالها. كانت إستر هي التي تدفعه للذهاب طوال السنوات الماضية، لكنه كان إما يغيّر الموضوع أو يتجاهلها. أما الآن فقد أوصله الحبّ إلى الاستماتة. لم يكن متأكدًا حتى ما إذا كانت المجنونة في إجيسو على قيد الحياة.

بدت الحَيرة على إستر: «تريدني أن أذهب؟».

فقال بسرعة محاولًا أن يخفي أيّ آثار تركها: «ربما أحتاج شخصًا يطبخ لي في السفر».

تفكّرت في الأمر لحظة، ثم أومأت موافقة. ولأول مرة منذ التقاها لم تطرح مزيدًا من الأسئلة.

***

مئتان وستة كيلومترات تفصل «تاكردي» عن «إجيسو». كان ياو يعرف ذلك جيدًا لأنه شعر بكل كيلومتر، كما لو أنه حجر وُضع في حلقه. مئتان وستة أحجار مجتمعة في فمه، فلا سبيل إلى الكلام. كانت الأحجار تحبس الكلمات، حتى حين تسأله إستر عن طول المسافة، أو ماذا سيقول لأهل البلدة عنها، أو ماذا سيقول لأمّه حين يراها. في نهاية المطاف لجأت إستر إلى الصمت أيضًا.

لم يكن يتذكر الكثير عن «إجيسو»، لذلك لم يستطع أن يحدّد ما إذا كانت قد تغيّرت. حين وصلا إلى البلدة كان أول ما استقبلهما تلك الحرارة الشديدة، إذْ راحت أشعة الشمس تتمطّى مثل قطةٍ بعد قيلولة. قليل من

الناس واقفون في الساحة، لكنّهم ظلوا يحدّقون، مشدوهين إما من منظر السيارة أو الغريبين.

همست له إستر: «لماذا ينظرون؟». كان قد انتابها القلق، وخطر لها أنّ الناس سيستنكرون سفرهما معًا دون أن يكونا متزوجين. لم تقل له هذا بعد، لكنه رآه في الطريقة التي أخفضت بها بصرها ومشت خلفه.

ولم تمض دقائق حتى كان هناك ولد صغير لا يتجاوز الرابعة، متشبث بمئزر أمه، أشار إلى ياو بسبابته الصغيرة: «ماما، انظري، وجهه. وجهه!».

انتزع والد الطفل يده بسرعه ليسحبه. «كفى!». ثم نظر بعناية أكثر تجاه الخطّ الذي رسمه إصبع الطفل. اقترب من ياو وإستر وكل منهما يحمل حقيبة. «ياو؟».

أسقط ياو الحقيبة على الأرض ومشى باتجاه الرجل. «نعم؟ اعذرني لا أتذكرك». رفع يده ليحجب الشمس عن عينيه، لكنه سرعان ما مدّها ليصافح الرجل.

- اسمي (كوفي پوكو). كنتُ في العاشرة تقريبًا حين رحلتَ. وهذه زوجتي (غِفتي) وابني (هنري).

صافحهم ياو جميعًا، ثم استدار نحو إستر. «وهذه..هذه..إستر». فصافحتهم إستر أيضًا.

قال كوفي پوكو: «لا بدّ أنك هنا كي ترى المجنونة...» وما لبث أن أدرك خطأه، فوضع يده على فمه. «آسف. أقصد ماه أكويا».

أدرك ياو من تحوّل عينيه وتباطؤ فمه أنّه لم ينطق اسمها منذ سنوات، وربما لم ينطقه أبدًا. فقد كان ياو يعرف أنّ المجنونة ربما اكتسبت هذا اللقب قبل مولده. «لا عليك. نحن هنا لنرى أمي، نعم».

عندها، مالت زوجة كوفي پوكو على أذنه وهمست له شيئًا، فارتفع حاجباه وأشرق وجهه. وحين تحدّث بدا وكأنّ الفكرة كانت فكرته منذ البداية. «لا بدّ أنك وزوجتك مرهقان من السفر. نودّ أنا وزوجتي أن نستضيفكما،

وسنعدّ لكما العشاء».

بدأ ياو يهزّ رأسه اعتذارًا، لكنّ كوفي پوكو راح يلوّح بيده، وكأنه يحاول أن يهزم هزّة رأس ياو. «أنا مصمّم. أضف إلى ذلك أنّ أمك ليس لها وقت منتظم. ربما ليس من المناسب أن تذهب لها اليوم. انتظر حتى مساء الغد، وسوف نرسل لها من يخبرها أنك قادم».

كيف لهما أن يرفضا؟ كان ياو وإستر قد خططا للذهاب مباشرة إلى بيت أكويا، لكنهما الآن سارا خلف كوفي پوكو من ساحة البلدة إلى منزله. وهناك كانت بنات پوكو الثلاث وابنه يعدّون العشاء. جلست البنت الأطول والأنحف منهم أمام هاون كبير، في حين أمسك الولد بالمدقّة، رغم أنها كانت في ضعف قامته تقريبًا. كان يوقفها منتصبة ثم يهوي بها في اللحظة التي تنتهي فيها البنت من وضع «الفوفو» في الهاون، فتتجنب الضربة في آخر لحظة.

صاح كوفي پوكو: «أهلًا بأطفالي»، فتوقفوا جميعًا ووقفوا لتحية والديهم، لكنّ أصواتهم خفتت واتسعت حدقاتهم حين رأوا ياو.

البنت الأصغر ذات الكُرتين على جانبَي رأسها شدّت بنطال أخيها وهي تهمس له: «ابن المجنونة!». لكنّ الجميع سمعوا، فأدرك ياو أنّ قصته قد أصبحت أسطورةً متداولة في بلدته.

مكث الجميع في أماكنهم في حَرَج، ثم انتزعت إستر المدقّة من الصبيّ وراحت تضرب «الفوفو» في الهاون قبل أن يجد أي منهم الوقت للتفكير أو التصرف. تسطّحت كرة «الفوفو» ثم سقطت العصا بصوت مكتومٍ على أرضية الطين. وصاحت إستر حين استدار الجميع إليها: «كفى! أما عانى هذا الرجل ما يكفيه حتى يعود إلى بلدته ويسمع هذا الآن؟».

ردّت زوجة پوكو: «أرجوكما سامحا طفلتي». كانت أول مرة تستخدم صوتها للحديث معهما بدلًا من صوت زوجها. «كلّ ما في الأمر أنهم سمعوا القصص. لن يكرّروا هذا الخطأ». واستدارت، لتوزّع نظرتها على كل واحدٍ من أطفالها الخمسة، حتى ذلك الصغير الذي عند قدميها. ودون حاجة إلى مزيد

من الشرح، استوعبوا الأمر.

ازدرد پوكو لعابه وأشار لياو وإستر أن يتبعاه للجلوس. همس ياو لها «شكرًا»، فهزّت إستر كتفيها. «دعهم يظنّوا أنني أنا المجنونة».

جلسوا جميعًا لتناول العشاء، وكان الأطفال هم الذين يقدّمون الطعام، في وَجَلٍ، مع طيبة قلب. وراح پوكو وزوجته يتحدثان عن أم ياو.

«تعيش مع عاملةٍ في ذلك المكان الذي بناه أبوك لها على حافة البلدة. وهي الآن نادرًا ما تخرج من بيتها، ولكنْ يمكن أن يراها المرء في الخارج وهي تعتني بحديقتها. فلديها حديقة رائعة، وزوجتي كثيرًا ما تذهب إلى هناك لتمتّع ناظريها بالأزهار».

قال ياو لزوجة پوكو: «حين ترينها هناك، هل تتحدث؟».

فهزّت المرأة رأسها: «لا، لكنها دائمًا تعاملني بطيبة. بل إنها تعطيني بعض الأزهار، فأضعها في شعر البنات قبل الذهاب إلى الكنيسة. وأظنّ أنّ هذه الأزهار ستأتي لهنّ بأزواج جيّدين».

قال پوكو: «لا تقلق. أنا واثق أنها ستعرفك. قلبها سيعرفك». هزّت زوجته وإستر رأسيهما، وأشاح ياو بنظره.

كان الظلام قد حلّ وهم في فناء الدار، غير أنّ الحرارة لم تنخفض، وإنما غيّرت من شكلها فقط، إذْ أخذت تطنّ مع أسراب البعوض.

فرغ ياو وإستر من الأكل، وشكرا پوكو وزوجته. وحين وصلا إلى غرفتهما أصرّت إستر على النوم على الأرض، في حين أخذ ياو الفراش. كان فراشًا صلبًا ذا زُنبركات تصارع الظهر. وعلى هذه الحال باتا ليلتهما.

قضى ياو وإستر الصباح في الاستعداد، إذ يمشيان في «إجيسو» ويتناولان الطعام عدة مرات. وقد قيل لهما إنّ أمّ ياو نادرًا ما تنام الليل، ولذلك تفضّل المساء على النهار. لم تخرج إستر من «تاكردي» سوى مرة واحدة في حياتها، فراق لياو أن يرى الدهشة في عينيها وهي تتشرّب غرابة هذه البلدة الجديدة.

كان الكل يحسبهما متزوّجَين، ولم يصحّح لهم ياو هذه المعلومة. وقد أسعده أنّ إستر كذلك لم تصحّحها، رغم أنه لم يعرف ما إذا كان ذلك عن أدبٍ أكثر منه عن رغبة. كان يخشى السؤال.

بدأ الظلام يهبط، ومع كل لون جديدٍ في السماء كانت بطن ياو تنقبض أكثر. ظلّت إستر تنظر إليه بعناية من وقتٍ لآخر، كما لو أنّها تقرأ في وجهه كيف ينبغي لها أن تشعر وتتصرف. قالت له: «لا تخف».

منذ أن التقاها قبل خمس سنوات، كانت هي التي تشجّعه على العودة إلى وطنه. وكانت تقول له إنّ الأمر يتوقف على المغفرة، لكنه لم يكن واثقًا من إيمانه بالمغفرة. كان قد سمع هذه الكلمة غالبًا في الأيام القليلة التي ذهب فيها إلى كنيسة الرجل الأبيض مع إدورد وزوجته، وأحيانًا مع إستر، فبدت له كلمةً أتى بها البيضُ معهم حين جاؤوا إلى إفريقيا. خدعةً تعلّمها مسيحيّوهم وصَدَعوا بها لأهل ساحل الذهب. كانوا يصيحون بكلمة المغفرة، فيما يمارسون اعتداءاتهم. في الماضي كان ياو يسأل نفسه لماذا لا يعِظون بتجنّب الإيذاء من الأساس، لكنه حين كبر فهم. فالمغفرةُ شيء يُمارس بعد وقوع الفعل، قطعةٌ من مستقبل الفعل المرذول. فإن أنتَ وجّهتَ أبصار الناس إلى المستقبل، فلن يروا ما يُفعل بهم في الحاضر.

حين حلّ المساء أخيرًا قادهما پوكو إلى منزل أمّ ياو في ضواحي البلدة، وتعرّف ياو على المنزل مباشرة من النباتات التي زيّنت حديقتها. ثمة ألوان لم يرها من قبل أبدًا، أزهرت على الأعواد الخضراء التي كانت تصدر حفيفًا، إما من الريح أو من الكائنات الصغيرة التي تتحرك تحتها.

قال پوكو قبل أن يصلوا إلى الباب: «هنا ينتهي دوري». في هذه البلدة وغيرها من البلدات الأخرى كان من الفظاظة أن يقترب المرء من منزل شخصٍ دون أن يحيّي أصحابه، لكنّ ياو تبيّن علامات الحَرَج في وجه الرجل، فشكره مرة أخرى ولوّح له مودّعًا.

كان باب المنزل مفتوحًا، لكنّ ياو طرقه طرقتين، وإستر واقفة خلفه.

صاح صوتٌ مشوّش من الداخل: «نعم؟». كانت امرأة أكبر سنًا من ياو، تحمل في يدها طاسة فخّارية. وما إن رأت ياو، رأت وجهه المشوّه، حتى شهقت، فسقطت الطاسة على الأرض وتحطّمت إلى قطعٍ من الطين الأحمر من الباب وحتى داخل الحديقة. قطع صغيرة من الطين لن يجدوها أبدًا، تعود إلى الأرض التي جاءت منها.

راحت المرأة تصيح: «شكرًا للربّ على رحمته! شكرًا له ربّنا الحيّ. ربّنا الذي لا ينام». أخذت تتراقص في مكانها: «سيدتي العجوز، لقد جاء الربّ بولدك! سيدتي العجوز، الربّ جاء بولدك لئلا تذهبين إلى الأسامانْدُو دون رؤيته. سيدتي العجوز، تعالي وانظري!».

تناهى إلى سمع ياو صوت إستر من خلفه وهي تصفّق، تسبّح شكرًا على طريقتها. لم يستدر، لكنه كان يشعر بابتسامتها المشرقة، فتشجّع للدخول.

تمتمت المرأة لنفسها وهي تستدير نحو غرفة النوم: «ألا تسمعني؟».

تحرّك ياو خلف المرأة أولًا، ثم استمر في طريقه إلى غرفة الجلوس. كانت أمه هناك جالسة في الزاوية.

«إذًا فقد عُدت أخيرًا». قالتها أمّه وهي تبتسم.

لولا أنه كان يعرف أنّ هذا البيت بيت أمّه، لما تعرّف عليها من مجرّد النظر. فقد بلغ ياو الآن الخامسة والخمسين من عمره، فيما بلغت هي السادسة والسبعين، لكنها بدت أصغر من عمرها. في عينيها نظرةُ شبابٍ غير مُثقلة، وابتسامتها سخيّة، لكنها رزينة. حين انتصبت واقفة لم تكن عظامها قد احدودبت من وزن السنين. وحين مشت إليه لم تكن أطرافها متصلّبة. وحين لمستْه، حين أخذت يديه في يديها، يديها المحروقتين، حين فركت ظاهر يديه بإبهاميها الملتويين، شعر بحروقها الناعمة، ناعمة جدًا جدًا.

«الولدُ عاد أخيرًا. الأحلام لا تفتأ تتحقق. لا تخيب أبدًا».

ظلّت ممسكة بيديه. وهناك عند المدخل كانت الخادمة تزدرد لعابها. استدار ياو ليجدها مع إستر واقفتين تبتسمان ابتسامة عريضة. صاحت المرأة:

«سيدتي العجوز، سنطبخ العشاء». لم يعرف ياو ما إذا كان هذا صوتها العادي أم أنها تقصّدت أن يسمعه.

قال: «أرجوكِ، لا تتعبي نفسك».

طقّت بلسانها وهي تخرج: «هه؟ الولد يعود بعد كل هذا السنين، ولا تذبح له أمّه معزاة؟».

نظر ياو إلى إستر: «ماذا عنكِ؟».

فقالت بصوت عابث: «ومن سيغلي اليامات فيما تذبح المرأة المعزاة؟».

راقبهما ياو تخرجان، وللمرة الأولى شعر بالتوتر. فجأةً، شعر بشيء لم يشعر به منذ زمن طويل، طويل جدًا. «ماذا تفعلين؟». هكذا صاح حين وضعت أمه يدها على وجهه، تحرّك أصابعها على بشرته التالفة التي كان هو وحده من يلمسها قرابة خمسين عامًا.

واصلت غير عابئة بالغضب البادي في صوته. مررت أصابعها المحروقة بدءًا من الحاجب المفقود، إلى الخدّ البارز، إلى الذقن المشوّه. وحين انتهت فقط بدأ ياو يبكي.

سحبته إلى الأرض معها، وقرّبت رأسه إلى صدرها، ثم بدأت تنشد برقّة: «ولدي! أوه، ولدي! أوه، ولدي!».

بقيا هكذا فترة طويلة، وبعد أن سفح ياو دموعًا أكثر مما بكى في حياته كلها، وبعد أن انتهت أمّه من ترديد اسمه للعالم كله، انتزع نفسه من صدرها كي ينظر إليها.

قال: «أخبريني كيف حدث لي هذا».

تنهّدت. «كيف لي أن أخبرك بهذا دون أن أقصّ عليك أولًا قصة أحلامي؟ وكيف أتحدث عن أحلامي دون أن أخبرك عن أسرتي؟ عن أسرتنا؟».

نهضت عن الأرض وأومأت له أن يتبعها. أشارت إلى كرسيّ على جانبٍ من الغرفة، وجلست هي على الكرسي المقابل. أخذت تنظر إلى الجدار خلف رأسه وقالت:

«قبل مولدك، بدأتُ أرى كوابيس في منامي. كانت لها بداية واحدة دائمًا، امرأة من النار تزورني. كانت تحمل بذراعيها طفلتين من نار، ثم ما تلبث أن تختفي الطفلتان فتصبّ المرأة غضبها عليّ».

«وحتى قبل هذه الكوابيس لم أكن على ما يرام. فقد ماتت أمي على يد المبشّر في مدرسة كوماسي. هل تعرف ذلك؟».

هزّ ياو رأسه نافيًا. لم يسمع هذا من قبل، وحتى لو سمعه فلا بدّ أنه كان صغيرًا جدًا.

«ربّاني المبشّر. وصديقي الوحيد كان الكاهن الإفريقي. كنتُ دائمًا فتاةً حزينة، لأنني لم أعرف طريقة أخرى أعيش بها. وحين تزوّجت والدك خِلتُ بأنني سأصبح سعيدة، وحين رُزقت بأختيك...».

توقّف صوتُها فجأة، لكنها رفعت كتفيها، واستأنفت:

«حين رُزقت بأختيك، خلتُ أنني أصبحت سعيدة، ثم رأيت رجلًا أبيض يُحرق في ساحة إجيسو، فعادت الكوابيس. بعد ذلك نشبتْ الحرب، فازدادت الكوابيس سوءًا. عاد والدك من الحرب بلا ساق، فازدادت الكوابيس سوءًا. رُزقت بك، لكنّ الحزن لم يتوقف. حاولتُ أن أقاوم النوم، لكنني بشرٌ، والنومُ من جنسٍ آخر. لم نكن متكافئين. وذات ليلة حين نمت، أشعلتُ النار في الكوخ. يقولون إنّ أباك لم يستطع أن ينقذ سواك، لكنّ هذا ليس الحقيقة الكاملة. فقد أنقذني أنا أيضًا من أهل البلدة. على أنني ظللتُ سنوات طويلة أتمنى لو أنه لم يفعل».

«لم يسمحوا لي برؤيتك إلا لكي أرضعك. بعد ذلك أرسلوك بعيدًا، ولم يخبروني إلى أين. ومنذ ذلك اليوم أعيش هنا في هذا البيت مع كوكوا».

جاءت كوكوا بكأسَي نبيذٍ، كما لو أنّها سمعت اسمها فأجابت. قدّمت النبيذ لياو أولًا، ثم لأمّه، لكنها لم تأخذه. وانصرفت كوكوا في هدوءٍ مثلما دخلت.

شرب ياو النبيذ كما لو أنه ماء. وحين وضع الكأس فارغًا عند قدميه، عاد بنظره مرة أخرى إلى أمّه. أخذت نفسًا عميقًا، واستأنفت:

«لم تتوقف الكوابيس، لا بعد الحريق، ولا حتى الآن. وقد بدأتُ أعرف امرأة النار. في بعض الأحيان، مثل ليلة الحريق، كانت تأخذني إلى المحيط في كيپ كوست، وأحيانًا أخرى إلى مزرعة كاكاو، وأحيانًا إلى كوماسي. لم أعرف السبب في ذلك، وكنتُ أحتاج إلى أجوبة، فعدتُ إلى المدرسة لأسأل عن أسرة أمي. قال لي المبشّر إنه أحرق كل شيء يتعلق بأمي. لكنه كان يكذب، فقد احتفظ بشيء واحد».

سحبت أمه قلادة إفيا من عنقها، ومدّتها لياو. برقت القلادة بلونٍ أسود في يدها. لمس ياو الحجر، وأحسّ بنعومته.

«أخذتُ القلادة إلى ابن الكاهن الإفريقي كي أقدّم قرابين لأسلافنا، علّهم يتوقفون عن عقابي. كانت كوكوا في حوالي الرابعة عشرة من عمرها آنذاك. وحين بدأنا بالطقوس توقّف ابن الكاهن. أسقط القلادة فجأة وقال «هل تعرفين أنّ ثمة شرًا في نسبك؟». كنتُ أظنه يتحدث عني وعن الأشياء التي فعلتُها، فأومأتُ له. لكنه قال: «هذا الشيء الذي تحملينه، ليس لك». وحين أخبرته عن كوابيسي قال إنّ امرأة النار واحدة من أسلافي تأتي لزيارتي. وقال إنّ الحجر الأسود حجرها، ولذلك كان يسخن في يده. قال لي إنني إذا سمعتُ كلامها، فسوف تخبرني عن أصلي. وقال إنه يجدر بي أن أكون سعيدة لأنني مختارة».

شعر ياو بالغضب مرة أخرى. لماذا تكون سعيدة بهذا الاختيار وهي الآن امرأة محطّمة وهو رجل محطّم؟ كيف يمكنها أن تكون راضية بهذه الحياة؟

لا بدّ أنّ أمّه شعرت بغضبه. نهضت من مقعدها، وهي المرأة العجوز، ومشت إليه فركعت عند قدميه. وأدرك ياو أنها كانت تبكي حين تبللت قدماه.

رفعت عينيها إليه وقالت: «لا يمكنني أن أسامح نفسي على ما فعلت. لن أسامح نفسي. لكنني حين استمعتُ إلى قصص امرأة النار بدأتُ أدرك أنّ الكاهن كان محقًا. ثمة شرّ في نسبي. ثمة أناس ارتكبوا أخطاء لأنهم لم تكن لديهم القدرة على رؤية آثار أخطائهم. لم تكن لديهم يدان محترقتان؛ لم يكن لديهم نذير».

رفعت يديها فنظر إليهما بعناية، وتعرّف على جلدها من معرفته بجلده.

«ما أعرفه الآن يا بنيّ هو أنّ الشر يأتي بالشر. إنه ينمو، ويتحوّل، ففي بعض الأحيان لا تُدرك أنّ الشرّ الموجود في العالم قد بدأ كما بدأ في بيتك. آسفةٌ لأنك عانيت. آسفةٌ لأنّ معاناتك هذه تلقي بظلّها على حياتك، وعلى المرأة التي سوف تتزوجها، وعلى الأطفال الذين ستنجبهم».

نظر إليها ياو متعجّبًا، لكنها ابتسمت. «حين يرتكب الإنسان خطأً، سواء كنتَ أنتَ أم أنا، سواء أكان الأب أم الأم، وسواء أكان من ساحل الذهب أو من البيض، فإنما هو مثل الصياد الذي يلقي شبكة في الماء. يحتفظ بسمكة أو اثنتين لكي يطعم نفسه، ويُعيد البقية إلى الماء، معتقدًا أنّ حياتها سوف تعود إلى طبيعتها. المرءُ لا ينسى أنه كان أسيرًا في يومٍ من الأيام، حتى ولو أصبح الآن حرًا. مع ذلك يا ياو، عليك أن تسمح لنفسك بأن تكون حرًا».

أخذ ياو أمّه بين ذراعيه وهي تنشد: «كُن حرًا، ياو. كُن حرًا». واحتضنها، ففوجئ بخفّتها.

سرعان ما جاءت إستر وكوكوا تحملان قِدرًا تلو آخر. قدّمتا الأكل لياو وأمه طوال الليل، فأكلوا إلى شروق الشمس.

سَني

أتاح السجن لـ(سَني) وقتًا للقراءة، فانتهز تلك الساعات التي قضاها هناك كي يتصفح كتاب **أرواح السُود** قبل أن تخرجه أمّه بكفالة. كان قد قرأه أربع مرات من قبل، لكنه لا يكلّ ولا يملّ من قراءته. كان الكتاب يؤكد له الغاية من وجوده هناك، على دكةٍ حديدية، في زنزانةٍ حديدية. وفي كل مرة ينتابه شعور باللاجدوى من عمله في «الجمعية الوطنية للنهوض بالملوّنين»، كان يمرّر أصابعه في تلك الصفحات المهترئة من الكتاب، فتقوّي من عزيمته.

قالت له (وِلي) حين اندفعتْ من أبواب مركز الشرطة: «أما تعبت؟». كانت تمسك بمعطفها الرثّ في يدٍ، وبمكنسةٍ في الأخرى. مضت على وِلي سنوات طويلة في تنظيف بيوت الجانب الشرقي من البلدة، ولم تكن تثق بالمكانس التي يحتفظ بها البيض، لذلك كانت دائمًا ما تأخذ مكنستها، تحملها معها من محطة مترو إلى أخرى، إلى شارع، إلى منزل. حين كان لا يزال في سنّ المراهقة ظلّت هذه المكنسة تحرجه، إذْ يرى أمه تحملها أينما ذهبت وكأنها صليب. فإذا ما حملتها معها ونادته باسمه وهو يلعب مع أصدقائه كرة السلة، أنكرها كما أنكر (بطرسُ) المسيح.

كانت تصرخ: «كارسن!»، فيجيبها بالصمت، معتقدًا أنّ لديه عذره في ذلك، فقد عُرف منذ سنوات باسم «سَني». كان يتركها تصيح باسم «كارسن» عدة مرات ثم يقول «ماذا؟». يعلم جيدًا أنه سيدفع الثمن لاحقًا حين يعود إلى

البيت. يعلم أنّ أمّه سوف تُخرج إنجيلها وتتلو عليه شيئًا من صراخها. لكنه لم يكفّ عن ذلك.

حمل سَني كتاب **أرواح السود** بينما كان الضابط يفتح الباب. أومأ سَني للرجال الآخرين الذين اعتُقلوا في المسيرة، وسار أمام أمّه.

نادت من خلفه: «كم مرة تريد أن يرموك في الحجز، هاه؟». لكنه تابع السير.

كان قد سأل نفسه هذا السؤال مئة مرة أو يزيد. كم مرة يستطيع أن ينتشل نفسه من أرضية زنزانةٍ قذرة؟ كم ساعة يستطيع أن يقضيها في المسيرات؟ كم ضربة يستطيع أن يتلقاها من الشرطة؟ كم رسالة يمكنه أن يبعثها إلى العمدة أو المحافظ أو الرئيس؟ كم من الأيام يلزم لكي يتغير شيء ما؟ وإذا تغيّر شيء، فهل يُغيّر؟ هل ستصبح أميركا مختلفة أم ستظلّ كما هي؟

بالنسبة إلى سَني فإنّ مشكلة أميركا لم تكن في الفصل العِرقي، بل في أنه لا يمكن في الواقع تنفيذ هذا الفصل. لقد ظلّ يحاول الابتعاد عن البيض سنين طويلة، غير أنه لم يكن ثمة مهرب في هذه البلاد الكبيرة. ولا حتى في «هارلم»، حيث يملك البيض تقريبًا كل ما تقع عليه العين أو اليد. ما كان يريده سَني هو إفريقيا. فـ(ماركوس غارفي) كان في طريقه لتحقيق شيء. كانت الجهود التي بُذلت في ليبيريا وسيراليون جيدة، نظريًا على الأقل. فالمشكلة كانت أنّ الأشياء لم تكن ناجحة في التطبيق مثلما هي في التنظير. تطبيق الفصل يعني أنه سوف يُضطر إلى رؤية البيض يجلسون في مقدمة كل حافلة يركبها، وأن يُنادى بـ«يا ولد» من كل طفلٍ أبيض لا يزال أنفه مليئًا بالمخاط. تطبيق الفصل يعني أن يكون انفصالهُ لا مساواةً، **وذلك** تحديدًا ما لا يطيقه.

صاحت وِلي: «كارسن، أنا أكلمك!». كان يعرف أنه لم يكبر على تلقّي ضربةٍ على رأسه من أمّه، فاستدار لها.

- نعم؟

سدّدت له نظرة قوية، فردّ بمثلها. كان قد قضى السنوات القليلة الأولى

من حياته معها هي فقط، ولم يفلح أبدًا في استحضار صورةٍ لأبيه مهما حاول، فلم يغفر ذلك لأمّه حتى الآن.

قالت وِلي وهي تندفع من جانبه: «أنت غبيّ وعنيد. كفّ عن تضييع وقتك في السجن، فأولادك أولى بهذا الوقت».

كانت تتمتم بهذه الجملة الأخيرة كي تصل بالكاد إلى مسمعه فقط، لكنه كان يعرف ما قالته حتى لو لم تفه به. كان غاضبًا منها لأنه لم يكن له أب، وهي غاضبة منه لأنه كان غائبًا مثل أبيه.

كان سَني في فريق الإسكان من «الجمعية الوطنية للنهوض بالملوّنين». كان هو وزملاؤه يطوفون على أحياء «هارلم» مرة كل أسبوع ليتفقدوا أحوال الناس.

قالت إحدى الأمهات: «عندنا صراصير وجرذان كثيرة، حتى صرنا نضع فراشي الأسنان في الثلاجة».كانت الجمعة الأخيرة من الشهر، ولا يزال سَني يعاني من صداع ليلة الخميس. «هممم»، قالها وهو يمسح حاجبه بإصبعه، كما لو أنه يستطيع أن يمسح شيئًا من الألم النابض هناك. تظاهر بأنه يسجّل ملاحظاتها في دفتره، فقد سمع الشكاوى نفسها من البيت السابق، والذي قبله. في واقع الأمر كان يمكن لسني أن يعرف ما يقوله السكّان دون أن يضطر إلى زيارة شقة واحدة. فقد عاش هو ووِلي وأخته (جوزِفين) في ظروف مثل هذه وأسوأ منها بكثير.

كان يتذكر جيدًا عندما رحل زوج أمّه الثاني (إيلاي) وأخذ إيجار الشهر معه. حمل سني أخته الرضيعة بينما كانوا يتنقلون من بنايةٍ إلى أخرى يرجون الناس أن يؤووهم، فانتهى بهم المطاف في شقةٍ يسكنها أربعون شخصًا بينهم امرأة عجوز لم تعد تتحكم في معدتها. كانت العجوز تمكث كل ليلة في زاوية، ترتعش وتبكي، وتملأ حذائيها بخرائها. ثم تأتي الجرذان لتأكله.

ذات مرة، وحين كانت أمّه في حالةٍ من اليأس أخذته وأخته إلى إحدى

الشقق التي تنظّفها في «منهاتن»، بينما كان أصحاب الشقة في إجازة. كانت هناك ست غرف لشخصين فقط، فلم يعرف سَني ما يفعل في كل تلك المساحة. قضى اليوم بأكمله في الغرفة الأصغر، يخاف أن يلمس أي شيء، إذْ يعرف أنّ أمّه سوف تضطر إلى مسح بصمات أصابعه لو تركها فوق شيء ما.

قال ولد: «هل تقدر على المساعدة يا سيّد؟».

أسقط سَني دفتره وأخذ ينظر إليه. كان ولدًا صغيرًا، لكنّ شيئًا ما في نظرته يوحي بأنه أكبر سنًا مما يبدو، قد يكون في الرابعة أو الخامسة عشرة. اقترب الولد من المرأة ووضع يده على كتفها. حدّق في سَني لهنيهة، فاستطاع هذا أن يتأمل عينيه. كانتا أكبر عينين رآهما سَني في حياته لرجلٍ أو امرأة، برموش تشبه السيقان الطويلة الفاتنة لعنكبوت مخيف.

قال الولد: «لا تقدر، أليس كذلك؟». رمش مرّتين بسرعة، وحين نظر سَني في تلك الرموش العنكبوتية وهي تشتبك ببعضها، أصابه الخوف فجأة. «لا تقدر على فعل أي شيء، أليس كذلك؟».

لم يدرِ سَني ما يقول. كان يعرف فقط أنه لا بد أن ينصرف.

رنّ صوت الولد في رأس سني طوال ذلك الأسبوع، والشهر، والسنة. وطلب نقله من فريق الإسكان، خشية أن يرى الولد مرة أخرى.

«لا تقدر على فعل أي شيء، أليس كذلك؟».

اعتُقل سَني في مسيرةٍ أخرى، ثم في مسيرةٍ غيرها، ثم غيرها. وبعد الاعتقال الثالث، حين وُضعت القيود في يديه، لَكَمه ضابط الشرطة في وجهه. وفيما أخذت عينُه تتورّم، ضمّ سَني شفتيه كما لو أنه سيبصق في وجه الضابط. لكنّ هذا نظر في عينه السليمة وهزّ رأسه قائلًا: «جرّب، وسوف تموت اليوم».

حين رأت أمه وجهه بكت. «لم أغادر ألاباما لألقى هذا!». كان من المفترض أن يزورها سَني في عشاء يوم الأحد، لكنه لم يذهب. وكذلك لم يذهب لعمله طوال ذلك الأسبوع.

«لا تقدر على فعل أي شيء، أليس كذلك؟».

قُتل الكاهن (جورج لي) من ولاية «مِسِسِبي» برصاصةٍ وهو يحاول التسجيل ليدلي بصوته.

تعرّضت (روزا جوردان) لإطلاق نارٍ حين كانت تستقلّ حافلة أُلغي فيها نظام الفصل حديثًا في «مونتغمري». وكانت حُبلى.

« لا تقدر على فعل أي شيء، أليس كذلك؟».

واصل سَني تغيّبه عن العمل، وراح يجلس على دكةٍ إلى جانب رجلٍ كان يكنس محلات الحلاقة في الشارع رقم 7. لم يكن سني يعرف اسمه، لكنه يرتاح إلى الجلوس والحديث معه. ربما لأنه يحمل مكنسةً كأمّه. كان بمقدوره أن يتحدث معه على نحوٍ لم يكن ممكنًا أبدًا مع أمه. سأله: «ماذا تفعل حين تشعر بالعجز؟».

مجّ الرجل نفسًا طويلًا من سيجارته النيوپورت، وقال وهو يلوّح بها «هذه تساعد». ثم أخرج كيسًا صغيرًا شفافًا من جيبه ووضعه في يد سني. «وحين لا تنفع تلك، ينفع هذا».

لمس سَني كيس المخدّرات لحظة. لم ينبس ببنت شفة، وما لبث الرجل أن أخذ مكنسته ورحل. مكث سني هناك نصف ساعة تقريبًا، يقلّب الكيس بين أصابعه، وهو يفكّر في الأمر. فكّر فيه وهو يمشي إلى المنزل. فكّر فيه وهو يقلي بيضةً للعشاء. إذا لم يكن هناك شيء فعله يحدث تغييرًا، فربما هو الذي ينبغي أن يتغيّر. وبحلول الظهيرة من اليوم التالي كان سني قد توقف عن التفكير في الأمر.

هاتف الجمعية واستقال من وظيفته، قبل أن يسحب السيفون على الكيس.

لم يعد باستطاعته أن يستأجر شقة، فأقام في منزل أمّه إلى أن يتدبر أمره. سألته جوزفين: «كيف ستأتي بالمال؟».

أما وِلي فكانت تغسل الأطباق وتدندن بترانيم الكتاب المقدس. كانت تدندن بصوتٍ أعلى حين تريد أن تبدو كما لو أنها لا تستمع.

«سأجد طريقة. دائمًا أجد طريقة، أليس كذلك؟». كان يريد منها أن توافقه، غير أنها عادت بجسمها إلى الخلف في مقعدها ولاذت بالصمت. ارتفع صوت أمه أكثر وهي تجفّف الأطباق.

قال سَني وهو يهبّ واقفًا: «دعيني أساعدك يا ماما».

ومن فورها حدجته بنظرة، فعرف أنها كانت تستمع. «لُوسيل جاءت تسأل عنك البارحة»، فنَخَر سني. «ربما عليك أن تتصل بها».

- تعرف كيف تجدني عندما تريد.
- وأنجِلا وروندا؟ تعرفان كيف تجدانك أيضًا؟ يبدو أنهنّ لا يعرفن إلا بيتي حين **لا تكون** أنتَ هنا.

نَخَر مرة أخرى: «لستِ مضطرة إلى أن تعطيهنّ شيء يا ماما».

شَخَرت أمه مستنكرة، ثم توقفت عن الدندنة وبدأت تغني. أدرك سني أنّ عليه المغادرة بأسرع ما يمكن. إذا كانت نساؤه تلاحقه، وأمه تغنّي الترانيم، فعليه أن يجد له مكانًا آخر.

ذهب ليسأل صديقه (محمد) عن وظيفة. «يا رجل، عليك الانضمام إلى حركة «أمة الإسلام». انس الجمعية، لن يفعلوا شيئًا ولا أيّ زفت».

أخذ سَني كأس ماء من ابنة محمد الكبرى، وهزّ كتفيه لصديقه. كانا قد تحدثا في الأمر سابقًا، ولكن لم يكن من الممكن له أن ينضمّ إلى «أمة الإسلام» وأمّه امرأةٌ مسيحية ملتزمة. سيدخل دوامة لا تنتهي معها. وإلى جانب ذلك، فإنّ جلوسه في مؤخرة الكنيسة مع أمّه ربّى فيه أفكارًا حول غضب الرب. ولم يكن ذلك من الأشياء التي يريد المرء أن يجرّها على نفسه. «ولا الإسلام سيفعل شيئًا ولا أيّ زفتٍ أيضًا».

تعرّف سَني على صديقه محمد في ملاعب كرة السلة في «هارلم» أيام الطفولة، حين كان محمد يُدعى (جوني)، وقد ظلا صديقين حتى بعد أن انقضت أيام كرة السلة وامتلأت الكرش.

في ذلك الوقت كان سَني يُدعى (كارسن)، لكنه فضّل السرعة والسهولة التي يمنحها اسم «سَني» في الملعب، فاتخذه اسمًا له. وكان يعرف أنّ أمّه تكره هذا الاسم لأنّ أباه كان يسمّيه «سَني»، غير أنه لم يكن يعرف شيئًا عن أبيه من الأساس، ولم يكن لديه تعلّق عاطفيّ بالاسم سوى صوته الجميل حين يطري الأطفال الآخرون على مهارته في اللعب: «أحسنت سَني، جميل يا سَني!».

قال محمد: «الحال سيء يا سَني».

- بالتأكيد تعرف عن وظيفة. أيّ وظيفة يا رجل.
- كم سنةً درست؟
- سنتين.

في واقع الأمر لم يكن سَني يتذكر أنه أكمل سنةً واحدة في أيّ مدرسة التحق بها. كان يتغيّب، ويتسكع، ويُطرد. وذات مرة بلغ اليأس بأمّه مبلغًا، فحاولت أن تلحقه بواحدةٍ من مدارس البِيض الغالية في «منهاتن». دخلت المكتب بعد أن وضعت نظّارتين وتزيّنت بأفضل أقلامها. وفيما كان سَني ينظر إلى ذلك المبنى النظيف اللامع، والأطفال المتهندمين يدخلون ويخرجون بكلّ هدوء، خطرت له المدارس التي التحق بها في «هارلم»، بأسقفها المتداعية وروائحها التي تدعو إلى كآبة لا وصف لها. وكم أدهشه أنه يمكن فعلًا إطلاق الاسم نفسه «مدرسة» على هذين الشيئين. يتذكّر سَني كيف أنّ المسؤولين في المدرسة البيضاء سألوا أمّه إن كانت تريد فنجانًا من القهوة. ثم قالوا لها إنّه من غير الممكن إلحاق ولدها بالمدرسة. غير ممكن فعلًا. ويتذكر سَني أيضًا كيف كانت أمه تعصر يده وهما في طريق العودة إلى «هارلم»، وتمسح دموعها باليد الأخرى. قال لها في محاولة للتخفيف عنها إنه ليس لديه مانع من الذهاب إلى مدارسه السابقة، لا سيما وأنه لم ينتظم في حضورها أصلًا. فقالت له أمّه إنّ تغيّبه يعني أنّ المشكلة في تلك المدارس.

قال له محمد: «هذا ليس كافيًا للوظيفة التي سمعت عنها».

- لا بدّ أن أعمل يا محمد. لا بدّ.

هزّ محمد رأسه ببطء وهو يفكّر. وفي الأسبوع التالي أعطى سَني رقم رجلٍ ترك «أمة الإسلام»، ويملك الآن حانة. وبعد أسبوعين كان سَني يعمل ساقيًا في نادي «جازماين»، نادي الجاز الجديد في «هارلم الشرقية».

نقل سَني أغراضه من منزل أمّه فور حصوله على الوظيفة، لكنه لم يقل لها أين سيعمل. كان يعرف أنها لا توافق على موسيقى الجاز أو أي نوع من الموسيقى غير الدينية. كانت وِلي تغنّي للكنيسة، وتستخدم صوتها من أجل المسيح، فقط. ذات مرة سألها سَني ما إذا كانت تودّ لو تصبح مشهورة مثل (بِلي هوليدي) التي تغنّي غناء جميلًا حتى أنّ البيض كانوا يُضطرون إلى أن يعيروها انتباههم حين تغنّي، لكنّ أمّه أشاحت بوجهها وطلبت منه أن يحذر من «نمط الحياة هذا».

كان نادي «جازماين» جديدًا جدًا، فلم يكن يجتذب المهمّين من الزبائن والعازفين. في أغلب الأيام كان النادي نصف فارغ، أما الذين يعملون فيه -وأغلبهم من الموسيقيين الذين كانوا يأملون أن يجدوا من يفتح لهم أبواب المجد- فما لبثوا أن تركوا العمل قبل أن تنقضي ستة أشهر على افتتاح النادي. وهكذا سرعان ما أصبح سَني كبير السقاة.

ذات ليلة سمع صوتًا مكتومًا يناديه: «أعطني وِسكي». أدرك أنه صوت امرأة، لكنه لم ير وجهها. كانت تجلس في نهاية البار، ورأسها بين يديها. قال لها: «لا أستطيع أن أقدّم لك شيئًا وأنا لا أراك. لم لا تأتين هنا وتأخذين شرابك؟»، فرفعت رأسها ببطء.

لم ير في حياته كلها امرأة تتحرك بذلك البطء. بدا الأمر كما لو أنها تخوض في مياهٍ عميقة موحلة، كي تصل إليه. عُمرها ليس أكثر من تسع عشرة سنة، لكنها تتحرك مثل عجوز أثقلها الزمن، وكأنّ أيّ حركة سريعة يمكن أن تهشّم عظامها. وحين وصلت وألقت بنفسها على الكرسي الذي أمامه، لم تبدُ في عجلة من أمرها. سألها: «كان يومًا طويلًا؟».

فابتسمت: «أليست كلّها طويلة؟».

أحضر لها سَني الشراب، فأخذت تحتسيه ببطءٍ ينسجم مع سائر حركاتها.

قال: «اسمي سَني». فأفلتت له ابتسامة أخرى، وعيناها الآن أكثر ابتهاجًا. «أماني زُليما».

طقّ سني بلسانه: «هل هناك أحد اسمه هكذا؟».

وقفت. «أنا»، وحملت شرابها بالبطء نفسه، واتجهت إلى المسرح.

بدا وكأنّ الفرقة التي تعزف تنحني لها. ودون حاجةٍ من أماني لقول شيء، وقف عازف البيانو ليعطيها الكرسي الذي يجلس عليه، وأفسح الآخرون المسرح لها.

وضعت كأسها فوق البيانو وبدأت تحرّك يديها على المفاتيح. هناك، على البيانو نفسه، كانت التُؤدة نفسها التي لاحظها سَني قبل لحظات، لا شيء سوى أصابع تختال في كسل.

وما إن بدأت تغنّي حتى هدأت القاعة. كانت امرأةً ضئيلة الحجم، لكنّ صوتها كان عميقًا يضيف إلى عمرها سنوات طويلة. وكان في صوتها شيء من الخشونة أيضًا، كأنما كانت تتمضمض بحصَيات لكي تستعدّ للغناء. تتمايل حين تغنيّ، فتميل يمنةً، ثم تحرك رأسها للأعلى، وتميل يسرة. وحين راحت تحاكي صوت الآلات بصوتها تفاعل معها الجمهور إلى حدّ أنهم صاحوا «آمين!» مرة أو مرتين. بضعة أشخاص جاؤوا من الشارع ووقفوا عند الباب، يريدون فقط أن يلقوا نظرة عليها.

أنهت وصلتها بدندنة، بصوتٍ بدا وكأنه يخرج من أعماق أعماقها، في ذلك المكان الذي يقول البعض إنه مستقرّ الروح. هنا عادت الذكرى بسَني إلى طفولته، إلى أول يوم غنّت فيه أمّه في الكنيسة. كان صغيرًا، وكانت أخته جوزفين على حجر أبيها (إيلاي). تذكّر سَني حين سقط كتاب الترانيم من أمّه، فجَفل الحضور جميعًا من ذلك الصوت ورفعوا أنظارهم إليها. في تلك اللحظة شعر سَني بقلبه يبلغ حلقومه من الحَرَج. في ذلك الوقت كان دائمًا إما غاضبًا أو مُحرجًا منها. لكنها بدأت تغنّي. «سألبس تاجًا». سألبس تاجًا.

كان أجمل شيء سمعه في حياته، فأحبّ أمّه آنذاك كما لم يحبّها من قبل. كان الحضور يهتفون نشوةً «غنّي يا وِلي» و«سبحان الرب» و«آمين»، فبدا لسَني حينها أنّ أمّه لم تعد بحاجةٍ إلى انتظار الثواب لتلقاه في الجنة. فقد كان هناك ماثلًا أمامه. كانت وِلي تلبس تاجَها.

فرغت أماني من دندنتها وابتسمت للجمهور، فيما راحوا يهتفون ويصفّقون ويهلّلون. التقطت أماني كأسها من البيانو وشربت ما فيه دفعة واحدة. ثم مشت عائدة باتجاه سَني، فوضعت الكأس الفارغة أمامه، وغادرت دون أن تنبس بكلمةٍ أخرى.

كان سَني يقيم في بنايةٍ حديثة في الجانب الشرقي مع أشخاصٍ كان يعرفهم على نحوٍ ما. وفي لحظةٍ من غياب الحكمة أعطى أمّه عنوانه، فأدرك أنها أعطته للوسيل حين جاءته تحمل ابنته.

صرخت لوسيل في الخارج: «سَني!». كانت تقف على الرصيف خلف البناية. في «هارلم» قد يكون هناك مئة شخص يُدعى «سَني»، ولم يرغب هو في الاعتراف أنه المقصود.

«كارسن كْلِفتن. أعرف أنك في الشقة».

لم يكن ثمة باب خلفي للشقة، وما هي إلا مسألة وقت حتى تعرف لوسيل كيف تصل إليها.

أخرج نصفه العلويّ من نافذة الطابق الثالث. «ماذا تريدين يا لوس؟». كانت قد مضت سنة تقريبًا منذ أن رأى ابنته آخر مرة، وقد أصبحت كبيرة الآن، كبيرة جدًا على أن تجلس في حِجر أمها، لكنّ لوسيل كانت دائمًا ما تجد القوة لذلك.

صاحت به: «تعال خذنا للشقة»، فأطلق تنهيدةً من ذلك النوع الذي تسمّيه جوزفين «تنهيدة العجائز»، ثم هبط السلالم لكي يحضرهما. ولم تمر أكثر من عشر ثوان حتى ندم على إدخالها.

- نحتاج إلى نقود يا سَني.
- أعرف أنّ أمي تدفع لك.
- كيف أطعم هذه الطفلة؟ الأطفال لا يأكلون الهواء.
- ليس عندي شيء أعطيك إياه يا لوسيل.
- لديك هذه الشقة. وأنجِلا قالت إنك أعطيتها شيئًا قبل شهر.

هزّ سَني رأسه. يا لتلك الأكاذيب التي تقولها النسوة لبعضهنّ ولأنفسهن. «حتى أنجِلا لم أرها منذ فترة طويلة. أكثر منك».

فصاحت فيه مستنكرة: «أي نوع من الآباء أنت؟».

غضب سَني. لم يكن يريد أطفالًا، لكنّ المطاف انتهى به إلى ثلاثة أطفال. أولهم كانت ابنة أنجِلا، والثانية ابنة روندا، والثالثة ابنة لوسيل، والتي وُلدت بعقلٍ خفيف. كانت أمّه تعطيهنّ بعض المال كل شهر، رغم أنه طلب منها التوقف عن ذلك وطلب من كلّ واحدة منهنّ أن تكفّ عن طلب المال من أمّه. لكنّهن لم يصغين إليه.

حين وُلدت ابنته (إتا) لم يكن يبلغ من العمر سوى خمسة عشر عامًا، أما إنجِلا فكانت في الرابعة عشرة. قالا إنهما سيتزوجان ويصلحان الأمر، غير أنّ أبويها حين اكتشفا حملَها أرسلاها إلى «ألاباما» كي تبقى مع عائلتها هناك إلى أن تضع مولودها، وقد قرّرا عدم السماح لسَني برؤية أيٍ من البنتين حين تعود أنجلا.

كان سَني يودّ فعلًا أن يتصرف كما ينبغي مع أنجلا وابنته، لكنه كان صغيرًا وعاطلًا، وخطر له أنّ والدَي أنجِلا قد يكونا محقَّين حين قالا إنه لا نفع منه. لقد تحطّم قلبه في اليوم الذي تزوجت فيه أنجلا من قسٍ شاب يعمل في المهرجانات الدينية في الجنوب. كان القسّ يترك أنجلا شهورًا بأكملها، فقال سَني في نفسه إنه لم يكن ليتركها أبدًا لو أنها زوجته.

لكنه ينظر أحيانًا إلى نفسه في المرآة، فيبصر ملامحَ ليست من أمّه. أنفه لم يكن أنف أمّه، ولا أذناه. كان يسأل أمّه عن تلك الملامح حين كان صغيرًا.

كان يسألها من أين جاء بذلك الأنف والأذنين والبشرة الفاتحة. كان يسألها عن أبيه، فلا تجيبه إلا بأنه ليس له أب. ليس له أب، لكنه نشأ على ما يرام. كان يسخر من الرجل الذي في المرآة: «على ما يرام؟». «على ما يرام؟».

قال سَني: «لم تعد طفلة يا لوسيل. انظري إليها».

كانت الطفلة تعرج في الشقة على ساقيها غير الثابتتين. فسدّدت لوسيل نظرة قاتلة لسَني، واختطفت الطفلة من يدها، ورحلت.

صاح سَني من خلفها: «ولا تتصلي بأمّي تطلبين المال». كان يسمع ضرب أقدامها على السلالم إلى أن نزلت وخرجت إلى الشارع.

بعد يومين اثنين عاد سَني إلى نادي «جازماين». سأل العاملين هناك عن أماني، ولكن لا أحد كان يعرف متى تعود.

قال (لويس الأعمى) وهو يمسح البار: «تَذهبُ مع هبوب الريح». لا بدّ أن سَني تنهّد قليلًا، إذْ قال لويس: «أعرف هذا الصوت».

- أي صوت؟
- لا حاجة لك فيها يا سَني.

فسأله سَني: «لم لا؟». ما الذي يمكن أن يعرفه عجوزٌ أعمى عن الرغبة في امرأةٍ من مجرد رؤيتها؟

فأجابه لويس قارئًا أفكاره: «المسألة ليست مسألة شكلها. عليك أن تفكّر في الذي فيها أيضًا. لا شيء في هذه المرأة يستحق الرغبة».

لكنّ سَني لم يصغ إليه. واستغرق الأمر منه ثلاثة أشهر أخرى كي يرى أماني من جديد. كان قد بحث عنها، من نادٍ إلى آخر، منتظرًا أن يلمح مشيةً بطيئة إلى المسرح.

وحين وجدها كانت تجلس إلى طاولةٍ في مؤخرة النادي، نائمة. ولكي يتأكد كان عليه أن يقترب، ويقترب جدًا لكي يسمع شهيقها وزفيرها فيما تشخّر. نظر من حوله، لكنّ أماني كانت في ركنٍ مظلم، ولا يبدو أنّ أحدًا كان يبحث

عنها. هزّ ذراعها. لا شيء. هزّه مرة أخرى، أقوى هذه المرة. لا شيء. في الهزة الثالثة، أدارت رأسها جانبًا على نحوٍ بطيء، مثل جلمودٍ يتحرّك. رمشت بعينيها مرّتين، بحركة بطيئة متروّية أطبقت جفونها الثقيلة ورموشها الكثيفة.

حين نظرت إليه أخيرًا أدرك لماذا أرادت أن تنظّف عينيها، فقد كانتا محتقنتين، والحدقتان متسعتين. رمشت بعينيها مرّتين مجددًا، بسرعةٍ أكثر، فأدرك فجأة حين نظر إليها أنه لم يفكّر في ما سيفعله لو وجدها.

- ستغنّين الليلة؟

- هل هذا شكل واحدة تغنّي؟

لم يجب. بدأت تتمطّى، فهزّت جسدها كله. سألته وهي تنظر إليه مجددًا: «ماذا تريد يا رجل؟ ماذا تريد؟».

«أنتِ». لقد أرادها منذ اليوم الذي رآها فيه تغني. لم يكن السبب مشيتها البطيئة أو صوتها الذي ذكّره بأحلى ذكرياته مع أمّه، بل لأنها حين غنّت شعر بشيء في نفسه يتفتّح، فأراد أن يقبض على مزيدٍ من ذلك الشعور، ويحتفظ به.

هزّت رأسها وابتسمت قليلًا. «يا رجل!».

خرجا معًا إلى الشارع. كان زوج أمّه إيلاي يحبّ المشي، وكان يأخذ سَني ولِي وجوزفين ليمشوا في المدينة. وقال سَني في نفسه إنّ هذا قد يكون السبب في أنّ أمّه أصبحت تحبّ المشي. فهو لا يزال يتذكر ذلك اليوم الذي مشيا فيه إلى الجزء الأبيض من المدينة. كان يظنّ أنهما لن يتوقفا أبدًا، لكنها توقفت فجأة، فشعر سَني بخيبة الأمل، رغم أنه لم يعرف السبب.

مرّ سني مع أماني أمام الأماكن التي كان يعرفها جيدًا من أيام عمله في فريق الإسكان. نوادي الجاز الرخيصة، وأكشاك الطعام الرخيص، ومحلات الحلاقة، والمدمنين المتناثرين في الشوارع وهم يحملون قبعاتهم في أيديهم.

قال لها سَني وهما يعبران من فوق رجل كان نائمًا في وسط الشارع: «لم تخبريني قصة اسمك حتى الآن».

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أنتِ مسلمة؟

ضحكت أماني قليلًا. «لا، لست مسلمة». انتظر سَني أن تُكمل، فقد قال ما يكفي. لم يكن يريد أن يضغط عليها، لم يكن يريد أن ترى رغبته، ضعفه. فانتظر منها أن تكمل. «**أماني** باللغة السواحلية تعني السلام. حين بدأتُ أغني شعرتُ أنني أحتاج اسمًا جديدًا. أمّي أسمتني ماري، لكنّ هذا الاسم لا يحقق شهرة. لا تهمّني قصص «أمة الإسلام» و«العودة إلى إفريقيا»، لكنني وجدتُ اسم أماني وشعرت أنه لي. فأخذته».

«لا تهمّك قصص العودة إلى إفريقيا، لكنك تستخدمين اسمًا إفريقيًا؟». كان سَني قد ترك خلفه مواقفه السياسية، لكنه يشعر بها تزحف إلى السطح الآن. كانت أماني في نصف عمره تقريبًا، وأميركا التي وُلدت فيها تختلف عن أميركا التي وُلد هو فيها. قاوم الرغبة في التلويح بإصبعه أمامها.

فجأةً توقفت عن الكلام ولمست ذراعه: «لا نستطيع العودة، أليس كذلك؟». بدت الآن أكثر جدّية في حديثها، كما لو أنها الآن فقط أدركت أنه شخص حقيقي وليس شخصًا كانت تحلم به وهي نائمة. «لا نستطيع العودة إلى مكانٍ لم نذهب إليه أصلًا. لم يعد لنا». لوّحت بيدها أمامها وأضافت: «هذه لنا»، وكأنها تحاول أن تقبض على «هارلم» كلها، بل «نيويورك» كلها، بل أميركا كلها.

وصلا أخيرًا إلى مشروعٍ سكني في «هارلم الغربية». لم تكن أبواب البناية مغلقة، فدخلا إلى الممر، وأول ما رآه سَني كان طابور المدمنين المصطفين على الجدران. كانوا أشبه بالدمى، أو كالجثة التي رآها سَني حين مشى إلى مقبرةٍ فوجد الحانوتيّ يعبث في جثة، يرفع كوعها، ويدير وجهها يسارًا، ويلوي جسمها للخلف.

لم يكن هناك أحد يعبث بهذه الأجساد الواقفة في الممر، لا أحد في مرمى بصره، لكنه أدرك من فوره أنّ هذا المكان وكر للتعاطي. وفجأة قفز إلى ذهنه كلّ الذي لم يكن يريد أن يعرفه عن حركات أماني البطيئة، وحدقتيها المتسعتين.

بات الأمر واضحًا جدًا. توتّر، لكنه ازدرد توتّره، فقد كان مهمًا بالنسبة إليه أن لا تدرك أماني فقدان سيطرته على نفسه وهو معها.

دخلا إحدى الغرف. كان هناك رجل يقبض على جسده، ويتلوّى على فراش قذر. ثمة فتاتان تنقران على ذراعيهما، تستعدان للحقنة التي يحملها رجل آخر. لم ترفعا أعينهما للنظر إلى سني وأماني حين دخلا.

أينما وجّه سَني نظره وجد آلات الجاز. أبواق، و»بيز»، و»ساكسفون». وضعت أماني أغراضها وجلست إلى جانب واحدةٍ من الفتاتين، رفعت الآن عينيها أخيرًا وأومأت لهما. التفتت أماني ناحية سَني، وهو لا يزال واقفًا ويده على مقبض الباب.

لم تقل شيئًا. مرّر الرجل الحقنة إلى الفتاة الأولى، ومررتها هذه إلى الفتاة الثانية، ومررتها هذه إلى أماني، لكنّ أماني كانت ما تزال تنظر إلى سني. ما تزال صامتة.

راقبها سَني وهي تُدخل الحقنة في ذراعها، ورأى عينيها تدوران. حين نظرت إليه مرة أخرى، لم تكن في حاجةٍ إلى الكلام كي يفهم ما تقوله. «هذا أنا. ما زلتَ تريدني؟».

***

«كارسن! كارسن، أعرف أنك هناك».

يسمع الصوت، لكنه في الوقت نفسه لا يسمعه. كان يعيش داخل رأسه، ولم يكن قادرًا على أن يحدّد أين ينتهي عالم رأسه ويبدأ العالم الخارجي. ولم يكن يريد أن يجيب على الصوت إلى أن يتيقّن من مصدر الصوت، هل من رأسه أم من الخارج.

«كارسن!».

مكث في هدوء، أو على الأقل في ما يظنّ أنه هدوء. كان يتصبب عرقًا، وصدره يعلو ويهبط، يعلو ويهبط. سوف يحتاج إلى جرعةٍ قريبًا كي يبعد عن

نفسه الموت.

حين راح ذاك الصوت يلهج بالدعاء أدرك أنها أمّه. فقد فعلت ذلك بضع مرات من قبل، حين كان في وعيه معظم الأوقات، حين كانت البودرة ما تزال غالبًا شيئًا من التسلية، وحين كان يشعر بأنه يتحكم في الأمر قليلًا.

«إلهي، أنقذ ولدي من هذا العذاب. أبانا، أعلم أنه نزل إلى الجحيم كي يلقي نظرةً، لكني أرجوك أن تعيده».

لعلّ سني كان سيجد شيئًا من السلوى في هذا الدعاء، لولا أنه كان يشعر بالغثيان. جاشت بطنه، ولم يخرج شيء، ثم ما لبث أن تقيأ في زاوية من الغرفة.

وارتفع صوت أمّه في الخارج: «إلهي، أعرف أنك قادر على نجاته من آلامه. ارحمه يا ربّ وأنقذه».

النجاة هي ما كان يريده سني بالضبط. كان مدمنًا يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا. كان متعبًا، لكنه مريض أيضًا، وما يشعر به من مرض في محاولة الإقلاع يفوق ما يشعر به من تعب وهو مستمر.

تهاوى صوت أمّه إلى الهمس، أو ربما لم تعد أذناه تسمعان جيدًا. وسرعان ما أصبح لا يسمع شيئًا أبدًا. لن يمضي وقت طويل قبل أن يأتي أحد إلى البيت. واحد من المدمنين الآخرين الذين يعيش معهم سيأتي، وربما «يضربان» شيئًا. وربما لا. وعندها سوف يُضطر سَني إلى أن يبدأ طقوسه في الحصول على جرعةٍ بنفسه. لذلك فضّل أن يبدأ الآن.

أجبر نفسه على النهوض، ووضع أذنه على الباب ليتأكد من ذهاب أمّه. وفور أن تأكد خرج لملاقاة «هارلم».

«هارلم» والهروين. الهروين و«هارلم». لم يعد باستطاعة سني أن يفكّر في أحدهما دون التفكير في الآخر. كان وقعهما على الأذن واحدًا تقريبًا. وكلاهما سوف يقتله. المدمنون والجاز متماشيان، كل طرف يغذّي الآخر، فأصبح سني في كلّ مرة يسمع فيها بوقًا، يشعر بالرغبة في جرعة.

مشى سَني في شارع 116. كان دائمًا (تقريبًا) ما يجد جرعةً في شارع 116،

وقد درّب نفسه على رصد المدمنين والمروّجين بأسرع ما يمكن. تتفحص عيناه السائرين إلى أن تجدا من لديه ما يحتاج إليه. كان ذلك نتيجةً للعيش داخل رأسه، فقد أصبح واعيًا بالآخرين الذين يفعلون الأمر نفسه.

حين مرّ بأول مدمنةٍ سألها إن كان لديها، فهزّت رأسها نافية. وحين مرّ بالثاني سأله ما إذا يسمح له بأن يحمل معه، فهزّ الرجل رأسه لكنه أشار إلى رجلٍ كان يبيع البودرة.

لم تعد أمه تعطيه المال. أما أنجِلا فكانت تعطيه أحيانًا إن استطاع زوجها صاحب الكتاب المقدس أن يجني بعض المال من المهرجانات الدينية. قدّم سَني للمروّج آخر ما يملك من دولارات، فلم يحصل سوى على شيء قليلٍ جدًا، لا يكاد يكون شيئًا.

كان يريد أن «يضرب» قبل العودة إلى المنزل، خشية أن تكون أماني هناك، فتأخذ منه ذلك اللاشيء الذي عنده. دخل سَني حمام مطعمٍ و«ضرب»، فشعر على الفور بابتعاد الغثيان عنه. وحين وصل إلى المنزل شعر بأنه على ما يرام تقريبًا. تقريبًا فقط، ما يعني أنهّ عليه أن «يضرب» مرة أخرى بسرعة كي يقترب أكثر، ومرة أخرى كي يقترب أكثر، ومرة، ومرة، ومرة.

كانت أماني جالسة أمام مرآة تجدّل شعرها. «أين كنت؟».

لم يجبها سَني. مسح أنفه بظاهر كفه ثم راح يبحث في الثلاجة عن شيء يأكله. كانا يقيمان في منازل جونسن في شارع 112 و «لكسنغتن». بابهما لم يكن يُوصد أبدًا، فقد كان المدمنون يأتون ويذهبون، من شقة إلى أخرى. ثمة شخص غائب عن الوعي على الأرض أمام الطاولة.

قالت أماني: «أمّك كانت هنا».

وجد سَني قطعة خبز، فراح يأكل ما حول العَفَن. نظر إلى أماني وهي تفرغ من ترتيب شعرها، ثم تقف لتنظر في المرآة. كانت تمتلئ أكثر عند وسطها.

- تريدك أن تزورها لعشاء يوم الأحد.
- إلى أين تذهبين؟

لم يكن يحبّ أن يراها تتهندم. فقد وعدته منذ فترة أن تكفّ عن بيع جسدها مقابل البودرة. لم يصدّق في البداية أنها سوف تستطيع الوفاء بوعدها، فوعد المدمن لا يكاد يساوي شيئًا. ولكي يطمئن، كان أحيانًا يتبعها وهي تمشي حول «هارلم» حين ترفع شعرها وتتزيّن. وفي كل مرة يفعل ذلك كان الأمر ينتهي بالنهاية الحزينة نفسها. تظلّ أماني تستجدي أصحاب النوادي أن يسمحوا لها بالغناء ثانية، مرة واحدة فقط. فلم يسمحوا لها. مرة واحدة سمح لها النادي الأقذر في «هارلم» بالغناء، فوقف سني في الخلف ينظر إلى أماني وهي تصعد إلى المسرح، لتواجه النظرات الفارغة والهدوء. لم يكن أحد يذكر لها ما كانت عليه. كل ما يرونه هو ما أصبحت عليه الآن.

- لا بد أن تزور أمّك يا سني. نحتاج إلى المال.
- أوه يا أماني. تعرفين أنها لن تعطيني شيء.
- ربما تعطيك إذا نظّفت نفسك. يمكنك أن تستحم وتحلق. ربما تعطيك.

اقترب منها. وقف خلفها ولفّ ذراعيه على بطنها، فشعر بصلابة وزنه. قال هامسًا في أذنها: «لماذا لا تعطيني **أنتِ** شيئًا يا حبيبتي؟».

بدأت تتملّص منه، لكنه أحكم قبضته عليها فلانت له، ومالت عليه. لم يحبّها سَني قطّ، لكنه كان دائمًا يرغب فيها. لقد استغرقه الأمر بعض الوقت كي يفهم الفرق بين الشيئين.

قالت: «الآن فقط رتبت شعري يا سني»، لكنها سلّمت له رقبتها، فأمالتها لليسار كي يمرر لسانه على جانبها الأيمن. قال وهو يمدّ يده لنهديها: «غنِّ لي قليلًا يا أماني». دندنت على لمسته، لكنها لم تغنّ.

ترك سَني يده تنزل من نهديها أكثر فأكثر، إلى أن وجد منبت الشعر الذي ينتظره. عندها بدأت تغنّي: «أحبك.. پورغي.. لا تدعه يأخذني.. لا تدعه يعبث بي، ويثير جنوني». كانت تغنّي برقّةٍ شديدة، كالهمس تقريبًا. وما إن أدرك بأصابعه أنها قد تبلّلت، حتى عاد صوتها يرتفع. حين غادرت ذلك اليوم إلى نوادي الجاز، لم يسمحوا لها بالغناء. أما سَني فكان دائمًا يسمح لها.

قال حين تركت الباب الأمامي متأرجحًا: «سأذهب لرؤية ماما».

احتفظ سني بكيسٍ عازل من المخدرات في حذائه. كان عبارةً عن تطمين له. مشى عبر المجمعات السكنية العديدة بين منزله ومنزل أمّه، وإصبع قدمه الكبير يُطبق على الكيس كما لو أنه قبضة صغيرة. كان يقبض عليه ثم يتركه. يقبض ثم يترك.

حين عبر سني من المشاريع الانشائية التي كانت تملأ المسافة بين شقته وشقة وِلي، حاول أن يتذكر المرة الأخيرة التي تحدث فيها فعلا إلى أمه. كان عام 1964، خلال المظاهرات، وطلبتْ منه أن يقابلها أمام كنيستها حتى تقرضه بعض المال. قالت له وهي تعطيه الفكّة الصغيرة التي لم تضعها في صحن الصَدَقات: «لا أريد أن أراك ميتًا.. أو أسوأ من ذلك». كان يتساءل في نفسه وهو يأخذ النقود ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الموت! لكنّ الدليل كان بيّنًا في كل شيءٍ حوله. فقبل بضعة أسابيع أطلقت شرطة «نيويورك» النار على صبيّ أسودٍ في الخامسة عشرة من عمره وأردتْه قتيلًا (وكان تلميذًا في المدرسة) لسببٍ لا يرقى لأن يكون سببًا. إطلاق النار هذا هو الذي أطلق المظاهرات، فحرّض الشباب والشابّات السود ضدّ قوات الشرطة. أما الأخبارُ فقد جعلت الأمر يبدو كما لو أنّ سُود «هارلم» هم المخطئون. السُود العنيفون المجانين الوحوش الذين بلغت بهم الوقاحةُ أن يطالبوا بعدم إطلاق النار على أطفالهم في الشوارع. قبض سَني على نقود أمّه بقوةٍ وهو يمشي ذلك اليوم، راجيًا أن لا يقابل أي شخصٍ أبيض يودّ أن يثبت دليلًا، فقد كان سَني يعلم بجسده -حتى وإن لم يعرف بعقله بعد- أنّ أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء في أميركا هو أن تكون أسود. الأسوأ إذًا من أن تكون ميّتًا، هو أن تكون إنسانًا ميّتًا يمشي.

فتحت جوزِفين الباب. كانت تحمل طفلتها في ذراعٍ بينما يمسك ابنها يدها الأخرى. قالت لسني وهي تسدّد له نظرة شَزِرة: «هل تُهت؟».

هسّت أمها من خلفها: «تأدبي»، لكنّ سني كان سعيدًا أن يرى أخته تعامله

بالطريقة نفسها التي اعتادا عليها.

سألتْه وِلي: «هل أنت جائع؟». أخذتْ الطفلة من جوزفين وسارت نحو المطبخ.

قال سني وهو يمشي: «سأدخل الحمام أولًا». أغلق الباب وجلس على المرحاض، ثم أخرج الكيس من حذائه. لم يمض على وجوده في منزل أمّه أكثر من دقيقةٍ، لكنه بدأ يتوتّر. كان في حاجةٍ إلى تهدئة أعصابه.

حين خرج وجد طبقًا أعدّته له أمّه. جلست هي وابنتها تشاهدانه وهو يأكل، فسألهما: «لم لا تأكلان؟».

قال جوزفين من بين أسنانها: «لأنك تأخرت ساعةً ونصف!».

وضعتْ وِلي ذراعًا على كتف جوزفين، ثم أخرجت بعض النقود من صدريّتها. «جوزي، ما رأيكِ أن تذهبي وتشتري شيئًا للأطفال؟».

تلك النظرة التي سدّدتها جوزفين لأمّها آلمت سني أكثر من كلّ ما قالته. كانت نظرةً تسأل ما إذا كانت وِلي ستكون في مأمنٍ لوحدها معه. أما تلك الإيماءة غير الواثقة من وِلي فهي التي حطّمت قلبه.

أخذت جوزفين طفليها وخرجت. لم يكن سني قد رأى الطفلة من قبل، رغم أنّ أمّه جاءت لتخبره عن ولادتها. أما الطفل الأكبر فقد رآه مرةً حين مرّ بجوزفين في شارعٍ هادئ ذات يوم. أخفض رأسه وتظاهر بأنه لم يرهما.

«شكرًا على الطعام، ماما». كان قد فرغ تقريبًا من طعامه، وبدأ يشعر ببعض الغثيان لسرعته في الأكل. أومأتْ له وِلي وغرفت له المزيد.

سألتْه: «منذ متى لم تأكل وجبةً جيدة؟».

هزّ كتفيه وظلّت تنظر إليه. شعر مرةً أخرى بعدم الارتياح. تأثيرُ الجرعة الصغيرة التي أخذها كان يتلاشى بسرعةٍ شديدة، فأراد أن يستأذن ليأخذ أكثر، لكنّ ذلك قد يثير شكوك أمّه.

قالت وِلي بهدوء. «كان والدك رجلًا أبيض». كاد سني أن يختنق بعظمة الدجاج التي كان يلوكها. «كثيرًا ما سألتني عنه، قبل زمن، ولم أكن أخبرك

بشيء. لذلك ها أنا أخبرك الآن».

نهضت لكي تصبّ لنفسها من إبريق الشاي قرب المغسلة. شربت الكأس كله بينما كان سَني ينظر إلى ظهرها. وما إن انتهت من الكأس حتى صبّت لنفسها كأسًا أخرى وأخذته إلى الطاولة.

قالت: «لم يكن أبيض منذ البداية. كان أسود حين التقيته، بل أقرب إلى الصفار منه إلى السواد. أيًا ما كان، فقد كان ملوّنًا».

سَعل سني، ثم بدأ يلعب بأصابعه في عظمة الدجاج. «ولماذا لم تخبريني من قبل؟». كان يشعر بغضبه يتنامى، لكنّه تماسك. لقد جاء من أجل المال، وليس هذا وقت الشجار معها. ليس الآن.

«فكّرتُ أن أخبرك. لقد رأيتَه ذات مرة. في ذلك اليوم الذي مشينا فيه طيلة الطريق إلى شارع 109، هل تذكر؟ كان أبوك واقفًا في الشارع المقابل مع امرأته البيضاء وطفله الأبيض. وخطر لي أنه ربما عليّ أن أخبر كارسن من يكون ذلك الرجل، ثم قلتُ في نفسي لعله من الأفضل أن أتركه يذهب. لذلك تركته يرحل، وعدنا إلى هارلم».

كَسَر سني عظمة الدجاج إلى نصفين. «ماما، كان ينبغي عليكِ أن توقفيه. كان عليكِ أن تخبريني، وأن توقفيه. لا أعرف لماذا دائمًا تدَعين الناس يدوسون عليكِ. أبي، وإيلاي، وتلك الكنيسة اللعينة. لم تقاتلي من أجل شيء أبدًا، أبدًا. ولا يومًا واحدًا في حياتك».

مدّت أمّه يدها عبر الطاولة ووضعتها على كتفه، ثم اعتصرته بقوةٍ حتى اضطُر إلى النظر في عينيها. «ليس صحيحًا يا كارسن. لقد قاتلتُ من أجلك».

أعاد عينيه إلى عظمة الدجاج في صحنه، ثم نكز الكيس في حذائه بإصبع قدمه.

- أنتَ تظنّ أنك قاتلتَ من أجل شيءٍ لأنك خرجتَ في مسيرات؟ لقد فعلتُ أنا أيضًا. سرتُ مع أبيك وطفلي الصغير طيلة الطريق من ألاباما، طيلة الطريق إلى هارلم. لكي يرى ولدي عالما أفضل مما رأيت، ومما رآه والداي. لكي

أصبح مغنيةً معروفة. لكي لا يُضطر روبرت إلى العمل في منجم تحت إمرة رجلٍ أبيض. كانت تلك مسيرةً أيضًا يا كارسن.

بدأ سني ينظر نحو الحمّام. كان يريد أن يستأذن ويقضي على ما تبقّى في الكيس. أدرك أنه قد يكون آخر كيس يستطيع شراءه لفترة طويلة، طويلة.

نظّفت وِلي صحنه وصبّت لنفسها كأس شاي آخر. كان يراها عند المغسلة، تعبّ الشاي في شَرياتٍ طويلة عميقة، يعلو ويهبط صدرُها وظهرها فيما تحاول أن تستجمع نَفْسها. عادت لتجلس قبالته، وهي تنظر إليه طوال الوقت.

- كنت غضوبًا دائمًا. حتى وأنت طفل، كنت غاضبًا على الدوام. كنتُ أراك تنظر إليّ كما لو أنك سوف تقتلني، دون أن أعرف السبب. أخذ الأمر مني فترة طويلة كي أعرف أنك وُلدت لرجل كان في مقدوره أن يختار حياته، في حين أنك لم تستطع أبدًا أن تختار حياتك. ويبدو أنك وُلدت وأنت تُدرك ذلك.

رشفَت من كأسها وحدّقت في الفراغ. «البِيض يملكون الاختيار. يستطيعون اختيار وظيفتهم، ومسكنهم. يستطيعون أن ينجبوا أطفالًا سُود، ثم يختفون كأنهم لم يُوجدوا أصلا، وكأنّ تلك النساء السوداوات اللائي ناموا معهنّ أو اغتصبوهنّ نمنَ فوق أنفسهنّ وحملن. البيض يستطيعون أن يختاروا للسود أيضًا. كانوا يبيعونهم، أما الآن فيرسلونهم إلى السجون كما فعلوا بأبي، لكي لا يبقوا مع أطفالهم. يحطّم قلبي أن أراك يا ولدي، يا حفيد أبي، هنا ولك أطفال يمشون في هارلم لا يكادون يعرفون اسمك، فضلًا عن أن يعرفوا وجهك. كل ما أفكر فيه هو أنّ هذا ليس ما كان من المفترض أن يكون. ثمة أشياء لم تتعلمها مني، بل التقطتها من أبيك حتى وإن لم تعرفه. أشياء التقطها هو من البيض. يُحزنني أن أرى ولدي مُدمنًا بعد كلّ هذه المسيرة التي خضتها، لكنّه يحزنني أكثر أن أراك تفكّر في الرحيل، مثل أبيك. إنك تستمر في فعل ما تفعله، والرجل الأبيض لم يعد مضطرًا إلى ذلك. لن يبيعك أو يضعك في منجم فحمٍ كي يملكك. سوف يملكك هكذا، بهذه الطريقة، ويقول إنك أنت الذي فعلت ذلك بنفسك. سيقول إنه خطؤك».

عادت جوزفين مع أطفالها. كانت قمصانهم ملطّخة بالآيس كريم، ووجوههم مشرقة بابتسامات الرضا. لم تنتظر أن تسمع المزيد، بل أخذت الأطفال فورًا إلى غرفتهم لتنوّمهم.

أخرجت وِلي لفةً من النقود من بين ثدييها وألقتها على الطاولة أمامه. «هذا ما جئتَ من أجله؟». كان سني يرى الدموع تتشكّل في عينيها. ظلّ ينكز الكيس بإصبع قدمه، فيما تحكُّه أصابعه كي يأخذ النقود.

قالت وِلي: «خذها واذهب إن أردت. اذهب إن أردت».

ما كان يريده سني فِعلًا هو أن يصرخ، أن يأخذ النقود، أن يأخذ ما تبقّى في كيس حذائه ويجد مكانًا ليضرب فيه إلى أن لا يعود بمقدوره تذكّر شيءٍ من الأشياء التي قالتها أمّه.

لكنّه لم يفعل. لقد بقي.

مارْجِري

«من فضلك، أختي! آخذكِ لتري القلعة. قلعة كيب كوست. خمسة سِدي فقط. قادمة من أميركا؟ آخذكِ لتري سفينة العبيد. بخمسة سِدي فقط».

كان الصبيّ ربما في العاشرة من عمره، أصغر ببضع سنوات فقط من (مارْجِرِي)، التي ظلّ يتبعها منذ أن نزلت هي ومدبّرة منزل جدّتها من حافلة الـ «تروترو». كان الأهالي معتادين على ذلك، ينتظرون السيّاح أن ينزلوا من الحافلات فيخدعونهم ويجعلونهم يدفعون لأشياء كان أهل غانا يعرفون أنها مجانيّة. حاولت مارجري أن تتجاهله، لولا ما تشعر به من تعبٍ وحرارة، فما زال عالقًا بها ذلك الإحساس بعَرق الأشخاص الآخرين المنحشرين خلفها وأمامها وإلى جنبها في التروترو لمدة ثماني ساعات تقريبًا من «أكرا».

قال الصبيّ ثانية: «آخذكِ لتري قلعة كيب كوست، أختي. فقط بخمسة سِدي». كان عاري الصدر، فشعرت كما لو أنّ الحرارة تشعّ من جلده إليها. وبعد ساعات السفر الطويلة تلك لم تكن تطيق أن يقترب منها جسدٌ غريب آخر، فصرخت بالتويّة: «أنا من غانا يا أحمق. ألا ترى؟».

غير أنّ الصبيّ استمر في حديثه بالإنجليزية: «لكنكِ قادمة من أميركا؟».

استمرّت ماشية وهي غاضبة. وكانت تشعر بثقل حزامَي الحقيبة على كتفيها، فعرفتْ أنهما سيتركان آثارًا هناك.

قَدِمت مارجري إلى غانا لزيارة جدّتها، كعادتها في كل صيف. وقد انتقلت

جدّتها إلى كيپ كوست منذ فترة كي تكون قرب البحر. هناك في «إجيسو» حيث كانت تعيش سابقًا، كان الجميع يسمّيها «المجنونة»، أما في كيپ كوست فُعرفت باسم «العجوز». يقولون عنها إنها طاعنة في السنّ حتى أنّ بمقدورها أن تحكي تاريخ غانا كله من ذاكرتها.

صاحت العجوز: «هل هذه طفلتي القادمة!». كانت تتوكأ على عصا من خشبٍ مقوّس، وظهرها يحاكي عصاها في تقوّسه حتى بدا كما لو أنّ العجوز في حالة ركوعٍ دائم. وأخذت تهلّل: «**أكوابا، أكوابا، أكوابا**».

هتفت مارجري: «جدّتي العجوز، اشتقت إليكِ»، واحتضنتها بقوّة فتأوهت.

- هيه، هل جئتِ لكي تكسري عظامي؟
- آسفة، آسفة.

نادت العجوز على خادمها كي يحمل حقيبة مارجري، وببطءٍ وحذرٍ شديدَين سحبت مارجري الحزامَين من كتفيها المتألمين.

رأتها جدّتها تعبس فسألتها: «أهناك شيء يؤلمك؟».

- لا، لا شيء.

كان جوابها مجرّد رد فعلٍ معتاد. فكلما سألها أبوها أو جدّتها عن الألم، كانت تجيب بأنها لم تعرف الألم قط. حين كانت طفلة قيل لها إنّ التشوّهات التي كانت على وجه أبيها ويدي وقدمي جدّتها إنما وُلدت من ألمٍ هائل. ولأنّ مارجري لم تكن تحمل أي ندوبٍ تشبهها، فلم تستطع أبدًا أن تشتكي من الألم. ذات مرة حين كانت صبية صغيرة رأتْ سَعفةً[9] على ركبتها، تكبر وتكبر وتكبر. ظلّت تخبئ الأمر عن والديها أسبوعين كاملين، إلى أن غطّت السعفةُ مكان التقاء الفخذ بالربلة، ما يجعل الانحناء صعبًا. وحين ذهبت أخيرًا لتُري والديها السعفة، أصيبت أمها بالغثيان فاستفرغت، أما أبوها فقد هرع بها

(9) السعفةُ مرضٌ جلديّ عبارة عن بقعة حمراء. (المترجم).

إلى المستشفى. وهناك حين جاءت الممرضة تناديهما فَزِعت، لا من السعفة وإنما من التشوّهات على وجه أبيها، حتى ظنّت أنهما قادمان إلى المستشفى من أجله هو.

الآن وهي تنظر إلى يدَي جدتها يبدو من المستحيل التمييز بين الجلد المتشوّه والمتجعّد. لقد تحوّلت بشرة العجوز إلى حطام؛ إذْ تهاوت المرأة الشابة وتركت خلفها هذا الجسد.

استقلّوا سيارة أجرة إلى منزل العجوز، فقد كانت جدة مارجري تسكن على الشاطئ في منزلٍ كبير مفتوح من طابق واحد، من ذلك النوع الذي يملكه البِيض القليلون في البلدة. حين كانت مارجري في الصف الثالث غادر أبواها «ألاباما» وعادا إلى غانا لمساعدة العجوز في بناء هذا البيت. ظلّا هناك شهورًا عديدة، وتركا مارجري عند أصدقائهما. وحين حلّ الصيف ولحقتْ بهما مارجري عشقت هذا البيت الجميل الذي لا أبواب له. كان البيت أكبر بخمس مرات من الشقة الصغيرة في «هَنْتْسفِل»، أما فناؤه الأمامي فكان الشاطئ نفسه، لا ذلك اللوح البائس من الأعشاب الميتة أمام الشقة. وقد قضت مارجري الصيف كله تسأل نفسها كيف يمكن لأبويها أن يتركا مكانًا كهذا.

ناولتْها العجوزُ بعض الشوكولاته التي كانت تحتفظ بها في المطبخ وهي تسألها: «هل كنتِ شاطرة يا صغيرتي؟». كانت مارجري تعشق الشوكولاته، وكثيرًا ما تتندّر أمها قائلة بأنّ مارجري بالتأكيد وُلدت من حبة كاكاو. أومأت مارجري وأخذت الشوكولاته، ثم ما لبثت أن قالت وفمها ممتلئ بالشوكولاته الذائبة: «آر وي غوينغ تو ذا ووتر تُدَي؟».

ردّت جدّتها بحدّة: «تكلمي بالتويّة»، وضربت مؤخرة رأس مارجري.

دمدمت مارجري: «آسفة». هناك في «هنتسفِل» كان أبواها يكلمانها بالتويّة فتجيبهما بالإنجليزية كعادتها منذ ذلك اليوم الذي عادت فيه مارجري برسالةٍ من معلّمة الحضانة جاء فيها:

لا تبادر مارجري للإجابة عن الأسئلة، ونادرًا ما تتحدث. هل تعرف اللغة

الإنجليزية؟ إن كانت لا تعرفها فعليكما التفكير في تسجيلها في حصص تعليم اللغة الإنجليزية كلغةٍ ثانية. أو ربما تحتاج مارجري إلى رعاية خاصة؟ لدينا هنا حصص تربية خاصة ممتازة.

أثارت هذه الرسالة استياء والدَيها، وقرأ أبوها الرسالة بصوتٍ عال أربع مرات وهو يصرخ بعد كل مرة: «هذه الحمقاء لا تعرف شيئًا!». بيد أنّهما ظلا يختبران مارجري في لغتها الإنجليزية كل ليلة، وما إن تحاول الإجابة بالتويّة حتى يقولان لها «تكلمي بالإنجليزية»، إلى أن أصبحت الإنجليزية الآن أول لغة تقفز إلى ذهنها. أما هنا في غانا فكان عليها تذكير نفسها بأنّ جدتها تريد العكس تمامًا.

- نعم، سنذهب إلى البحر الآن.

الذهاب إلى الشاطئ مع العجوز كان واحدًا من أجمل المتع في حياة مارجري. فجدّتها لم تكن مثل بقية الجدّات. في الليل كانت العجوز تتكلم في منامها، وفي بعض الأحيان تتشاجر، أو تذرع الغرفة. كانت مارجري قد سمعت قصصًا عن الحروق التي في يدي جدّتها وقدميها، وعن الحرق الذي في وجه أبيها. وكانت تعرف لماذا أطلق عليها أهل «إجيسو» اسم المجنونة، لكنّها ليست مجنونة في نظرها. كانت العجوز تحلم أحلامًا، وترى رؤى.

سارت مارجري مع جدّتها باتجاه الشاطئ، والعجوز تسير ببطءٍ شديد كما لو أنها لا تتحرك على الإطلاق. لم تكن أي منهما ترتدي نعلًا، وحين وصلتا إلى حافة الرمل انتظرتا مدّ الماء ليصل ويلعق ما بين الأصابع، فيغسل التراب المختبئ هناك. أغمضت الجدة عينيها، في حين أخذت مارجري تنظر أمامها في انتظار العجوز أن تتحدث. فهذا هو الذي جاءتا من أجله، بل ما كانتا دائمًا تأتيان من أجله.

سألتها جدّتها: «هل قلادة الحجر على عنقك؟».

على نحوٍ غريزي، رفعت مارجري يدها تتحسس القلادة. كان أبوها قد أعطاها إياها في العام الفائت، وقال لها إنها أخيرًا أصبحت في عمرٍ يؤهلها للحفاظ عليها. فذلك الحجر إنما يعود إلى العجوز، وإلى (آبنا) من قبلها،

و(جيمس)، و(كوي)، و(إفيا الجميلة) قبلهم. أما بدايته فكانت مع (مامي)، المرأة التي أشعلت النار الكبيرة. قال لها أبوها إنّ القلادة كانت جزءًا من تاريخ عائلتهم، فلا ينبغي لها أن تنزعها أبدًا، ولا أن تتخلص منها. ها هي الآن في عنقها ينعكس عليها ماء المحيط، موجات ذهبية تلتمع في الحجر الأسود.

- نعم جدّتي.

أمسكت جدّتها يدها، وحلّ الصمت مرة أخرى. ثم قالت أخيرًا: «أنتِ هنا، في هذا الماء».

هزّت مارجري رأسها على نحوٍ جادّ. في اليوم الذي وُلدت فيه قبل ثلاثة عشر عامًا في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، أرسل والداها حبلها السرّي إلى العجوز كي تضعه في المحيط. كان هذا هو الطلب الوحيد للعجوز بعد أن تزوّج ابنها وقرّر السفر مع زوجته إلى أميركا في سنّ كبيرة؛ أنه إن رُزق ابنها وزوجته بطفلٍ فعليهما أن يرسلا شيئًا من ذلك الطفل إلى غانا.

قالت العجوز: «بدأت عائلتنا هنا، في كيپ كوست»، وأشارت إلى القلعة. «ظللتُ أرى هذه القلعة في أحلامي، غير أني لم أعرف السبب. وذات يوم حين جئت إلى هذه المياه شعرتُ بأرواح أسلافنا تناديني. كانت بعض هذه الأرواح حرةً، تتحدث إليّ من الرمل، لكنّ أرواحًا أخرى كانت عالقة في مكان عميقٍ عميق تحت الماء، حتى أنني اضطُررت إلى الخوض بعيدًا في الماء كي أسمع أصواتها. خضتُ بعيدًا، وكاد الماء أن يبتلعني كي ألتقي تلك الأرواح العالقة في أعماق بعيدةٍ حتى بدا أنها لن تتحرّر أبدًا. في حياتها لم تكن تعرف من أين جاءت، وفي موتها لم تعرف كيف تصل إلى اليابسة. وقد وضعتكِ هنا حتى إذا ما هامت روحُكِ ذات مرة، فسوف تعرفين أين موطنك».

هزّت مارجري رأسها بينما كانت جدّتها تمسك بيدها وتمشي بها بعيدًا، بعيدًا في الماء. كانت هذه عادتهما الصيفية، إذْ تذكّرها جدّتها بكيفية العودة إلى موطنها.

عادت مارجري إلى «ألاباما» وقد اسمرّت بشرتُها ثلاث درجات، وزاد وزنها خمسة أرطال. وقد جاءها دمها وهي عند جدّتها، فصفّقت العجوز وأنشدت تحتفلُ بدخول حفيدتها إلى عالم النساء. لم تكن مارجري تودّ أن تغادر كيپ كوست، لكنّ العام الدراسي كان على وشك البدء، ولن يسمح لها أبواها بالبقاء فترةً أطول في غانا.

كان من المقرّر أن تدخل مارجري المدرسة الثانوية. ورغم أنّها لطالما كرهت «ألاباما»، إلا أنّ المدرسة الجديدة الكبيرة كانت هي التي تذكّرها بالسبب. فمارجري تعيش مع أسرتها في الجانب الجنوب شرقي من «هنتسفِل»، حيث كانت الأسرة السوداء الوحيدة في الجوار، والأشخاص السود الوحيدين لمسافة أميال، وأميال، وأميال. أما في مدرستها الجديدة فقد كان هنالك أطفال سود أكثر مما اعتادت على رؤيتهم في «ألاباما»، بيد أنّ الأمر لم يستغرق أكثر من بضعة حوارات كي تدرك مارجري أنهم لم يكونوا من نوع السّود نفسه الذي تنتمي إليه، وأنها بالتأكيد النوع الخطأ.

سألتْها (تيشا) زعيمة المجموعة في أول يومٍ دراسي حين انضمت إليهنّ على الغداء: «لماذا تتحدثين هكذا؟». ردّت مارجري: «هكذا كيف؟»، فكرّرت تيشا كلماتها بلهجةٍ شبه بريطانية كي تتقن تقليد مارجري: «**لايك وات؟**».

في اليوم التالي جلست مارجري بمفردها تقرأ رواية **سيّد الذباب** المقررة في صفّ اللغة الإنجليزية. أمسكت الكتاب بيدٍ، والشوكة باليد الأخرى. كانت مستغرقة للغاية في الكتاب حتى أنها لم تدرك أنّ قطعة الدجاج التي غزّتها بالشوكة لم تصل إلى فمها، إلا حين أكلت الهواء. أخيرًا رفعت عينيها فوجدت تيشا وفتيات سُود أخريات يحدّقن فيها.

قالت تيشا: «لماذا تقرأين ذلك الكتاب؟».

فتلعثمت مارجري: «عليّ..عليّ أن أقرأه للصفّ». فقلّدتها تيشا: «**آي هاف تو رِيد ات فور كلاس**. تتحدثين كفتاة بيضاء. الفتاة البيضاء، الفتاة البيضاء، الفتاة البيضاء».

ظلّت الفتيات يغنّين، وكلّ ما كان في استطاعة مارجري فعله هو منع نفسها من البكاء. هناك في غانا كان كلما ظهر شخص أبيض، ظهر معه طفل يشير إليه. مجموعة صغيرة من الأطفال الداكنين اللامعين في الشمس الاستوائية يمدّون أصابعهم الصغيرة نحو شخصٍ تختلف بشرته عن بشرتهم، فيصيحون: «**أوبروني! أوبروني!**». كانوا يقهقهون، مبتهجين بهذا الاختلاف. في المرة الأولى التي رأت فيها مارجري هذا المشهد لاحظت أنّ الرجل الأبيض كان مصدومًا ويشعر بالإهانة، فسأل صديقه الذي كان يأخذه في جولة خلال المكان: «لماذا يرددون ذلك!».

أما والدها فقد سحبها ومضى بها، وفي تلك الليلة سألها ما إذا كانت تعرف الجواب عن سؤال الرجل الأبيض، فهزّت كتفيها. أخبرها أبوها أنّ الكلمة أصبحت تعني شيئًا مختلفًا تمامًا عما كانت تعنيه في السابق. فالغانيّون الصغار وُلدوا في مكانٍ حُرّر من مستعمريه. ولأنهم لم يكونوا يرون البيض كل يوم كما كان الأمر في أيام والدته وقبلها، فقد أصبح للكلمة معنى مختلفًا بالنسبة إليهم. لقد عاش هؤلاء الصغار في غانا حيث هم الأغلبية، وحيث لون بشرتهم هو اللون الوحيد على مدى أميال حولهم. وهكذا حين يقولون لشخصٍ «**أوبروني!**»، فإنهم يقومون بفعلٍ بريء، مجرد ترجمةٍ للعِرق بناءً على لون البشرة.

والآن ومارجري تخفض رأسها تصارع الدموع بينما تيشا وصديقاتها تسمّيها «الفتاة البيضاء»، فقد أدركت مرةً أخرى أنّ «الأبيض» هنا يمكن أن يشير إلى طريقة الكلام التي يستخدمها المرء، أما «الأسود» فقد يكون الموسيقى التي يستمع إليها. في غانا يكون المرءُ ما هو عليه، ما يصرّحُ به لون بشرته، لا أكثر.

«لا تكترثي لهم». هكذا قالت (إستر) لابنتها مارجري في تلك الليلة وهي تمسّد شعرها. «لا تكترثي لهم يا بنيّتي الذكية. بنيّتي الجميلة».

في اليوم التالي تناولت مارجري الغداء في ردهة معلّمي اللغة الإنجليزية. كانت (مِسِز بِنكستن) امرأةً سمينة لها بشرة جوزيّة اللون، وضحكة كصوت قطارٍ يقترب. كانت تحمل حقيبة يدٍ وردية كبيرة تُخرج منها الكتاب تلو الآخر

بلا انقطاع، كما لو أنها قبعة ساحر. كانت مارجري في داخلها تسمّي تلك الكتب أرانب. قالت لمارجري وهي تناولها قطعة كعك: «لا عليكِ منهم، إنهم لا يعرفون شيئًا».

كانت مسز بِنكستن المعلمة المفضّلة لمارجري، وهي واحدة من معلّمتين سوداوين في مدرسة بها ألفا طالب وطالبة تقريبًا. وكانت الشخص الوحيد الذي تعرفه مارجري يملك نسخةً من كتاب والدها **هَدمُ الأمة يبدأ من بيوت شعبها.** كان هذا الكتاب مشروع حياته، وقد فرغ من كتابته في سنّ الثالثة والستين، في حين كان يشارف على السبعين حين رُزق بابنته. أما عنوان الكتاب فقد استعاره من مَثلٍ أشانتي قديم، واستخدمه للحديث عن قضايا العبودية والاستعمار. كانت مارجري قد قرأت كل كتابٍ في مكتبة أبويها، لكنها قضت ساعات كاملة تحاول أن تقرأ هذا الكتاب، فلم تتجاوز الصفحة الثانية. وحين أخبرت والدها قال لها إنها لن تستوعبه إلا حين تكبُر. وقال لها أيضًا إنّ الناس يحتاجون إلى وقتٍ لكي يستطيعوا رؤية الأشياء بوضوح.

قالت مسز بِنكستن وهي تشير إلى كتاب **سيد الذباب** الذي كان يتدلى من يدي مارجري: «ما رأيك فيه؟».

- يعجبني.
- ولكن هل تحبّينه؟ هل تشعرين به في أعماقك؟

هزّت مارجري رأسها موافقة. في الحقيقة لم تكن تعرف ما الذي يعنيه أن تشعر بالكتاب في أعماقها، لكنها لم ترد أن تخبر معلّمتها بذلك خشية أن تخيّب أملها.

أطلقت مسز بِنكستن ضحكتها القِطاريّة، وتركت مارجري مع كتابها.

على هذا النحو قضت مارجري ثلاث سنوات تبحث عن الكتب التي تحبّها، التي يمكن أن تشعر بها في أعماقها. وحين وصلت إلى السنة الأخيرة كانت قد قرأت تقريبًا كل الكتب على الجدار الغربي من مكتبة المدرسة، ما لا يقلّ عن

ألف كتاب، وبدأت تشقّ طريقها في الجدار الشمالي.

- هذا كتاب جميل.

كانت قد أنزلت من الرف رواية **مِدل مارش** وأخذت تستنشق رائحة الكتاب حين تحدّث الولد إليها.

سألته: «هل تحب جورج إليوت؟». كانت قد رأته في الأنحاء مؤخرًا، لكنها لم تتذكر أين تحديدًا. وكان بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين يبدو كطفلٍ صغير رأته ذات مرةٍ في إعلان حبوب الإفطار «تشيريوس»، لكنه كبُر الآن.

وضع الولد سبّابته على شفتيه: «لا تخبري أحدًا»، فابتسمت رغمًا عنها.

- اسمي مارجري.

- وأنا غريهم.

تصافحا، وأخبرها غريهم عن كتاب **ريش الحمام** الذي كان يقرأه. ثم أخبرها أنّ أسرته انتقلت لتوّها من ألمانيا، وأنّ والده يعمل في الجيش، أما والدته فقد تُوفيت منذ زمن. تحدثت مارجري هي الأخرى لكنها لا تتذكر ما قالته، وكلّ ما تتذكره أنها ابتسمت كثيرًا كثيرًا حتى آلمتها وجنتاها. بيد أنّ الجرس سرعان ما دقّ فانتهت ساعة الغداء، وتوجّه كل منهما إلى صفّه.

ومنذ ذلك اليوم كانا يتقابلان كل يوم، يقرآن معًا في المكتبة ساعة تناول الجميع غداءهم. كانا يجلسان جنبًا إلى جنب لا تفصل بينهما أكثر من سنتيمترات، على طاولةٍ كبيرة طويلة تتسع لثلاثين شخصًا أو أكثر، والكراسي الكثيرة الفارغة لا تمنحمها أي عذرٍ لهذا الاقتراب. لم يعودا يتحدثان كثيرًا مثل اليوم الأول، فالقراءة معًا كانت تكفي. في بعض الأحيان كان غريهم يكتب رسائل صغيرة لمارجري، وفي الغالب تكون قصائد قصيرة أو قصصًا مجزأة. أما هي فقد كان يمنعها خجلها من أن تريه ما تكتب. في الليل كانت تنتظر أن ينام أبواها لكي تشعل مصباحها وتقرأ أوراق غريهم على ذلك الضوء الخافت.

«بابا، متى أدركتَ أنك معجب بماما؟». سألته على الإفطار في اليوم التالي. كان أبوها قد تعرّض لنوبةٍ قلبية قبل عامين، فأصبح يتناول صحنًا من الشوفان

يوميًا. كان كبيرًا في السنّ حتى أنّ معلمي مارجري كانوا يفترضونه جدّها.

مسح شفتيه بمنديله وتنحنح. «ومن قال لكِ إنني أعجبت بأمك؟ أدارت مارجري عينيها في استغراب، بينما أخذ أبوها يضحك. «هل قالت لك أمك ذلك؟ إيه يا أبرونوما، ما زلتِ صغيرة جدًا على أن تعجبي بشخص. ركّزي في دروسك».

وقبل أن تبدي اعتراضها كان قد خرج متوجهًا لتدريس محاضراته في التاريخ في الكلّية. لطالما كرهت أن يسمّيها والدها «الحمامة». كان ذلك اسمها الخاص، اللقب الذي يُولد معها بسبب اسمها الأشانتي، لكنه كان يُشعرها على نحوٍ ما بالضآلة، بأنها صغيرة وهشّة. لم تكن مارجري ضئيلة، ولا صغيرة. كانت كبيرة، كبيرة حتى أنّ نهديها أصبحا كبيرين بحجم نهدَي أمها، حتى أنها أحيانا تُضطر إلى حملهما بيديها حين تمشي عارية إلى غرفتها كي لا يضربا صدرها.

سألتْها أمها وهي قادمة بالملابس المغسولة في يديها: «معجبة بمن؟». لم تكن إستر تستخدم الغسالات رغم أنها عاشت في أميركا قرابة خمسة عشر عامًا. فما تزال تغسل الملابس الداخلية لأسرتها بيدها في مغسلة المطبخ.

- لا أحد.

قالت إستر وهي تكشّر عن ابتسامة واسعة: «هل دعاكِ أحد إلى الحفل الراقص؟». تنهّدت مارجري. فقبل خمس سنوات شاهدت مع أمها حلقة خاصة من برنامج **20/20** حول الحفلات الراقصة في أميركا، وكانت إستر مبتهجة بها. قالت إنها لم تر قطّ شيئًا مثل تلك الفتيات في الفساتين الطويلة والفتيان في البدلات الأنيقة. كان يختلجُ داخلها أملٌ أن تصبح ابنتها واحدة من تلك الفتيات. أملٌ يختلج مثل ضوءٍ في عين إستر، ووخزٌ مثل حبة غبار في عين مارجري، فهي واحدة من ثلاثين فتاة سوداء في مدرستها، لم تُدع أي منهنّ إلى الحفل الراقص في العام الفائت.

- لا، ربّاه، لا!

قالت أمها وهي تسحب حمالة صدرٍ من أعماق المغسلة: «كفى، أنا لستُ الرب، ولم أكن قط. إن كان هناك ولد معجب بك، فعليكِ أن تبيّني إعجابك

به أيضًا، وإلا فلن يفعل شيئًا. عشتُ في منزل أبيكِ سنوات عديدة، عديدة، قبل أن يطلب مني الزواج. كنتُ فتاة حمقاء، كنتُ أرجو أن يفهم أنني أريده كما هو يريدني، لكنني لم أبيّن ذلك أبدًا. ولولا تدخّل العجوز، من يدري ما إذا كان سيُقدم على شيء. تلك المرأة لها إرادة قوية».

تلك الليلة، خبّأت مارجري قصيدة غريهم تحت وسادتها، وهي ترجو أن تكون قد ورثت إرادة جدّتها، وأنّ الكلمات التي كتبها غريهم سوف تطير إلى أذنها وهي نائمة، فتُزهر في شكل حلم.

كانت مسز پنكستن ترتّب للمدرسة فعاليةً ثقافية سوداء، فسألت مارجري ما إذا كان بإمكانها أن تقرأ قصيدة. لم تكن هذه الفعالية التي أطلقت عليها اسم «المياه التي نخوضها» تشبه أيًا من الفعاليات التي أقامتها المدرسة سابقًا، وكان من المقرر أن تكون في بداية شهر أيار/مايو، بعد انتهاء «شهر تاريخ السود».

قالت مسز پنكستن: «كلّ ما عليكِ فعله هو أن تقصّي حكايتك. تحدثي عما يعنيه لكِ أن تكوني أميركية إفريقية».

فقالت مارجري: «لكنني لستُ أميركية إفريقية».

أدركت مارجري فورًا أنّها قالت شيئًا خطأً، رغم أنها لم تستطع قراءة النظرة على وجه مسز پنكستن. كانت تريد أن تشرح الأمر لها، لكنها لم تعرف كيف. كانت تريد أن تخبرها أنهم في البيت يستخدمون كلمة أخرى للأميركيين الأفارقة: **أكاتا**. هؤلاء الأكاتا مختلفون عن الغانيين، وقد مضى زمن طويل جدًا على رحيلهم من القارة الأم، فلم يعودوا يستطيعون أن يسمّوها قارتهم الأم أساسًا. كانت تريد أن تقول لمسز پنكستن إنها تشعر بنفسها وكأنها تنسحب بعيدًا أيضًا، فتكاد تكون أكاتا أيضًا، إذْ إنها رحلت عن غانا منذ وقتٍ طويل جدًا لا يشفع لها أن تظلّ غانيّة. كانت تريد أن تشرح ذلك، بيد أنّ النظرة على وجه مسز پنكستن جعلتها تتوقف.

«اسمعي يا مارجري، سأخبرك بشيء ربما لم يخبرك به أحد من قبل.

هنا، في هذه البلاد، ليس مهمًا بالنسبة إلى البيض الذين يديرون الأمور من أين جئتِ. فأنتِ الآن هنا، وهنا الأسوَدُ أسوَد». نهضت من كرسيّها وصبّت لكل منهما كوب قهوة. لم تكن مارجري تحبّ القهوة، وكانت شديدة المرارة حتى أنّ مذاقها علق بحلقها، كما لو أنه لم يقرِّر بعد هل يمضي إلى جسدها أم يخرج مع الزفير. شربت مسز پنكستن قهوتها، في حين أخذت مارجري تنظر في كوبها. ولوهلةٍ، لثانيةٍ لا أكثر، خطر لها أنها ترى وجهها منعكسًا على القهوة.

تلك الليلة ذهبت مارجري لمشاهدة فيلم في السينما مع غريهم. وحين جاء ليأخذها، سألته ما إذا كان سيوقف سيارته بعد شارعٍ من منزلها، إذْ لم تكن مستعدةً بعد لإخبار أبويها.

قال غريهم: «فكرة جيدة»، فتساءلت مارجري ما إذا كان والده يعرف.

بعد انتهاء الفيلم أخذها بسيارته إلى أرضٍ فضاء في الغابة. كان واحدًا من تلك الأماكن التي يُفترض أنّ المراهقين الآخرين يذهبون إليها لتبادل القبل، لكنّ مارجري مرّت بها مرّتين من قبل، وكانت دائمًا خالية.

تلك الليلة أيضًا كانت خالية. أحضر غريهم معه زجاجة وِسكي، ورغم أنّ مارجري كانت تكره طعم الكحول، فإنها ارتشفت منه ببطء. وبينما هي تشرب، أخرج غريهم سيجارة. بعد أن أشعلها، ظلّ يلعب بالولّاعة، يُظهر النار، ثم يخفيها.

وحين بدأ يلوّح بالولاعة قالت: «هلا توقفت عن ذلك، رجاء؟».

- عن ماذا؟

- الولاعة. هلا أبعدتها من فضلك؟

رمقها غريهم متعجّبًا، لكنه لم يقل شيئًا، فلم تُضطر إلى الشرح. كانت مارجري ترتعب من منظر النار منذ أن سمعت عن قصة أبيها وجدّتها. وحين كانت صغيرة، كانت امرأة النار التي في أحلام جدّتها تزورها في ساعات اليقظة. لم تكن قد سمعت عنها إلا من قصص جدّتها في تلك الأيام التي كانتا تمشيان فيها إلى الماء، لكي تخبرها جدّتها عن أسلافهم. ومع ذلك، فقد خطر لمارجري

أنها ترى امرأة النار في لهيب الموقد، وفي الفحم المشتعل، وفي الولاعات. كانت تخشى أن تنتقل الكوابيس إليها هي أيضًا، وأن يختارها الأسلاف كي تسمع قصص عائلتها، لكنّ الكوابيس لم تأتِها قط. وهكذا، ومع مرور الوقت خبا خوفها من النار. لكنّها كانت تشعر بانقباض قلبها حين ترى النار، كما لو أنّ ظلّ امرأة النار لا يزال يتربص بها.

سألها غريهم وهو يُبعد الولاعة: «ما رأيك في الفيلم؟».

هزّت كتفيها، فذلك هو الرد الوحيد الذي تملكه؛ لأنها لم تكن تفكّر في الفيلم على الإطلاق. كانت طوال الوقت تفكّر في مكان يد غريهم عند علبة الفشار أو على مسند الذراع. كانت تفكّر في ضحكته، وفي ما إذا كانت مَيلة رأسه إلى اليسار، أي نحوها، دعوةً لها كي تميل رأسها نحوه أيضًا أو تسنده على كتفيه. في تلك الأسابيع التي قضياها في التعرف إلى بعضهما، ازداد افتتانها بزرقة عينيه. كتبت عنهما قصائد. تلكَ الزُرقة مثل ماء المحيط، مثل السماء الصافية، مثل الياقوت—لم تستطع أن تحدد. وفي الفيلم أيضًا كانت تفكّر في أنّ أصدقاءها الحقيقيين كانوا مجرد شخصيات في روايات. أصدقاء غير حقيقيين تمامًا. لكنّ غريهم هو الذي ظهر في حياتها وابتلع شيئًا من وحدتها بزرقة عينيه. كانت تفكّر في ذلك كله، وفي اليوم التالي لم تستطع أن تتذكر حتى اسم الفيلم.

قال غريهم: «نعم، حتى أنا شعرتُ بذلك»، ثم كرع من زجاجة الوِسكي.

كانت مارجري تسأل نفسها ما إذا كانت تحبّ. لكنْ كيف لها أن تعرف؟ وكيف يعرف الآخرون حين يحبّون؟ في المدرسة المتوسطة كانت تحبّ الأدب الڤِكتوري، تحبّ تلك الرومنسية الجارفة فيه. فكلّ شخصية في تلك الكتب كانت تعيش قصة حب لا شفاء منه. كل الرجال يغازلون، وكل النساء يُغازَلن. في ذلك العصر كان سهلًا أن تعرف ما هو الحب، وتشعر بعاطفته التي تُخجلك بعظمتها، لكنّها لا تخجل من شيء. أما الآن، فهل الحب جلوسٌ في سيارة كامْري، وارتشاف الوِسكي؟

قال غريهم: «حتى الآن لم تدعيني أقرأ أيًا من كتاباتك»، وكَبَت جُشْأةً وهو يعيد الزجاجة لمارجري.

- طلبت مني مسز پنكستن أن أكتب قصيدة لفعالية الشهر القادم. ربما يمكنك قراءتها.

- هذا بعد أسابيع من الحفل الراقص، صحيح؟

جفّ حلقها مع ذكر الحفل الراقص. كانت تنتظر منه أن يقول شيئًا أكثر، لكنه لم يقل، فاكتفت بهزّ رأسها.

«سوف يسعدني جدًا أن أقرأها، إن كنتِ تريدينني أن أقرأها». عادت الزجاجة بين يديه، ورغم أنّ المكان كان مظلمًا، إلا أنّ مارجري كانت تستطيع رؤية الخطوط المتجعدة على مفاصل أصابعه وهي تحمرّ من أثر القبض.

***

في ذلك الأسبوع بدأت أشجار الإجاص تُزهر في «برادفورد». كان جميع من في المدرسة يتحدث أنّ لها رائحة المنيّ، رائحة الجنس، رائحة فرج امرأة. أما مارجري فقد كانت تكره رائحتها، ما يشي بعذريّتها وعدم استطاعتها أن تشبّه الرائحة بشيءٍ آخر سوى السمك المتعفن. كانت في كل صيف تعتاد على الرائحة، وما إن تسقط الأزهار حتى تغدو الرائحة أثرًا بعيدًا من الماضي، غير أنّ الربيع سيأتي، وتعود الرائحة تُعلن بقوةٍ عن حضورها من جديد.

كانت مارجري تحاول كتابة قصيدةٍ لفعالية «المياه التي نخوضها»، حين تلقّى أبوها اتصالًا من غانا. فالعجوز تشكو من الإعياء ولم تستطع ممرّضتها أن تحدد ما إذا كانت الأحلام التي تراها الآن هي نفسها أم مختلفة. لم تكن العجوز تفارق السرير كثيرًا كما كان عهدها، وهي التي كانت ذات يوم تخاف النوم.

شعرت مارجري برغبة في أن تسافر أسرتها إلى غانا على الفور. توقفت عن كتابة القصيدة، واستلّت سماعة الهاتف من والدها المضطرب وطلبت من الممرضة أن تنادي العجوز لتتحدث معها على الهاتف، حتى لو استدعى الأمر

إيقاظها. في يوم غير هذا كان ما فعلته مع والدها سيكلّفها ضربة على الرأس.

- هل أنتِ مريضة؟

- مريضة؟ قريبًا في هذا الصيف سأرقص معك عند الماء. كيف لي أن أكون مريضة؟

- لن تموتي؟

قالت العجوز بحدّة: «ماذا قلت لك سابقًا عن الموت؟»، وبدا صوتها أقوى مما كان في بداية المكالمة. سحبت مارجري سلك الهاتف تقرّبه منها. كانت العجوز قد أخبرتها أنّ الأجساد هي التي تموت، أما الأرواح فتهيم. إما أن تصل إلى الأساماندو، أو لا تصل. هكذا تظل مع ذرّياتها لترشدها في هذه الحياة، وتخفف عنها، وتخيفها في بعض الأحيان كيما تستيقظ من الغفلة عن الحب، والغفلة عن الحياة.

مدّت مارجري يدها إلى الحجر المعلّق على عنقها. هدية أسلافها. «عديني أن لا ترحلي قبل أن أراك ثانية». من خلفها وضع (ياو) يده على كتفها.

- أعدكِ يا ابنتي ألا أتركِكِ أبدًا.

سلّمت مارجري الهاتف لأبيها الذي نظر إليها مستغربًا. عادت إلى غرفتها، وهناك على طاولتها كانت قصاصة ورق يُفترض أن تحتوي على قصيدة، لم تكتب فيها أكثر من: «ماء. ماء. ماء. ماء».

خرجت مارجري مع غريهم في موعد ثان، إلى المركز الأميركي للفضاء والصواريخ. لم يسبق له أن زاره، أما مارجري فكانت تزوره مرة كل سنة مع أبويها. كانت أمها تحبّ النظر إلى صور روّاد الفضاء المصفوفة على جدران القاعات، أما أبوها فكان يطيب له أن يتجوّل في المتحف متفحصًا كل صاروخ، كما لو أنه يحاول أن يتعلّم كيف يصنع صاروخًا بنفسه. كان يخطر لمارجري أنّ والديها قد سافرا عبر الفضاء على نحوٍ ما، فهبطا في دولة غريبة بالنسبة إليهم غرابة القمر.

لم يكن غريهم يحفل بتحذيرات «ممنوع اللمس»، فكان يترك بصمات أصابعه على الصناديق الزجاجية، غير أنها كانت تكاد تختفي بمجرد ظهورها.

- لم تكن أميركا لتمتلك برنامج فضاء لولا الألمان.

فسألته مارجري: «هل تشتاق لألمانيا؟». لم يكن غريهم يتحدث عن البلاد التي نشأ فيها، إلا ما ندر. لم يكن يحمل معه تلك البلاد مثلما كانت هي تحمل غانا معها دائمًا.

أجابها: «أحيانًا. لكنّ فتيان العسكرية يعتادون على التنقّل». هزّ كتفيه وهو يضغط بأصابعه على صندوقٍ فيه بدلة رائد فضاء. تصوّرت مارجري أصابعه تخترق الزجاج، ثم ترفع جسمه فتدخله في الصندوق، وتدخله في البدلة، فيفقد الجاذبية إلى أن يبدأ جسمه يطفو عاليًا، عاليًا.

- مارجري؟

- نعم.

- كنتُ أسألك. هل يمكن أن تعودي يومًا ما إلى غانا؟

أخذت تفكّر لحظة. تفكّر في جدّتها والبحر. في القلعة. تفكّر في هَرَج السيارات والأجساد في شوارع كيپ كوست، في النساء ذوات الأفخاذ الواسعة يبعن السمك من طاسات فضية كبيرة، في الفتيات اللاتي لم تتكور نهودهن بعد وهن يطفن في وسط الشارع، يدفعن وجوههن في نوافذ سيارات الأجرة: «ماء مثلّج»، «أرجوك، أتوسل إليك».

- لا أعتقد.

هزّ غريهم رأسه وبدأ يتقدّم نحو الصندوق التالي. أمسكت مارجري يده حين كان يرفعها ليلمس الزجاج. أوقفته وقالت: «غالبًا أشعر أنني لا أنتمي إلى هناك. ما إن أهبط من الطائرة حتى يُدرك الناس أنني مثلهم، ومختلفة عنهم في الوقت نفسه. يمكنهم أن يشمّوا رائحة ذلك منّي».

- يشمّون ماذا؟

نظرت مارجري إلى الأعلى تحاول أن تجد الكلمة المناسبة. «الوحدة،

ربما. أو العزلة. أنني لا أنسجم هنا أو هناك. إنّ جدتي هي الشخص الوحيد الذي يراني فعلًا».

نظرت إلى الأسفل. كانت يدها ترتعش، فتركت يد غريهم، لكنه أمسك بها ثانية. وحين رفعت عينيها، كان هو ينحني نحوها، ويضغط بشفتيه على شفتيها.

ظلّت مارجري أسابيع تنتظر أخبارًا عن جدّتها. استأجر أبواها ممرضة جديدة تتفقد حالتها كل يوم، لكنّ ذلك أغضب العجوز أكثر. كان وضعها يزداد سوءًا، ولم تكن مارجري تدري كيف عرفت، لكنها عرفت.

في المدرسة ظلّت مارجري صامتة، لا ترفع يدها في أي من الحصص. تعجّبت اثنتان من معلّماتها فسألتاها إن كان كل شيء على ما يرام، فصدّتهما. وبدلًا من تناول الغداء في ردهة معلمي الإنجليزية أو القراءة في المكتبة، كانت تجلس في الكافيتيريا، في ركن طاولة مستطيلة طويلة، تتحدّى أي أحد من المارّين أن يقلّ أدبه معها. لكنّ غريهم هو الذي جاء وجلس قبالتها.

- هل أنتِ بخير؟ لم أركِ منذ...

تراجع صوته، لكنّ مارجري كانت تريده أن يقولها. منذ قبلتنا. في ذلك اليوم كان غريهم يرتدي ألوان المدرسة: البرتقالي الفاقع الذي لا يهدّئه قليلًا إلا لون رمادي مريح.

- أنا بخير.
- قلقة من القصيدة؟

لم تكن قصيدتها سوى مجموعة من الخطوط على قصاصة ورق، حروف مصفوفة، متشابكة، وكلها بالحروف الإنجليزية الكبيرة. «لا، لست قلقة من ذلك».

هزّ غريهم رأسه بعناية وهو ينظر في عينيها. كانت قد أتت إلى الكافيتيريا لتكون بمفردها وهي محاطة بالناس. تحبّ هذا الشعور أحيانًا، مثل أن تهبط من الطائرة في «أكرا» فيقابلها موج من الوجوه التي تبدو مثلها. كانت تستمتع

بذلك الشعور بأنها غير مرئية بضع دقائق فقط، ثم يقترب منها شخص ما يسألها إن كانت تريده أن يحمل حقيبتها، أو يوصلها إلى مكان ما، أو إن كانت ستُطعم أطفاله.

وفيما هي تحدّق في غريهم، اقتربت منهما فتاة بشعر داكن تراها مارجري في ممرات المدرسة. «غريهم؟ في العادة لا أراك هنا وقت الغداء. لو رأيتك لكنتُ تذكرت».

أومأ لها غريهم، لكنه لم يقل شيئًا. لم تنتبه تلك الفتاة لمارجري بعد، غير أنّ قلة اهتمام غريهم سحب نظرتها منه إلى الشخص الذي استحوذ على اهتمامه.

نظرت إلى مارجري لحظةً لا أكثر، لكنها كانت كافية كي تلاحظ مارجري تكشيرة القرف التي بدأت تتشكّل على وجهها. قالت بصوتٍ هامس كما لو أنه لن يصل إلى مارجري. «غريهم، لا يجدر بك أن تجلس هنا».

- نعم؟

«لا يجدر بك أن تجلس هنا. سيبدأ الآخرون يفكرون أنّ....»، وسدّدت نظرة أخرى سريعة لمارجري. «أنت تفهم ما أقصده».

- كلا، لا أفهم.

«تعال فقط واجلس معنا». في تلك اللحظة كانت تمشّط الغرفة بعينيها، وكلّ ما فيها يشي بالتوتّر.

- أنا مرتاح هنا.

قالت مارجري: «اذهب»، فالتفت غريهم نحوها. بدا الأمر وكأنه نسي من كان يجادل من أجلها أصلًا. كما لو أنه كان يتشاجر من أجل المقعد، وليس الفتاة التي تجلس قبالته. «اذهب. لا بأس».

حبستْ أنفاسها بعد أن قالت ذلك. كانت تريده أن يقول لا، أن يقاتل أكثر، أن يمسك بيدها على الطاولة ويحرّك أصابعه المحمرّة بين أصابعها.

لكنه لم يفعل. نهض من مقعده، يكاد يبدو أنه ارتاح. وحين لاحظت

مارجري أنّ الفتاة دسّت يدها في يده لتسحبه بعيدًا، كانا قد وصلا إلى منتصف القاعة. لقد ظنّت أنّ غريهم مثلها؛ قارئ، منعزل، لكنّها حين رأته يمشي مع الفتاة عرفت أنه يختلف عنها. لقد رأت بنفسها كيف أنه يستطيع بسهولة أن يندسّ في مكانٍ دون أن يلاحظه أحد، كما لو أنه كان دائمًا ينتمي إلى هناك.

***

كانت ثيمة الحفل الراقص رواية **غاتسبي العظيم**. في أيام الاستعدادات قبل الحفل كانت أرضيات المدرسة مملوءة بالزينة اللّماعة. وفي ليلة الحفل، كانت مارجري محشورة بين والديها على الكنبة، تشاهد فيلمًا في التلفاز. وحين نهضت لتعدّ بعض الفشار تناهى إلى سمعها همسُ والديها عنها.

قال ياو: «بها شيء غير عادي». لم يكن يجيد الهمس أبدًا؛ ففي حديثه العادي كان صوته يخرج انفجارًا من جوفه، عميقًا وعاليًا.

قالت إستر: «إنها مجرد مراهقة. المراهقون هكذا». كانت مارجري قد سمعت زميلات أمها في مركز التمريض يتحدثن على هذا النحو، وكأنّ المراهقين حيوانات متوحشة في غابة خطرة. من الأفضل تركهم وشأنهم.

حين عادت مارجري كانت تحاول أن تبدو أكثر إشراقًا، لكنها غير واثقة من نجاحها.

رنّ الهاتف، فهرعت لالتقاط السماعة. كانت قد طلبت من جدتها أن تتصل بها مرة كل شهر لتطمئنها، رغم أنّ ذلك كان مرهقًا للعجوز. لكنها حين التقطت السماعة سمعت صوت غريهم.

- مارجري؟

كانت تتنفس في سماعة الهاتف دون أن تتحدث. ما الذي يمكن أن تقوله. «كنتُ أتمنى أن أستطيع أخذك إلى الحفل. لكن...».

تراجع صوته، لكنّ الأمر لم يعد يهمّ. لقد سمعت ذلك سابقًا، فهو سيذهب إلى الحفل مع تلك الفتاة نفسها. كان يريد أن يأخذ مارجري، لكنّ والده

قال إنّ هذا تصرف غير لائق. والمدرسة كذلك رأت أن الأمر غير ملائم. لقد سمعتْه يقول للمدير في دفاعٍ أخير: «إنها ليست مثل بقية الفتيات السُود». بشكلٍ من الأشكال كان ذلك في حدّ نفسه أسوأ. وهكذا فقد نسيت أمره.

سألها: «هل ما زال يمكنني أن أسمع قصيدتك؟».

- سأقرأها الأسبوع المقبل. الجميع سيسمعها.
- تعرفين ما أقصد.

في الصالة، كان والدها يشخّر. هذه طريقته دائمًا في مشاهدة الأفلام. تصوّرته مارجري مستندًا على كتف أمها، وهي تحيطه بذراعيها. ربما كانت أمها نائمة أيضًا، ورأسها مائل نحو ياو، تغطيهما الجدائل الطويلة المنسدلة من رأسها. كان حبُّهما مريحًا؛ حبٌّ لا يستدعي الشجار أو الإخفاء. حين سألت مارجري أباها مرة أخرى متى عرف أنه معجب بإستر، قال إنه كان يعرف ذلك دائمًا. قال إنّ حبها وُلد فيه، وأنه تنفّسه مع أول نسمة من «إجيسو»، وأنه تحرّك فيه مثل رياح الهرمتان. بالنسبة إلى مارجري لم يكن ثمة شيء يشبه الحب في «ألاباما».

قالت لغريهم في الهاتف: «سأغلق الخط. أبواي ينادياني». وضعت السماعة وعادت إلى الصالة. كانت أمها مستيقظة تحدّق في التلفاز، دون أن تشاهده.

- من كان على الهاتف، حبيبتي؟
- لا أحد.

كان في القاعة ألفا شخص. من خلف الكواليس كانت مارجري تسمع الطلاب الآخرين يملؤون المكان، بثرثرةٍ متواصلةٍ عن ضجرهم. كانت تذرع الغرفة، مرتعبة جدًا أن تنظر خلف الستار. وإلى جانبها كانت تيشا وصديقاتها يتدربن على رقصةٍ لأنغام موسيقى خافتة تخرج من مسجّلة.

جفلت مارجري حين سألتها مسز پنكستن على حين فجأة: «مستعدة؟».

كانت يداها ترتعشان، واستغربت أنّ القصيدة لم تسقط من يدها.

- لا.

- بل مستعدة. لا تقلقي. ستكونين رائعة.

ظلّت مسز پنكستن تتنقل هنا وهناك تتفقد جميع المشاركين الآخرين. وحين ابتدأ البرنامج، شعرت مارجري بمغص. لم تتحدث من قبل أمام عدد كبير من الناس، فخطر لها أنّ هذا سبب الألم، لكنه استمر وتفاقم، ثم صاحبتْه موجةٌ من الغثيان، لكنّهما لم يلبثا إلا قليلا.

كان هذا الشعور يأتيها من وقتٍ لآخر. تقول جدّتها إنه هاجس، إذْ يعبّر الجسد عن شيءٍ سوف يشهده الواقع عما قريب. كانت مارجري تشعر به أحيانًا قبل حصولها على درجةٍ ضعيفة في اختبار. ذات مرة شعرت به قبل حادث سيارة. وفي مرة أخرى شعرت به قبل لحظات من إدراكها أنها فقدت خاتمًا أعطاها إياه والدها. كان يقول إنّ هذه الأشياء تحدث، سواء أجاء ذلك الشعور أم لا. ربما كان هذا صحيحًا، لكنّ ما تعرفه مارجري هو أنّ هذا الشعور يطلب منها أن تستعد وتستجمع قواها.

هكذا، مستجمعةً قواها، تقدمت نحو المسرح فور أن قدّمتها مسز پنكستن. كانت تعرف أنّ الأضواء ستكون برّاقة جدًا، لكنها لم تأخذ في الحسبان حرارتها، مثل مليون شمسٍ تسطع عليها. بدأت تتعرق، فمررت راحة يدها على جبينها.

وضعت ورقتها على المنصّة. كانت قد تدرّبت مليون مرة، في داخل الصف بصوتٍ خافت، وأمام المرآة في الحمام، وفي السيارة مع والديها.

كان يزيد من توتّرها صوتُ الهدوء، ذلك الهدوء الذي لا يقطعه سوى سَعْلة هنا وتبديل أقدام هناك. مالت نحو الميكروفون. تنحنحت، ثم بدأت تقرأ:

اكسري القلعةَ نصفين، وافتحيها
تجديني، تجدين نفسك.
نحن الاثنتان شعرنا بالرمل
والريح، والهواء.

إحدانا شعرتْ بالسوط. جُلدت
ما إنْ شُحِنت.
نحن الاثنتان سوداوتان
أنا، أنتِ.
إحدانا نمت من تربة كاكاو
وُلِدت من حبّتها،
لم تُقطع قشرتُها
لكنها تنزف.
نحن الاثنتان نخوض.
تبدو المياه مختلفة
لكنها متشابهة.
مثل تشابهنا. بشرةٌ شقيقة.
من كان يدري؟ لا أنا، ولا أنتِ.

رفعتْ مارجري عينيها. كان ثمة باب قد فُتح، فأدخل مزيدًا من الضوء. ثمة ضوء كاف لكي ترى أباها واقفًا عند الباب، لكنه لم يكن كافيًا كي ترى الدموع تنساب على وجنتيه.

***

الوعدُ الوحيد الذي أخلفتْه العجوز أكويا -مجنونة «إجيسو»- كان وعدها الأخير. فقد ماتت أثناء نومٍ كانت ذات يوم تخافه. كانت تريد أن تُدفن على جبلٍ يطلّ على البحر. تغيّبت مارجري عن المدرسة بقية ذلك العام، فدرجاتها كانت ممتازة ولن يؤثّر التغيّب كثيرًا.

سارت مع أمها خلف الرجال الذين يحملون الجثمان. أصرّ أبوها على أن يحمل الجثمان هو أيضًا، رغم أنه كان طاعنًا في السنّ، ووجوده كان يُثقل أكثر

مما يخفف. وما إن وصلوا إلى مكان القبر حتى بدأ الناس يبكون. كان الجميع قد بكى أيامًا وأيامًا، لكنّ مارجري لم تبكِ بعد.

بدأ الرجال يحفرون في الطين الأحمر. تشكلت على جانبي الحفرة الكبيرة تلّتان من الطين. أما التابوت فقد صنعه نجّار عجوز من خشبٍ لونه كلون الأرض، فحين أنزلوا التابوت لم يتبيّنوا الحدّ الفاصل بين التابوت والأرض. بدؤوا يهيلون الطين في الحفرة، وردموها ثم خبطوا عليها بمجرفاتهم، فتردّد الصوت من فوق الجبل إلى الوادي.

وما إن وضعوا شاهدًا على القبر حتى أدركتْ مارجري أنها نسيت أن ترمي قصيدتها هناك، تلك القصيدة التي بُنيت من أحلام العجوز التي كانت تحكيها حين تمشي معها إلى الماء. كانت واثقة أنّ جدتها ستحب القصيدة. أخرجتها من جيبها، فتماوجت الكلمات دون ريحٍ في يديها المرتعشتين.

هنا ألقت مارجري بنفسها على تلّة القبر، تبكي أخيرًا. «**مي مام-بي، مي مامي. مي مام-بي، مي مامي**».

جاءت أمها ترفعها عن الأرض. قالت لها لاحقًا إنّ الأمر بدا كما لو أنها كانت سوف تطير من حافة الجبل، فتهوي إلى البحر.

ماركوس

لم يكن (ماركوس) يحفلُ بالماء كثيرًا، ولم ير في حياته المحيط من قربٍ إلا حين وصل إلى المرحلة الجامعية. حين رآه شعر ببطنه يتلوّى أمام تلك المساحة الشاسعة، ذلك الأزرق اللامتناهي، الممتد إلى أبعد مما تقوى عليه العين. كان الماء يُرعبه، لكنه لم يقل لأصدقائه إنه لا يجيد السباحة. أما زميله في الغرفة، الولد ذو الشعر الأحمر فكان قد وصل إلى سبعة أقدام تحت سطح الأطلسي قبل حتى أن يضع ماركوس أصابع قدميه في الماء.

ثمة شيء في رائحة المحيط تشعره بالغثيان. ذلك الزنخ الرطب المالح الذي يعلق بأنفه، ويجعله يشعر كما لو أنه يغرق. كان يأتيه ذلك الشعور ثقيلًا في حلقه، كالماء المالح، يقبع في ذلك المكان الذي تتعلق فيه لهاةُ حلقه، فلا يقوى على التنفس جيدًا.

حين كان صغيرًا قال له أبوه إنّ السود لا يحبّون الماء لأنهم أُحضروا على سفن العبيد. فلماذا قد يريد الأسودُ أن يسبح، وقاع المحيط ملوّثٌ أصلًا بالسُود؟

كان ماركوس يهزّ رأسه دائمًا في صبر حين يتحدث والده عن أشياء كهذه. كان (سَني) لا يكفّ عن الحديث عن العبودية، وعن عُقدة أشغال السجن، والنظام، والفصل العنصري، والإنسان الأبيض. كان والده يحمل كراهية راسخة للبيض، كراهية تبدو مثل كيس مملوء بالحجارة، حجرةٍ واحدة لكل سنةٍ ظلّ

فيها الظلمُ العرقي عُرفًا سائدًا في أميركا. كان لا يزال يحمل ذلك الكيس.

لم ينسَ ماركوس أبدًا تعاليم أبيه التي غرسها فيه مبكرًا، حصص التاريخ البديل التي جعلت ماركوس مهتمًا بدراسة أميركا دراسةً عميقة. اقتسم الاثنان فراشًا في شقة (ماه وِلي) الضيّقة. في المساءات، وهما على الفراش ذي الزنبركات التي تشبه السكاكين، كان سَني يحكي له كيف أنّ أميركا كانت تقبض على السود في الشوارع كي يصبحوا أيادي عاملة، أو كيف ساهمت سياسة الخطوط الحمراء في منع المصارف من الاستثمار في الأحياء السوداء، فتمنع القروض أو السلف التجارية. هل كان من المستغرب إذًا أن تظلّ السجون مليئةً بهم؟ هل من المستغرب أن تكون أحياؤهم «غيتو»؟ ثمة أشياء سمعها سَني من أبيه ولم يكن يراها أبدًا في كتب التاريخ المدرسية، لكنه أدرك صِدقها حين دخل الكليّة. هناك عرف أنّ عقل أبيه عقلٌ ذكيّ، لكنه مسجون في شيءٍ ما.

في الصباحات، كان ماركوس ينظر إلى والده وهو يصحو، ثم يحلق ذقنه، ثم يخرج ذاهبًا إلى عيادة الميثادون في «هارلم الشرقية». كان تتبّع أبيه أسهل من النظر في الساعة. ففي السادسة والنصف تمامًا ينهض ويتناول كأسًا من عصير البرتقال. وعند السابعة إلا ربع يحلق ذقنه، وعند السابعة تمامًا يخرج. يأخذ عقار الميثادون ثم يتجه إلى المستشفى حيث يعمل حارسًا. كان أذكى رجل عرفه ماركوس، لكنه لم يستطع أن يتخلص تمامًا من المخدّرات التي كان يتعاطاها.

حين كان ماركوس في السابعة من عمره سأل ماه وِلي ذات مرة عمّا سيحدث لو أنّ جزءًا من روتين سَني تغيّر. ما الذي سوف يحصل لو أنه لم يأخذ جرعة الميثادون مثلا؟ هزّت جدّته كتفيها. حين كبر ماركوس بدأ يستوعب أهمية ذلك الروتين في حياة والده، فكلّ حياته بدت معلّقةً بذلك التوازن.

ها هو ماركوس قرب الماء مرةً أخرى. دعاه زميل دراسةٍ في كلية الدراسات العليا إلى حفلةٍ عند حوض السباحة احتفالًا بالألفية الجديدة، فقبل ماركوس الدعوة على مضض. على أيّ حال كان حوض سباحةٍ في «كاليفورنيا» أكثر

أمانًا من المحيط الأطلسي، إذْ يمكنه الاستلقاء على الكرسي والتظاهر بأنه جاء للتشمّس فقط. يمكنه أن يتندّر أيضًا بأنه يريد أن يسمّر جسده.

صاح أحدهم «قذييفة!»، وأطلق رشّة ماء باردة على قدَمَي ماركوس. مسحها وهو عابس، بعد أن ناوله (ديانتي) منشفة.

- ماركوس، إلى متى سنظلّ هنا يا رجل؟ الجوّ جحيم. شيءٌ من حرارة إفريقيا.

ديانتي دائم التذمّر. كان فنّانًا قابله ماركوس في حفلةٍ في «إيست پالو ألتو»، ورغم أنّ ديانتي نشأ في «أتلانتا»، فإنّ به شيئًا ذكّر ماركوس بالوطن. ومنذ ذلك الوقت أصبحا مثل الأخوين.

- لم يمض علينا أكثر من عشر دقائق، يا دِي. اهدأ.

لكنّ ماركوس نفسه كان قد بدأ يشعر بالضجر أيضًا.

«اسمع، لن أجلس هنا أحترق تحت هذه الحرارة اللعينة. أراك لاحقًا». ونهض ملوّحًا لمن كانوا في الحوض.

كان ديانتي يطلب دائمًا أن يحضر فعاليات الكلّية مع ماركوس، ثم ما يلبث أن يغادر بمجرد وصولهما. كان يبحث عن فتاةٍ قابلها في متحفٍ فنّي ذات مرة. لم يكن يتذكّر اسمها، لكنه قال لماركوس إنه واثق من أنها طالبة، من طريقة كلامها. لم يجد ماركوس ضرورة لتذكير صديقه بأنّ هناك ألف جامعة تقريبًا في الأنحاء، فمن يضمن أن يلتقيها في واحدة من الحفلات التي يذهب إليها؟

كان ماركوس يحضّر أطروحة الدكتوراة في علم الاجتماع من جامعة «ستانفورد». لم يكن ليتخيّل ذلك أبدًا حين كان يقتسم الفراش مع أبيه، لكنه حدث فعلًا. كان والده فخورًا به كلّ الفخر حين أخبره بأنه قُبل في جامعة «ستانفورد»، حتى أنه بكى. كانت المرة الوحيدة التي رآه فيها يبكي.

اختلق ماركوس عذرًا وغادر الحفلة سريعًا بعد ديانتي. مشى ستة أميال إلى المنزل، وحين وصل كان العرق ينزّ من جسده. دخل الحمّام ذا البلاط الأزرق وترك رأسه تحت الماء، لكنه لم يرفع وجهه إليه. لا يزال مرتعبًا من الغرق.

قال سَني: «أمّك تسلّم عليك».

كانت هذه مكالمتهم الأسبوعية، إذ يتصل بهم ماركوس عصر يوم الأحد، عندما تكون عمّته جوزفين وأولادها في منزل ماه وِلي يطبخون ويأكلون بعد الكنيسة. اتصل بهم لأنه اشتاق إلى «هارلم»، واشتاق إلى عشاءات الأحد. اشتاق إلى ترتيل ماه وِلي للإنجيل بأعلى صوتها، كما لو أنّ يسوع سيحضر سريعًا لو أنها استدعته ليأتي ويعدّ طبقًا ما.

ردّ ماركوس: «لا تكذب عليّ». آخر مرةٍ رأى فيها أمّه (أماني) كانت في حفل تخرّجه من المدرسة الثانوية. ارتدت ملابس أعطتها إياها ماه وِلي، بلا شك. كان فستانًا بأكمام طويلة، لكنّها حين رفعت ذراعها لتلوّح له وهو يصعد إلى المسرح يستلم شهادته، كان بإمكان ماركوس أن يرى الآثار بوضوح.

لم يملك سَني إلا أن يزفر. سأله ماركوس: «هل كلكم بخير؟ الأطفال والبقية كلهم بخير؟».

- نعم، نحن على ما يرام.

نقلت أسلاكُ الهاتف أنفاسهما، ولا شيء غير ذلك. لم يرغب أي منهما في الحديث، ولم يرغب أي منهما في إنهاء المكالمة.

سأله ماركوس: «هل ما زلتَ نظيفًا؟». لم يكن يطرح هذا السؤال كثيرًا، لكنه سأل.

- نعم، أنا بخير. لا تقلق بشأني. ركّز في دروسك. لا تفكّر فيّ.

هزّ ماركوس رأسه. أخذ منه الأمرُ بعض الوقت كي يدرك أنّ والده لن يكون مستعدًا لسماع هذا السؤال، فقال «حسنًا». وأغلق الهاتف.

بعد ذلك، جاء ديانتي ليجرّه معه إلى متحفٍ في «سان فرانسسكو»، المتحف نفسه الذي لقي فيه الفتاة.

قال ماركوس: «لا أعرف لماذا تتعب نفسك بهذه الفتاة يا دي». لم يكن ماركوس يستمتع في متاحف الفن، ولم يكن يستوعب أبدًا ما يراه. كان يسمع ديانتي يتحدث عن الخطوط والألوان وتدرّجاتها. يهزّ رأسه، لكنّ ذلك كله لم

يكن يعني له شيئًا.

ردّ ديانتي: «لو كنتَ رأيتها لفهمت». كانا يمشيان في المتحف، دون أن يتذوّق أي منهما شيئًا من الفنّ المعروض.

- مفهوم. هي بالتأكيد جميلة.

- نعم، جميلة، لكنّ هذا ليس المهم يا رجل.

كان ماركوس قد سمع ذلك من قبل. قابل ديانتي تلك الفتاة عند ركن «كارا ووكر»، إذ كان الاثنان يذرعان الأشكال المرسومة على الورق الأسود من الأرض وحتى السقف قبل أن يتلامس كتفاهما في المرة الخامسة. أخذا يتحدّثان عن قطعةٍ واحدة لمدة ساعة تقريبًا، ولكن لم يتذكر أي منهما أن يسأل الآخر عن اسمه.

- صدّقني ماركوس. ستحضر عرسنا قريبًا. كلّ ما عليّ فعله هو أن أجدها فقط.

نخر ماركوس. كم مرة أشار ديانتي إلى «زوجته» في حفلةٍ من الحفلات، ثم لم يلبث أن قطع علاقته بها بعد أسبوع؟

ترك ديانتي وأخذ يهيم في المتحف. كان يحبّ معمار المتحف أكثر مما فيه من لوحات وأعمال فنية. تلك السلالم الدقيقة والجدران البيضاء التي تحمل أعمالًا فنيّة بألوان تنبض بالحياة. كان يحبّ المشي هناك، والتفكير الذي تستحضره تلك الأجواء.

حين كان في المدرسة الابتدائية زار متحفًا في رحلةٍ مدرسية. بعد أن نزلوا من الحافلة مشوا عدة مجمّعات سكنية بنظام الرفقاء، حيث يمسك كل طفلٍ بيد الطفل الذي بجانبه. لا يزال ماركوس يذكر شعور الخوف من بقية «منهاتن»، من ذلك الجزء الذي لم يكن له أبدًا، حيث البدلات الرسمية وموضة الشعر المريّش. في المتحف ابتسمت لهم بائعة التذاكر من الكبينة الزجاجية في الأعلى. كان ماركوس يمطّ رقبته كي يراها، فكافأته بتلويحةٍ صغيرة.

وما إن دخلوا حتى أخذت معلّمتهم (مسز مكدونلد) تقودهم من قاعةٍ

إلى أخرى، ومن ركنٍ إلى آخر. كان ماركوس في نهاية الصف ويده في يد رفيقته (لاتفيا)، حين سحبت يدها كي تعطس، فانتهز ماركوس الفرصة لكي يربط حذاءه. وحين رفع رأسه كان الصفّ قد مشى. وهو يتذكر الأمر الآن يقول في نفسه كان يجب أن يجدهم بسرعة، فقد كان صفًّا من الأفراخ السوداء الصغيرة في متحفٍ أبيض كبير جدًا، غير أنّ المكان كان مزدحمًا بالناس وكلهم فارعو الطول حتى أنه لم يستطع أن يتبيّن طريقه. وسرعان ما تملّكه الرعب من أن يتحرك من مكانه.

كان واقفًا في مكانه، مشلول الحركة، يبكي بهدوء، فوجدته امرأة بيضاء مع زوجها.

قالت المرأة: «انظر يا هاورد». لا يزال ماركوس يتذكر لون الفستان. كان بلونٍ أحمرٍ كالدم، فزاد من خوفه. «هذا المسكين ربما يكون تائهًا». تفحّصته بعناية وقالت: «إنه جميل، أليس كذلك؟».

كان زوجها يحمل عصا رفيعة، فنقر بها على قدم ماركوس. «أنت تائه يا ولد؟». لم يتكلم ماركوس. «قلتُ لك هل أنت تائه؟».

ظلّت العصا تنقر على قدمه، فخطر لماركوس أنه في أي لحظةٍ ربما يرفع الرجل عصاه عاليًا حتى السقف وينزل بها على رأسه. لا يدري لماذا شعر بذلك، لكنّ الفكرة أخافته جدًا، جدًا، حتى أنه شعر برطوبةٍ تمرّ من بين ساقيه. لذلك صرخ، ثم أخذ يجري من غرفةٍ ذات جدران بيضاء إلى أخرى، إلى أخرى، إلى أن أنسك به رجل أمن ونادى المعلّمة عبر الميكروفون الداخلي، ثم طرد الصفّ بأكمله خارج المتحف، فأخذوا الحافلة وعادوا إلى المنزل في «هارلم».

وجده ديانتي بعد فترة. «إنها ليست هنا». قلّب ماركوس مقلتيه. ماذا كان يتوقّع غير ذلك؟ فغادرا المتحف.

مرّ شهر، وحان الأوان كي يعود ماركوس إلى أطروحته. كان يتجنّبها لأنها لم تكن تسير على ما يرام.

كان في الأصل يريد أن يركّز بحثه على نظام تأجير المدانين، ذلك النظام الذي سرق سنواتٍ من حياة جدّه الأكبر «اتش»، غير أنه كلما تعمّق في البحث كلما اتسع الموضوع أكثر. فكيف يمكنه أن يتطرق إلى جدّه الأكبر دون أن يتحدث أيضًا عن جدّته وِلي وملايين السود الآخرين الذين هاجروا إلى الشمال هربًا من قوانين الفصل العنصري؟ وإذا ما تطرّق إلى الهجرة الكبرى، فسوف يلزمه أن يتحدث عن المدن التي آوت ذلك السرب المهاجر. سيتعيّن عليه أن يتحدث عن «هارلم». وكيف له أن يتحدث عن «هارلم» دون الإشارة إلى إدمان والده للهروين، والاعتقالات، والسجل الإجرامي؟ وإنْ تحدّث عن الهروين في «هارلم» إبان الستينيات، ألن يلزمه أيضًا أن يتحدث عن الكوكايين الذي انتشر في كل مكانٍ أثناء الثمانينيات؟ فإنْ تحدث عن الكوكايين، سيُضطر إلى الحديث أيضًا عن «الحرب على المخدرات». وإذا ما أشار إلى حبس أصدقاءٍ من حيّه خمس سنوات بسبب حيازة الماريوانا، في حين يدخّنها زملاؤه البيض علنًا في الكلية كل يوم، فسوف يستشيط غضبًا ويلقي بكرّاسة البحث على الطاولة الهادئة في «غرفة لين للقراءة» بمكتبة «غرين» في جامعة «ستانفورد». وإنْ ألقى الكتاب، فسوف يحدّق فيه كلّ من في الغرفة، ولن يروا منه إلا لون بشرته وغضبه، وسوف يعتقدون أنهم كانوا متأكدين من وجود صفةٍ فيه، تلك الصفة نفسها التي برّرت وضع جدّه الأكبر «اتش» في السجن، لكنها أقل وضوحًا ليس أكثر.

حين بدأ ماركوس يفكر على هذا النحو لم يستطع أن يجبر نفسه على فتح كتابٍ واحد.

لا يذكر متى تحديدًا اشتعلت فيه الحاجة إلى الدراسة والتعمق في معرفة عائلته. ربما في واحدٍ من عشاءات الأحد في منزل ماه وِلي، حين طلبت جدّته أن يشبك الجميع أياديهم ويتلوا الدعاء. هناك يكون محشورًا بين اثنين من أبناء عمته أو أبيه وعمته، حين تبدأ ماه وِلي واحدةً من أدعيتها مع ترنيمة.

كان صوت جدّته واحدًا من عجائب الدنيا. كان كافيًا لأنْ يثير فيه كلّ

الأمل والحب والإيمان الذي يمكن أن يحصل عليه في حياته، وكلها تجتمع معًا فينبض قلبه وتتعرق راحتاه. هنا يُضطر إلى ترك اليد التي كان يمسكها كي يمسح يديه، ودموعه.

في تلك الغرفة مع عائلته، كان في بعض الأحيان يتخيّل غرفةً أخرى، مع عائلةٍ أكثر اكتمالًا. كان خيالًا قويًا جدًا حتى أنه في بعض الأحيان يخطر له أنه يراهم. أحيانًا يرى أبًا يحمل منجلًا في كوخٍ في إفريقيا، وأحيانًا يرى حشدًا ينظر إلى امرأة تحمل دلوًا على رأسها عند مزرعة نخيل، وأحيانًا في شقةٍ ضيقة مليئة بالأطفال، أو في مزرعةٍ جرداء، أو حول شجرةٍ تحترق، أو داخل صفٍ دراسي. كان يرى هذه الأشياء بينما جدّته تدعو وتغنّي، تدعو وتغنّي، فيريد أن يكون جميع أولئك الناس الذين اختلقهم في رأسه هناك، في تلك الغرفة، معه.

ذات مرةٍ أخبر جدّته بعد واحد من عشاءات الأحد، فقالت له إنه ربما وُهب نعمة الرؤى. لكنّ ماركوس لم يستطع أن يؤمن بإله ماه وِلي، فأخذ يبحث عن العائلة والأجوبة بطريقةٍ محسوسةٍ أكثر عبر أطروحته وكتاباته.

دوّن ماركوس بعض الملاحظات ثم خرج ليقابل ديانتي. كانت مهمّة صديقه في العثور على الفتاة الغامضة قد ولّت، لكنّ شهيته للحفلات والسهرات لم تتوقف.

انتهى بهم الأمر تلك الليلة في «سان فرانسسكو»، عند امرأتين مثليّتين يعرفهما ديانتي تقيمان معرضًا وحفلة رقصٍ إفريقية-كاريبية. كان أول شيء يستقبلهما في الحفل ذلك الصوت الصفيحيّ للطبول الحديدية الكبيرة. رجال بملابس كينتي ذات ألوانٍ زاهية ملفوفة حول خواصرهم، يحملون مدقّات طبولٍ ذات رؤوس وردية مدوّرة. وفي نهاية صفّ الرجال هذا وقفت امرأة تغنّي.

شقّ ماركوس طريقه بين الحضور. الأعمال الفنّية على الجدران أثارت خوفه قليلًا، لكنه لن يعترف بذلك لديانتي لو سأله، أو على الأرجح حين يسأله. أما اللوحة التي ساهم بها ديانتي فكانت عبارة عن امرأة لها ذات قرنين مربوطة إلى شجرة باوباب. لم يفهم ماركوس شيئًا من اللوحة على الإطلاق، لكنه وقف

تحتها هنيهة، يميل رأسه إلى اليسار ويهزّه قليلًا كلما وقف أحد إلى جانبه.

وفجأةً كان ديانتي هو الذي بجانبه. نكزه صديقه في كتفه مرةً تلو الأخرى في تتابعٍ سريع، حتى أنه توقف قبل أن يطلب منه ماركوس التوقف. «ما بك يا رجل؟».

بدا وكأنّ ديانتي لم يكن يدرك أن أحدًا كان هناك. كان جسده مائلًا نحو البعيد، وفجأةً استدار نحو ماركوس.

- إنها هنا.

- مَن؟

- مَن يا رجل؟ الفتاة.. الفتاة. إنها هنا.

حوّل ماركوس نظره إلى المكان الذي أشار إليه ديانتي. كانت هناك امرأتان تقفان معًا. أما الأولى فكانت طويلة ونحيفة، ذات بشرة فاتحة مثل ماركوس نفسه، ولكن بجدائل رفيعة تدلّت إلى ردفيها. كانت تلعب بجدائلها، تدوّرها حول إصبعها، أو تأخذ مجموعة منها وتكوّمها فوق رأسها.

أما المرأة الأخرى فهي التي أثارت انتباه ماركوس. كانت داكنة جدًا، فلون بشرتها من ذلك النوع الذي يسمّونه في ملاعب الأطفال في «هارلم» كُحليًا. كانت متينة البنية، لها نهدان كبيران وشعرٌ كبير على طريقة «الأفرو»، جعلها تبدو كما لو أنّها تعرضت لصعقةٍ قبل قليل.

قال ديانتي وهو يمشي نحو المرأتين: «هيا يا رجل». تبعه ماركوس، وكان يرى أنّ صديقه يتصنّع الرزانة بمشية بطيئة، وانحناءة محسوبة. حين وصلا إلى المرأتين انتظر ماركوس أن يعرف من صاحبة ديانتي.

«أنت؟!». هكذا قالت المرأة ذات الجدائل، وهي تضرب على كتف ديانتي.

فردّ هذا: «بدا لي أنني رأيتكِ من قبل، لكنني لم أستطع أن أتذكر». فقلّب ماركوس عينيه.

- التقينا في المتحف، قبل شهرين.

- نعم، نعم، صحيح.

عاد ديانتي إلى سلوكه الطبيعي، بوقفةٍ مستقيمة وابتسامة. «اسمي ديانتي، وهذا صديقي ماركوس».

رتّبت المرأة تنّورتها، والتقطت جديلةً أخرى بدأت تدوّرها حول إصبعها. كانت مزهوّة بها كما يبدو. أما صاحبتها فلم تنبس بكلمة حتى الآن، تنظر إلى الأرض في أغلب الوقت كما لو أنها إن تجنّبت النظر إليهما فيمكن أن تتظاهر بعدم وجودهما.

قالت الأولى: «اسمي كِي. وهذه صديقتي مارجري».

حين سمعت مارجري اسمها رفعت رأسها، فارتفعت ستارةُ شعرها لتكشف عن وجهٍ رائع، وقلادةٍ جميلة.

قال ماركوس وهو يمدّ يده: «سعيد بلقائك، مارجري».

***

حين كان ماركوس طفلًا صغيرًا، أخذته أمّه أماني عندها ليومٍ واحد. في الحقيقة سرَقتْه؛ ذلك أنّ ماه وِلي وسني وبقية العائلة لم يكونوا يعرفون أنّ أماني أغرته بوعد الآيس كريم لتخرجه من الشقة، في حين أنها طلبت رؤيته فقط.

لم تكن أمه تملك ثمن الآيسكريم. يذكر ماركوس مشيتها معه من محلٍ إلى آخر، إلى آخر، رجاةَ أن تحصل على أسعار أفضل إن ابتعدت قليلًا. وما إن وصلا إلى حيّ سَني القديم، حتى تأكد ماركوس من أمرين: الأول أنه في مكان لا يُفترض أن يكون فيه، والثاني هو أنه لن يحصل على آيس كريم.

سحبتْه أمّه إلى شارع 116، تباهي به أمام أصدقائها المدمنين، طاقم الجاز المفلسين.

قالت امرأة سمينة درداء وهي تقرفص: «طفلك هذا؟». كان ماركوس ينظر مباشرة إلى فمها الفارغ.

- نعم، هذا ماركوس.

لمستْه المرأة، ثم تهادت بعيدًا. واصلت أماني تجوالها معه في منطقةٍ

من «هارلم» لم يكن يعرفها إلا من خلال القصص، ومن صلوات الخلاص التي كان يتلوها المصلّون في الكنيسة كلّ أحد. انخفضت الشمسُ أكثر فأكثر في السماء، وبدأت أماني تبكي، وتصرخ فيه كي يمشي أسرع رغم أنه كان يمشي بأسرع ما تستطيع ساقاه الصغيرتان. كان الوقتُ قرابة الغروب حين عثرت ماه ولي وسَني عليهما. انتزعه والده منها واجتذبه بعيدًا بسرعة، فشعر بأنّ ذراعه سوف تنخلع. ثم رأى جدّته تلطم أماني بقوةٍ على وجهها وتقول لها بصوتٍ عال: «إنْ لمستِ هذا الطفل ثانية، سترين ما يحدث لك».

كثيرًا ما كان يعود ماركوس بذاكرته إلى ذلك اليوم. كان لا يزال مشدوهًا، لا من الخوف الذي شعر به مع تلك المرأة التي لم تكن سوى غريبة بالنسبة إليه وهي تجرّه بعيدًا عن بيته، وإنما من الحب الكامل والحماية الكاملة التي شعر بهما في نهاية اليوم، حين وجد أسرته أخيرًا. لم يُدهشه أنه ضاع، بل أنه وُجِد. كان الشعور نفسه الذي يشعر به كلما رأى مارجري. كأنها هي أيضًا، وعلى نحوٍ ما، وجدتْه.

انقضت شهورٌ، وانطفأت علاقة ديانتي وكِي، فلم تترك خلفها سوى صداقة ماركوس ومارجري. كان ديانتي يغايظ ماركوس قائلًا: «متى تنوي أن تخبرها بإعجابك يا رجل؟». لم يستطع ماركوس أن يشرح لصديقه أنّ الأمر لم يكن على ذلك النحو، فهو نفسه لم يكن يعرف حقيقة الأمر.

قالت مارجري وهي تشير إلى خارطة غانا على جدارها: «هذه منطقة الأشانتي. فِعليًا، هذا موطن عائلتي، لكنّ جدّتي انتقلت إلى المنطقة الوسطى، هنا تحديدًا، كي تكون أقرب إلى الشاطئ».

- أنا أكره الشاطئ.

في البداية ابتسمت مارجري، وكانت ستبدأ في الضحك، لكنها توقفت ثم قالت بجدّية: «هل تخاف من الشاطئ؟». تركت إصبعها ينحرف ببطءٍ عن حافة الخارطة، ثم أسندت يدها إلى قلادة الحجر الأسود التي تلبسها كل يوم.

أجابها ماركوس: «نعم، أظنّ ذلك». لم يخبر أحدًا بذلك من قبل.

- كانت جدتي تقول إنها تسمع الناس العالقين في أرضية المحيط يتحدثون إليها. أسلافنا. كانت مجنونةً قليلًا.

- لا أعتبر ذلك جنونًا. كل واحدٍ في كنيسة جدتي رأى روحًا في وقتٍ من الأوقات. إذا كان شخص ما يرى أو يسمع أو يشعر بشيء لا يشعر به الآخرون، فذلك لا يعني أنه مجنون. كانت جدّتي تقول «الأعمى لا يعتبرنا مجانين لأننا نرى ما لا يراه».

ابتسمت له مارجري ابتسامةً حقيقية. «تريد أن تعرف ممّ أخاف؟». كان قد تعلّم ألا يكون متفاجئًا من صراحتها. لم تكن تقيم وزنًا للمجاملات والمقدّمات، بل تغوص مباشرةً إلى المياه العميقة. «النار».

كان قد سمع منها قصة التشوّه في وجه أبيها. لذلك لم يتفاجأ.

- كانت جدّتي تقول إننا وُلدنا من نارٍ كبيرة. أتمنى لو أعرف ماذا كانت تقصد.

- هل تعودين لزيارة غانا؟

«أوه، منذ مدةٍ وأنا مشغولة بالدراسات العليا والتدريس وما إلى ذلك». توقّفت ثم نظرت إلى الهواء وهي تعدّ، ثم قالت بصوت رقيق: «لم أزر غانا منذ ماتت جدّتي». أشارت إلى القلادة وهي تقول: «أعطتني هذه. ميراثٌ عائلي، أعتقد».

هزّ ماركوس رأسه. إذًا لهذا السبب لا تخلعها أبدًا.

كان الوقت متأخرًا، وماركوس لديه أعمال ينجزها، لكنه لم يستطع أن يتحرك من مكانه هناك في صالة مارجري. كانت هناك نافذة كبيرة تسمح بدخول ضوء كثير، حتى أنّه شعر بدفءٍ يلمس كتفه. كان يريد أن يبقى لأطول فترة ممكنة.

- كانت جدّتي ستستاء من بقائي بعيدة كلّ هذا الوقت. حوالي أربع عشرة سنة. حين كان والداي على قيد الحياة حاولا إقناعي بالذهاب، لكنّ الأمر كان مؤلمًا جدًا. فقدانها. بعد ذلك فقدتُ أبويّ، وأظنني لم أعد أجد فائدة من

الذهاب. على أيّ حال لم تعد لغتي التويّة جيدة، ولا أعرف ما إذا كان بإمكاني أن أتدبر أموري هناك.

أجبرت نفسها على الضحك، لكنها أشاحت فور أن خرجت الضحكة من فمها. غطّت وجهها عنه لفترةٍ بدت طويلة. وصلت الشمس أخيرًا إلى مكانٍ لم تعد النافذة تستطيع التقاط أشعتها. فشعر ماركوس بالحرارة تنزاح من كتفه، فأرادها أن تعود.

قضى ماركوس ما تبقى من ذلك العام الدراسي وهو يتجنّب أطروحته. لم يعد يرى جدوى منها. كان قد حصل على منحةٍ للذهاب إلى «بيرمنغهام» كي يرى ما تبقّى من «پرات ستي». ذهبت معه مارجري، ولم يجدا هناك سوى رجل عجوز ضرير، وربما مجنون، زعم أنه كان يعرف الجدّ الأكبر لماركوس (اتش) حين كان صبيًا. قالت له مارجري حين خرجا من عند الرجل: «يمكنك أن تكتب بحثك عن پرات سِتي. تبدو بلدةً مثيرة للاهتمام».

ما إن سمع الرجل صوت مارجري حتى قال إنه يريد أن يلمسها. كانت هذه طريقته لمعرفة الأشخاص. أخذ ماركوس ينظر في دهشة، وحَرَج، إذْ إنها تركتْ الرجل يمرّر يديه على ذراعيها إلى وجهها، وكأنه يقرأها. ما يدهشه فِعلا هو قدرتها على الصبر. ففي الوقت القصير الذي عرفها فيه كان يجزم أنّ لديها صبرًا كافيًا تجتاز به أيّ عاصفة. في بعض الأحيان كانا يدرسان معًا في المكتبة، فيراقب أطراف عينيها وهي تلتهم الكتاب تلو الكتاب، تلو الكتاب. كانت تجري بحثًا في الأدب الإفريقي والأميركي-الإفريقي. وحين سألها عن سبب اختيارها هذا الموضوع قالت إنّ هذه الكتب هي التي تشعر بها في أعماقها. في الوقتِ الذي كان الرجل الضرير يتلمّسها، كانت تنظر إليه في صبر، كما لو أنه وهو يقرأ بشرتها، كانت هي أيضًا تقرأه.

قال ماركوس: «الفكرة ليست هنا».

- أين الفكرة يا ماركوس؟

توقفتْ عن المشي. كانا يقفان على قمةٍ ما كان ذات يومٍ منجم فحم، مقبرةً لكلّ المدانين السود الذين أُرسلوا للعمل هناك. أن تبحث في موضوعٍ شيء، وأن تكون عشته شيء آخر تمامًا. كيف يمكنه أن يشرح لمارجري أنّ الذي يريد تحقيقه من مشروعه هو الإحساس بالزمن، بأنك جزء من شيءٍ يعود إلى زمن طويلٍ جدًا. كان هذا الشيء كبيرًا للغاية، حتى أنه من السهل نسيان أنها وهو والجميع موجودون فيه. ليسوا منفصلين عنه، وإنما داخله.

كيف يمكنه أن يشرح لمارجري أنه لم يكن مفترضًا به أن يكون حيث هو الآن، حيًا وحُرًّا. أنّ ولادته، وعدم وجوده في زنزانةٍ ما، ليس بسبب اجتهاده، وليس بسبب العمل الشاق، أو الإيمان بالحلم الأميركي، وإنما لمجرّد الصدفة. كيف يقول لها إنه لم يعرف قصة جدّه الأكبر (اتش) إلا من ماه وِلي، لكنّ تلك الحكايات كانت تكفي لتثير بكاءه، وتثير شعوره بالفخر. كانوا يسموّنه «اتش ذا المجرفتين». ولكن ماذا كانوا يسمّون أبيه، أو والد أبيه من قبله؟ وماذا عن الأمهات؟ كانوا جميعًا نتاجًا لزمانهم. وماركوس الذي يمشي في بيرمنغهام الآن إنما هو تراكم لتلك الأزمان. هذه هي الفكرة.

لكنه بدلًا من هذا كله قال لها: «هل تعرفين لماذا أخاف من المحيط؟».

هزّت رأسها نفيًا.

- ليس لأنني أخاف الغرق فقط، رغم أنني أخافه فعلًا كما أظن. بل بسبب كل ذلك الفضاء الممتد. لأنني حين أنظر في كل مكانٍ أرى الزرقة، ولا أعرف أين تبدأ. حين أكون هناك أقف قرب الرمل، لأنني على الأقل أعرف أين تنتهي.

صمتت لوهلة، واستمرت في المشي أمامه قليلًا. ربما كانت تفكّر في الشيء الذي قالت له إنها تخاف منه: النار. لم يرَ ماركوس صورة أبيها، لكنه كان يتخيّله رجلًا مخيف المنظر بتشوّه يغطّي جانبًا كاملًا من وجهه. وخطر له أنّ مارجري كانت تخاف النار للأسباب نفسها التي تدعوه إلى الخوف من الماء.

توقّفت مارجري عند عمود إنارةٍ يومض مصباحُه وينطفئ. «أراهن أنك

ستحبّ شاطئ كيپ كوست. إنه جميل، لا يشبه أي شيء قد تراه في أميركا».

ضحك ماركوس: «لا أعتقد أنّ أحدًا من عائلتي غادر البلاد من قبل. ولا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله في رحلة طيارةٍ طويلة كهذه».

- غالبًا، تنام.

كان متلهفًا إلى الخروج من «بيرمنغهام». لقد انقضت «پرات ستي» منذ زمن طويل، ولم يكن ليجد ما يبحث عنه في حطام ذلك المكان. ولم يكن يعرف إن كان سيجده أبدًا.

قال لمارجري: «حسنًا. لنذهب».

***

«من فضلك، سيدي! تريد الذهاب لترى قلعة العبيد؟ سآخذك إلى قلعة كيپ كوست. عشرة سِدي يا سيدي. فقط عشرة سِدي. سآخذك لترى قلعة جميلة».

جرّته مارجري عبر موقف «التروترو»، وهرعت به إلى سيارة أجرة تأخذهما إلى المنتجع في الشاطئ. كانا قبل أيامٍ في «إجيسو» لتحية المكان الذي وُلد فيه أبوها. وقبل سويعات كانا في «تاكردي» يفعلان الشيء نفسه للمكان الذي وُلدت فيه أمّها.

كلّ شيءٍ كان برّاقًا هنا، حتى الأرض. في كلّ مكان ذهبا إليه كان ماركوس يرى تربةً حمراء لامعة، يمتلئ بها جسمه في نهاية اليوم. والآن في كيپ كوست ثمة رمل سوف يختلط بها.

«لا تكترث لهم». قالت له مارجري وهي تدفعه أمام مجموعة من الأولاد والبنات الذين كانوا يحاولون إغراءه لشراء شيء، أو للذهاب إلى مكان.

أوقفها ماركوس: «هل رأيتِها من قبل؟ القلعة؟».

كانا في وسط شارع مزدحم، والسيارات تنعق بأبواقها التي ربما لم تكن موجّهة لهما فقط، بل للعديد من الفتيات النحيفات اللائي يضعن الدلاء على

رؤوسهن، أو الصبية الذين يبيعون الجرائد، أو الجميع. دولةٌ كاملة لها بشرة مثل بشرته، يتدافع أهلها هنا وهناك، مما يجعل السياقة أمرًا شبه مستحيل. مع ذلك، فقد وجدا طريقة للمرور.

شدّت مارجري على حزامَي حقيبتها، وسحبتهما بعيدًا عن جسمها. «لا، في الحقيقة لم أزرها أبدًا. هذا ما يفعله السيّاحُ السودُ حين يأتون إلى هنا». رفع حاجبه في استغراب، فقالت: «تعرف ماذا أقصد».

- طيب، أنا أسود.. وسائح.

تنهّدت مارجري ونظرت إلى ساعتها، رغم أنهما لم يكونا مضطرَين للذهاب إلى مكانٍ ما. لقد أتيا من أجل الشاطئ، وأمامهما الأسبوع بأكمله. « حسنًا، حسنًا. سآخذك إلى هناك».

استقلّا سيارة أجرة إلى المنتجع كي يضعا أغراضهما. هناك، من الشرفة التقط ماركوس أول نظرة حقيقيّة له إلى الشاطئ. بدا له ممتدًا لأميالٍ وأميال. أما أشعّة الشمس فكانت تتقافز على الرمل فتجعله يلتمع. الرملُ مثل الماسات في هذا الساحل الذي كان ساحل الذهب.

ربما لم يكن هناك شخص واحد يمشي عند القلعة في ذلك اليوم، إلا بضعة نسوة تجمّعن حول شجرة قديمة، يأكلن المكسّرات ويجدّلن شعور بعضهنّ. نظرت النسوة إلى ماركوس ومارجري وهما يصعدان مشيًا، دون أن يتحركن، فبدأ ماركوس يتساءل في نفسه ما إذا كان الذي يراه حقيقةً. لئن كان هناك مكانٌ يمكن أن تصدقّ بأنه مسكون، فهذا هو. من الخارج كانت القلعة بيضاء متوهّجة. لها لونٌ أبيض ناصع، كما لو أنها فُركت فركًا لكي تلمع. وتساءل ماركوس في نفسه عمّا يمكن أن يجعله يلمع هكذا، ولأي سبب. حين دخلا القلعة بدأت الأشياء تبدو أقل نظافة. هناك، ذلك الهيكل القذر لعارٍ من الماضي البعيد، بدأ يتجلّى في الإسمنت المسودّ، والأبواب ذات المفاصل الصدئة. سرعان ما اقترب منهما رجل طويل شديد النحافة كأنه مصنوع من شريط مطاطيّ ممدود، مع أربعة أشخاص سجّلوا للجولة السياحية.

قال الرجل شيئًا ما لمارجري باللغة الفانتيّة، فتحدثت إليه بلغةٍ تويّةٍ متقطّعة واعتذارية كانت تتحدث بها طوال ذلك الأسبوع.

أوقفها ماركوس وهم يمشون إلى صفّ المدافع الموجّهة صوب البحر: «ماذا قال؟».

- يعرف جدّتي. وقال لي **أكوابا**.

كانت تلك واحدةً من الكلمات القليلة التي تعلّمها ماركوس في زيارته هذه. «مرحبا». كان يسمعها من عائلة مارجري، ومن الغرباء في الشارع، وحتى من الرجل الذي فحص أوراقهما في المطار.

قال الرجل النحيف مشيرًا إلى مكانٍ في القلعة: «هناك كانت الكنيسة. فوق الزنازين مباشرة. يمكنكم أن تمشوا في هذا الطابق وتدخلون الكنيسة، ولن تعرفوا أبدًا ما يجري في الأسفل. في الواقع تزوّج العديد من الجنود البريطانيين من نساء محليّات، وكان أطفالهم يلتحقون بالمدارس هنا في الطابق العلوي مع أطفال آخرين محليين. وهناك أطفال آخرون يُرسلون إلى إنجلترا للتعلّم، فيعودون ليشكّلوا طبقةً من النخبة».

نقّلت مارجري قدميها في ضيق، وحاول ماركوس ألا ينظر إليها. كانت هذه هي الطريقة التي يعيش بها أغلب الناس في المستويات العليا، إذْ لا يتوقّفون للنظر إلى ما هو تحتهم.

وسرعان ما توجّهوا إلى الأسفل. هناك، في بطن هذا الوحش الكبير المتاخم للشاطئ. سخامٌ على الجدران لا يمكن إزالته. أخضر، ورماديّ، وأسود، وبنّي داكن، داكن جدًا. لا نوافذ. لا هواء.

قال المرشد أخيرًا وهو يقودهم إلى غرفةٍ كانت ما تزال تحتفظ بشيء من الرائحة: «هذه واحدة من زنازين الإناث. كانوا يحتفظون بما يصل إلى مئتين وخمسين امرأة هنا لثلاثة أشهر كلّ دُفعة. ومن ذلك الباب يُخرجونهن».

خرجوا من الزنزانة واتجهوا نحو الباب. كان بابًا خشبيًا مطليًا باللون الأسود، عليه لافتة كُتب عليه: **باب اللاعودة**.

- هذا الباب يفضي إلى الشاطئ، حيث كانت تنتظر السفن لتأخذهم بعيدًا.

تأخذهم. هُم. دائمًا «هُم». لا أحد يسمّيهم بأسمائهم. لم يتكلم أحد من المجموعة، بل تسمّروا في أماكنهم منتظرين. لم يكن ماركوس يعرف ماذا ينتظرون. شعر فجأة بغثيانٍ في بطنه. أراد أن يكون في مكانٍ آخر، أي مكانٍ آخر.

لم يفكّر. اندفع نحو الباب وبدأ يدفعه. سمع المرشد وهو يطلب منه التوقف، ثم يصرخ في مارجري باللغة الفانتيّة. سمع مارجري أيضًا، وشعر بذراعها على يده، ثم شعر بيده تدفع وتدفع، ثم أخيرًا، كان الضوء.

راح ماركوس يجري إلى الشاطئ. هناك كان مئات الصيادين يعالجون شباكهم التركوازيّة البرّاقة. كانت هناك زوارق طويلة مصنوعة يدويًا على امتداد البصر. وكلّ زورق له علمٌ لا جنسية له، ولكل جنسية. كان هناك زورق بعلمٍ أرجوانيّ مرقّط إلى جانب علمٍ بريطاني، وعلم برتقالي محمرّ إلى جانب علمٍ فرنسي، وعلم غانيّ إلى جانب علمٍ أميركي.

جرى ماركوس إلى أن وجد رجلين ببشرةٍ داكنةٍ ملتمعة مثل لمّاع الأحذية. كانا يشعلان نارًا ساطعة لها لهيب يتقافز عاليًا، ويزحف نحو الماء. يطبخان سمكًا على النار، وحين أبصراه توقّفا، يحدّقان فيه.

يسمع الآن خطوات أقدامٍ خلفه قبل أن يراها. صوت الأقدام تضرب الرمل، صوت خفيفٌ مكتوم. وقفتْ على مبعدةٍ منه، وحين تكلّمت كان صوتها بعيدًا تحمله الرياح المحمّلة بملح البحر.

هتفت مارجري: «ماذا بك؟». ظلّ يحدّق في الماء. كان الماء في كلّ اتجاه تصل إليه عيناه. قفزت رشّة من الماء على قدميه، تهدّد بإطفاء النار القريبة.

استدار إليها أخيرًا لينظر إليها: «تعالي». أرسلت نظرةً سريعة إلى النار، فتذكَّرَ خوفها. قال مرة أخرى: «تعالي. انظري هنا». تقدّمت قليلًا، ثم توقفت مرةً أخرى حين رأت النار تجأر في الهواء.

قال لها وهو مؤمن بما يقول: «لا تخافي». مدّ يده إليها: «لا تخافي».

مشت إلى المكان الذي كان واقفًا فيه، حيث التقاء النار بالماء. أخذ يدها وكلاهما ينظر إلى لجّة الماء. كان الخوف الذي شعر به ماركوس داخل القلعة لا يزال رابضًا، لكنه أدرك أنه مثل النار، شيء جامحٌ يمكن التحكم به، واحتواؤه.

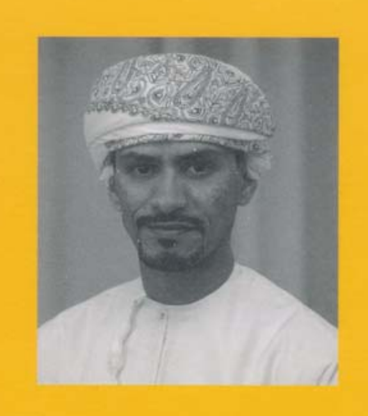
تركت مارجري يده. نظر إليها وهي تجري، عجلى، إلى الأمواج الضاربة. رآها تقفز في الماء إلى أن فقد أثرها، ولم يستطع إلا أن ينتظر خروجها. حين خرجت نظرت إليه، ذراعاها تتحرّكان في دوائر، فعرف ما تريد دون أن تتكلم. كان دوره الآن أن يأتي إليها.

أغمض عينيه، ومشى إلى أن وصل الماء إلى ربلة ساقيه. حبس أنفاسه، وبدأ يجري، يجري داخلًا الماء. سرعان ما تحطّمت الأمواج عند رأسه وجنبيه. دخل الماء إلى أنفه، ووخَزَ عينيه. وحين رفع رأسه أخيرًا من البحر لكي يسعل، ثم يتنفّس، نظر إلى كلّ ذلك الماء أمامه، في الامتداد الشاسع للزمان والمكان. تناهى إلى سمعه صوت مارجري وهي تضحك، فضحك هو أيضًا. حين وصل إليها أخيرًا، كانت تتحرك بما يكفي لتبقي رأسها فوق الماء. التصقت قلادةُ الحجر الأسود في نحرها، فرأى ماركوس بريق الذهب ينعكس منها، في لمعةٍ تحت الشمس.

قالت له مارجري: «هاك. خذها». نزعت القلادة، ثم وضعتها حول رقبة ماركوس. «مرحبًا بعودتك».

شعر بالحجر يخبط صدره، صلبًا ساخنًا، قبل أن يرتفع إلى السطح مرة أخرى. لمسه، وهو مشدوه من وزنه.

فجأةً رشّته مارجري بالماء، ضاحكةً بصوتٍ عال، قبل أن تسبح مبتعدةً، إلى الساحل.



أحمد حسن المعيني، مترجم عماني حاصل على دكتوراه في الترجمة، ويُحاضر في جامعة صُحار. في حصيلته ما يربو على 14 كتابًا مترجمًا، منها (ملوك النفط) و(براهمة العالم المنبوذون) و(علي شريعتي: سيرة سياسية).



وُلدت **يا جسِي** (Yaa Gyasi) في غانا ونشأت في «هَنتسفِل» بولاية «ألاباما». تحمل شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية من جامعة «ستانفورد»، وشهادة الماجستير في الفنون الجميلة من «ورشة الكتّاب في آيوا»، حيث حصلت على زمالة بحثية. تعيش الآن في «بيركلي» بولاية «كاليفورنيا».



إنها غانا القرن الثامن عشر: أختان وُلدتا في قريتين مختلفتين دون أن تعرفا بعضهما. إحداهما تتزوج تاجر عبيد أبيض وتعيش مرتاحة في غرف قلعة كيب كوست الفارهة. بينما الأخرى تؤسَر خلال غزوة على قريتها لتُسجن في قبو القصر نفسه مع آخرين ليُباعوا عبيدًا إلى الإنجليز.

تتبع «عودة الروح» طريقين متوازيين لتلكما الأختين وسلالتيهما من الأحفاد عبر ثمانية أجيال: من ساحل الذهب إلى عصر الجاز في هارلم، راسمة خريطة تامّة للمصائر لم يسبق لها مثيل.



فاز ت بجائزة Hemingway من مؤسسة PEN العالمية

إحدى أفضل روايات العام في قوائم نيويورك تايمز، ونادي أوبرا للقراءة، ومجلة تايم، ومجلة إسكواير، وصحيفة غارديان، وصحيفة واشنطن بوست.

«مُترعة بالمشاعر.. وهبت جيسي صوتًا بطوليًا نادرًا للمنسيّين والمقموعين...»
NPR

«تصوّر الثقل الروحي للتاريخ وهو يتخلّل صراعات الفرد وآماله ومخاوفه...»
Phil Klay

Designer: Peter Mendelsund


ISBN 978-9948-24-739-5
9 789948 247395

